

الْقِيَامُ

مَشَاهِدُهَا وَعِظَاتُهَا
فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

الدكتور محمد أويب صالح

المجلد الأول

المكتب الإسلامي

الْقِيَامُ

مَسَاهِدَهَا وَعِظَاتُهَا

فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ



الدكتور محمد أريب صالح

الْقِيَامُ

مَشَاهِدَهَا وَعِظَاتُهَا
فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

الْجُزْءُ الثَّانِي

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

المكتبة الإسلامية

بيروت : ص.ب. : ١١/٣٧٧١ - رقيقاً : إسلامياً - تلخيص : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب. : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١٦٣٧
عمّان : ص.ب. : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على معلم الناس الخير سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحابه ومن اتبع هداه إلى يوم اللقاء .

هذه كلمات، أرجو من خلالها أن أذكر نفسي الوانية المقصرة وإخواني؛ بما ورد في نصوص السنة المطهرة - والسنة بيان الكتاب العزيز - من أخبار الهدى في شأن ما يكون بعد الموت ، وفي شأن يوم القيامة ، يوم الميعاد الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين ، وما ورد عن بعض العلماء العاملين ، والأتقياء من سلف هذه الأمة في ذلك .

ولئن كانت الحاجة قائمة أبداً ، إلى تذكير المؤمن بهذا الركن من أركان الإيمان، كيما يصدق في مراقبة الله عز وجل، ويشعر أن الوقوف بين يدي الله يوم الحساب كائن لا محالة ، يسأله فيه ربه عن النقيز والقطمير !! إن الحاجة تبدو اليوم - وقد اجتاحت المادية الطاغية كثيراً من مجتمعات المسلمين ، ورائت الغفلة على القلوب - ضرورة ملحة ؛ فإن في ذكرى ما بعد الموت واليوم الآخر ، شحذاً للعزائم الواهنة، ودفعاً إلى استقامة السلوك ، وتأصيلاً للمحور الذي تتحرك عليه حياة المسلم من بُعدٍ عن الغفلة ، ويقين بما جاء عن الله وعن رسوله عليه الصلاة والسلام .

فمهما طال الأمد في الدنيا ، واستطاع المرء أن يغير ويبدل ، فيسيء هنا ويتجاوز هناك ، دونما رقيب من البشر أو عتيد ؛ فإن الله الذي يعلم السر وأخفى ، والذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، سيقفه بين يديه بعد بعث العباد من القبور ، ويسأله عما اجترحت يده ، وعما كسب في حياته الدنيا ؛ ذلكم

قول الله سبحانه : ﴿ وقفوههم إنهم مسؤولون ﴾ ذلك بأن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء ؛ يقول الله تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ ولذلك أمر النبي ﷺ أن يُقسم على وقوع البعث بعد الموت والجزاء ، بعد أن قضى سبحانه بهما وأنها كائنات لا محالة ، فقال جل شأنه : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بل يلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ .

من أجل هذا : كانت هذه الحقيقة الكبرى التي هي حق اليقين ، ركناً من أركان الايمان ، فلا يكون المؤمن مؤمناً ، إلا باعتقاد أن يوم القيامة واقع - بمشيئة الله - لا ريب فيه ، حيث يجزى الناس بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، روى الترمذي بسنده عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من رجل إلا سيكلمه ربه يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه ، فلا يرى شيئاً إلا شيئاً قدمه ، ثم ينظر تلقاء وجهه فتستقبله النار ، قال رسول الله ﷺ : من استطاع أن يقي وجهه حر النار ولو بشق تمره فليفعل » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وهذا الإجمال الذى نراه في شأن المسؤولية - على عمومها - حيث ينحسر عن العبد ، ما كان له من أولياء ونصراء في الدنيا ، وتنصرف من طريقه الأسباب المعتبرة هناك ، فلا يرى هنا - وربّه يكلمه ليس بينه وبينه ترجمان - إلا شيئاً قدمه من العمل - هذا الإجمال ورد تفصيله من بعض الوجوه ، فيما أكرم الله الأمة من بيان الرسول عليه الصلاة والسلام . فقد جاء في الحديث من رواية أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا نزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيم فعل ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه » . أخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

أرأيت إلى هذه المسؤولية !! كم هي متسعة الأسباب ، رحبة الجنبات ، سؤال العبد عن عمره فيم أفناه ، وسؤاله عن علمه ماذا عمل به ، وسؤاله عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفق ، وسؤاله عن جسمه فيم أبلاه .

تري : هل ينكر منصف ، ما يتركه استشعار هذه المسؤولية - بشعبها المتعددة كما تبدو في هذا الحديث - من آثار طيبة بناءً في كيان الفرد والجماعة ؟ فالوقت ، والعلم ، والمال ، والجسم ؛ كل أولئك - بلا استثناء - يقف هذا العبد مسؤولاً عنه يوم القيامة ، والتهاون في شأن أي واحد منها ، مدعاة للمؤاخذة من الله تبارك وتعالى .

وما أجمل أن يأخذ المؤمن نفسه - وهو لبنة صالحة في جسم الجماعة - بالسلوك الذي يباعد بينه وبين العقاب يوم القيامة ، بالإضافة إلى العمل بالضوابط السليمة الخيرة في الدنيا .. وذلك ما يعود بأفضل الثمرات على الأمة في الدنيا ويوم الدين .

هذا : وهنالك رواية للحديث بنحو ما رأينا ، ولكن للعلماء في واحد من رواها مقالٌ جاء من قبل حفظه ، ذلكم ما روى الترمذي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفق ، وماذا عمل فيما علم » .

وأنت ترى أن في نصوص السنة المطهرة ، ما يحدد جزئية من الجزئيات ، يصل الأمر على ساحة المسألة من الله تبارك وتعالى ، أن يسأل عبده المسلم عنها : قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا أبو سلمة قال : أنبأنا سليمان بن بلال عن عبد الله بن عبد الرحمن عن نهار العبدي أنه سمعه يحدث عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال : « إن الله تبارك وتعالى ليسأل العبد يوم القيامة ، حتى إنه ليسأله يقول : أي عبدي رأيت منكراً فلم تنكره ، فإذا لقن الله عبداً حجته قال : يارب وثقتُ بك وفرقت من

« الناس » وذلك ما روى ابن ماجه أيضاً عن أبي سعيد أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تبارك وتعالى ليسأل العبد يوم القيامة ... »

وإني مقدم للقارئ الكريم في ضوء تلك الحقائق ، صفحات زاخرة بالمشاهد والعظات التي تملئها النصوص ، وهي صفحات أذيعت من بضع سنوات من إذاعة القرآن الكريم بالرياض ، ولم أذكر وسعاً في التأصيل - قدر المستطاع - واستلهم ما تنطق به تلك المشاهد من عظات لا بد أن تعمل عملها على صعيد السلوك في هذه الدار ، وما تملي من وثيق العلاقة بين الدنيا والآخرة ، بين العمل وتحمل المسؤولية هنا ، وبين الجزاء الآوفي هناك ، وحيث يبدو الإيمان الصادق بما يكون بعد الموت ، ويوم القيامة ، وما يمكن أن تكون عليه العاقبة هناك مقسوماً جذرياً من مقومات الاستقامة والصلاح والإصلاح في الدار العاجلة ، مهما تشعبت المسالك وتنوعت الميادين ، وهذا ما حرصت على بيان بتوفيق الله تعالى ، مصطحباً بضاعتي المزجاة.

اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا واغفر زلاتنا ، حتى نلقاك راضياً عنا بمنك وكرمك .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا المصطفى صاحب المقام المحمود والخوض المورود وعلى آله وصحابه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

الإيمان باليوم الآخر

من المسلمات عند المسلم، أن الإيمان باليوم الآخر، ركن من أعظم أركان الإيمان بعد الركن الأول، وهو الإيمان بالله عز وجل، وسمي اليوم الآخر كذلك - كما يقول علماءنا - لأنه آخر أيام الدنيا، أو آخر الأزمنة المحدودة، والمراد بالإيمان به: التصديق بما يقع فيه من الحساب والميزان والجنة والنار، وقد وصف الله المتقين بقوله: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ فهم يوقنون بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان....

وإنها حقيقة لا يداخل المؤمن إشارة من الريب في وقوعها. وقد أقسم الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ فاللام في «ليجمعنكم» موطئة للقسم - وقوله جل شأنه: ﴿لا إله إلا هو﴾ خبر وقسم، أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، وذلك الجمع، يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله.

وهكذا يكون من أبرز سمات هذا اليوم، أنه اليوم الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين، حيث يسألهم الله ويميزهم بأعمالهم، ولا يظلم ربك أحداً.

وما من ريب في أن بعث الخلق ووقوفهم يوم العرض الأكبر أمام خالقهم ذي الجلال والإكرام؛ الذي يعلم كل نفس ما كسبت، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً.. ما من ريب في أن ذلك كله، من مظاهر العدل الإلهي والحكمة الربانية!! وإلا فكيف يستقيم في ميزان العقل السليم، أن يكون ما يكون من العباد في الدنيا، ثم لا يكون هناك يوم للجزاء، تقام فيه الموازين بالقسط، وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون. إن العدل الإلهي المطلق يقتضي ذلك، وهو كائن لا

محالة ، كما أخبر القرآن عنه في العديد العديد من المواطن ، وكما جاءت بذلك السنة المطهرة على لسان المبيّن عليه الصلاة والسلام .

من أجل هذا : يمكن القول بأن العقل السليم الذي لا يخضع صاحبه لسلطان الهوى ، ينادي بالإيمان بيوم القيامة ، لما أنه يوم الفصل ، وإعطاء كل ذي حق حقه بميزان عدل لا يجور ولا يعول ... حيث لا ينفع المنحرفين عن الجادة أعوان ولا سلطان ، ولا يقبل الله من أهل الضلالة المحاربين لله ورسوله والمؤمنين صرفاً ولا عدلاً ، ولا ينفع المعرضين عن شريعة الله - العادلين به الأوثان الحاكمين بغير ما أنزل الله - أولياؤهم من شياطين الإنس والجن ، ولا يغني عنهم ما كانوا يكسبون .

والناظر في السنة المطهرة - وهي بيان الكتاب العزيز - يقع على طائفة مباركة من النصوص ، لا تقتصر على الحديث عن يوم القيامة ، والحساب والصراف والجنة والنار ، وما إلى ذلك ، ولكنها تتناول قيام الساعة ، وما يكون قبلها من الأمارات ، كما تتحدث عن الموت وسؤال القبر ، وتدعو - ترغيباً وترهيباً - إلى ما يجب أن يكون عليه المؤمن ، حتى يكتب عند الله في عباده الصالحين الذين تدركهم رحمة الله من أول لحظة من لحظات الآخرة بعد الموت ، فيجدون اليسر في سؤال الملكين ، حيث يكون القبر عليهم روضة من رياض الجنة ، ويوم الحساب بعد أن يبعث الله الخلائق يؤتى الواحد منهم كتابه بيمينه ، ويكون - بفضل الله - ممن قال الله فيهم : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ﴾ ، حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ .

وإنما كان ذلك في الهدى النبوي - والله أعلم - لما أن الموت هو المرحلة الأولى إلى عالم الآخرة ، كالذي نقرأ في قوله تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ .

والعلاقة - على هذا - وثيقة بين يوم القيامة ، وبين الموت وما يكون بعده ، بين يدي الساعة . وهذا مانجد الكلام عليه مفصلاً في حديث النبي ﷺ الذي لم يدع - وهو المبلغ عن ربه المبين كتابه - طريقاً من طرق الخير ، إلا دل الأمة عليه ، ورغب به ولا طريقاً من طرق الشر ، إلا رغب عنه وحذر منه .

وإلى أن نلتقي على هذا التفصيل الذي أومئ إلىه على صفحات قادمات في حديث النبي عليه الصلاة والسلام عما بعد الموت ، وعن يوم القيامة ومشاهده وما تزرخ به من العظات ، أجد من الخير أن أذكر بما ورد عنه ﷺ بشأن الإيمان باليوم الآخر ، وكيف أنه ركن ركين من أركان الإيمان . فقد روى مسلم بسنده عن عمر رضي الله عنه قال :

« بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد » حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبته إلى ركبته ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت ، قال : فمعجبنا له ، يسأله ويصدق .

قال فأخبرني عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرني عن الساعة ، قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أماراتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان . قال : ثم انطلق فلبث ملياً ، ثم قال لي : يا عمر ، أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . »

وجاء في رواية البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : « كان النبي

ﷺ بارزاً يوماً للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان ، أن تؤمن بالله ،
وملائكته ، وكتبه ، وبلقائه ، ورسله ، وتؤمن بالبعث ... » الحديث .

اللهم ثبتنا على هذا الإيمان ، وشرح — بفضلك ورحمتك — صدورنا للعمل
بمقتضاه ، واحشرنا يوم اللقاء في زمرة من قلت عنهم في كتابك الكريم : ﴿ الذين
آمَنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ . ولك الحمد على
كل حال .

لقاء الله حق اليقين

الإيمان باليوم الآخر .. هذا الركن العظيم الذي يأتي بعد الإيمان بالله - وكل أركان الإيمان خيرٌ وهدى - مابد من إطالة الرحلة معه بالقدر الذي يتسع له المقام، طلباً للنجاة يوم القيامة ، وسعيّاً وراء مايجب عمله في هذه الدار العاجلة من أجل ذلك . والعهد قريب بحديث الإسلام والإيمان والإحسان الذي أوردته من رواية مسلم، وأوردت بعضه من رواية البخاري والذي جاء في شأنه قول القاضي عياض رحمه الله : (اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة و الباطنة « من عقود الإيمان ، و أعمال الجوارح ، ومن إخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال ، حتى إن علوم الشريعة كلّها راجعة إليه ومتشعبة منه) والذي يعنينا بادىء ذي بدء ، أن الإيمان باليوم الآخر وما ينطوي عليه من أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن القيامة لا بد أن تقوم ، وأن ذلك حق اليقين ، قد عدّ في هذا الحديث ركناً من أركان الإيمان ، لا تصح عقيدة المؤمن إلا به ، - وقد وضح ذلك في سؤال جبريل عليه السلام - وقد جاء يعلم الناس أمر دينهم - رسول الله ﷺ عن كليب من الإسلام . والإيمان ، والإحسان ، فكان من جواب الرسول عليه الصلاة والسلام - كما جاء في رواية عمر رضي الله عنه عند مسلم عن قول جبريل : فأخبرني عن الإيمان - قوله صلوات الله وسلامه عليه « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » وقال جبريل : « صدقت » .

وهكذا يكون هذا الكلام الطيب الميمون - كما جاء في صحيح مسلم من رواية عمر رضي الله عنه - نصاً قاطع الدلالة ، مؤكداً ومقرراً ما جاء في القرآن الكريم ، من أن يوم القيامة من الحقائق اليقينية التي ما بدّ من أن تكون من المسلّمات في عقل المؤمن وقلبه ، وأنها من المعلوم من الدين بالضرورة ؛ فالناس

لا بد مبعوثون من قبورهم ، بقدرة الذى أنشأ الخلق أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ، وواقفون يوم الحشر بين يديه سبحانه ، يُعرضون لا تخفى منهم خافية ، حيث يجد كل إنسان ما قدّم ، فيجزى بالإحسان إحساناً ، وبالإساءة غير ذلك ، ولا يظلم ربك أحداً ، وأنه ما بعد هذه الدنيا الفانية دار ، إلا الجنة أو النار ؛ فليتق الله امرؤ في نفسه وفيمن ولاه الله أمرهم ، وليعمل على التزود لذلك اليوم الذى يحشر الناس فيه حفاة عراة غرلاً ، والذى لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ولا يخفى على ذي بصيرة أضاءت قلبه بشاشة الإيمان ، أن خير زاد لذلك اليوم الذى تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، إنما هو تقوى الله في الشؤون كلها سرّاً وعلانية ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب ﴾ . أقول هذا غير ناس أن اليوم الآخر ، هو من الموت إلى آخر ما يقع يوم القيامة ، وقد وُصف بأنه الآخر – كما يقول العلماء ، – لأنه آخر أيام الدنيا ، أو آخر الأزمنة المحدودة ، أو لأنه لا ليل بعده ، ولا يقال يوم إلا لما لا يعقبه ليل ؛ والإيمان به : تصديق جازم بوجوده وبما يقع فيه ؛ من سؤال الملكين ، ونعيم القبر وعذابه ، والجزاء ، والبعث ، والحساب والميزان ، والصراط ، والجنة وما أعدّ الله فيها للمؤمنين ، والنار وما أعدّ الله فيها للكافرين الجاحدين .. وغير ذلك مما بينه علماؤنا رحمهم الله ، أخذاً من النصوص في كتاب الله ، وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

هذا: وعند النظر في رواية البخاري - كما جاءت في الجامع الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه - نجد ما يدعو إلى التذكير بنصها حرصاً على تبين ما تدل عليه اللفظة المتعلقة بالإيمان باليوم الآخر الذي هو من أهم أركان الإيمان بعد الإيمان بالله . ففي كتاب الإيمان من الجامع الصحيح جاء قول الإمام البخاري «باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة،

وبيان النبي ﷺ - ثم قال : جاء جبريل عليه السلام يعلمكم دينكم، فجعل ذلك كله ديناً، وما يَئِنَّ النبي ﷺ لو فد عبد القيس من الإيمان ، وقوله تعالى : ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ - ثم قال رحمه الله : حدثنا مسددٌ قال : حدثنا اسماعيل بن إبراهيم قال : أخبرنا أبو حيان التيمي عن أبي زُرعة عن أبي هريرة قال : « كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس ، فأناه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ، ورسله وتؤمن بالبعث . قال : ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة ، وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان ، قال : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك... إلى أن قال : ثم أدبر فقال : رُدوه ، فلم يروا شيئاً فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم». قال أبو عبد الله : جعل ذلك كله من الإيمان.

والمراد بـ «أبي عبد الله» هنا : المؤلف - وهو الإمام البخاري . وقوله « جعل ذلك كله من الإيمان» يعني الإيمان الكامل المشتمل على هذه الأمور كلها .

وأنت ترى أن في هذه الرواية نصاً على الإيمان بقاء الله ، وقد وقعت لفظة «وبلقائه» هنا بين الكتب والرسل وكذا لمسلم - كما يقول الحافظ ابن حجر - من الطريقتين ، ولم تقع في بقية الروايات، ورأى البعض أنها مكررة لأنها داخلية في الإيمان بالبعث ، ولكن الحافظ رد ذلك فقال : والحق أنها غير ذلك ، فقل : المراد بالبعث القيام من القبور ، والمراد باللقاء ما بعد ذلك ، وقيل : اللقاء يحصل بالانتقال من دار الدنيا ، والبعث بعد ذلك .. ولنا عودة إلى هذا النص إن شاء الله، نستجلي من خلاله ما يزيد اليقين بوجود اليوم الآخر، وقيام الناس لرب العالمين ، حيث يحشرهم الله جميعاً ويضع الموازين القسط ليوم القيامة . وهناك توقُّ كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . وإني داعٍ بما يدعو به أولو الألباب : ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فكنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار﴾ .

وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ

كان من عناية العلماء بفقه حديث النبي عليه الصلاة والسلام ، التدقيق في دلالة لفظة ما ، وردت في النص عند فلان ، ولم ترد عند فلان ؛ ومن ذلك ما جاء من كلامهم على لفظة « ولقائه » التي وردت في رواية البخاري من حديث « الإسلام والإيمان والإحسان » ، وذلك في قول النبي عليه الصلاة والسلام جواباً لجبريل عليه السلام : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث ... » الحديث .

وقد أوردت من قبل كلام الحافظ ابن حجر ، وما نقل عن بعض العلماء في ذلك ، من أنها مكررة لأنها داخلة في الإيمان بالبعث ، وهو البعث بعد الموت . وقد ساعد على هذا الاتجاه - كما يبدو - أنها توسطت بين الكتب والرسل ، وتلا ذلك كله قوله عليه الصلاة والسلام : « وتؤمن بالبعث » غير أن الذي يطمئن إليه القلب ما ذهب إليه الحافظ ابن حجر واستظهره ، من أنها غير مكررة ، لأن معنى لقاء الله هنا مختلف عن معنى البعث ؛ فالإيمان به تعالى . مضاف إلى الإيمان بالبعث بعد الموت ؛ إذ قيل : إن المراد بالبعث : القيام من القبور ، وباللقاء : ما بعد ذلك « حيث القيام بين يدي رب العالمين للمساءلة ، وما يترتب عليها . ولم يدع رحمه الله أن يورد ما قيل من أن اللقاء يحصل بالانتقال من دار الدنيا ، أما البعث : فيكون بعد ذلك ، ويدل على هذا رواية مطر الوراق التي جاء فيها « وبالبعث بعد الموت » وكذا في حديث أنس وابن عباس .

وتجدر الإشارة هنا ، إلى أن الإمام أبا سليمان الخطابي رحمه الله ذهب إلى أن المراد باللقاء في قوله صلى الله عليه وسلم : « ولقائه » : رؤية الله عز وجل . وقد تعقبه الإمام النووي رحمه الله بأن أحداً لا يقطع لنفسه برؤية الله المختصة بمن

مات مؤمناً ، والمرء لا يدري بم يختم له ، فكيف يكون ذلك من شروط الإيمان ؟
وأجيب عن كلام الإمام النووي : بأن المراد الإيمان بأن ذلك حق في نفس الأمر .
قال صاحب فتح الباري : (وهذا من الأدلة القوية لأهل السنة في إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة ؛ إذ جعلت من قواعد الإيمان) .

ومما هو جدير بالملاحظة ، ما نرى في هذه الرواية عند الإمام البخاري من قول النبي ﷺ وهو يبين أركان الإيمان « وتؤمن بالبعث » وفي رواية أخرى في التفسير « وتؤمن بالبعث الآخر » بزيادة كلمة الآخر . وقد رأينا من قبل أن رواية الإمام مسلم في حديث عمر رضي الله عنه « واليوم الآخر » .

أن يبعث الله من في القبور : حقيقة يصدق المؤمن جازماً بوقوعها ، وهي أمر هين بجانب قدرة الله تعالى على النشأة الأولى ، وعلى خلق السماوات والأرض وما فيهن ، روى ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن العاصي بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتته بيده ثم قال لرسول ﷺ : أحيي الله هذا بعد ما أرى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم يميئك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم » قال : ونزلت الآيات من آخر « يس » . وقال مجاهد وعكرمة وعروة ابن الزبير والسدي وقتادة : جاء أبي بن خلف إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « نعم يميئك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار » ونزلت هذه الآيات من آخر سورة « يس » ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ، قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ... ﴾ الآيات .

ولكن ما الذي يعنيه الوصف بالآخر في هذه الرواية عند البخاري في التفسير - من تفسير سورة لقمان حيث جاء فيها - كما مر آنفاً - « وتؤمن بالبعث الآخر » ؟
ذهب بعض العلماء إلى أن ذكر الآخر في قوله ﷺ : « وتؤمن بالبعث الآخر » جاء

للتأكيد كقولهم : أمس الزاهب، وقيل : لأن البعث وقع مرتين : الأولى الإخراج من العدم إلى الوجود ، أو من بطون الأمهات بعد النطفة والعلقة، إلى الحياة الدنيا، والثانية البعث من بطون القبور إلى محل الاستقرار ، وذهب بعضهم إلى أن الوصف بالآخر ، إما تأكيد : كأمس الدابر ، أو احتراز من غير الآخر ؛ لأنه إحياء بعد إماتة ، وقد كنا ميّتين قبل نفخ الروح فأحيينا بنفخها ، ثم متنا ثم أحيينا لسؤال الملكين ، ثم متنا ، ثم أحيينا للحشر ؛ فهذا هو الآخر . أما اليوم الآخر : فقيل له ذلك - كما أسلفنا - لأنه آخر أيام الدنيا . أو آخر الأزمنة المحدودة؛ وهو ما اتجه إليه الخافض ابن حجر في «الفتح» ، ومطلوب من كل مؤمن أن يعلم أن المراد من الإيمان باليوم الآخر: التصديق الجازم بما يقع فيه من الحساب والميزان والصراط والجنة والنار، وغير ذلك ، مما ثبت بالنصوص .

هذا : وقد استوقفت العلماء إعادة لفظة « وتؤمن » عند ذكر البعث ، وكأن الحكمة في تلك الإعادة - كما قالوا - الإشارة إلى أنه نوع آخر مما يؤمن به ، لأن البعث سيوجد بعد ، وما ذكر قبله بعد ذكر الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسول : موجود الآن ، وللتنويه أيضاً بذكره، لكثرة من كان ينكر من الكفار ، وهذا كثر تكراره في القرآن . وقد رأينا من قريب ما ذكر في سبب نزول الآيات الأواخر من سورة «يس» .

ومن الجدير بالملاحظة : أن رهبة القيامة « والخشية من العرض الأكبر » وما قد يترتب على ذلك أوقعت بعض الناس ممن كانوا قبلنا في شيء من اليأس، فحملهم ذلك على سلوك طريقة ، يحسبون أنها تحول دونهم ، ودون أن يعود أحدهم بشراً سوياً ؛ يسأل ويجزى بعمله ؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر . فقد روى الإمام أحمد بسنده أن عقبة بن عمرو أبا مسعود البصري قال لحذيفة رضي الله عنهما : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ ؟ فقال سمعته ﷺ يقول : « إن رجلاً حضره الموت ، فلما يس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا حطباً كثيراً جزلاً . ثم أوقدوا فيه ناراً ، حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي

فامتحشت ، فخذوها ، فذروها في اليم ، ففعلوا ، فجمعه الله تعالى إليه
ثم قال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك ، فغفر الله عز وجل له . « . وقد ورد
الحديث في صحيح البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة جاء في بعضها : « فأمر الله
تعالى البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ، قال له كن فإذا هو رجل
قائم ، قال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : مخافتك وأنت أعلم فما تلافاه أن
غفر له » .

امْتَحَشْتُ - أو أَمْتُحَشْتُ : احترقت ، والمحش احتراق الجلد وظهور العظم .

اللهم اجعل إيماننا باليوم الآخر سبيلاً إلى الاستقامة على الطريقة ، وحسن
التزود ليوم المعاد . وارزقنا مع الخوف من أليم عذابك ، الرجاء الصادق بسعة
رحمتك ، وجميل فضلك وإحسانك .

وصلى الله وسلم وبارك على إمام الهدى سيدنا محمد بن عبدالله ووفقنا لحسن
التأسي به ، كيما نكون يوم القيامة - إن شاء الله - من الناجين من النار ، الفائزين
بالجنة دار المتقين .

أول منازل الآخرة

لم يكن عجباً من العجب ، أن نرى في منهج علمائنا رحمهم الله ، إيراد النصوص الواردة في شأن الموت ، وما يكون في القبر من سؤال الملكين ، ثم ما يترتب على ذلك - وهم بصدد الحديث عن يوم القيامة وما فيه من أهوال ينخلع لشدها القلب ، ويشيب لها الوليد - وليس بدعاً - والأمر كذلك - أن يأخذني النظر فيما ورد في شأن ذلك اليوم العصيب يوم التناد ، وما يزرخ به من مشاهد تحفز المؤمن إلى الخوف والرجاء ، فيشدني إلى أن أذكر - بادئاً بنفسي - ولو ببعض من نصوص السنة الواردة في شأن ما يلقي العبد في القبر بعد الموت ، وما يكون من عاقبة كل من المؤمن والكافر ، وما كان من هدي النبي ﷺ وبيانه على هذه الساحة .

ذلك لأن الارتباط وثيق بين القبر وما يكون فيه ، وبين يوم القيامة ، وإنما كان الارتباط على هذه الصفة ، لأن القبر أول منزل من منازل الآخرة ، ومن مات فقد قامت قيامته الصغرى ؛ فإن نجا من القبر ، فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج : فما بعده أشد منه . وأصحاب النبي ﷺ الذين سمت بهم تربية النبي ﷺ إلى حيث يخشون ويخافون سوء الحساب ، عرفوا هذه الحقيقة ، فكانت تتحرك نفوسهم لها ، وتفيض أعينهم من الدمع مما يتهيئون من المصير بعدها . قال الترمذي : حدثنا هناد قال : حدثنا يحيى بن معين قال : حدثنا هشام بن يوسف عبد الله بن بحير أنه سمع هانئاً مولى عثمان قال : « كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبلّ لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتبكي من هذا ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ قال : إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه ، فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه ، فما بعده أشد منه ، قال : وقال رسول الله ﷺ : ما رأيت منظراً قط ، إلا القبر أفظع منه » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا

من حديث هشام بن يوسف ومعلوم أن هشام بن يوسف ثقة . قال ابن الأثير :
وزاد رزين : قال هانئ : وسمعت عثمان ينشد على قبر :

فإن تنج منها تنج من ذي عزيمة وإلا فإني لا إخالك ناجياً

والحق أن هذا الذي نرى من فعل عثمان رضي الله عنه ، يؤكد ما ينبغي
للمؤمن أن يكون عليه ، من ترقب يحمله على المزيد من العمل الصالح ،
والمسارعة إلى فعل الخيرات ، وتجنب كل ما يسخط الله ويؤدي إلى عذاب القبر ،
وذلك شرٌّ وبيل .

ولقد تأول العلماء هذا البكاء الشديد من عثمان رضي الله عنه ، عندما يقف
على قبر حتى يُبَلِّغَ لحيته ، مع أنه من العشرة المبشرين بالجنة ، بعدد من الوجوه؛
كان منها : أن شدة الفظاعة كانت تنسيه ذلك ، أو أن يكون صنيعه خوفاً من
ضغطة القبر ؛ فقد روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول
الله ﷺ : « إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجياً منها نجا سعد بن معاذ » .

على أن هذه الخصلة العظيمة في عثمان رضي الله عنه ، وهي الخشية من
عذاب الله ، تدل على مقدار ما وصل إليه من صفاء القلب ، والذوق الإيماني
والقرب من الله تعالى ، واستشعار عظمته ، وضآلة ما يمكن أن يقدمه العبد بين
يدي الله تعالى - وهو المنعم المتفضل - كما أن خصلة الخشية هذه ، لا تتعارض مع
الرجاء الكبير بفضل الله تعالى ورحمته ، كما لا تتعارض مع كون عثمان رضي الله عنه
من المشهود لهم بالجنة ؛ فهذا النوع من السمو الذي يكرم الله به من يشاء من
عباده ، لا يتجزأ ، ولا تراه يغيب هنا ويحضر هناك . وكونه - أجزل الله مثوبته - من
أولئك المبشرين رضي الله عنهم ، مدعاة لأن يكون أكثر شفافية وخشية من عذاب
الله الدال على سخطه والعياذ بوجهه سبحانه . وما من ريب في أن ذلك علامة
القرب من الله الذي أعد لأهل تقواه جنة عرضها السماوات والأرض ، فيها ما لا
عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول

- كما جاء في الحديث الصحيح - « عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله » .

هذا: وقد جاء في بعض نسخ الترمذي التي بين أيدينا (عبدالله بن بُجَيْر) بالجيم المفتوحة مصغراً ، والصواب - والله أعلم - (عبدالله بن بَحِير) بفتح الباء وكسر الحاء ، وهو ما نجده في رواية الحاكم النيسابوري وابن ماجه . فقد روى الحاكم أبو عبدالله النيسابوري في كتاب الرقاق من « المستدرک » بسنده عن هشام ابن يوسف قال : حدثنا عبدالله بن بَحِير قال : « سمعت هائناً مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول : رأيت عثمان واقفاً على قبر يبكي حتى بل لحيته ، فقيل له تذكر الجنة والنار ولا تبكي وتبكي من هذا ؟ قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه ، فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه ، فما بعده أشد منه ، وسمعت رسول الله ﷺ يقول : ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه » قال أبو عبدالله : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه - يعني البخاري ومسلماً ، وقال الذهبي في كتابه « التلخيص » صحيح .

وإذا كانت هذه الرواية ، تنقل إلينا وصف واقعة واحدة وقف فيها عثمان رضي الله عنه على قبر يبكي ، فإن رواية ابن ماجه تطابق رواية الترمذي التي رأينا من قبل ، من حيث التعميم ؛ فهي تفيد أنه رضي الله عنه كان إذا وقف على قبر بكى حتى تبل لحيته ، بمعنى أن ذلك كان ديدنه رضي الله عنه ، فكلما رأى قبراً كانت منه الخشية والدموع السخية ولفظ الرواية بالسند عن هانيء مولى عثمان قال : « كان عثمان بن عفان إذا وقف على قبر يبكي ، حتى تبل لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار ولا تبكي وتبكي من هذا ؟ قال : إن رسول الله ﷺ قال : إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر وإن لم ينج منه فما بعده أشد ، قال : وقال رسول الله ﷺ ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه » .

وهكذا تبدو العلاقة وثيقة ، بين ما يكون في القبر للعبد ، وبين ما يكون له

يوم القيامة » لأن العبد إن نجا من عذاب القبر ، كان ذلك مما يبشر بالنجاة الكبرى وأن ما بعده يوم القيامة أيسر منه ، وإن لم ينج من عذاب القبر - والعياذ بالله - كان ذلك نذير أن ما بعده يوم القيامة أشد منه .

اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القبر وعذابه، ونسألك أن تجعلنا ممن ينالهم فضلك وإحسانك . فيكون قبر الواحد منهم روضة من رياض الجنة » يا ذا الجلال والإكرام .

الميت.. وعرض مقعده بالغداة والعشي

حقيقة أن العلاقة وطيدة بين ما يحصل للميت في القبر ، وبين ما يمكن أن يحصل له يوم القيامة ، حقيقة من الواجب أن تأخذ مكانها الملائم في تصور المؤمن وسلوكه ، في ظل العبودية الصادقة لمولاه عز وجل ، والإيمان بسؤال القبر الذي هو أول منزلة من منازل الآخرة ، فمن مات فقد قامت قيامته الصغرى ، والنجاة من عذاب القبر ، معناها - والله أعلم - أن الأمر هين يسير في عرصات القيامة ، يوم يقف الناس لرب العالمين . أما إن وقع الميت في حماة عذاب القبر : فذلك عنوان ما هو أشد منه يوم الحساب ، نجانا الله من ذلك . يقول الرسول ﷺ كما روى الترمذي وابن ماجه والحاكم : « إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه ، فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه » وقد وقفنا هذه الروايات على الذي كان يعرفه عثمان رضي الله عنه من شدة البكاء حتى يبُلَّ لحيته ، عندما يرى القبر ، تحسباً من الوقوع في هذا الذي كشف عنه رسول الله ﷺ .

وإن مما يؤكد العلاقة بين ما يحصل في القبر للعبد ، وبين ما يكون له يوم القيامة « أن العبد إذا قبر ، عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ؛ إن كان من أهل الجنة ، فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار ، فمن أهل النار ، ويفسح للمؤمن في قبره سبعون ذراعاً ويملاً عليه خضراً إلى يوم يبعثون ، أما الكافر : فيضرب بمطارق من حديد ، ويضيق عليه في قبره حتى تختلف فيه أضلاعه .

قال الإمام البخاري : حدثنا إسماعيل قال : حدثنا مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم

القيامة » جاءت هذه الرواية تحت باب عقده رحمه الله لهذا ، عنوانه « باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي » وذلك في كتاب الجنائز من الجامع الصحيح . ورواه في بدء الخلق « باب ما جاء في صفة الجنة » وفي الرقاق « باب سكرات الموت » .

وروى الإمام مسلم بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ « إذا مات الرجل عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فالجنة وإن كان من أهل النار فالنار . قال : ثم يقال : هذا مقعدك الذي تبعث إليه يوم القيامة » والحديث رواه أيضاً مالك في الموطأ والترمذي والنسائي .

ويبدو - والله أعلم - أن الله يعطي الميت ما يحس معه بذلك الذي يمكن أن يكون في القبر ؛ فحين تكون الجنائز صالحة تقول : قدموني قدموني ، وحين تكون غير صالحة تقول : يا ويلها أين تذهبون بها . روى البخاري بسنده عن سعيد بن أبي سعيد عن أبيه أنه سمع أبا سعيد الخدري رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ : « إذا وضعت الجنائز فاحتملها الرجال على أعناقهم » فإن كانت صالحة قالت : قدموني قدموني ، وإن كانت غير صالحة قالت : يا ويلها أين تذهبون بها ؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق » وقد أورد البخاري هذا الحديث عقب الحديث السابق تحت باب كلام الميت على الجنائز من كتاب الجنائز ، وكان هذا مدعاة لأن يبين الحافظ ابن حجر رحمه الله - فيما نقله عن ابن رشيد - أن هذه الترجمة مناسبة للتّي قبلها ، كأنه - يعني البخاري - أراد أن يبين أن ابتداء العرض إنما يكون عند حمل الجنائز ، لأنها حينئذ يظهر لها ما تؤول إليه فتقول ما تقول . والترجمة التي قبلها - كما رأينا آنفاً - هي : « باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي » .

من أجل هذا ، كان من الخير أن يكون المؤمن على ذكر من الموت ، كيما يستشعر تلك الحقائق التي أخبر بها الرسول عليه الصلاة والسلام ، بياناً لما جاء

في القرآن الكريم ، ولينعكس ذلك على سلوكه ، فتراه حريصاً - أبداً - على أن يكون وقافاً عند حدود الله . بعيداً عن الغفلة التي تنسي الموت وسؤال الملكين في القبر ، وما لنتيجة السؤال من دلالة وأثر على ما يكون يوم العرض على الله الذي لا يخفى عليه خافية . روى الترمذي بسنده عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال : « دخل رسول الله ﷺ مصلاه ، فرأى ناساً كأنهم يكتشرون - تظهر أسنانهم من الضحك - قال : أما إنكم لو أكثرتم ذكرها دم اللذات لشغلكم عما أرى الموت ، فأكثرُوا ذكرها دم اللذات الموت ، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه فيقول : أنا بيت الغربة .. وأنا بيت الوحدة ، وأنا بيت التراب ، وأنا بيت الدود ، فإذا دفن العبد المؤمن ، قال له القبر : مرحباً ؛ وأهلاً أما إن كنت لأحب من يمشي على ظهري إليّ ، فإذا وليتكَ اليوم ، وصرت إلي ، فسترى صنيعي بك قال : فيتسع له مدّ بصره ، ويفتح له باب إلى الجنة ، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر ، قال القبر : لا مرحباً ولا أهلاً ، أما إن كنت لأبغض من مشى على ظهري إليّ ، فإذا وليتكَ اليوم ، وصرت إليّ ، فسترى صنيعي بك قال : فيلتثم عليه حتى تلتقي عليه وتختلف أضلاعه ، قال : قال رسول الله ﷺ بأصابعه فأدخل بعضها في جوف بعض إلى أن يقول : قال رسول الله ﷺ : إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » .

في ظل هذه الحقيقة وأمثالها .. كان من هدي النبي ﷺ دعوته إلى أن يحاسب كل من المسلم والمسلمة نفسه هنا في هذه الدار ، ويكون شجاعاً في النقد الذاتي ، الذي يقوم العوج . ويهدي إلى الصواب ، في ضوء معايير الكتاب والسنة والعمل لما بعد الموت . روى الترمذي بسنده عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » . قال : هذا حديث حسن . قال : ومعنى قوله : من دان نفسه يقول : حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة ، ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وتزينوا للعرض

الأكبر ، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا .

والحق أن من رزق اليقظة « فلم تشغله الدنيا عن العمل لما بعد الموت ، وكان صادقاً في تزكية نفسه ومحاسبتها ، فقد رزق خيراً كبيراً » يجد حلاوة ثمرته يوم القيامة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وطوبى لمن يأتي يوم القيامة ، وقد دان نفسه في الدنيا ، وعمل لذلك اليوم لاريب فيه ، فكان أهلاً للفوز بالجنة والنجاة من النار ، وسبحان الغفور الرحيم .

استحيذوا بالله من عذاب القبر

رحلة المؤمن في هذه الحياة ، وما يمكن أن يعترض طريقه إلى الله فيها ، من الصوارف والمعوقات ، جديرة أن تكون مصحوبة أبداً بما يذكر بالموت ، وما يكون من سؤال القبر الذي هو معتقد أهل السنة والجماعة ، وقامت الأدلة الواضحة على إمكان وقوعه كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن ما يلقاه العبد في قبره من يسر ونعيم ، يكون عنوان نجاته يوم القيامة ، ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ وأن ما يلقاه من مكروه وعذاب ، يكون عنوان تعثره وشقائه في ذلك اليوم ، هنالك إذ يقال للإنسان : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ . ويصدق في الجاحدين المعاندين قول الله جلّت قدرته : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ .

وما أكثر النصوص التي تنذر وتبشر على هذه الساحة ، وتضيء الطريق لمن يحرص على أن يسعى للآخرة سعيها ، بدءاً من الاستعداد للموت وسؤال القبر . من هنا كان مقتضى التعقل بعقل المعاد ، أن يسلك المؤمن سبيل أهل الجد في طلب النجاة يوم المعاد .

والناظر فيما جاء عن الله ورسوله في هذا الشأن العظيم ، لا يملك إذا عقل عن الله ما أراد ، إلا أن يدين نفسه ، ويحاسبها على ما وقعت فيه من تفريط ، ويعمل جاداً على أن يثبت على ما هو استقامة على الطريق ، ويتوب إلى الله عما هو انحراف وبعد عن مسلك أهل الصلاح والفلاح ، الذين يخافون مقام ربهم ، وينهون النفس عن الهوى ، ويجعلون همهم العمل لما بعد الموت ، ذاكرين يوم القيامة وأهواله ، جادين في التزود له بالزاد الذي أمر به الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، من العمل الصالح وتقوى الله في السر والعلن .

وصنيع هؤلاء ، دليل كمال العقل ، والفهم عن الله ورسوله في هذا المضمار؛ فالأمر جد خطير ؛ والذي يغفل عن أول منزلة من منازل الآخرة ، يكون كمن يعمد إلى الخطر الماحق فيوقع نفسه فيه ، كيف وقد كشف الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم ، عن أنه قبل سؤال القبر ، وما يمكن أن تكون حال العبد من ورائه ، هنالك ضغطة القبر . أخرج النسائي بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال بشأن سعد بن معاذ رضي الله عنه : « هذا الذي تحرك له عرش الرحمن ، وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفاً من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرج عنه » . وروى الإمام أحمد والبيهقي من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : « إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجياً منها نجا منها سعد بن معاذ » .

وأنت واجد أن في حديث رسول الله ﷺ ، عن البرزخ وما يكون فيه بوصفه المنزل الأول من منازل الآخرة ، وعنوان ما يكون لصاحبه يوم القيامة ، تقريراً وتفصيلاً لما جاء في الكتاب العزيز حول هذه المسألة الكبرى من مسائل العقيدة كما هو معروف في مظانه ، غير أنا نشير هنا - وذلك على سبيل المثال لا الحصر - إلى ما جاء في سورة المؤمنون من قول الله تبارك وتعالى ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموتُ قال ربّ ارجعوني . لعلّي أعمل صالحاً فيما تركتُ ﴾ كلاً إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴿ وإلى ما جاء في سورة غافر من قوله جل شأنه : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب ﴾ . ونشير كذلك إلى ما روى أحمد وأبو داود والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي ، مما نجد فيه بيان تقرير وتفصيل ، كان من نصح رسول الله ﷺ للأمة في دنياها ويوم الدين . قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية قال : حدثنا الأعمش عن منهل بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : « خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحَدُ ، فجلس رسول الله ﷺ ، وجلسنا حوله ، وكأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت في

الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر - مرتين أو ثلاثاً - ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ويجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج، فتسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها، فلا يمرون - يعني بها - على ملا من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم، فيشيئه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة - فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك فيقول: ربّي الله. فيقولان: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي: فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مدّ بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرّك، هذا يومك الذي كنت تعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي ...

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل

الله ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه . فيقول : أيتها النفس الخبيثة ، اخرجي إلى سخط من الله ، وغضب ، فتفرَّق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السَّفود من الصوف المبلول ، فأخذها ، فإذا أخذها ، لم يدعوها في يده طرفه عين ، حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها ، كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرُّون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الريح الخبيثة ؟ فيقول : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يسمي بها في الدنيا ، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له ، فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمِّ الخياط ﴾ فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى ، ثم تطرح روحه طراحاً ، ثم قرأ ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ فتعاد روحه في جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، قال : فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، قال : فيقولان : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، فينادي منادٍ من السماء أن كذب فأفرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرّها وسمومها ، ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعده ، فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه القبيح يجيء بالشر فيقول : أنا عمك الخبيث ، فيقول : رب لا تقم الساعة .»

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأن يعيذنا من عذاب القبر ويثبتنا بقوله الثابت إنه البر الرؤوف الرحيم .

سؤال الملكين

كل من رزق حسن الصلة بمناهج الاستنباط من نصوص الكتاب والسنة ، ووفقاً لاصطحابها على صعيد التطبيق العملي ، حيث النص واستنباط الحكم منه - دون إغماض العين عن الحكمة - ما تسرت له الإحاطة بها ... كل من حصل له ذلك أدرك - بتوفيق الله عز وجل - المقام العظيم الذي يتبوؤه البيان النبوي لكتاب الله العزيز ، حيث ترى التقرير حيناً ، والتأكيد حيناً ، كما ترى تفصيل الإجمال حيناً آخر ، وناهيك عن التخصيص والتقييد ، وإعطاء حكم جديد حين يقتضي الأمر ذلك ... إلى آخر ما هنالك من صور لهذا البيان النبوي الكريم الذي أوّمن سيد العالمين عليه بقوله تعالى في سورة النحل : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ .

ولا يعوزك أن ترى آثار هذا البيان المبارك ، وأنت تنظر ببصيرة في نصوص الكتاب الكريم ، سعيّاً وراء المعنى المراد ، وفي معالم الهداية فيها ، وهي تعالج موضوعاً أو موضوعات تحمل في طياتها ، ما العباد بحاجة إليه في أمور دينهم ودنياهم ، فضلاً عما يتعلق بأمور الآخرة التي ينبغي للمؤمن أن يوليها ما تستحق من العناية ، لأن الآخرة هي دار القرار ، وليس بعد هذه الدنيا دار ، إلا الجنة أو النار .

وفي شأن ما يكون عليه حال كل من المؤمن والكافر بعد الموت ، كانت لنا وقفة عند آية كريمة في سورة المؤمنون ، وأخرى مثلها في سورة غافر (المؤمن) وكان الخير غامراً في بيان النبي ﷺ ، وهو يكشف عما للعمل الصالح من أثر فيما يؤول إليه أمر من آمن بالله وعبدته حق العبادة ، وعما للضلالة المردية من أثر فيما يؤول إليه أمر من أعرض عن ذكر الله وأطاع الهوى والشيطان . وأعني بهذا البيان

ما جاء فيما أخرج أحمد وأبوداود والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي من رواية البراء بن عازب رضي الله عنه ، إذ جاء في الحديث من رواية أحمد رحمه الله بالنسبة للمؤمن - كما رأينا - « ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول : أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعده ، فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه يحيي بالخير » فيقول : أنا عمك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي » . أما بالنسبة للكافر : فقد جاء في آخر الحديث « ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعده . فيقول من أنت ؟ فيقول : أنا عمك الخبيث ، فيقول : رب لا تقم الساعة » .

هذا : وسؤال الملكين المومى إليه في هذا الحديث - كما رأينا من قبل - نجد التنصيص عليه ، وعلى عذاب القبر فيما أخرج البخاري ومسلم وأبوداود والنسائي من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه . وقد جاء الإمام البخاري بعدد من الأحاديث في بعضها النص على سؤال الملكين تحت باب عقده لذلك في كتاب الجنائز من الجامع الصحيح عنوانه : « باب ما جاء في عذاب القبر وقوله تعالى : ﴿ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ والملائكةُ باسطوا أيديهم ، أخرجوا أنفسكم ، اليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ الهُون هو الهوان ، والهَوْن : الرفق . وقوله جلّ ذكره : ﴿ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ .

وأنت ترى أن في تقديم ذكر هذه الآيات ، بين يدي الأحاديث التي أوردها البخاري ، تنبيهاً على ثبوت عذاب القبر في القرآن ، وأن ما ورد في السنة يؤكد ويقرر ، ويفضّل ما كان من إجمال في تلكم الآيات وغيرها ، وذلك كله من بيان السنة للكتاب العزيز . والآية الأولى هي الثالثة والتسعون من سورة الأنعام ونصّها : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ،

ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسهم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴿ والآية الثانية هي الواحدة بعد المائة من سورة التوبة ونصّها : ﴿ ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ ونجد بعد ذلك الآيتين الخامسة والأربعين والسادسة والأربعين من سورة غافر ، ونص الأولى : ﴿ فوқаه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ .

وأما الآية التي في الأنعام : فروى الطبراني وابن أبي حاتم من طريق علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم ﴾ قال : هذا عند الموت ، والبسط : الضرب ، يضربون وجوههم . قال الحافظ ابن حجر : « ويشهد له قوله تعالى في سورة القتال : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ وهذا وإن كان قبل الدفن فهو من جملة العذاب الواقع قبل يوم القيامة ، وإنها أضيف العذاب إلى القبر لكون معظمه يقع فيه ، ولكون الغالب على الموتى أن يُقبروا » وإلا فالكافر ومن شاء الله تعذيبه من العصاة يعذب بعد موته ولو لم يدفن ، ولكن ذلك محجوب عن الخلق إلا من شاء الله » .

وفي شأن ما جاء في آية سورة التوبة ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ روى الطبري وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط أيضاً ما دل على نوعين من العذاب للمنافقين أولهما : فضحهم حيث قال ﷺ - وهو يخطب - « اخرج يافلان فإنك منافق » الحديث ؛ فهذا العذاب الأول . والعذاب الثاني عذاب القبر . وروى الطبري وابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ عذاب الدنيا وعذاب القبر .

أما عن قوله تعالى في سورة غافر : ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ فقد

ورد في السنة ما يدل على أنه يُعرض على أهل النار مقعدهم بالغداة والعشي، وأن هذا العرض يكون في البرزخ، روى البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وهذا لفظ البخاري، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة». قال القرطبي: والجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ، وهو حجة في تثبيت عذاب القبر.

هذا ومن الأحاديث التي أخرجها الإمام البخاري تحت الباب المذكور، ما نجد من قوله رحمه الله حدثنا عياش بن الوليد قال: حدثنا عبد الأعلى قال: حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه - وإنه ليسمع قرع نعالهم - أتاه ملكان، فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ. فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً» قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره، ثم رجع إلى حديث أنس قال: «وأما المنافق والكافر: فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين». وجاء في رواية مسلم: قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ويملاً عليه خَصراً إلى يوم يبعثون».

والحق أن ما ورد من النصوص في كتاب الله وسنة النبي عليه الصلاة والسلام - كما يشعر بما سيكون بعد الموت بين يدي يوم القيامة - يفترض أن يثير في المؤمن مزيداً من الحيلة في دين الله. واستشعار ما هو كائن إذا بلغت الروح الحلقوم؛ فالأمر جد لاهزل فيه، والسعيد السعيد من خاف على نفسه، فسلك طريق أهل الخشية، وكان للنفس والشيطان والهوى، بالمرصاد. والله يتولى الصالحين.

تَهَوُّنًا مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ

ماذا علمي لو جعلت الكلمة الأولى في هذه الصفحات، تذكيراً بعظيم قدر النبي عليه الصلاة والسلام . وكونه الرحمة المهداة . وخير من نصيح لأمته في دينها ودنياها وآخرتها ، حتى تركها على المحجة البيضاء، التي لا يزيغ عنها ، ولا يتخذ هداها وراءه ظهيراً ، إلا هالك .

ولقد كان من نصحه لهذه الأمة ورحمته بها، أن كشف لها - في بيان لكتاب الله- عن يوم القيامة وأهواله وكل شأن يتصل به ؛ حتى أفاض صلوات الله وسلامه عليه في الحديث عما يكون للمرء بعد موته في القبر ، وعن أثر ما كسب في الدنيا ، أو اكتسب في ذلك .

وعلم صلى الله عليه وسلم المؤمن كيف يحتاط لدينه ويحسن العمل لآخرته كيما يكون له حسن العاقبة بعد الموت « ولا يقع في هوة عذاب القبر والعياذ بالله .

كما كان من هديه صلى الله عليه وسلم أن علم المؤمن أيضاً كيف يلجأ إلى الله أن يعيذه من عذاب القبر وفتنة القبر ، لما أن الأمة تفتن في قبورها فمن كان في مرضاة الله نجا ، ومن كان من أهل الضلالة هلك مع الهالكين . وإنما كانت هذه العناية ببيان ما يكون ما بعد الموت ، وتذكير المؤمنين بذلك لما أن القبر - كما أسلفنا من قبل - أول منازل الآخرة ، وعنوان ما سوف يكون للمرء بعده يوم الدين، كما أنه المرحلة الأولى في رحلة البرزخ بين يدي يوم القيامة ، يوم المحشر الذي تنعوا فيه الوجوه للحي القيوم ، وقد خاب من حمل ظمأ ، اليوم الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين ويأخذهم - وقد برزوا لله الواحد القهار - ما يأخذهم من الهول والله المستعان . ولا تعجب يومذاك - حيث القلوب واجفة والأبصار خاشعة - إذا رأيت المرء يفر من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبه وبنيه ، فلكل امرئ

منهم يومئذ شأن يغنيه . وكيف لا يكون ذلك كله . وقد كشف عن الإنسان الغطاء فبصره اليوم حديد ، وتجلّى ربنا بعظمته وجلاله ؛ فالأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴿والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ وذلكم ما روى مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ « يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون » ؟ وهكذا كان الذي جاء عن النبي ﷺ بشأن القبر وسؤال الملكين وما يتعلق بذلك متسقاً كل الاتساق مع موقعه من اليوم الآخر وساعات الحساب يوم القيامة ، وقد وقفنا بعض نصوص السنة سابقاً على شيء من ذلك ، وها نحن أولاء نتابع الرحلة مع نصوص آخر ، في حدود ما يعين على تلمس الهداية في تلك القضية الكبرى التي ترتبط أياً ارتباط بعقيدة المسلم و سلوكه ، وما يجب أن يكون عليه من عمل يحمل النظرة أبداً إلى ما بعد الموت ، فلا تشغله العاجلة عن الآجلة لأن يوم القيامة آت لا ريب فيه .

ومن الواضح أنه - بجانب النصوص التي تحدثت عن سؤال الملكين في القبر- هنالك ما يدل على اسم كل منهما ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا قبر الميت - أو قال أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما : المنكر ، وللآخر النكير فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : ما كان يقول ، هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ، ثم ينور له فيه ، ثم يقال له : نم ، فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقولان : نم نومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وإن كان منافقاً ، قال : سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله ، لا أدري ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض : التثمي عليه ؛ فتلثم عليه ، فتختلف أضلاعه ، ولا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه

ذلك « أخرجه الترمذي وحسنه ، وهو على شرط مسلم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في حديث بشأن الملكين اللذين يتوليان السؤال في القبر : اسم الملكين اللذين يأتيان في القبر ، منكر ونكير ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن .

ولقد أخبر النبي ﷺ - وهو لا ينطق عن الهوى - أن عذاب القبر حق وأن أمته تفتن في قبورها وتعوذ ﷺ من عذاب القبر ومن فتنة القبر ، وأمر بذلك ، فعن عائشة رضي الله عنها : « أن يهودية دخلت عليها ، فذكرت عذاب القبر ، فقالت لها : أعاذك الله من عذاب القبر ، قالت عائشة : فسألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر ؟ فقال : نعم عذاب القبر حق ، قالت : فما رأيت رسول الله ﷺ وقد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر » أخرجه البخاري ومسلم . وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه ، إذ حادت به ، فكادت تلقيه ، وإذا أقبر ستة أو خمسة فقال : من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ قال رجل : أنا ، قال : فمتى ماتوا ؟ قال ماتوا في الإشرار ، فقال : إن هذه الأمة تفتن في قبورها ، فلولوا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه ، ثم أقبل علينا بوجهه فقال : تعوذوا بالله من عذاب القبر ، قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر ، قال : تعوذوا بالله من عذاب النار ، قالوا : نعوذ بالله من عذاب النار ، قال : تعوذوا بالله من الفتنة ما ظهر منها وما بطن ، قالوا : نعوذ بالله من الفتنة ما ظهر منها وما بطن ، قال : تعوذوا بالله من فتنة الدجال ، قالوا : نعوذ بالله من فتنة الدجال » أخرجه مسلم .

جزى الله عنا نبينا محمداً ﷺ أفضل ما جزى مرسلأ عمن أرسل إليهم ، فقد أنقذنا به من الهلكة في الدنيا ويوم الدين ، وصلى الله وسلم عليه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون ، أعاذنا الله من عذاب القبر وعذاب النار ، ومن الفتنة ما ظهر منها وما بطن « ومن فتنة المسيح الدجال إنه - جل شأنه - ولي ذلك والقادر عليه .

.. وأعوذ بك من فتنة المجيا والممات

مرة أخرى ، نعود إلى الرحلة مع الكلمة المبينة النيرة من حديث النبي ﷺ وسلم ، في شأن ما هو مؤذن بما يكون من عاقبة المرء يوم القيامة ، وما هو مآله في ذلك اليوم ؛ وأعني بذلك ما يحصل للميت في قبره من سؤال الملكين ، وما يمكن أن يكون من العذاب أو النعيم ، لأن القبر إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار . والعبد إذا قبر ، عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. وقد رأينا من قريب ما ذهب إليه البخاري وغيره من دلالة الآيات على عذاب القبر ، وأن الأحاديث الصحيحة صريحة في أن سؤال الملكين حق ، وأن عذاب القبر حق ، عافانا الله من ذلك كما هي صريحة في أن الأمة تفتن في قبورها . ومن أجل هذا تعوذ رسول الله ﷺ من عذاب القبر ، ومن عذاب النار ، ومن فتنة القبر وأمر بذلك ، والعهد قريب بما أخرج البخاري ومسلم من أحاديث تتناول هذه القضايا ، وتكشف عنها بأوضح بيان .

وقد روى النسائي بسنده عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير أنه سمع أسماء بنت أبي بكر تقول : « قام رسول الله ﷺ ، فذكر الفتنة التي يفتن بها المرء في قبره ، فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة حالت بيني وبين أن أفهم كلام رسول الله ﷺ ، فلما سكنت ضجتهم ، قلت لرجل قريب مني : أى بارك الله لك ، ماذا قال رسول الله ﷺ في آخر قوله ؟ قال : قد أوحى إلي أنكم تفتنون في القبور قريباً من فتنة الدجال » والذي عند البخاري قوله : « ضج المسلمون ضجة » وروى مسلم بسنده عن طاووس عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما « أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن » قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من

فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » أخرجه النسائي أيضاً .

وهذه واقعة، تحمل نصاً يؤكد ما جاء في هذه الأحاديث؛ فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : « خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحَدُ بعدُ ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير ، ويده عود نكت به في الأض ، فرفع رأسه فقال : تعوذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً » . رواه أبوداود .

هذا: وقد جاءت بعض الروايات، بما يشعر بالعلاقة بين عذاب القبر ، وبين قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ قال الإمام البخاري : حدثنا حفص بن عمر قال : حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد عن سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إذا أُقعد المؤمن في قبره ، أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فذلك قوله : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ ثم قال : حدثنا محمد بن بشار قال : حدثنا عُندَرُ قال : حدثنا شعبة بهذا ، وزاد ﴿ يثبت الله الذين آمنوا ﴾ نزلت في عذاب القبر .

ونجد شيئاً من الزيادة في رواية مسلم . قال رحمه الله : حدثنا محمد بن بشار بن عثمان العبدِيُّ قال : حدثنا محمد بن جعفر قال : حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد عن سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت قال : نزلت في عذاب القبر فيقال له : من ربك ؟ فيقول ، ربي الله ونبيي محمد ﷺ ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ » ورواه أبوداود والترمذي ، كما أخرج شيخ المفسرين الطبري عدداً من الروايات في ذلك .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بدع أن يكون من هديه صلى الله عليه وسلم ، تعليم أصحابه — ومن ورائهم من يأتي من المسلمين — أن يدعوا الله تعالى بأن

يعيذهم من عذاب القبر، فيثبتهم بقوله الثابت ، بعد أن يكون المؤمن قد أخذ بأسباب النجاة اتِّهماً بما أمر الله ، وانتهاء عما نهى عنه ، واتباعاً للسبيل التي فيها مرضاة الله ومرضاة الرسول عليه الصلاة والسلام . وكان هو صلى الله عليه وسلم لا يدع أن يستعيز من أمور كثيرة ، ومنها عذاب القبر كما رأينا من قريب . غير أن في حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام بعض الروايات التي تدل على أن رسول الله ، كان يأمر بالتعوذ من عذاب القبر ومن عذاب جهنم ، ومن فتنة المسيح الدجال ، ومن فتنة المحيا والممات ، وفي رواية ومن المأثم والمغرم ، كان يأمر بالتعوذ من ذلك كله أو أكثره في الصلاة . وكان هو يفعل ذلك ، دليل الأهمية المعطاة لهذه القضية الكبرى ، ورحمته ﷺ بأمته : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ روى مسلم بسنده عن محمد بن أبي عائشة عن أبي هريرة وعن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع : يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال » وفي رواية له عن طاووس قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « عوذوا بالله من عذاب الله » عوذوا بالله من عذاب القبر ، عوذوا بالله من فتنة المسيح الدجال ، عوذوا بالله من فتنة المحيا والممات .

وعلى السنن الذي نراه عند رسول الله ﷺ في منهجه الفريد في التربية ، من أنه كان يربي بالقدوة ، كما يربي بالتعليم والهداية . جاء في الروايات التي تدل - كما أشرنا من قبل - أنه صلوات الله وسلامه عليه كان يتعوذ مما أمر أصحابه أن يتعوذوا منه ؛ من هذه الروايات ما أخرج مسلم بسنده عن الزهري قال : أخبرني عروة ابن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن النبي ﷺ كان يدعو في الصلاة « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم ، قالت : فقال

له قائل : ما أكثر ما تستعيز من المغرم يا رسول الله ، فقال : إن الرجل إذا غرم
حدّث فكذب ، ووعد فأخلف .

معنى «أعوذ بك من المأثم والمغرم» : أعوذ بك من الإثم والغُرم ، والغرم هو
الدين .

وصلّى الله وسلم على معلم الناس الخير الذي ترك أمته على المحجة البيضاء ،
فمن اهتدى بهديه صلى الله عليه وسلم نجا وغنم ، ومن أعرض عن سبيله كان من
الهاكين .

التحويذ من عذاب القبر.. في الهادي النبوي

من الأمور التي لا تقبل الجدل ، وحرِيٌّ بالمؤمن أن يكون على ذكر منها ، فلا ترين الغفلة على قلبه : أن سلامة التصديق بيوم القيامة والمعاد ، تقتضي أن يعمل المؤمن لما بعد الموت ، وأن يجعل نصب عينيه ما يمكن أن تكون عليه الحال في القبر وهو أول منزل من منازل الآخرة ، لأنه إن شملت المرء عناية الله وأضاء طريقه العمل الصالح ، فنجاً من هول ذلك المنزل الذي استعاذ رسول الله ﷺ من عذابه ، فما بعد ذلك من ساعات الشدة الشادة يوم القيامة أيسر منه . وإن حققت عليه كلمة العذاب ، بعد سؤال الملكين ، وساءت حاله في الهالكين ، فما بعد ذلك أشد منه والعياذ بالله .

ومن هنا - والله أعلم - كان السلف الصالح عليهم الرضوان وفي مقدمتهم أصحاب رسول الله ﷺ ، يُعدون العُدَّة لسؤال القبر ، ويخشون ما يمكن أن يكون فيه من الابتلاء والامتحان ، لما أن هذه الأمة - كما أخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام - تفتن في قبورها ، فترى الواحد منهم - على عظيم فضله وتقواه - قد يبكي ويطلق البكاء ، إذا ذكر القبر وما فيه ، لأنه المنزل الأول - كما أسلفنا - من منازل ذلك اليوم الذي قال الله فيه : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ ولعل من الخير أن نعيد إلى الأذهان ما روى الترمذي في كتاب الزهد من السنن عن هانئ مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه بإسناد حسن « أنه قال : كان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى تبلَّ لحيته ، فقليل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتذكر القبر فتبكي ؟ فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه ، فما بعده أشد منه » قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أرفع منه » . وزاد رزين : قال هانئ : وسمعت عثمان ينشد على قبر :

وإلا فإني لا إخالك ناجيا

فإن تنج منها تنج من ذي عزيمة

ألا وإن في صنيع عثمان رضي الله عنه؛ من عميق تأثيره بذكر القبر ، وكل ما هو منه بسبب ، دلالة على عميق فهمه لما بيّن النبي عليه الصلاة والسلام - وهو المبلغ عن ربه عز وجل - من أهمية ما تكون عليه الحال في القبر ، وأن النجاة منه عنوان خيرية لما يكون يوم القيامة ، وأن عدم النجاة منه - أعاذنا الله والمؤمنين من ذلك - عنوان الخسران يوم المعاد ، ومن أجل هذا كانت تلك الخشية وكان ذلك التحسب ، فعثمان رضي الله عنه وأرضاه ، يبكي مشفقاً من عذاب الله الذي يكون عذاب القبر إيذاناً به ، بعد أن ينصرف أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار .

لكان الموت راحة كل حي

فلو أنا إذا متنا تركنا

ونُسال بعده عن كل شي

ولكننا إذا متنا بعثنا

وإني مشير هنا إلى ما سبق من نصوص السنة المطهرة التي تحمل تخوّف النبي ﷺ على أمته من عذاب القبر وفتنة القبر ، وهدية في الاستعاذة والتضرّع إلى الله أن يعيذه من عذاب النار ، ومن عذاب القبر « ومن الفتنة ما ظهر منها وما بطن » ومن فتنة المحيا والممات « ومن فتنة المسيح الدجال ومن المأثم والمغرم ، وفي توجيه المؤمنين والمؤمنات إلى أن يستعيذوا من هذه العظائم وأمثالها ، بعد أن يكونوا قد قدموا من العمل الصالح في طاعة الله تعالى ، ما يقيهم الشدائد ويجعل نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يوم الحساب ، والله المستعان .

غير أن مما يجدر التنبيه عليه : أنه بجانب تلك النصوص المطلقة في إثبات عذاب القبر ؛ هنالك من النصوص - التي سبق بعضها - ما يدل على أن إعلام النبي ﷺ بثبوت عذاب القبر ، قد جاء متأخراً في المدينة مهاجرة عليه الصلاة والسلام ؛ قال الإمام البخاري : حدثنا عبدان قال : أخبرني أبي عن شعبة قال : سمعت الأشعث عن أبيه عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها « أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر ، فقالت : أعاذك الله من عذاب القبر .

فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال : « نعم عذاب القبر » قالت عائشة رضي الله عنها : فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلى صلاة إلا تعوَّذ من عذاب القبر « زاد عُندر : « عذاب القبر حق » ورواه النسائي بلفظ « نعم عذاب القبر حق » ^(١) أخرجه النسائي بلفظ « نعم عذاب القبر حق » وفي بعض الروايات عند البخاري ومسلم أنهما عجوزان من عجز يهود المدينة . وروى مسلم بسنده عن ابن شهاب قال : حدثني عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها قالت : « دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي امرأة من اليهود وهي تقول : هل شعرت أنكم تفتنون في القبور ؟ قالت : فارتاع رسول الله ﷺ وقال : إنها تفتن يهود ، قالت عائشة : فلبنا ليالي ثم قال رسول الله ﷺ : هل شعرت أنه أوحى إليّ أنكم تفتنون في القبور ؟ قالت عائشة : فسمعت رسول الله ﷺ بعد يستعيز من عذاب القبر » .

ويلاحظ أن بين هذه الرواية وسابقتها مخالفة - في الظاهر - لأن في هذه، أنه صلى الله عليه وسلم أنكر على اليهودية ، وفي الأولى أنه أقرّها . وقد ذهب الطحاوي والنووي وغيرهما إلى أنها قصتان ، فأنكر النبي ﷺ قول اليهودية في القصة الأولى ، ثم أعلم النبي ﷺ بذلك ولم يعلم عائشة ، فجاءت اليهودية مرة أخرى ، أو اليهوديتان - كما في بعض الروايات - فذكرت لها ذلك ، فكذبتها عائشة رضي الله عنها بناء على الإنكار الأول ، ولم تكن علمت نزول الوحي بإثبات عذاب القبر ، فأعلمها النبي ﷺ أن الوحي نزل بإثباته .. ومما يؤيد ذلك ما روى البخاري في « باب التعوذ من عذاب القبر في الكسوف » من الجامع الصحيح من طريق عمرة عن عائشة « أن يهودية جاءت تسألها فقالت لها : أعاذك الله من عذاب القبر ، فسألت عائشة رسول الله ﷺ « أيعذب الناس في قبورهم ؟ فقال رسول الله ﷺ عائذاً بالله من ذلك ثم ركب رسول الله ﷺ ذات غداة مركباً فخشفت الشمس - فذكر الحديث - وفي آخره « ثم أمرهم أن يتعوذوا من

(١) : « الجامع الصحيح - مع - فتح الباري » : (٣ / ٢٣٦) وانظر « جامع الأصول (١١ / ١٦٦) ،

« مسلم بشرح النووي » : (٥ / ٨٦) .

عذاب القبر » قال الحافظ : وأصرح منه ما رواه أحمد بإسناد على شرط البخاري عن سعيد بن عمرو بن سعيد الأموي عن عائشة « أن يهودية كانت تخدمها ، فلا تصنع إليها عائشة شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية : وقالك الله عذاب القبر ، قالت : فقلت : يا رسول الله هل للقبر عذاب ؟ قال : كذبت يهود ، لا عذاب دون يوم القيامة ، ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث ، فخرج ذات يوم نصف النهار ، وهو ينادي بأعلى صوته : أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر ، فإن عذاب القبر حق » وفي هذا كله - كما يقول صاحب الفتح - أنه صلى الله عليه وسلم إنما علم بحكم عذاب القبر ، إذ هو بالمدينة في آخر الأمر ، كما تقدم تاريخ صلاة الكسوف في موضعه « مشيراً بذلك إلى أن صلاة الكسوف كانت في السنة العاشرة من الهجرة يوم توفي إبراهيم ولد الرسول عليه الصلاة والسلام .

هذا ، ومن حق هذه المسألة العظيمة ؛ مسألة عذاب القبر وسؤال الملكين والفتنة في القبور وما إلى ذلك ، أن نضيف إلى ما سبق تحلية لبعض الجوانب شيئاً مما جاء على ألسنة علمائنا الأعلام رحمهم الله تعالى .

قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم عند الكلام على حديث عائشة رضي الله عنها « أن يهودية قالت : هل شعرت أنكم تفتنون في القبور .. » الحديث . وفي الرواية الأخرى دخلت عجوزان من عجز يهود المدينة وذكرت أن النبي ﷺ صدقهما - قال : هذا محمول على أنهما قضيتان ؛ فجرت القضية الأولى « ثم أعلم النبي ﷺ بذلك ، ثم جاءت العجوزان بعد ليال فكذبتهما عائشة رضي الله عنها ، ولم تكن علمت نزول الوحي بإثبات عذاب القبر ، فدخل عليها النبي ﷺ ، فأخبرته بقول العجوزين ، فقال : صدقتا ، وأعلم عائشة رضي الله عنها بأنه كان قد نزل عليه الوحي بإثباته ، وقولها : « لم أنعم أن أصدقهما » أي لم تطب نفسي ، ومنه قولهم في التصديق : نعم ، وهو - أي قولها لم أنعم - بضم الهمزة وإسكان النون وكسر العين (١) .

(١) مسلم بشرح النووي : (٥ / ٨٥ - ٨٦) .

وجاء في الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (سئل رحمه الله هل يتكلم الميت في قبره أم لا ؟ فأجاب : يتكلم ، وقد يسمع أيضا من كلمه ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إنهم يسمعون قرع نعالهم » وثبت عنه في الصحيح « أن الميت يسأل في قبره : فيقال له : من ربك وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيثبت الله المؤمن بالقول الثابت ، فيقول : الله ربي والإسلام ديني ومحمد نبيي ، ويقال له : ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول المؤمن : هو عبدالله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى ، فأما به واتبعناه » قال شيخ الإسلام : وهذا تأويل قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ وقد صح عن النبي ﷺ أنها نزلت في عذاب القبر ، وكذلك يتكلم المنافق فيقول : آه آه لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته . فيضرب بمزربة من حديد ، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ، كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال : لولا أن لاتدافنوا لسألت الله أن يسمعكم من عذاب القبر مثل الذي أسمع » وثبت عنه في الصحيح أنه نادى المشركين يوم بدر لما ألقاهم في القليب وقال : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » والآثار في هذا كثيرة منتشرة والله أعلم^(١).

وفي دفع لما قد يعرض من إشكال حول استنباط أن عذاب القبر حق من قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ وقوله جل شأنه : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ مع أن الآيتين مكيتان وإنما أعلم رسول الله ﷺ بحكم عذاب القبر إذ هو في المدينة ، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : (وقد استشكل ذلك بأن الآية المتقدمة مكية وهي قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا ﴾ وكذلك الآية الأخرى المتقدمة وهي قوله تعالى : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ... ﴾ والجواب : أن عذاب القبر إنما يؤخذ من الأولى بطريق المفهوم في حق من لم يتصف بالإيمان » وكذلك المنطوق في الأخرى في حق آل فرعون ، وإن

(١) "مجموع فتاوى ابن تيمية" : (٢٤ / ٣٧٩) .

التحق بهم من كان له حكمهم من الكفار ؛ فالذي أنكره النبي ﷺ إنما هو وقوع عذاب القبر على الموحدين ، ثم أعلم ﷺ أن ذلك قد يقع على من يشاء الله منهم ، فجزم به وحذر منه ، وبالع في الاستعاذة منه ، تعليماً لأمته وإرشاداً ، فانتفى التعارض بحمد الله تعالى . وفيه دلالة على أن عذاب القبر ليس بخاص بهذه الأمة بخلاف المسألة - يعني المسألة - ففيها اختلاف (١) وقد فصل رحمه الله القول في ذلك في آخر الباب ، ورجح أن المسألة - كما تدل النصوص - واقعة أيضاً على الكفار ومن شاء الله من الموحدين ، مورداً قول ابن القيم رحمه الله : (وليس في الأحاديث ما ينفي المسألة عمن تقدم من الأمم ، وإنما أخبر النبي ﷺ أمته بكيفية امتحانهم في القبور ، لا أنه نفى ذلك عن غيرهم ، قال : والذي يظهر أن كل نبي مع أمته كذلك ، فتعذب كفارهم في قبورهم بعد سؤالهم وإقامة الحجة عليهم ، كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة) .

ثم استنبط الحافظ من النصوص ، أن الميت يحيا في قبره للمساءلة ، خلافاً لمن رده ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ... ﴾ الآية قال : فلو كان يحيا في قبره للزم أن يحيا ثلاث مرات ويموت ثلاثاً وهو خلاف النص . والجواب بأن المراد بالحياة في القبر ، ليس الحياة المستقرة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن وتديره وتصرفه وتحتاج إلى ما يحتاج إليه الأحياء ، بل هي مجرد إعادة لفائدة الامتحان الذي وردت به الأحاديث الصحيحة ، فهي إعادة عارضة ، كما حيي خلق لكثير من الأنبياء ، لمسألته عن أشياء ثم عادوا موتى . قال : وفي حديث عائشة جواز التحديث عن أهل الكتاب بما وافق الحق (٢) .

هذا : والحديث الذي عناه الحافظ ، هو آخر حديث أورده الإمام البخاري تحت «باب ما جاء في عذاب القبر» وروى فيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن العبد إذا وضع في قبره تولى عنه أصحابه - وإنه

(١) فتح الباري : (٣ / ٢٣٦) .

(٢) المصدر نفسه (٣ / ٢٤٠) .

ليسمع قرع نعالهم - أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟
لمحمد ﷺ ، فأما المؤمن : فيقول أشهد أنه عبدالله ورسوله ، فيقولان له : انظر إلى
مقعدك من النار ، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، فيراهما جميعاً قال قتادة :
وذكر لنا أنه يفسح له في قبره ، ثم رجع إلى حديث أنس قال : « وأما المنافق
والكافر : فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري كنت أقول
ما يقول الناس . فيقال : لا دريت ولا تليت ، ويضرب بمطارق من حديد ضربة ،
فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين » .

اللهم إن عذاب القبر حق ، وقد استعاذ منه نبيك محمد ﷺ كما أمر
بالاستعاذة منه ، فأعذنا اللهم بمنك وكرمك منه ، وعافنا من لأوائه ، واجعله خير
منزل لنا في عالم البرزخ ، كيما يكون روضة من رياض الجنة ، تؤذن بحسن العاقبة
يوم يعرض الخلق على جبار السماوات والأرض لا تخفى منهم خافية ، إنك يا ربنا
خير مسؤول ، وأعظم مأمول ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الرسول الكريم... والنفخ في الصور

في ضوء ما سبق من النصوص ، وفهم أئمة الهدى رحمهم الله ، نعود إلى القول المستبين : ماذا عن العقابة في يوم المعاد يوم القيامة ؟ وما هو المصير فيما يسبق ذلك من سؤال القبر ، أعادنا الله من فنتته وعذابه ؟ الذي يتطلع إليه المؤمن - وكله خوف من عذاب الله ورجاء بفضلله وغفرانه - هو ما يمكن أن يكون من تلك العقابة وذلك المصير بعد الموت - ذلك بأن الحصاد فيما وراء الحياة الدنيا هو الذي عليه المعول ، أليست الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء ؟ اللهم نعم ، فمن أوتي الحكمة ، واتسم عمله العقلي بالنظر إلى ما يكون بعد الموت في القبر ، ويوم يحشر الناس حفاة عراة غرلاً كما بين الرسول عليه الصلاة والسلام .. هو العاقل الذي يضع الأمور مواضعها ، ولا تلهيه العاجلة عن الآجلة ، بل يتخذ من الدنيا مطية إلى الآخرة ، ويضع نصب عينيه أنه يوم يقف الناس سواسية بين يدي رب العالمين ، لا ينفعه إلا ما قدّم من العمل الصالح ، الذي قام على الإيمان ، وربا على النهج السويّ . نهج عباد الله الصالحين الذين تراهم ومطمح أنظارهم أبداً أن يكونوا على الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام ، ومن تبع سبيلهم بإحسان رضي الله عنهم أجمعين ، والفضل أولاً وآخرأ لله تبارك وتعالى والسعيد السعيد من يستقيم على طاعة الله فيتغمده الله برحمته ، فإذا به قد زحزح عن النار ، وأدخل الجنة وكان من الفائزين .

والطريق التي نوميء إليها ، هي التي أرسى معالمها الصادق المصدوق رسول الله ﷺ ؛ إذ كان ما بعد الموت نصب عينيه ، وذكر الآخرة هجيراً ، ونفخة الصور يوم القيامة لا تبارح فكره ، وهو الذي زانه الله بالعصمة ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا نَفَخَ فِي النّٰفٰوْرِ فَذٰلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ قال رسول

الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته » وأصغى السمع متى يؤمر ؟ قال : فسمع ذلك أصحاب رسول الله ﷺ ، فشق ذلك عليهم ، فقال رسول الله ﷺ : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » رواه أحمد والطبراني وفي رواية لأبي جعفر الطبري عن ابن عباس : قوله : ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ قال : هو يوم ينفخ في الصور الذي ينفخ فيه ، قال ابن عباس : « إن نبي الله ﷺ خرج إلى أصحابه فقال : كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ، ثم أقبل بأذنه يستمع متى يؤمر بالصيحة ، فاشتد ذلك على أصحابه فأمرهم أن يقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » . والحديث رواه أحمد والطبراني عن زيد بن أرقم رضي الله عنه بلفظ « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » . قال الهيثمي : رجاله وثقوا على ضعف فيهم .

والمراد بصاحب القرن المذكور في كلام النبي عليه الصلاة والسلام : الملك المؤكل بنفخ الصور ، وأنت ترى أن الصور ، والناقور ، والقرن - هنا - كلها ، بمعنى واحد .

هكذا نجد النبي عليه الصلاة والسلام « تأخذ النفخة في الصور ، وما يمكن أن يتبعها من أهوال يوم القيامة بمجامع فكره ونفسه التقية العظيمة ، فلا يجد مكاناً في تلك النفس ، ولو باليسير من التنعم والفرح والترفة في هذه الدنيا ، قال ابن الأثير في النهاية بعد أن أورد قوله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقمه » أي كيف أنتعم من النعمة بالفتح وهي المسرة والفرح والترفة . وقد مر بنا من قبل ، ما كان منه صلوات الله وسلامه عليه من إعظام عذاب القبر والخشية على أمته منه ، وكيف كان يستعيز من ذلك ويأمر المسلمين به ويعلمهم كيف يستعيزون ... فإذا أضفنا الموقف الأول وأمثاله إلى الموقف من عذاب القبر ، وهو المبلغ عن ربه والمعلم والمربي .. بانت لنا بعض الملامح التي يحملها الهدي النبوي ، فيما يجب أن يكون عليه المؤمن ، وهو يمضي في هذه الدار الفانية ما يكتب له من العمر فيها ، وعماد ذلك أن يُحسن التأسى بنبيه عليه الصلاة

والسلام، فيذكر ما يكون في القبر والبرزخ ۞ وفي عرصات القيامة ، ويزود لذلك كله بالزاد النافع الذي يباعد بينه وبين الغفلة ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب﴾ . وقد وقفنا النصوص الصحيحة من السنة في صفحات خلت ، على أن سؤال الملكين حق ، وأن عذاب القبر حق . والذي يحسن توكيده شحذاً للعزائم هنا : أن عذاب القبر واقع بالنسبة لمستحقه من أمة محمد ﷺ وإن تأخر إعلام النبي ﷺ به . ولكن هذه القضية ، على عمومها ، كانت مقررة على الأمم قبلنا ، كما دل على ذلك ما أوردنا من قبل : يؤكد هذا الذي نقول ما أشرنا إليه فيما سبق ، وهو ما روى مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت عليَّ عجوزان من عجز يهود المدينة فقالتا : إن أهل القبور يعذبون في قبورهم ، قالت : فكذبتهما ولم أنعم أن أصدقهما ، فخرجتا ودخل عليَّ رسول الله ﷺ ، فقلت له : يارسول الله إن عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا عليَّ فزعمتا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم ، فقال : صدقتا ، إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم ، قالت : فما رأيته بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر « معني لم أنعم أن أصدقهما : أي لم تطب نفسي أن أصدقهما .

وإذا كان الأمر كذلك — ورسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى — فما أحرى المؤمن أن يكون على ذكر من ذلك كله ، وأن يضع في حسابه — كما سبق — ما يجب من الإعداد لما بعد الموت في البرزخ ويوم المعاد . ولقد كان من رحمة النبي ﷺ بأمتة أن هداها إلى الصراط المستقيم ؛ فما من خير إلا كشف عنه ورغب فيه ، وما من شيء غير ذلك إلا بينه ورغب عنه من أمثلة ذلك ما نرى من بيانه لبعض الأمور التي تكون سبباً في عذاب القبر والعياذ بالله فقد روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « مرَّ النبي ﷺ بحائط من حيطان المدينة فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما ، فقال : النبي ﷺ : يعذبان وما يعذبان في كبير ، قال : بلى كان أحدهما لا يستتر من بوله ، وكان الآخر يمشي بالنميمة » ثم دعا بجريدة فكسرها كسرتين ، فوضع على كل قبر منها كسرة ، فقيل له : يارسول

الله لم فعلت هذا ؟ قال لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا . وفي رواية لمسلم «مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما : فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر : فكان لا يستتر من بوله قال : فدعا بعسيب رطب فشقه اثنتين ، ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً ، ثم قال : لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا » .

لقد تجاوز الأول الطهارة المعنوية وصار يمشي بالنميمة ، وتجاوز الآخر الطهارة المادية فلم يستتر من بوله ، وكلا الأمرين ليس كبيراً في زعمهما أو ليس كبيراً تركه « فحقَّ عليهما ما يستحقان من العذاب .

وصلى الله وسلم على رسول الله الذي حملته الرحمة على عمل ما من شأنه أن يخفف عنهما بفضل الله من العذاب ، وعلى آله وصحابه وتابعيهم بإحسان ومن اهتدى بهديه فأصلح العمل ، وأعدَّ العدة ليوم المعاد .

قالوا.. ولهم في سياق الموت

ما أسلفنا من بعض النصوص التي بيّن فيها النبي ﷺ لآمته ما يكون بعد الموت ، وأن الحال التي يكون عليها المرء يوم القيامة ، مرتبطة تمام الارتباط بحاله في البرزخ ... ما أسلفنا من ذلك وهو بيان لما جاء في الكتاب العزيز ، كان حرّياً أن يرتفع بأهل الصدق وفي مقدمتهم أصحابه ﷺ ومن سلك سبيلهم بإحسان إلى حيث المخافة من الله ، وتُهيّب العاقبة والمصير بعد أن تقبض الروح ، ويصبح المرء في أول مرحلة من مراحل البرزخ ؛ حيث المقام إلى أن ينفخ في الصور ، وتقوم القيامة . ويقف الناس لرب العالمين . ولم يكن ذلك بدعاً في أهل الصدق ، فرسول الله ﷺ نفسه - كما أسلفت من قبل - لما نزل قوله تعالى في سورة المدثر :

﴿فَإِذَا نَقَرَ فِي النُّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ قال صلوات الله وسلامه عليه :

«كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته متى يؤمر فينفخ ؟ فشق ذلك على أصحاب النبي ﷺ فقالوا : كيف نقول : قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » .

وإذن : فحسن الأسوة برسول الله ﷺ بعد الذي بيّن عن القبر وما فيه ، وعن أهوال يوم القيامة ، أن يكون ما نشير إليه في أصحاب النبي ﷺ ومن أكرمه الله بالسير على نهجهم واتباع سبيلهم بإحسان . أخرج الإمام أحمد في «الزهد» عن عبادة بن نسيّ قال : لما حضرت أبا بكر رضي الله عنه الوفاة قال لعائشة رضي الله عنها : « اغسلي ثوبيّ هذين وكفيني بهما ، فإنما أبوك أحد رجلين إما مكسو أحسن الكُسوة أو مسلوب أسوأ السلب » وعند ابن سعد في رواية أخرى عن عائشة رضي الله عنها ، أنها استشهدت لما حُضر بأبيها بقول الشاعر :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه : لا تقولي هكذا يابنية ولكن قولي : ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾ وقال : انظروا ثوبَيَّ هذين فاغسلوهما ثم كفنوني فيهما ، لأن الحَيَّ أخرج للجديد من الميت ، إنها هو للمهلة .

وأخرج ابن سعد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حضرته الوفاة ، كان مما قاله لابنه : «.. فإذا قبضت فأغمضني ، واقصدوا في كفني ، فإنه إن يكن لي عند الله خير » أبدلني خيراً منه ، وإن كنت غير ذلك ، سلبني فأسرع سَلْبِي ، واقصدوا في حفرتي ، فإنه إن يكن لي عند الله خيرٌ وسَّع لي فيها مدَّ بصري ، وإن كنت على غير ذلك ضيقها عليَّ حتى تختلف أضلاعي ، ولا تخرجنَّ معي امرأة ، ولا تزكوني بما ليس فيّ ، فإن الله هو أعلم بي ، وإذا خرجتم بي ، فأسرعوا في المشي » فإنه إن يكن لي عند الله خير ، قدمتموني إلى ما هو خير لي » وإن كنت غير ذلك ، كنتم قد ألقيتم عن رقابكم شرّاً تحملونه » . ومما ورد عنه رضي الله عنه بعد أن طُعن وجعل الأمر شورى وعرف أنه الموت ، قوله : «الآن لو أن لي الدنيا كلها لافتديت بها من هول المَطْلَع ، وقوله لابنه : ألصق خدي بالأرض يا عبدالله بن عمر ، يقول عبدالله رضي الله عنه : فوضعت من فخذي على ساقي فقال : ألصق خدي بالأرض ، فترك خيته وخذه حتى وقع بالأرض فقال : ويلك وويل أمك عمر إن لم يغفر الله لك يا عمر » ، ثم قبض رضي الله عنه وأرضاه ، أخرجه الطبراني في حديث طويل عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وحسَّن إسناده الهيثمي في «مجمع الزوائد» .

والحق أنا لو رحننا نستعرض ، ولو بعض ما ورد عن هؤلاء الرجال في خشيتهم من الله » وفرّقهم من هول المَطْلَع ، وكيف كان إحساسهم بما جاء في الكتاب والسنة ، مما يمكن أن يكون بعد الموت وعن مشاهد يوم القيامة ... لورحننا نستعرض بعض ذلك ، لطال بنا الحديث وطال ، ولكنها شذرات مباركات ، يبدو - والله أعلم - أننا نحن المسلمين بأمس الحاجة إليها اليوم ، بعد أن غزتنا الأفكار المنحرفة في عقر دارنا ، وبعد أن اهتزت بعض المقاييس الصحيحة عند كثير من المسلمين ، ولا تسل عن الاتجاهات المادية وسلطانها على الناس ، حتى كاد

البعض ينسى الموت ، وما يكون بعد الموت ، ولا يطيق أن يذكر بيوم المعاد « يوم يعرض الناس على رب العالمين ، فلا تخفى منهم خافية .

ولقد يكون من الخير ، أن نذكر بأن أولئك البررة الذين هم ثمرة من ثمرات التربة الإيمانية التي أحكمتها يد محمد ﷺ الصّناع ، كان يكون بين يدي الموت ، في حال مراجعة كاملة للحساب ، ما صنع ، وماذا هو مقدم عليه . أخرج مسلم بسنده عن عبدالرحمن بن شماس المري قال : « حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت ، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار ، فجعل ابنه يقول : يا أبتاه أما أبشرك رسول الله ﷺ بكذا ، أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ؟ قال : فأقبل بوجهه فقال : إن أفضل ما نعدُّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . إني كنت على أطباق ثلاث . لقد رأيتني وما أحد أشدَّ بغضاً لرسول الله ﷺ مني ، ولا أحبَّ إليَّ أن أكون استمكنت منه فقتلته ، فلو مُتُّ على تلك الحال ، لكنت من أهل النار ، فلما جعل الله الإسلام في قلبي ، أتيت النبي ﷺ فقلت : ابسط يمينك فلأبايعك ، فبسط يمينه ، قال : فقبضت يدي ، قال : مالك يا عمرو ؟ قال : قلت : أردت أن أشرط . قال : تشرط بماذا ؟ قلت : أن يُغفر لي ، قال : « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ » وما كان أحد أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ، ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقته ؛ لأنني لم أكن أملأ عيني منه ولو مُتُّ على تلك الحال ، لرجوت أن أكون من أهل الجنة . ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها ، فإذا أنا مُتُّ فلا تصحبني نائحة ولا نار ، فإذا دفنتموني فثنوا عليّ التراب سنّاً ، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويُقسم لحمها حتى أستأنس بكم ، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربّي »^(١).

« في سياقة الموت » : أي حال حضور الموت . ومعنى : كنت على أطباق ثلاث أي على أحوال ثلاث ؛ قال الله جل شأنه : ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ فلهذا أتت

(١) " صحيح مسلم " : (١ / ١١٢) .

«ثلاثاً» إرادة لمعنى أطباق ، « فشنوا على التراب » ضبطه العلماء كما يقول الإمام النووي بالسين المهملة «فَشَنُوا» وبالمعجمة «فَشَنُوا» ، وكذا قال القاضي عياض : إنه بالمعجمة وبالمهملة قال : وهو الصب ، ويكون المعنى : (فصبوا) وقال القاضي عياض : وقيل بالمهملة : الصب في سهولة ، وبالمعجمة : التفريق . وروى الحديث أحمد في المسند وابن سعد في الطبقات وغيرهما .

وبعد : فنتما يصنع المكلف ، إذا هو ارتفع إلى مستوى التدبر الأخروي لهذه الوقائع ، وحاول الانتفاع بما يعطي هذا الحديث وأمثاله من أحكام لا غنى للمسلم عن التفاعل معها ، على صعيدي المعرفة والسلوك . وفي هذا الحديث - كما يقول الإمام النووي رحمه الله - عظم موقع الإسلام والهجرة والحج ، وأن كل واحد منها يهدم ما كان قبله من المعاصي ، كما بين الرسول عليه الصلاة والسلام .

وعلى صعيد ما ينبغي من حسن الظن بالله تعالى ، ورجاء فضله وإحسانه : في الحديث ، استحباب تنبيه المحتضر على إحسان ظنه بمولاه الرحيم الرحمن سبحانه وتعالى ، وذكر آيات الرجاء ، وأحاديث العفو عنده ، وتبشير به أعداه الله تعالى للمسلمين وذكر أحسن أعماله عنده ليحسن ظنه بالله تباركت أسماؤه ويموت على ذلك « أنا عند ظن عبدي بي » قال الإمام النووي رحمه الله : « وهذا الأدب مستحب بالاتفاق ، وموضع الدلالة من هذا الحديث قول ابن عمرو لأبيه : أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا » .

وفيه ما كانت الصحابة رضي الله عنهم عليه ، من توقير رسول الله ﷺ وإجلاله ، حتى إن عمر رضي الله عنه ، ما كان يطيق أن يملأ عينيه منه إجلالاً له ، ولو سئل أن يصفه ما أطاق ، لأنه لم يكن يملأ عينيه منه .

ويلاحظ حرص عمرو رضي الله عنه على الابتعاد عن عادات الجاهلية ، وعماً فيه إحداث شيء في الإسلام . فقلوه : « لا تصحبني نائحة ولا نار » مردّه إلى امتثال نهي النبي ﷺ عن ذلك . قال النووي : « وقد كره العلماء ذلك ، وأما النياحة :

فحرام ، وأما اتباع الميت بالنار : فمكروه للحديث ، ثم قيل : سبب الكراهة كونه من شعار الجاهلية .

ويذكر هنا ما روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه « أن رسول الله ﷺ قال : « لا يتبع الجنازة صوت ولا نار يمشي بين يديها » ومما استنبطه العلماء من قوله رضي الله عنه : « ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحرجزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي » إثبات فتنة القبر وسؤال الملكين وهو مذهب أهل الحق . ومن ذلك المكث عند القبر لحظة ، نحو ما ذكر ، وأن الميت يسمع حينئذ من حول القبر .

اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين وأعذنا من فتنة القبر وعذاب القبر ، وارض عن أصحاب نبيك أجمعين يارب العالمين .

التربية الإيمانية... وسياقة الموت

نعود- والعود أحمد- إلى ما كنا بسبيله في كلمات سبقت، من تلمس الآثار التربوية والنفسية عند أولئك الذين حضروا متنزل الوحي، وتناول إعدادهم والارتفاع بهم إلى مستوى الخشية الصادقة من عذاب الله، محمد ﷺ بيده الأمانة الصانع « فباتوا - وهم يديرون حركة الحياة ويعمرون الأرض - على ذكر للموت وما يكون بعد الموت ، واستشعار عميق لتلكم الساعات الزاخرة بالهول يوم القيامة ، اليوم الذي يصدر فيه الناس أشتاتاً ليُروا أعمالهم : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

ومن الأهمية بمكان - أيضاً - تلمس الآثار نفسها ، عند من تبعوهم بإحسان واتخذوا من سبيلهم في التأسى برسول الله ﷺ والتأثر العميق بهديه سبيلاً، وما أجمل أن يأخذ الهدي النبوي طريقه إلى القلوب والعقول، فتتحول الهداية في سلوك الناس ، وجوداً ذاتياً ، شاهداً بصدق ما ربى الناس عليه ، سيد الخلق وإمام المرين والمعلمين محمد عليه الصلاة والسلام .

والنماذج التي أوردتها فيما سبق ، عن أبي بكر وعمر وعمر بن العاص رضي الله عنهم ، تشير إلى عمق انفعالهم بذلك الهدي المحمدي ، حيث بلغت مخافتهم ومحاسبتهم لأنفسهم وهم ، في أخرج الساعات ، ما بلغت، ورأينا واحداً منهم ذلك العبد الخاشع الذي يشعر بضعفه وذلته بين يدي أحكم الحاكمين، وهو مقبل على تلك اللحظة الحاسمة ، حيث قبضُ الروح ، وقد بلغت الحلقوم ولا حول ولا طول .

والحق أن لهذه التربية على مخافة يوم الحساب ، وما قبله مما يكون في البرزخ، أثرها العظيم في السلوك ، وإذا قلنا : السلوك « فمعنى ذلك أن هذا الأثر يتعدى

الفرد إلى الجماعة ، لأن مراقبة الله وخشية غضبه وعقابه ، كل أولئك يسهم في بناء الوازع الداخلي الذي يسهم إلى حد كبير في دفع الأذى عن الجماعة التي ضمنت سلامة لبناتها ، بل يسهم في الإصلاح وإقامة البناء الحضاري على الوجه المطلوب . وإذا كان هنالك من المخالفات ما لا تطوله يد السلطة ، فالوازع الداخلي الإيماني كفيل بأن يحول دون التجاوز ودون كل ما يؤدي « سواء أكان ذلك على صعيد الفرد أم على صعيد الجماعة .

وهذا الذي نشير إليه ، ونحن نتلمس آثار الهدى النبوي في التربية على ذلك ، يشدنا إلى رواية أخرى في شأن الذي كان من الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه وقد حضرته الوفاة ، بعد أن وقفنا من قريب على رواية الإمام مسلم في صحيحه ، لعل في ذلك مزيداً من البيان . فقد أخرج الإمام أحمد بسنده عن يزيد بن أبي حبيب أن عبد الرحمن بن شماس حدثه قال : « لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة ، بكى ، فقال له ابنه عبدالله : لم تبكي ؟ أجزعاً من الموت فقال : لا والله ، ولكن بما بعد الموت ، فقال له : قد كنت على خير ، فجعل يذكره صحبته رسول الله ﷺ وفتوحه الشام » فقال عمرو : تركت أفضل من ذلك كله : شهادة أن لا إله إلا الله . إني كنت على أطباق ليس فيها طبق إلا عرفت نفسي فيه ، كنت أول قريش كافراً ، وكنت أشد الناس على رسول الله ﷺ فلو مت حينئذ وجبت لي النار ، فلما بايعت رسول الله ﷺ ، كنت أشد الناس حياةً منه ، فما ملأت عيني من رسول الله ولا راجعته فيما أريد حتى لحق بالله ، حياةً ، فلو مت يومئذ ، قال الناس : هنيئاً لعمرو أسلم وكان على خير فمات عليه ، نرجو له الجنة . ثم تلبست بعد ذلك بالسلطان وأشياء ، فلا أدري عليّ أم لي ؛ فإذا مت فلا تبكي عليّ باكية ، ولا يتبعني مادح ولا نار ، وشدوا عليّ إزارني فخاصم ، وشنوا عليّ التراب شنأً فإن جنبي الأيمن ليس أحق بالتراب من جنبي الأيسر ، ولا تجعلن في قبري خشبة ولا حجراً ، وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قدر نحر جزور أستأنس بكم » وقد رأينا عند مسلم بعض الزيادات ومنها قوله رضي الله عنه في آخر كلامه : « كي

أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع رسل ربي ».

وقال الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » : وفي رواية أنه - رضي الله عنه - بعد هذا ، حوّل وجهه إلى الجدار وجعل يقول : « اللهم أمرتنا فنعصينا ، ونهيتنا فما انتهيينا ، ولا يسعنا إلا عفوك » ، وفي رواية أنه وضع يده على موضع الغلّ من عنقه ورفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم لا قوياً فأنتصر ، ولا بريء فاعتذر ، ولا مستنكر بل مستغفر ، لا إله إلا أنت « فلم يزل يرددّها حتى مات رضي الله عنه وهنالك رواية لابن سعد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما جاء في آخرها : « ثم قال : اللهم إنك أمرتنا فركبنا ، ونهيتنا فأضعنا ، فلا بريء فاعتذر ، ولا عزيز فأنتصر ، ولكن لا إله إلا الله ، ما زال يقولها حتى مات رضي الله عنه » ..

وكما أسلفنا - من قبل - لقد عمل تكوين أولئك البررة رجالاً ونساءً على الإيمان بالغيب والخوف من سوء العاقبة بعد الموت ويوم الحساب ، عمله في جعل الواحد منهم لبنة جدّ صالحة في أمة تقوم على عقيدة التوحيد ، وتعبّد الله في كل ساحة من ساحات الخير والنفع للإنسان ، الأمر الذي أعطاه القدرة على بناء حضارة مثلى ، لم تدع باباً من أبواب الحياة إلا طرقتة على أكمل وجه . وننظر هنا - على سبيل المثال - إلى واحد من الصحابة هو أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ، وما كان من صدقه وعلمه وبلائه في الإسلام وتضحيته على ساحة الذود عن حياض الرسالة .

ولسوف نرى أن صفاء نفس أبي موسى ، وما كان من خشيته لله وتطلعه إلى الأنس في القبر ، والنجاة يوم الدين ، كل أولئك أسهم إسهاماً كبيراً في قدرته على تجاوز الصعاب وأخذ الحذر مما يلهمي عن ذكر الله واليوم الآخر ، بل في تكوين شخصيته القادرة على العطاء المتكامل بإذن الله . أخرج أبو نعيم في الحلية عن الضحاك بن عبد الرحمن بن عرّزب قال « دعا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فتيانه حين حضرته الوفاة فقال : اذهبوا فاحفروا وأوسعوا وأعمقوا ، فجاؤوا فقالوا :

قد حفرنا وأوسعنا وأعمقنا » فقال : والله إنها لإحدى المنزلتين » إما ليوسعنَّ عليَّ قبري ، حتى تكون كل زاوية منه أربعين ذراعاً ، ثم لينفتحن لي باب إلى الجنة فلا نظرن إلى أزواجي ومنازلي ، وما أعدَّ الله تعالى لي من الكرامة » ثم لأكونن أهدي إلى منزلي مني اليوم إلى بيتي ، ثم ليصيني من ريحها وروحها حتى أبعث . ولئن كانت الأخرى - ونعوذ بالله منها - ليضيّقن عليَّ قبري حتى يكون أضيق من القناة في الزُّج ، ثم ليفتحن لي باب من أبواب جهنم فلا نظرن إلى سلاسل وأغلالٍ وقرنائٍ ، ثم لأكونن إلى مقعدي من جهنم أهدي مني اليوم إلى بيتي ، ثم ليصيني من سمومها وحميمها حتى أبعث » . قال أبو نعيم : رواه الجريري عن أبي العلاء عن بعض حفدة أبي موسى مثله .

رضي الله عن أبي موسى وهنيئاً له خشيته الصادقة ، وما زان قلبه من الاستنارة بالخوف والرجاء ، وما بدا عليه من تمثُّلٍ لهدي النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وصدق في اللجأ إلى الله في ساعة الشدة وهو مقبل عليه سبحانه .

اللهم ارزقنا حُسن التَّأسي بنبينا محمد ﷺ ، والانتفاع بسيرة أصحابه الذين صدقوا في المواطن ، ولم يغيروا ولم يبدلوا ، وكانوا على المحجة التي فارقههم عليها سيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه .

يسألون الجنة.. ويتعوضون من النار

لقد كان من هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام « أنه كان في إخباره أمته عما يكون بعد الموت ، وفي يوم المعاد ، يوم المحشر العظيم الذي لا أعظم منه ، حريصاً على أن يكون ما يخبرهم به ، ويعلمهم إياه ، حافزاً للعمل الصالح بأوسع معانيه ومدلولاته ، ثم محاسبة النفس ، وتطويعها ترغيباً وترهيباً ، واستعلاء على المعوقات » وتعميقاً للإيمان بالغيب حتى كأنه من عالم الشهادة ، لتكون على الجادة في عدم الاشتغال بالعاجلة عن الآجلة ، وفي مراقبة الله تعالى وإخلاص الدين في كل ما يأخذ المسلم وما يذر ، وبذلك يكون ذلك الإنسان الحق الجدير بتكرمة الله تبارك وتعالى ، لأنه يسهم في حركة الحياة وفق المنهج الرباني الذي جعل لكل شيء قدراً ، وكان من أبرز سماته « قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ قال علماءنا : ﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ أي يوم القيامة ، كقوله تعالى : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ .

وشواهد ما نوميء إليه من هدي النبي ﷺ في تطويع سلوك المؤمن ، بحيث يتساق مع الذي آمن به مما يكون بعد الموت ، ووجوب التطلع إلى ما يكون من العاقبة يوم الدين ... شواهد ذلك كثيرة وفيرة في أحاديثه صلوات الله وسلامه عليه القولية والفعلية . جاء في باب فضل ذكر الله عز وجل من كتاب الدعوات في الجامع الصحيح للإمام البخاري قوله رحمه الله : حدثنا قتيبة بن سعيد قال : حدثنا جرير عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى ، تنادوا هلموا إلى حاجتكم ، قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى

السماء الدنيا ، قال : فيسألهم ربهم عز وجل - وهو أعلم منهم - ما يقول عبادي ؟
قال : يقولون : يسبحونك ، ويكبرونك ، ويحمدونك ، ويمجدونك ، قال : فيقول :
هل رأوني ؟ قال : فيقولون : لا والله ما رأوك ، قال : فيقول : كيف لو رأوني ؟ قال :
يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيذاً وأكثر لك تسبيحاً ،
قال : يقول : فما يسألوني ؟ قال : يسألونك الجنة ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال :
يقولون : لا والله يارب ما رأوها . قال : فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال :
يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً ، وأشد لها طلباً ، وأعظم فيها رغبةً .
قال : فممّ يتعوذون ؟ قال : يقولون : من النار قال : يقول : فهل رأوها ؟
فيقولون : لا والله يارب ما رأوها . قال : فيقول : كيف لو رأوها ؟ قال : يقولون :
لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة ، قال : فيقول : فأشهدكم أني قد
غفرت لهم ، قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء
لحاجة ، قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم .

ولشد ما يفرح المؤمن ، وتطيب نفسه لهذه البشارة العظيمة ، لأولئك الذين
يقطعون دروب الحياة ، ذاكرين الله تعالى قولاً وعملاً في كل شأن من شؤونهم ،
مصدقين بما جاء به الكتاب العزيز والسنة النبوية عن الجنة والنار ، حتى كأن
كلّ منهما تحت ناظريهما ، وذلك ما كان يريد النبي ﷺ ، يوم كان يعلم أصحابه
وبيين لهم ما يكون بعد الموت ويوم الحساب ، ويرببهم على الذي علمهم إياه ،
كيما يكون انفعالهم صادقاً بالذي آمنوا به وصدقوا ، فينعكس ذلك على سلوكهم
عقيدة وعلماً وعملاً وإدارة لشؤون الحياة ذاكرين الله تعالى ، بعيدين عن الغفلة
التي تنزل بالمرء إلى ما دون سوية الإنسان والعباد بالله ... لأنها تنسي العبد
خالقه ، وتجعله يحب العاجلة ويذر الآخرة . ولا تسل عما يترتب على ذلك من
الطامات والضلالات .

وشتان شتان ، بين من يرتقي ويرتقي بعمله الصالح وتقواه ، رغبة في الجنة
ورغبة من النار حتى كأنها أمام ناظريه ، وبين من يضرب الران على قلبه ، وينسى

ذكر الله واليوم الآخر وساعات الحساب ، فتراه وقد استحوذ عليه الشيطان وأصبح في زمرة الغافلين .

ولقد كان تنبيه القرآن مبكراً إلى ذلك ، ففي سورة الأعراف - وهي سورة مكية - نقرأ قول الله تعالى في الآية التاسعة والسبعين بعد المائة : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ وكانت استجابة الصحابة عليهم الرضوان استجابة واعية لما وجه إليه النبي ﷺ وهو المؤمن على بيان كتاب الله ؛ فكانت ترى الخوف من يوم الحسرة ، والبكاء من خشية الله ، والحرص على أداء حقوق الله وحقوق العباد ، مخافة أن تنزل القدم في يوم تشخص فيه الأبصار ، وترى الظالمين مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفندتهم هواء .

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ قال الزبير رضي الله عنه : « أتكرر علينا الخصومة ؟ قال ﷺ : نعم ، قال رضي الله عنه : إن الأمر إذن لشديد » . أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، وكذا رواه الإمام أحمد وعنده زيادة : ولما نزلت ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال الزبير رضي الله عنه : أي رسول الله : أي نعيم نسأل عنه وإنما نعيمنا الأسودان : التمر والماء ؟ قال ﷺ : « أما إن ذلك سيكون » وروى الترمذي من طريق سفيان بن عيينة بسنده ، عن عبدالله بن الزبير بن العوام عن أبيه قال : لما نزلت ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال الزبير : « يارسول الله فأني النعيم نسأل عنه ، وإنما هما الأسودان التمر والماء ؟ قال : أما إنه سيكون » قال الترمذي : هذا حديث حسن ، ورواه ابن ماجة من طريق سفيان والترمذي أيضاً من طريق أبي بكر بن عياش عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لما نزلت هذه الآية ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال الناس : « يارسول الله عن أي النعيم نسأل ؟ فإنما هما

الأسودان والعدو حاضر وسيوفنا على عواتقنا ، قال ﷺ إن ذلك سيكون » قال أبو عيسى : وحديث ابن عينة عن محمد بن عمرو عندي أصح من هذا ، سفيان ابن عينة أحفظ وأصح حديثاً من أبي بكر بن عياش .

هذا : وقد أشار الحافظ ابن كثير إلى رواية للإمام أحمد جاء فيها أنه لما نزلت : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قال الزبير : « أي رسول الله أكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال ﷺ : ليكررن عليكم حتى يؤدي إلى كل ذي حق حقه . قال الزبير رضي الله عنه : والله إن الأمر لشديد » .

صلى الله على معلم الناس الخير ، ورضي الله عن أصحابه الذين علموا ، وعملوا وتخلقوا بالهدي النبوي في النظر إلى العاقبة يوم القيامة ، وما على الأمة إلا أن تأتسي بهذا الذي كانوا عليه من الانتفاع بالهدي المحمدي القويم .

نزل عيسى بين يدي الساعة وحكمه بشريعة الإسلام

لقد ترك نبينا محمد ﷺ الأمة حين تركها - وقد وافاه الأجل المحتوم - على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، وكان من ذلك - والإيمان باليوم الآخر ، حق لا ريب فيه من أهم أركان الإيمان ، وكل أركان الإيمان مهم - أن يتن لها ما يكون للإنسان في البرزخ ، بدءاً من سؤال الملكين في القبر ، وما يكون من أسرار الساعة وعلاماتها ، وما يكون يوم القيامة بدءاً من النفخ في الصور، وحتى يقضى بين العباد . فيذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، كل أولئك ليكون المؤمنون على بينة من أمرهم ، فيتخذوا من الدنيا مزرعة للآخرة ، وتتضح لديهم الرؤية ، ويعرفوا دلالات الأحداث والوقائع ، وما يكون من الأمور التي أخبر عنها ، أو أشار إليها عليه الصلاة والسلام .

ومن أسرار الساعة - وهي جمع شرط بفتح الراء - التي جاءت على ذكرها الأحاديث الصحاح - نزول عيسى عليه السلام حاكماً عدلاً بشريعة الإسلام . روى البخاري بسنده عن ابن شهاب أن سعيد بن المسيّب سمع أبا هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الحرب - وفي رواية ويضع الجزية - ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها ، ثم يقول أبوهريرة : واقرؤوا إن شئتم : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ » جاءت هذه الرواية عند البخاري في كتاب الأنبياء من الجامع الصحيح : « باب نزول عيسى بن مريم عليه السلام » . وأورد رواية أخرى تحت « باب قتل الخنزير » من كتاب البيوع عن

أبي هريرة أيضاً فيها شيء من الاختصار مع عبارة « يضع الجزية » بدل « ويضع الحرب ». وقد انصبَّ كلام العلماء في شرح الحديث على عبارة « ويضع الجزية » في الأغلب . ونص هذه الرواية قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « والذي نفسي بيده ليوشكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد » رواه مسلم .

وتحت هذا الباب روى البخاري أيضاً بسنده عن نافع مولى أبي قتادة الأنصاري أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف بكم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم » تابعه عُقيل والأوزاعي . وفي بعض الأحاديث زيادة على ما ذكر ، وابتداءً بالقسم من النبي ﷺ ، تأكيداً لنزول عيسى عليه السلام ؛ فقد روى مسلم بسنده عن عطاء بن مينا عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والله لينزلنَّ ابن مريم حكماً عدلاً فليكسرنَّ الصليب ، وليقتلنَّ الخنزير » وليضعنَّ الجزية ، ولتتركنَّ القلاص فلا يُسعى عليها ، ولتذهبنَّ الشحنا والتباغض والتحاسد ، وليدعونَّ إلى المال فلا يقبله أحد » وأورد القاضي عياض الرواية بلفظ « ولتُدعَوْنَ » بالتاء .

القِلاص : جمع قَلوص وهي أول ما يركب من الإبل حتى تنهي ، فإذا أثنت فهي ناقة . وهي من الإبل كالفتاة من النساء والحدث من الرجال . وقال القاضي في كتابه « مشارق الأنوار » ولتتركنَّ القلاص فلا يُسعى عليها : (أي لا يخرج ساع لجمع الزكوات من الإبل وغيرها لقلّة حاجة الناس للمال ، واستغنائهم عن ذلك ، كما جاء في آخر الحديث « وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد ») أما الإمام النووي : فحكم ببطلان هذا القول ، واستظهر أن المعنى ، أن يُزهّد فيها ، ولا يُرغب في اقتنائها لكثرة الأموال وقلة الآمال ، وعدم الحاجة ، والعلم بقرب القيامة . وإنما ذكرت القلاص لكونها أشرف الإبل التي هي أنفس الأموال عند العرب ، وهو شبيه بقول الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ قال رحمه الله : (ومعنى لا يسعى عليها : لا يعتنى بها أي يتساهل أهلها فيها ، ولا يعتنون بها .

هذا هو الظاهر . وقال القاضي عياض وصاحب المطالع رحمه الله : معنى « لا يُسعى عليها » أي لا تطلب زكاتها ، إذ لا يوجد من يعتليها . وهذا تأويل باطل من وجوه كثيرة تفهم من هذا الحديث وغيره « بل الصواب ما قدمنا والله أعلم » .

وقد يرد تساؤل حول الحكمة من نزول عيسى عليه السلام دون غيره من الأنبياء ، وحكمه بشريعة الإسلام . وفي هذا يرى العلماء - كما أورد ذلك صاحب الفتح - أن الحكمة في نزول عيسى بن مريم دون غيره من الأنبياء : الردُّ على اليهود في أنهم قتلوه ، فبيّن الله تعالى كذبهم ، وأنه الذي يقتلهم ، أو أن نزوله ، لدنو أجله ليدفن في الأرض ، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيره . ولنا أن نقول : بأن في ذلك - والله أعلم - رداً على النصارى الذين ادعوا أنه عليه السلام إله أو ابن إله افتراء على الحقيقة وعليه هو نفسه ، مع أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به ، أن اعبدوا الله .

يؤكد هذا ، أنه أيضاً يحكم بشريعة محمد ﷺ ويكون من أتباعها . قال الحافظ : وقيل : إنه دعا الله لما رأى صفة محمد وأمته ، أن يجعله منهم فاستجاب الله دعاءه ، وأبقاه حتى ينزل في آخر الزمان مجدداً لأمر الإسلام ، فيوافق خروج الدجال فيقتله . والقول الأول هو الذي مال إليه صاحب الفتح فقال : والأول أوجه .

ولكن ماذا عن الإمامة يوم ينزل عيسى عليه السلام ؟

أسلفنا لفظ رواية البخاري « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم » ونرى بجانب ذلك ما روى الإمام مسلم بسنده عن نافع مولى أبي قتادة الأنصاري أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وأمكم ؟ فهذه الرواية صريحة بأن عيسى عليه السلام هو الذي يؤم الناس بينما تقول التي قبلها « وإمامكم منكم » . ومما يعين على تبين المراد : ما روى مسلم بسنده عن الوليد بن مسلم قال : حدثنا ابن أبي ذئب عن ابن شهاب

عن نافع مولى أبي قتادة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم فأأمكم منكم ؛ فقلت لابن أبي ذئب - القائل الوليد بن مسلم - : إن الأوزاعي حدثنا عن الزهري عن نافع عن أبي هريرة « وإمامكم منكم » قال ابن أبي ذئب : أتدري ما « أمكم منكم ؟ » قلت : تخبرني ؟ قال : فأأمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم ﷺ « وعند الإمام أحمد من حديث جابر في قصة الدجال ونزول عيسى « وإذا هم بعيسى ، فيقال : تقدم ياروح الله ، فيقول : ليتقدم إمامكم ، فليصل بكم » ولابن ماجه في حديث أبي أمانة الطويل في الدجال قال : « جلهم أي المسلمين بيت المقدس ، وإمامهم رجل صالح فبينما إمامهم قد تقدم ليصلي بهم الصبح ، إذ نزل عيسى بن مريم ، فرجع ذلك الإمام ينكص - يمشى القهقري - ليتقدم عيسى يصلي بالناس » فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول له : تقدم فصل فإنها لك أقيمت . وقد نقل الحافظ ابن حجر عن أبي الهروي قوله : حدثنا الجوزي عن بعض المتقدمين قال : معنى قوله : « وإمامكم منكم » يعنى أنه يحكم بالقرآن ، لا بالإنجيل .

واستنبط ابن التين من قوله : « وإمامكم منكم » أن الشريعة المحمدية متصلة إلى يوم القيامة ، وأن في كل قرن طائفة من أهل العلم . وجعل ما أوضح صاحب الفتح من أن الذي ذكر ابن التين وما قبله ، لا يبين كون عيسى إذا نزل يكون إماماً أو مأموماً ، وعلى تقدير أن يكون عيسى إماماً ، فمعناه أنه يصير معكم بالجماعة من هذه الأمة . واتجه الطيبي إلى أن المعنى : يؤمكم عيسى حال كونه في دينكم . ولكن يعكر على هذا القول - كما يرى الحافظ - قوله في حديث آخر عند مسلم فيقول أميرهم : تعال صل لنا ، فيقول : لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة . ولنستمع إلى ما حقق ابن الجوزي إذ قال : لو تقدم عيسى إماماً لوقع في النفس إشكال ، ولقليل : أترأه تقدم نائباً أو مبتدئاً شرعاً ؟ فصلى مأموماً لئلا يتدنس بغبار الشبهة وجه قوله ﷺ « لاني بعدي » وفي صلاة عيسى خلف رجل من هذه الأمة ، مع كونه في آخر الزمان وقرب قيام الساعة ،

دلالة للصحيح من الأقوال ، أن الأرض لا تخلو عن قائم لله بحجة والله أعلم .

وفي خاتمة المطاف : ما من ريب في أن هذا الذي أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام في شأن نزول عيسى عليه السلام ، وحكمه بشريعة الإسلام ، وأن ذلك من أشراط الساعة وعلامات يوم القيامة ، مما يزيد المؤمن إيماناً مع إيمانه ، بأحقية ما هو عليه من اتباع الإسلام والعمل بأحكامه وأخلاقه وآدابه ، وبنه الغافلين السادرين الساهين عن دينهم القويم ، وعن تذكر ذلك اليوم وما يكون فيه ، وما يجب له من الإعداد الصالح والتزود النافع لما أنه حق لا ريب فيه . والله الهادي إلى سواء السبيل ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . وله الشكر على نعمة الإسلام وكفى بها من نعمة ، ونسأله التوفيق والثبات .

الإرتباط الوثيق بين الدارين.. العمل والجزاء

الناظر في كتاب الله تعالى ، وبيانه من حديث النبي عليه الصلاة والسلام، يرى حين يكون من أهل النظر وإشراق البصيرة ، أن العمل في الدنيا وثيق الارتباط بالمسؤولية يوم القيامة ، فالأمر ليس متروكاً على عواهنه ، بل الله مطلع على ما يسر العبد وما يعلن ، وسوف يجد الناس ما عملوا حاضراً يوم القيامة ، ولا يظلم ربك أحداً .

والمفروض بالمؤمن أن يكون على الجادة أولاً ، في نظرة تكاملية إلى تلكم العلاقة بين العمل في هذه الدار العاجلة ، وبين المسؤولية يوم الجزاء عما عمل : فليس هنالك انفصام ولا تجزئة . وأن يكون مرمى بصره وغاية مرامه مرضاة الله « كما يحشر بفضل الله تعالى مع من تشملهم العناية ، فيكونون من أهل جنات الفردوس ، نُزِّلَ الأبرار الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وإذا كان الأمر كذلك : فليذكر المؤمن أن الجنة حفت بالمكاه ، وأن النار حفت بالشهوات ، ولا بد من إعداد العدة للوصول إلى تلكم السلعة الغالية التي هي الجنة ، وقد ثبت في الحديث الصحيح قوله عليه الصلاة والسلام : « ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة » .

وفي نطاق التكامل الذى نوميء إليه بين العمل في الدنيا – والسلوك بوجه عام – وبين المسؤولية يوم القيامة ومدى الارتباط بينهما ، تمكن الإشارة إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام « كثيراً ما كان يوجه أصحابه إلى الفضائل التي كانت فضائل بمعايير الإسلام ، ويحذرهم من السلوك المجافي لمعاني الخير ، والأخلاق التي تنبو عن مقتضيات الإيمان .. يوجههم من طريق التذكير بما يكون يوم

القيامة، من حصاد لتتائج هذا الخلق أو ذاك يشهده الخلق في واحد من المشاهد؛ فتراه - صلى الله وسلم وبارك عليه - وهو يتخذ من هذه الحقيقة الكائنة في ذلك اليوم، أداة مباركة لتعميق المراد في نفوس الناس - مستعيناً بذلك المشهد من مشاهد يوم القيامة الذي يعرضه - وهو لا ينطق عن الهوى - بشفافيته الرفيعة، وأسلوبه الفريد المؤثر، حتى كأنك ترى المشهد ماثلاً أمامك، وحتى تُحسَّ كأنك في روضة من رياض الجنة، في حال الرضا عن العاملين وما يكون لهم من حسن الجزاء. وأما في الحالة الأخرى - والمشهد مرعب مخيف - فإنك تُحسَّ كأن النار تلفحك بلهبها وتقول: هل من مزيد؟

خذ مثلاً تحذيره ﷺ من الرياء والسمعة في القول والعمل - وذلك يتضمن الدعوة إلى التحقق بالتوحيد، وإخلاص الوجهة لله عز وجل - كيف كشف عليه الصلاة والسلام عن ثلاثة أصناف من الخلق، هم أول من تسقر بهم النار يوم القيامة، مع أن ظاهر الأمر في الدنيا: جمع للقرآن، وجهاد في سبيل الله، وبذل للمال ابتغاء وجه الله .. ولكن وراء الأكمة ما وراءها والله، عليم بذات الصدور؛ إذ لم يكن الإخلاص لله وطلب مرضاته وراء العمل، بل الذي كان الرياء والسمعة، والرغبة في الدنيا وحطامها، وحب المباهاة، وأن يقال: فلان كذا وفلان كيت. والله تعالى يقول: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهو سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك.

أخرج الترمذي عن أبي عثمان المدائني أن عقبة بن مسلم حدثه أن شُفيًا الأصبحيَّ حدثه «أنه دخل المدينة» فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس فقال: من هذا؟ فقالوا: أبوهريرة، قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس. فلما سكت وخلا، قلت له: أنشدك بحق، وبحق، لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته! فقال أبوهريرة: أفعل، لأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته، ثم نشغ أبوهريرة نشغة، فمكث قليلاً ثم أفاق فقال: لأحدثك حديثاً حدثني رسول الله ﷺ في هذا البيت ما

معنا أحد غيري وغيره ثم نشخ أبوهريرة نشغة أخرى ، ثم أفاق فمسح وجهه فقال: لأحدثك حديثاً حدثني رسول الله ﷺ وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره ، ثم نشخ أبوهريرة نشغة شديدة ، ثم مال خاراً على وجهه فأسندته عليّ طويلاً ، ثم أفاق فقال : حدثني رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكلُّ أمة جاثية ؛ فأول من يدعو به ، رجل جمع القرآن ، ورجل يقاتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال ، فيقول الله للمقاريء: ألم أعلمك ما أنزلتُ على رسولي ؟ قال : بلى يارب ، قال : فماذا عملت ؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار . فيقول : كذبت . ويقول الله : بل أردت أن يقال إن فلاناً قارئ ، فقد قيل ذاك . ويؤتى بصاحب المال ، فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى يارب ، قال : فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم وأتصدق ، فيقول الله : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جواد ، فقد قيل ذاك . ويؤتى بالذى قتل في سبيل الله ، فيقول الله له : فماذا قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك ، فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله تعالى له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جريء ، فقد قيل ذلك . ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال : يا أباهريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق تسعّر بهم النار يوم القيامة .»

نشخ: شهق حتى كاد يغشى عليه أسفاً أو خوفاً : قال ابن الأثير في النهاية : النشخ في الأصل الشهيق حتى يكاد يبلغ به الغشي ، وإنما يفعل الإنسان تشوقاً إلى شيء فائت وأسفاً عليه ومنه .

وما أحسبني بحاجة إلى مزيد من الكشف عن الدلالة العميقة لهذا الحديث، وما يوحى به ، وينبه عليه من التكامل بين العمل في الدنيا ومدى الإخلاص فيه ، وبين المسؤولية يوم القيامة ، والعلاقة الوثيقة بينهما ، الأمر الذى ينبغي للمؤمن أن يذكره أبداً ولا ينساه ؛ فمن مقتضيات الإيمان بأن يوم القيامة

كائن لاريب فيه ، وأن التصديق به أشبه ما يكون بالتصديق بطلوع الشمس وتوالي الليل والنهار .. من مقتضيات ذلك : الإيمان بما يترتب على هذا : من أن ذلك اليوم « يوم الجزاء بما كان الإنسان يعمل في دار العمل ، له ما كسب وعليه ما اكتسب .

هذا : والحديث الذي نحن بصددده ، والذي دلنا على ما يكون من كشف للحقيقة التي تكون وراء العمل بين يدي الله عز وجل يوم القيامة « فيه ما يشير إلى مدى الانفعال بما فيه عند سامعيه من أهل الإيمان ، ذلكم ما نجد من قول الوليد أبي عثمان : فأخبرني عقبة بن مسلم أن شفيأ - يعني راوي الحديث عن أبي هريرة - دخل على معاوية فأخبره بهذا ، قال أبو عثمان : وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيافاً لمعاوية ، فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة ، فقال معاوية : قد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقى من الناس ؟ ثم بكى معاوية بكاء شديداً ، حتى ظننا أنه هالك ، وقلنا : قد جاءنا هذا الرجل بشرٍ ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال : صدق الله ورسوله : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفَّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، واكتبنا في زمرة الذين إذا ذُكِّروا ذكروا « ولم يلهم متاع الدنيا وزخرفها عن قدر المسؤولية يوم القيامة حق قدرها ، وأن ذلك حق لا ريب فيه .

مكتوب بين عينيه: كافر

في ظلال الرحلة مع ما يسبق يوم القيامة من أشراط الساعة ، وما يكون في ذلك اليوم من الحشر العظيم والأهوال ، حيث الحصاد لما كان في الدنيا ، والسؤال عما كسب العباد في تلك الحياة الفانية ... إذ ترى كل إنسان قد ألزمه الله طائره في عنقه ، ويخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ .. في هذه الرحلة المباركة ، أجدني مسوقاً مرة أخرى إلى التذكير بما منّ الله به على الخلق ببعثة محمد ﷺ إلى الإنس والجن ، وما أكرم به أمّتنا من أنه ﷺ لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى ، حتى استوفى أكمل استيفاء ما أوّمن عليه من بيان الكتاب العزيز ، ودلالة المسلمين على كل ما فيه الخير العميم وسعادة الدارين ، وترغيبهم فيه ، والكشف عما فيه الشر في الدنيا ، وسوء المنقلب يوم الحساب ، والترغيب عنه . وكان من ذلك ما بيّن عليه الصلاة والسلام من أشراط الساعة التي تكون بين يدي يوم القيامة ، كيما يكون المؤمن على بينة من أمره ، يُجانب الغفلة ما استطاع ، ويدرك المراد من الأمر الجلل حين يقع « ويتبين مرمى الذى حدث من مؤشرات ونذر ، تذكر بيوم الدين ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ، وتراه - وهو يرجو الله واليوم الآخر - لا يمر بالوقائع ، أو تمر به ، وهو كواحد من النظارة أمام رواية معروضة يبتغي من وراء المتابعة لمشاهدها قضاء الوقت « ولكن ذكرى ، وتذكّر ، وسلوك جاد لطريق أهل الخشية الذين لا يلهيهم الأمل ، ولا يخوضون مع الخائفين ، بل يتقون الله في السر والعلن ، ويخافون أشد الخوف يوم الحساب .

وقد أشرتُ من قبل إلى نزول عيسى عليه السلام ، وحكمه بشريعة الإسلام ، وأن ذلك واحد من أشراط الساعة ، وأشير اليوم إلى شرط آخر هو ظهور الدجال ، لما أن ذلك من أبرز تلکم الأشرط والعلامات . ومن الأمانة أن يذكر المرء نفسه

وإخوانه لأن الرسول عليه الصلاة والسلام ، عني بالكشف عن صفات الدجال الذي يمتحن فيه المسلمون بما يظهر على يديه - بإرادة الله من الأمور الخارقة بحسب الظاهر ، وحرص النبي ﷺ على تنبيه الأمة وتحذيرها مما سيكون ، كيما يُعدَّ المسلم العدة ، فيكون على قدر من الإيمان والمعرفة والوعي ، يباعد بينه وبين الوقوع في شرك الدجالين ، وبخاصة ذلك الدجال ، إن أدركه . وأنت واجد أن المؤمن الحق - كما جاء في السنة - لا تزيده مظاهر التمويه ، وما يجري على يد الدجال ، إلا كفرأ به ، ومزیداً من البصيرة بحقيقته واستمساكاً بالحق الذي جاء به خاتم النبيين ، وأن الدجال كافر بدعوى النبوة ، كافر كفرأ أشد وأعتى بدعوى الإلهية والعباد باله ، وأنه أهون على الله من ذلك ، وقد جاءت أخبار الدجال في الصحيحين والسنن وغيرها من دواوين السنة .

قال الإمام البخاري: حدثنا عبدالعزيز بن عبدالله قال : حدثنا إبراهيم عن صالح عن ابن شهاب عن سالم بن عبدالله أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قام رسول الله ﷺ في الناس ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : « إني لأنذركموه ، وما من نبي إلا وقد أنذره قومه ، ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه ، إنه أعور وإن الله ليس بأعور » .

وهذا الذي نرى من تقرير النبي عليه الصلاة والسلام ، أنه ما من نبي إلا وقد أنذر قومه الدجال ، والذي نرى من بيان صفة واضحة من صفاته الخلقية ، نجد معه في رواية أخرى ، ذكراً لبعض المظاهر التي قد توقع ضعاف الإيمان والوعي في أحابيله ، فقد روى البخاري بسنده عن شعبة عن عبد الملك عن ربعي عن حذيفة عن النبي ﷺ قال في الدجال : « إن معه ماءً وناراً فناره ماء بارد ، وماءه نار » قال ابن مسعود : أنا سمعته من رسول الله ﷺ .

ومن لطف الله تعالى : أنه مكتوب بين عيني الدجال : « كافر » يقرؤها المسلم الذي خالطت بشاشة الإيمان قلبه ، فكان له من الله نور يهديه سواء

الصراف، يقرأها كاتباً كان أو غير كاتب . ذلكم ما روى البخاري وغيره - وهذا لفظ البخاري - عن أنس رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب : « كافر » قال البخاري : فيه أبوهريرة وابن عباس عن النبي ﷺ .

وهكذا يكون على المؤمن - وهو يحرص على سلامة العاقبة ، وأن يلقى ربه آمناً يوم القيامة ، لا يخاف بأساً ولا رهقاً ، ولا يحمل أوزار التصديق بالدجال ، إن لقيه ... على المؤمن وهو يحرص على ذلك كله أن يتسلح بكل ما من شأنه أن يزيده إيماناً على إيمان ، ويقيناً على يقين ، ويمكنه - بعون الله - من أن يكون فوق الترهات والأباطيل ، وما يعتصم به الدجال من كذب وتمويه .

وحين يكون المؤمن على هذه السوية ، لا يضره بإذن الله تمويه ذلك الكافر الخبيث ، فهو أهون على الله من كل تلك المظاهر التي تصحبه ، والأمور التي تجري على يديه ، ويمتحن بها إيمان أهل الإيوان وسلامة تصديقهم به ؛ فالؤمنون يزدادون برؤيتها كفرةً به ويقيناً بما هم عليه من الحق . أما الذين في قلوبهم مرض : فهم الذين يرتابون ، وتنطلي عليهم الأكاذيب والضلالات ، جاء في أول حديث أثبتته الإمام البخاري في « باب ذكر الدجال » من كتاب الفتن في الجامع الصحيح قوله : حدثنا مسدد قال : حدثنا يحيى قال : حدثنا إسماعيل قال : حدثني قيس قال : قال لي المغيرة بن شعبة : « ما سأل أحد النبي ﷺ عن الدجال ما سألته ، وإنه قال لي : ما يضرك منه ؟ قلت : لأنهم يقولون : إن معه جبل خبز ، ونهر ماء ، قال : بل هو أهون على الله من ذلك » وفي رواية لمسلم : « قلت : إنهم يقولون : معه جبال من خبز ولحم ونهر من ماء ، قال : هو أهون على الله من ذلك » .

اللهم قوّ إيماننا ، وثبتنا على الحق ، وأعدنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، ومن فتنة المسيح الدجال ، إنك على كل شيء قدير .

من أدركه الدجال...

فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف

هذه خطوة أخرى ، على طريق نستجلي من خلالها قسماً من نصيح النبي ﷺ لأمته ، في شأن شرط من أشراط الساعة ، وعلامة من علامات يوم القيامة ، وأعني به خروج المسيح الدجال أعاذنا الله من شره ومكره ، وقد رأينا فيما سبق بعضاً من نصوص الحديث التي جاءت على طرف من أخباره ، ونتابع اليوم ما كنا بدأناه إن شاء الله ؛ روى الإمام مسلم بسنده عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ذكر الدجال بين ظهرائي الناس فقال : إن الله تعالى ليس بأعور ، ألا وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية . وفي رواية طافية .

هكذا رويت الكلمة بالهمز وتركه ، وكلاهما - كما يقول العلماء - صحيح . فالمهموزة «طافئة» هي التي ذهب نورها وغير المهموزة «طافية» التي نتأت وطفئت مرتفعة وفيها ضوء .

وأنت ترى في هذا الحديث ، حرص النبي ﷺ - وهو لا ينطق عن الهوى - على البيان القاطع لأمته عن ذلك الرجل ، خشية على المسلمين من الوقوع في أحابيله وأضاليله . وها نحن أولاء نجد في بعض الروايات ، مزيداً من بيان النبي عليه الصلاة والسلام ، للحقيقة التي تكمن وراء المظاهر المصاحبة للدجال ، وتوجيهاً لمن يتلى بأن يشهد خروجه ، قال الإمام مسلم : حدثنا علي بن حُجر قال : حدثنا شعيب بن صفوان عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن خراش عن عقبة بن عمرو أبي مسعود الأنصاري قال : انطلقت معه ، إلى حذيفة بن اليمان ، فقال له عقبة : حدثني ما سمعت من رسول الله ﷺ في الدجال قال : « إن الدجال يخرج وإن معه ماءً وناراً ، فأما الذي يراه الناس ماءً : فنار تحرق ، وأما الذي يراه الناس

ناراً : فمأء بارد عذب ، فمن أدرك ذلك منكم ، فليقع في الذي يراه ناراً ، فإنه ماء عذب طيب » فقال عقبة : وأنا قد سمعته ، تصديقاً لحذيفة . وله من رواية أخرى عن ربعي بن خراش أيضا قال : اجتمع حذيفة وأبومسعود ، فقال حذيفة : «لأنا بما مع الدجال أعلم منه ؛ إن معه نهراً من ماء ونهراً من نار ، فأما الذي ترون أنه نار : ماء ، وأما الذي ترون أنه ماء : نار ، فمن أدرك ذلك منكم ، فأراد الماء فليشرب من الذي يراه أنه نار فإنه سيجده ماء » . قال أبومسعود : هكذا سمعت النبي ﷺ يقول . وهو كذلك عند أبي داود .

ومن الجدير بالذكر ، أنه لم يكن في حديث النبي عليه الصلاة والسلام ، ما يشعر بالحقة الزمنية التي يخرج فيها الدجال ؛ قرباً أو بعداً ، إلا ما كان من بيان أن خروجه من علامات الساعة ؛ فإن هنالك بعض الروايات التي يقول فيها عليه الصلاة والسلام : « إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه » وهذا يعطي احتمال أن يكون خروج الدجال في زمنه صلوات الله وسلامه عليه . وحجيجه أي محاججه ومغالبه بإظهار الحجة عليه ، والحجة : الدليل والبرهان ، هذه واحدة : أما الثانية : فإن في تلکم الروايات علاجاً ناجحاً قدمه النبي ﷺ في مواجهة تلکم الفتنة النکراء ، ذلكم هو قراءة فواتح سورة الکهف على ذلك الکافر الخبيث ، وغير خاف أن هذه القراءة لآيات من کتاب الله ، ما بدُّ من أن يصحبها الإيمان القوي ، وصدق التوجه إلى الله الذي بيده ملکوت السماوات والأرض .

أخرج مسلم - في رواية طويلة مباركة تحمل مزيداً من التفصيل - بسنده عن عبدالرحمن بن جبير بن نفي عن أبيه جبير بن نفي عن الثواس بن سمعان قال : « ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة . فخفض فيه ورفع ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فلما رُحنا إليه ، عرف ذلك فينا ، فقال : ما شأنكم ؟ قلنا : يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعته حتى ظنناه في طائفة النخل ، فقال : غير الدجال أخوفني عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم . فأنا حجيجه ، وإن يخرج ولست فيكم فامروا حجيجه نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ، إنه شاب قطط -

أي شديد جعودة الشعر مباعد للجعودة المحبوبة - عينه طافئة كأني أشبهه
 بعبدة العزى بن قطن ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف إنه
 خارج خلّة بين الشام والعراق « فعث يميناً ، وعث شمالاً ، ياعباد الله فاثبتوا ،
 قلنا : يارسول الله ، وما لبثه في الأرض ؟ قال : أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ، ويوم
 كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم . قلنا : يارسول الله فذلك اليوم
 الذي كسنة أتكفيناه فيه صلاة يوم ؟ قال : لا اقدروا له قدره . وجاء في آخر
 الحديث قول النبي عليه الصلاة والسلام ؛ بعد بيان ما يكون من الخير ، بعد أن
 يقتل الدجال على يد عيسى عليه السلام « .. وبيارك في الرّسل - يعني اللبن -
 حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس ، واللقحة من البقر لتكفي
 القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس ، فبينما هم
 كذلك ، إذ بعث الله رجلاً طيبة ، فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن
 وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمُر فعليهم تقوم
 الساعة » .

وقد أخرج أبوداود هذا الحديث مختصراً عن النواس بن سمعان أيضاً ،
 فروى بسنده عنه قال : « ذكر رسول الله ﷺ الدجال فقال ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا
 حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على
 كل مسلم ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، فإنها جواركم من
 فتنته ... إلى أن يقول : ثم ينزل عيسى بن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق
 فيدركه عند باب لُد فيقتله » .

جواركم من فتنته : أمانكم .

يقفه للدجال..

أعظم شهادة عند رب العالمين

أسلفنا القول بأن النبي عليه الصلاة والسلام ، رحمةً بأمته وحرصاً على سلامة العاقبة للمؤمنين ، أعطى أهمية واضحة للكشف عن سمات المسيح الدجال الذى يكون ظهوره واحداً من أشرط الساعة بين يدي يوم القيامة ، ذلك أن يوم القيامة هو يوم الجزاء ، وبمقدار ما يحفظ المؤمن من الفتن ما ظهر منها وما بطن ومنها فتنة المسيح الدجال ، يكون ذلك أدعى لأن يكون من الذين يؤتون الكتاب باليمين ، ويعتدون في زمرة من نالوا حظهم من الكرامة التي أنبأ عنها قوله جل شأنه في سورة الانشقاق : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ . فَأَمَّا مَنْ أَوَّيَّكَتَابِهِ يَمِينَهُ فُسُوفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مُسْرُورًا ﴾ وأين هؤلاء عن قال الله فيهم : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أَوَّيَّكَتَابِهِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فُسُوفَ يَدْعُو ثُبُورًا . وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا . إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُسْرُورًا . إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ بَلَىٰ . ﴾

ولا يخفى أن رسولنا ﷺ — وهو الرحمة المهداة — إنما يريد — والله أعلم — بيانه التفصيلي الواضح عن هذا الخبيث المسيح الدجال ، إنما يريد للمؤمنين والمؤمنات على اختلاف الأعصار ، أن يزدادوا علماً بذلك ، ويستعدوا له بالعمل الصالح ، ويتسلحوا باليقظة التي يولدها الإيمان والمعرفة ، وأن يكون لذلك مكانه المناسب على ساحة التربية الإيمانية والتعليم ؛ فهناك يكون درء الفتنة بإذن الله وهنالك يظهر للعيان أن صنيع هذا الرجل لا يعدو أن يكون لوناً مموهاً من ألوان التدجيل والكذب ، ولذلك سمي الدجال ، وأصبحت هذه التسمية علماً عليه في الشرائع .

فالدجال: من الدجل وهو التغطية والتمويه ، قال علماءنا: وسمي الكذاب دجالاً لأنه يغطي الحق بباطله، وقال ابن دريد : سمي دجالاً لأنه يغطي الحق

بكذبه ، من أجل هذا نرى في العديد من كتب اللغة : أن كلمة الدجال أصبحت مصطلحاً عليه، فترى هناك : قولهم الدجال : المسيح الكذاب: وقيل : سمي دجالاً لأنه يقطع الأرض ويسير في أكثر نواحيها ، وعلى أية حال : فهو يقطع الكثير من نواحي الأرض ممّوها كذاباً ، يحاول أن يغطي الحق بباطله الذي جاء به، ولكن ذلك لا ينطلي على أهل اليقين والحمد لله . وإنما سمي مسيحاً — كما يقول ابن الأثير — لأن إحدى عينيه ممسوحة لا يبصر بها .. وأما تسمية عيسى عليه السلام بالمسيح : فقيل : لمسح زكريا عليه السلام إياه ، وقيل : لأنه يمسح الأرض أي يقطعها ، وقيل : لأنه كان يمسح ذا العاهة فيبرأ . ولا بأس أن يكون لهذه الأمور مجتمعة دخل في هذه التسمية .

والذي جرى بيانه ، من حرص النبي ﷺ على تجنب الأمة فتنه هذا الكافر الضليل وأذاه ، أثمر نصوصاً وفيرة في هذا الموضوع نجدها في الصحيحين وغيرهما ، وكان ذلك حجة واضحة دامغة في أنه سوف يوجد لا محالة ، وأنه شخص محدّد السّمات بعينه ، ابتلى الله به العباد بما يظهر على يديه من الأمور التي يضعف أمامها أهل الغفلة ، عافانا الله من ذلك ، أما المؤمن اليقظ الذي أكرمه الله بالتسلّح باليقين والتقوى : فيثبت الثبات كله ، فلا يتزعزع ، ولا يخالط قلبه أدنى شك في كذب الدجال ، وضلال مدّعا ، مهما ظهر على يديه من الأمور التي يُقدّره الله عليها ابتلاءً للعباد.. وروى الإمام مسلم بسنده عن ابن شهاب قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن أبا سعيد الخدري قال : حدثنا رسول الله ﷺ يوماً حديثاً طويلاً عن الدجال ، فكان فيما حدثنا قال : يأتي وهو محرّم عليه أن يدخل نقاب المدينة ، فينتهي إلى بعض السّباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس ، أو من خير الناس ، فيقول له : أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه ، فيقول الدجال : أرايتم إن قتل هذا ثم أحييته، أتشكون في الأمر ؟ فيقولون: لا ، فيقتله، ثم يحييه ، فيقول حين يحييه: والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني الآن ، فيريد الدجال أن يقتله ، فلا يسلط عليه».

وهناك رواية أخرى لمسلم أيضاً عن أبي سعيد رضي الله عنه، تحمل نوعاً من التفضيل، في صنع ذلك الرجل الذي يقوم للدجال، ويصبر على أذاه، وقد بلغ حدّ القتل مستعيناً بالله عز وجل، ثم بصدق ما ورد عن النبي ﷺ من تلكم الأحاديث التي لم تدع ريبة لمستريب في أنه المسيح الكذاب، فتراه - أعني الرجل - يقول للناس: «يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ».

ولقد جاء في الرواية المومى إليها عند مسلم عن أبي سعيد قوله رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال، فيتوجه قبله رجل من المؤمنين فتلقاه المسالِح مسالِح الدَّجَال، فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: أعمد إلى هذا الذي خرج، قال: فيقولون له: أو ما تؤمن بربنا؟ فيقول: ما بربنا خفاء، فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه، قال: فينطلقون إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ، قال: فيأمر الدجال فيشبح، فيقول: خذوه وشجّوه، فيوسع ظهره وبطنه ضرباً، قال: فيقول: أو ما تؤمن بي؟ قال: فيقول: أنت المسيح الكذاب، قال: فيؤشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرّق بين رجله، قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين، ثم يقول له: قم، فيستوي قائماً، قال: ثم يقول له: أتؤمن بي، فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة، قال: ثم يقول يا أيها الناس، إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس، قال: فيأخذه الدجال ليذبحه، فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً، فلا يستطيع إليه سبيلاً، قال: فيأخذ بيديه ورجليه، فيقذف به فيحسب الناس أنها قذفه إلى النار، وإنما ألقى في الجنة، فقال رسول الله ﷺ: هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين».

اللهم اجعلنا من عبادك الذي يشبتون على الحق، ولا تزعزعهم الفتن، واعصمنا من الدجاجة أجمعين. وارزقنا الشهادة في سبيلك يا ذا الجلال والإكرام، وصلى الله على إمام المرسلين ومن هو بالمؤمنين رؤوف رحيم، والله ولي التوفيق.

غير الدجال.. أخوف لي عليكم

عنوان التوفيق - بلا ريب - أن يتلقى المسلم والمسلمة ما جاء عن رسول الله ﷺ بوعي دقيق ، ويتقبله بتسليم عميق ، يخالطه ما يذوق المؤمن من حلاوة الإيمان بأن محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه خاتم المرسلين المبلغ عن ربه ، وأخبر عنه ربه ، بأنه لا ينطق عن الهوى ؛ إن هو إلا وحي يوحى . وإذا توافر للمسلم ذلك ، فلا تسل عما يكرمه الله من القدرة على تبين الأمور والتوقي من الفتن مهما ادلهمت الخطوب ، وتبهرجت تلك الفتن ؛ ذلك ما رأيناه في ذلك الرجل الذي لا ينخدع بما يظهر على يد الدجال ، والذي أخبر عنه النبي ﷺ بأنه خير الناس أو من خير الناس في مواجهة ذلك الضال الخبيث ، من عدم الافتتان بتمويهه وكذبه ، وبالثبات على الحق الذى جاء به الكتاب العزيز ، وبينه الرسول عليه الصلاة والسلام وأنه أعظم الناس شهادةً عند رب العالمين .

كان واضحاً أن ذلك الرجل على ذكر مما جاء في شأن ذلك الكذاب، وما يتصف به على لسان الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه ، الأمر الذى يدل على ضرورة المعرفة والتصديق بما جاء عن الرسول الله ﷺ في أمر الفتن وأشراط الساعة ، وما يكون بين يدي يوم القيامة ، ووعي ذلك ببصيرة إيمانية نافذة كيما يكون في مقدور المؤمن بتوفيق الله تعالى ، أن يثبت للفتن ، ويواجه تحديات الفتانين « تلك الفتن والتحديات التي من أبرزها يومذاك : فتنة المسيح الدجال وتحديه لعباد الله . والذي رأينا عند الإمام مسلم ، رواه الإمام البخاري على صورة أقل تفصيلاً ، وإن كانت الروايات جميعها ، تشرق بصنيع ذلك الرجل المؤمن وموقفه من المسيح الدجال ، تذكيراً للناس بكذبه ، وبما جاء عن الرسول الله ﷺ ، ومجاهرته بالحقيقة الإيمانية في ذلك ، وصبره على شديد انتقام الدجال منه حين قتله ثم أحياه ، وإعلانه على رؤوس الأشهاد ، أن ما حصل لم

يزده إلا بصيرة به أخزاه الله . جاء في الجامع الصحيح تحت باب لا يدخل الدجال المدينة من كتاب فضائل المدينة ، ما روى البخاري بسنده عن ابن شهاب قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثاً طويلاً عن الدجال ، فكان فيما حدثنا به أن قال: « يأتي الدجال - وهو محرّم عليه أن يدخل نقاب المدينة - بعض السّباخ التي بالمدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس - أو من خير الناس - فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله ﷺ حديثه ، فيقول الدجال: أرأيت إن قتلت هذا ثم أحيتّه هل تشكون في الأمر ؟ فيقولون : لا ، فيقتله ثم يحياه ، فيقول حين يحياه : والله ما كنت قط أشد مني بصيرة مني اليوم ، فيقول الدجال: أقتله ، فلا يسلطُ عليه » وجاء في رواية أخرى أوردها في كتاب الفتن من الجامع الصحيح « ... والله ما كنت فيك أشدَّ بصيرة مني اليوم ، ف يريد الدجال أن يقتله ، فلا يسلطُ عليه » .

ومما تجدر الإشارة إليه أن تلکم الوقفة الإيمانية الواعية التي أخبر عنها رسول الله ﷺ حجة على هذه الأمة في وجوب الإعداد المتكامل للمسلم والمسلمة - كما أسلفنا من قبل - لأن ما فعله ذلك الرجل الذي كان يومئذ خير الناس أو من خير الناس ، دل على سلامة البنية عنده في القلب والعقل والسلوك . ولقد يتساءل البعض عما يجري على يد المسيح الدجال من إحياء الميت ، وهو من هو في ضلاله وكفره الذي وصل به إلى ادعاء الربوبية والعباد بالله ؛ وإحياء الموتى آية عظيمة من آيات الأنبياء وقد كان من جواب الإمام الخطابي رحمه الله « أن الذي يحصل من الدجال هو على سبيل الفتنة للعباد ، إذ كان عندهم ما يدل على أنه مبطل غير محق في دعاه ، وهو أنه أعور مكتوب على جبهته كافر ، يقرؤه كل مسلم ؛ فدعواه داحضة مع وسم الكفر ونقص الذات والقدرة ، إذ لو كان إلهاً لأزال ذلك عن وجهه ، وآيات الأنبياء سالمة من المعارضة فلا يشتبهان » . وفي الدجال مع ذلك ، كما يقول الحافظ ابن حجر ، دلالة بينة - لمن عقل - على كذبه ، لأنه ذو أجزاء

مؤلفة، وتأثير الصنعة ظاهر فيه مع ظهور الآفة به ، فإذا دعا الناس إلى أنه ربهم فأسوأ حال من يراه من ذوي العقول أن يعلم أنه لم يكن ليسوي خلق غيره ويعدله ويحسنه ولا يدفع النقص عن نفسه ، فأقل ما يجب أن يقول : يامن يزعم أنه خالق السماء والأرض ، صور نفسك واعدلها ، وأزل عنها العاهة ، فإن زعمت أن الرب لا يحدث في نفسه شيئاً ، فأزل ما هو مكتوب بين عينيك . هذا ، وقد مر بنامن قبل قول النبي ﷺ « هو أهون على الله من ذلك » .

وجيل ما قال المهلب فيما روى عنه الحافظ : « ليس في اقتدار الدجال على إحياء المقتول المذكور ، ما يخالف ما تقدم من قوله ﷺ : وهو أهون على الله من ذلك ، أي من أن يمكن من المعجزات تمكيناً صحيحاً ، فان اقتداره على قتل الرجل ثم إحيائه لم يستمر له فيه ، ولا في غيره ، ولا استضرّ به المقتول إلا ساعة تألمه بالقتل ، مع حصول ثواب ذلك ، وقد لا يكون وجد للقتل ألماً لقدرة الله تعالى على دفع ذلك عنه » . أما القاضي ابن العربي صاحب « أحكام القرآن » و « عارضة الأحوذى » فقد عرّج على ما يظهر على يد الدجال من الآيات الأخر ، وكشف عما يراه من الحكمة في ذلك ، مبيناً أن الذين يسقطون في الفتنة ، هم أهل الريبة مزعزعو الإيمان ، وأنه لا خوف على أهل اليقين . ذلكم قوله رحمه الله : « الذي يظهر على يد الدجال من الآيات من إنزال المطر والخصب على من يصدقه » والجدب على من يكذبه ، واتباع كنوز الأرض له ، وما معه من جنة ونار ومياه تجري ! كل ذلك محنة من الله واختبار ، ليهلك المرتاب وينجو المتيقن ، وذلك كله أمر مخوف ، ولهذا قال ﷺ : « لافتنه أعظم من فتنة الدجال » وكان يستعيز منها في صلاته تشريعاً لأمته ، وأما قوله ﷺ في الحديث الآخر عند مسلم : « غير الدجال أخوف لي عليكم » فإنما قال ذلك للصحابة لأن الذي خافه عليهم أقرب إليهم من الدجال ، فالقريب المتيقن وقوعه لمن يخاف عليه ، يشتد الخوف منه على البعيد المظنون وقوعه به ولو كان أشد » .

اللهم احفظنا من كل ما يجر إلى سوء العاقبة يوم القيامة ، وأعدنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن واحفظنا بما تحفظ به عبادك الصالحين .

بادرُوا بالأعمال الصالحة فتنًا...

كلما ازداد المؤمن معرفة وتصديقاً بالوقائع التي تنذر بيوم الوعيد ، يوم القيامة ، ازداد تحسباً واستعداداً لذلك اليوم الذي يركب الناس فيه - من شدة الهول - طبقاً عن طبق : ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ .

وبمقدار ما يكون التصور لتلك الأهوال ، وما يتوقع العباد من مخاطر وهم قائمون لرب العالمين ... يكون حذر المؤمن من التقصير في جنب الله ، وأن يحشر في عداد الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم .

وكلما ازداد القلب استنارة بالإيمان وذكر يوم الحساب ، كان الحرص أوفر على العمل الصالح والإفادة من الوقت ، وما كتب للإنسان من العمر في هذه الحياة الدنيا ، التي هي دار ممر لا دار مقر ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول فيما أخرج البخاري وغيره من رواية ابن عباس رضي الله عنهما : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » . وفي نصوص الحديث النبوي ما يدل أوضح الدلالة ، على مدى اهتمام المصطفى عليه الصلاة والسلام ببيان علامات الساعة ، وما يكون من الأمور العظام بين يدي يوم القيامة ، وذلك ليقف المؤمن على الصراط السوي في مواجهة تلك النذر . ويسلك بهم سبيل نجاتهم ، يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ، وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون .

ولقد رأينا من قريب تفصيلاً في عدد من نصوص السنة في شأن شرطين من أشراط الساعة هما : ظهور المسيح الدجال أخزاه الله ، ونزول المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام وحكمه بشريعة الإسلام وقتله الدجال . والناظر في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، يجد بجانب ذلك وفرة في تلکم النصوص

التي تحدثت عن علامات الساعة بإجمال كما في الحديث الذي رواه حذيفة بن أسيد الغفاري قال : « أطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر ، فقال : ما تذكرون ؟ قلنا : نذكر الساعة ، قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف ، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم . وفي رواية تخرج من قعره عدن » .

أخرجه مسلم وأبوداود والترمذي ، وكم ذا تجد في الهدى النبوي من نصوص تأتي على ذكر علامات متفرقة بين يدي الساعة ، وهي نصوص يفترض أن تزيد في عمل العامل لما بعد الموت ، وتوقظ الغافل ، وترد الجانح إلى الطريق التي هي أقوم بعيداً عن الغفلة والضياغ ونسيان الله واليوم الموعود . روى الترمذي بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا » قال أبو عيسى : وفي الباب عن أبي هريرة وجندب والنعمان بن بشير وأبي موسى ، وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وقد أورد رحمه الله كلاماً للحسن البصري في تفسير الكفر الذي يصبح عليه الرجل أو يمسي فقد روى بسنده عن جعفر بن سليمان عن هشام عن الحسن أنه كان يقول في هذا الحديث : « يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً » قال : يصبح الرجل محرماً دم أخيه وعرضه وماله ، ويمسي مستحلاً له ، ويمسي محرماً لدم أخيه وعرضه وماله ، ويصبح مستحلاً له .

ومهما يكن من أمر : فإن الذي يرمي إليه إمام الهداة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام - والله أعلم - إثارة الحافز الإيماني الذي تكون تقوى الله ، في السر والعلن استجابة له « كيما يبادر المؤمن تلك الفتن بالعمل الصالح ، ويسارع إلى تحصين نفسه من لأوائها ، بالبعد عن موجبات الغفلة » والإعراض عن ذكر الله وعن يوم

الوعيد ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ وذلك ما نجده في بعض روايات الحديث المومى إليه، التي نقع فيها على توجيه النبي ﷺ إلى تلك المبادرة « وأن يأخذ المؤمن حذره فيعتصم بالكتاب والسنة ، ويملاً وقته بالأعمال الصالحة قبل أن تضطرم نار الفتن، ويشغله ذلك عما به نجاته في الدنيا ويوم الدين . قال الإمام مسلم: حدثني يحيى بن أيوب وقتيبة وابن حجر جميعاً عن إسماعيل بن جعفر ، قال ابن أيوب : حدثنا إسماعيل قال : أخبرني العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » ورواه الترمذي بلفظ « ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً » دون شك من الراوي وقال: هذا حديث حسن. صحيح . وقد أوجز الإمام النووي بيان معنى الحديث فقال : « معنى الحديث الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة » قبل تعذرها والاشتغال عنها، بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة ، المتراكمة تراكم ظلام الليل المظلم لا القمر ، ووصف صلى الله عليه وسلم نوعاً من شدائد تلك الفتن « وهو أنه يمسي مؤمناً ويصبح كافراً أو عكسه » شك الراوي « وهذا لعظم الفتن ، ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب والله أعلم » .

وهكذا يدعو رسول الله ﷺ المسلمين إلى التعجل بالأعمال الصالحة قبل مجيء الفتن المظلمة لأن الفتنة - والعياذ بالله - تحول دون المسلم ، ودون العمل المرضي لله ، أو كماله على الوجه الذي ينبغي .

والأدهى من ذلك : أنها قد توقع البعض في شرك الصدود عن العمل ، وقسوة القلب ؛ فالمبادرة مطلوبة لإدراك الشيء قبل فواته بالنسبة للعمل ، أو للدفع قبل الوقوع بالنسبة للمعوقات والفتن ، وما يكون صداماً مبطناً بعض الأحيان عن سبيل الله من قبل الفتانين ، أولئك الذين يقفون - ظاهرين أو مقنعين - دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها .

ويبدو أن حرصه ﷺ - وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم - على أن يسلك كل من المسلم والمسلمة طريق النجاة في يوم القيامة - وهي طريق قوامها الإيمان والوعى - من القضايا الكبار ، التي كانت تؤرقه وتحظى ببالغ اهتمامه صلوات الله وسلامه عليه ؛ أخرج البخاري بسنده عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : « استيقظ النبي ﷺ ذات ليلة فقال : سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن ؟ وماذا فتح من الخزائن ؟ أيقظوا صويحبات الحجر !! قرب كاسية في الدنيا عارية - أو عارية - في الآخرة » .

وأخرجه مالك في الموطأ كما أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .
وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين ورحمة العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

للتقين الله أو ليحذبنك

لعل من التواصي بالحق ، معاودة التذكير المرة تلو المرة ، بأن الرسول عليه الصلاة والسلام ، لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى ، إلا وقد أدى أمانة التبليغ والبيان ، خير ما يكون الأداء ، ومن ذلك هديه صلى الله عليه وسلم فيما ينبغي أن يفعله المؤمن ليكون بفضل الله تعالى من أهل النجاة يوم القيامة . وقد أشرت من قريب إلى ما أخبر به ﷺ تنبيهاً وتحذيراً للأمة ، من أن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم ، وأن على المسلمين أن يبادروا هذه الفتن بالأعمال الصالحة ، فيتعجلوا العمل المرضي لله تعالى قبل فوات الأوان .

وما أعظمه هدياً ، أن يكشف صلوات الله وسلامه عليه عن وقوع الفتن ، ويوجه إلى المعتصم من شرها وأذاها ، كيما يكون المؤمن في منجاة ، تسلك به يوم القيامة طريق الفائزين الذين يصدق فيهم قول الله جل شأنه : ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ والحديث الذي أشير إليه هو ما روى مسلم والترمذي - واللفظ لمسلم - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا » إنها لفتن مرعبة حقاً . ومن خاف على نفسه الفتن صادقاً ، بادرها بالأعمال الصالحة والقربات النافعة عملاً بهدي النبي عليه الصلاة والسلام .

ومع هذا المنهج المبارك من هدي النبوة ، تطالعنا قبسات من حديثه عليه الصلاة والسلام ، تكشف عن مدى حرصه على أن يكون المؤمنون - أبداً - على ذكر من يوم الحساب ، ووعي لما يعنيه إيمانهم باليوم الآخر ، وأن أوضح أثر من آثار التذكر ، أن يفروا إلى الله وينيبوا إليه مخلصين ، وأن يتزودوا بصالح العمل لتلك

الرحلة التي موعدها هناك ، حيث المسؤولية والجزاء : « وقفوهم إنهم مسئولون »
 روى الترمذي بسنده عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ
 إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : أيها الناس اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة
 تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه . قال : قلت : يا رسول الله إني
 أكثر الصلاة عليك ، فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال : ما شئت ، قلت : الرُّبُع ؟
 قال : ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك ، قلت : النصف ؟ قال : ما شئت ، وإن
 زدت فهو خير لك ، قلت : الثلثين ؟ قال : ما شئت ، وإن زدت خير لك . قلت :
 أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال : إذا تكفى همَّك ، ويغفر لك ذنبك قال أبو عيسى :
 هذا حديث حسن . وفي بعض النسخ : حسن صحيح ، وأخرجه أحمد والحاكم
 في « المستدرک وصححه ووافقه الذهبي في « التلخيص » .

ولقد ترك عليه الصلاة والسلام الأمة على المحجة البيضاء ، ولم يدع أن يُدخل
 إلى قلوب الناس وعقولهم - بسمو موعظته ، وفائق بيانه وبلغ قوله وما يصحب
 ذلك من ندى الرحمة والشفقة - ما يجعل يوم القيامة ، ووقوف الناس لرب العالمين ،
 وما يسبق ذلك وما يلحقه ... ما يجعل ذلك كله كأنه مرئي رأي العين ، وكان
 ذلك من كمال نصحه ﷺ للأمة ، وأداء حق الله في توجيهها وجهة الخير ، وما به
 تحسن العاقبة يوم اللقاء ، وتحقق بإذن الله سعادة الدارين . عن عدي بن حاتم
 قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من رجل إلا سيكلمه ربه يوم القيامة وليس
 بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى شيئاً إلا قدَّمه ، ثم ينظر أشأم منه فلا
 يرى شيئاً إلا شيئاً قدَّمه ، ثم ينظر تلقاء وجهه ، فتستقبله النار . قال رسول الله ﷺ :
 من استطاع منكم أن يقي وجهه حر النار ولو بشق تمره فليفعل » . رواه الترمذي
 وقال : حديث حسن صحيح .

وأنت ترى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد عمد - وهو سيد البلغاء -
 إلى أسلوب غاية في الوضوح ، فكشف بالسهل الممتنع من الكلام ، عن هذا
 المشهد الذي يبعث في قلب المؤمن الكثير من الخشية والتقرب ، فما من أحد إلا

سيكلمه ربه يوم القيامة « وليس بينه وبينه ترجمان » ثم يبين ﷺ مكانة العمل الصالح في الدنيا ، وعظم المسؤولية يوم القيامة . وأن السبيل إلى الوقاية من النار - بفضل الله تعالى - أن يقدم العبد - بعد الفرائض - ما هو قادر عليه من العمل الخالص لله عز وجل ، فإن ذلك نافعه هنالك مهما قل إن شاء الله « من استطاع منكم أن يقي وجهه حر النار ولو بشق تمرة فليفعل » فما دام هذا القليل القليل المقدور عليه مع الإخلاص ، يقي الوجه حر النار ، فلأن يكون ذلك بما هو أكثر منه للمقادير عليه ، أولى وأحرى .

هذا : وقد كان لهذا الهدى النبوي على ساحة التزود ليوم القيامة ، وما ينبغي للمؤمن من مراقبة الله ، والإحساس بأنه مسؤول في ذلك اليوم عما قدم ... كان لهذا الهدى المبارك ، أثره البالغ في حياة الصحابة وسلوكهم الفريد المتميز، عليهم الرحمة والرضوان ، وأجزل ثوبتهم في الآخرين ؛ وهو أثر طيب مبارك ، تطالعا نماذج منه في كل عصر . أما انحساره عن مجتمع ما في العالم الإسلامي : فهو بلاء كبير على الفرد والجماعة ، والواجب على القادرين في ميادين التربية والتعليم والإعلام ، توسيع دائرته في حياة الأمة ، كيما ينعكس على مناهجها في العمل والبناء والسلوك .

روى الإمام مالك في الموطأ بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت عمر بن الخطاب، وخرجت معه ، حتى إذا دخل حائطاً ، فسمعتة وهو يقول ، وبينني وبينه جدار ، وهو في جوف الحائط : «عمر بن الخطاب ، أمير المؤمنين !! بخ بخ والله يا ابن الخطاب لتتقين الله ، أو ليعذبتك » وليس بخاف أن الفهم العميق لهذه الكلمات من عمر رضي الله عنه ، إنما يكون باصطحابها إلى سيرة الخليفة الثاني ، وما كان من خشيته لله وإخلاصه العميق وتواضعه الجسم ، مع عدله في الرعية وحزمه ، وما أملى على التاريخ ، على صعيد التعامل مع مولاة سبحانه ، ومع نفسه وأهله ، ومع الآخرين في السلم والحرب وفي الرضا والغضب «عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله أو ليعذبتك » .

لقد كان ذلك من الفاروق - وهو يحمل مسؤولية الحكم - ، صورة للتفاعل الحقيقي والتأثير الصادق بهدي المصطفى عليه الصلاة والسلام ، حين اتجه بالفرد والجماعة وجهة استشعار المسؤولية أمام علام الغيوب يوم الدين ، كائناً من كان ذلك الفرد، وكائنة من كانت تلك الجماعة.

وقد آتى ذلك أكله في حياة الفرد والمجتمع ، حيث كان الإحساس بالعلاقة الوثيقة بين ما يقدم المرء هنا ، وبين ما يجد هناك ، يتنامى في حس الإنسان المسلم، وينعكس ذلك صدق مراقبة الله ، وصلاًحاً في العمل والإنجاز ، وارتفاعاً إلى مستوى التطلع إلى النجاة يوم الدين ، لا وقوفاً عند رغبات موقوتة في دار الفناء .

يوم يجعل الولدان شيباً...

النفخ في الصور

كان رسول الله ﷺ ، وهو الصادق المصدوق ، المؤمن على بيان الكتاب العزيز حفيظاً بأن يؤدي أمانة البيان ، وينصح للأمة في تبليغ ما أوحى إليه . وما من ريب في أنه عليه الصلاة والسلام قد أدى تلك الأمانة خير ما يكون الأداء ، ولم يخلف وراءه شيئاً أؤتمن على بيانه إلا بينه ، دق ذلك الشيء أو جل . وربما كانت حقاوته ببيان الأمور الغيبية « أكثر وأشد ، مع ما أوتي من البلاغة التي تتقطع دونها أعناق البلغاء ، لأن الناس في الأمور الغيبية ، يبدون أحوج إلى مزيد من البيان والتقرير والتأكيد » وهذا أسلوب حكيم رفيع يتلمس حاجة النفس الإنسانية ، ويفيها حقها فيما يدخل القناعة والتصديق إلى العقل والقلب ، حتى كأن عالم الغيب عند المؤمن عالم شهادة ، وحتى لو كشف الغطاء - كما قال علي بن أبي طالب - لم يزد هذا المؤمن يقيناً ، لأنه موقن من طريق الخبر الصادق في كتاب الله ، وحديث النبي عليه الصلاة والسلام .

وهذا الذي نقول ، ينتظم - فيما ينتظم - أخبار يوم الحشر يوم القيامة ، وما يسبقه من أمارات الساعة ، ومن نفخ الصور ، ثم ما يتبع ذلك من الأمور العظام . وفي حديث طويل رواه مسلم نقع في آخره على شيء من خبر النفخ في الصور ، وما يسبقه من تلك الرياح الباردة التي تهب فلا تبقي على وجه الأرض أحداً في قلبه مثقال ذرة من خير ، إلا وتقبضه ؛ فقد روى رحمه الله بسنده عن النعمان بن سالم قال : سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي يقول : سمعت عبدالله بن عمرو ، وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذي تحدث به تقول : إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ، فقال : سبحان الله - أو لا إله إلا الله ، أو كلمة

نحوهما - لقد هممت أن لا أحدث أحداً شيئاً أبداً ، إنما قلت لكم : إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً ، يحرق البيت ويكون ، ويكون . ثم قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين ، لا أدري ، وفي رواية قال ابن عمرو : لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً ، فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه ، فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل ، لدخلته عليه حتى تقبضه ، قال : سمعتها من رسول الله ﷺ ، قال : ويبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان ، فيقول : ألا تستجيبيون ، فيقولون : فماذا تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم في ذلك دارٌ رزقهم ، حسن عيشهم . ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتهاً ورفع ليتهاً ، قال : وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله ، قال : فيصعق ويصعق الناس ، ثم يرسل الله - أو قال ينزل الله - مطراً كأنه الطلُّ ، فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس هلّم إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسئولون ، قال : ثم يقال : أخرجوا بعث النار ، فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، قال : فذاك يوم ﴿ يجعل الولدان شيباً ﴾ ، وذلك ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ .

في كبد جبل : أي وسطه وداخله ﴿ كبد كل شيء وسطه . ونجد في معنى « أصغى ليتهاً ورفع ليتهاً » صورة مفزعة للإنسان عند ما يسمع نفخ الصور ، إذ تراه يميل صفحة عنقه من هنا ويرفع الأخرى من هنا ، فالليت صفحة العنق ، وأصغى : أمال ، فهو من شدة الهول يتحرك حركات تبدو كأنها غير إرادية ، حتى كأن كل صفحة من صفحتي عنقه منفصلة عن الأخرى ، فهو يميل ليتهاً - صفحة عنق ، ويرفع ليتهاً صفحة عنق أخرى ، ونسأل الله السلامة والحفظ .

يلوط حوض إبله : يطيّنه ويصلحه ، وأورد أبو عبد الله الحاكم النيسابوري في «المستدرک» تحت کتاب «الأهوال» قول الله تبارک وتعالى في سورة النمل : ﴿وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتُزْعَمُ مِنَ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَاخِرِينَ . وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ وقوله جل شأنه في سورة الزمر: ﴿وَنَفْخُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ ثم أورد حديثاً يدل على كمال الاستعداد عند الملك الموكل بالنفخ وهو إسرأفيل ، وكيف أنه ينظر نحو العرش ، تحسباً من أن يؤمر بالنفخ قبل أن يرتدّ إليه طرفه ، صورةً من صور الطاعة المطلقة عند الملائكة عليهم السلام ، وكيف أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ؛ فهو يخشى أن يتخلّف أقل زمن متصور ، عن طاعة أمر الله بالنفخ في الصور . روى رحمه الله بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ طَرَفَ صَاحِبُ الصُّورِ مَذًى وَكَلَّ بِهِ مُسْتَعِدٌّ يَنْظُرُ نَحْوَ الْعَرْشِ خَافَةً أَنْ يُؤْمَرَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ طَرَفُهُ ، كَأَنْ عَيْنِيهِ كَوْكَبَانِ دَرَيَّانِ » قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم . وقد تناول رسول الله ﷺ معنى الصور بالبيان « فذكر أنه قرن نفخ فيه ، نجد ذلك فيما روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : « جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : ما الصور ؟ قال : قرن نفخ فيه » أخرجه أبوداود والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح ، كما رواه أحمد والدارمي وابن حبان والحاكم وغيرهم .

وفي بيان لما جاء في الكتاب العزيز ، من النص على النفختين « نفع في بعض النصوص من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام . على أن بين النفختين أربعين ؛ كالذي نجد عند البخاري ومسلم ومالك في الموطأ ، وأبي داود والنسائي ؛ ففي كتاب التفسير من الجامع الصحيح عقد البخاري باباً جعل عنوانه آية الزمر السالفة فقال : « باب ﴿وَنَفْخُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ » ثم روى بسنده عن

الأعمش قال : سمعت أباصالح قال : سمعت أبا هريرة عن النبي ﷺ قال : « ما بين النفختين أربعون . قالوا : يا أبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال : أبيت ، قالوا : سنة ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ، ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق » .

وأهم ما في الموضوع : أن يفتح المؤمن قلبه وعقله لهذه الحقائق الغيبية ، كيما يُعدَّ العدة ليوم يجعل الولدان شيباً . ولا يجد - وقد أزفت الآزفة - إلا ما قدّم من عمل والله المستعان .

وإلى صفحات قادمات - إن شاء الله - نستلهم فيها روايات أخرى في هذا الباب ، ما تحمل من البشارة والندارة ، ونسأله تعالى أن يجعلنا من الملتطف بهم في ذلك اليوم العصيب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

النفخ في الصور.. والهدي النبوي

في ظلال ما يدعو المؤمن إلى مزيد من التعرف، إلى ما يكون قبل يوم القيامة، من النفخ في الصور، وكم هي المدة بين النفختين، أعيد إلى الأذهان ما روى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه - واللفظ للبخاري - أن « ما بين النفختين أربعون » وعندما سئل أبوهريرة، هل هي أربعون يوماً أو أربعون سنة أو أربعون شهراً كان يقول في كل مرة « آيئت »، أي امتنعت؛ لقد امتنع رضي الله عنه أن يجزم أن المراد كذا وكذا وأن يعيئه، لأن القضية توقيفية، وليس عنده فيها توقيف.

وفي رواية مسلم زيادة تعطي شيئاً من التفصيل؛ فقد روى بسنده عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « ما بين النفختين أربعون، قالوا يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: آيئت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: آيئت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: آيئت، ثم ينزل الله من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبل، إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة ».

وأنت واجد في هذه الرواية عند مسلم، أن التدرج في السؤال كان من اليوم إلى الشهر إلى السنة، بينما كان هذا التدرج على غير هذه الصورة، في رواية البخاري التي أوردناها من قبل، والتي أتى بها رحمه الله، عند تفسير قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴿ فقد بدأ السؤال باليوم، ثم انتقل إلى السنة » وبعدها إلى الشهر. على أن هناك رواية أخرى للبخاري تبدو متطابقة مع رواية مسلم التي رأينا آنفاً: فعند تفسير قوله تعالى في سورة عم

يتساءلون : ﴿ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا ﴾ من كتاب التفسير في الجامع الصحيح روى بسنده عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون . قال : أربعون يوماً ؟ قال : أبيت ، قال : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ، قال : أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، قال : ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل ، ليس من الإنسان شيء إلا يبل ، إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذنب ، ومنه يُرْكَبُ الخلق يوم القيامة » .

هذا : وما تجدر الإشارة إليه ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير «الناقور» الوارد في القرآن الكريم ، بأنه الصور ، ذكر ذلك شيخ المفسرين الطبري . وقال الحافظ ابن كثير : قال ابن عباس ومجاهد والشعبي وزيد بن أسلم والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس والسدي وابن زيد : الناقور : الصور . قال مجاهد : وهو كهيئة القرن . وفي كتاب «الرقاق» من الجامع الصحيح جاء قول البخاري تحت «باب نفخ الصور» .

قال مجاهد: الصور كهيئة البوق . زجرة : صيحة ، وقال ابن عباس : الناقور : الصور والرافقة : النفخة الأولى « والرادفة : النفخة الثانية . وقد ذكر الحافظ في «الفتح» أن تفسير زجرة بـ «صيحة» هو من تفسير مجاهد أيضاً . قال رحمه الله : وصله الفريابي من طريق أبي نُجَيْج عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ فإنها هي زجرة واحدة فإذا هم قيام ينظرون ﴾ قال : صيحة . وفي قوله تعالى ﴿ فإنها هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ قال : صيحة . قلت - الكلام للحافظ - : وهي عبارة عن نفخ الصور النفخة الثانية ، كما عبر بها عن النفخة الأولى في قوله تعالى : ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ﴾ .

وقد رأينا فيما سبق من النصوص ، ما ذكر النبي ﷺ عن إعادة الخلق بعد النفخ في الصور ، وذلك قوله : « ثم ينزل من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل .. » الحديث ، وقَرَّبَ ﷺ هذا الأمر العظيم ببلاغته الفذة وأسلوبه الفريد في كلام

البشر ، لبعض الصحابة حين سأله عن ذلك ؛ وهو ما روى أبو رزين العُقَيْلِيّ رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله كيف يُعيد الله الخلق ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : « أما مررت بوادي قومك جداً ، ثم مررت به يهتزُّ خضراً ؟ قلت : نعم ، قال : فتلك آية الله في خلقه ، كذلك يحيي الله الموتى » أخرجه رزين ، كما قال ابن الأثير في « جامع الأصول » .

ولقد يعيننا - والأمر غاية في الأهمية ، والتناصح في الله قائم إن شاء الله - لقد يعيننا والأمر كذلك ، استذكار أن الذي لا يسع مؤمناً جهله أو تجاهله ، أن هذا الذي كشف عنه الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام من أمور يوم الفصل وما يسبقه من النذر ، ونبه عليه بالقول البليغ الذي يلامس شغاف القلب ، ويدخل أعماق النفس ، وذلك بياناً لما جاء في الكتاب العزيز حول هذه الأمور ، وامثالاً لما أمره الله تعالى به من الموعظة والقول في النفس قولاً بليغاً ، يأخذ طريقه إلى التفاعل والتأثير .. أن هذا اللون من الهدي النبوي ... أمانة في أعناق المكلفين ، لما أنه معرفة يجب أن يتلوها التزود ليوم القيامة بخير زاد ، وسلوك السبيل التي تباعد عن اللهو والغفلة ونسيان يوم المعاد ، وتأخذ بالمؤمن إلى كل ما يذكر بالآخرة والنفخ في الصور النفخة الأولى والنفخة الثانية ... وبالحشر والمساءلة يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ فليس الأمر أمر ثقافة وكفى ، ولكنه أمر مسؤولية وتذكير ، وهداية ترتبط ألياً ارتباطاً بالعاقبة والمصير . وما أجدر العاقل أن يفكر في المعاد ، ويكون على ذكر من هدي خير العباد .

ولقد دلت نصوص الحديث النبوي ، على أن الرسول عليه الصلاة والسلام - وهو خير المعلمين وسيد المرربين - لم يكن في هديه معلماً فحسب ، ولكنه كان نعم المربي بالقدوة وعظمة السلوك ؛ أقول هذا في كلام موصول بما جاء عنه ﷺ من بيان للنفخ في الصور ، فقد كان واضحاً ، أنه نبأ الأمة على ما سيكون ، ودلّها على

ما يجب من العمل الصالح ، والإعداد لتلك الساعات المهيولة ، لأن الأمر شديد شديد . وفي الوقت نفسه كان هو - فداه أبي وأمي - في خاصية نفسه « شديد الخشية ، لا يغفل عما سيكون ، ولا ينعم في الحياة الدنيا ، لما أن الملك الموكل بالنفخ في الصور ينتظر بترقب شديد ، أن يؤمر فينفخ .

وهذا منه ﷺ - وهو صاحب الشفاعة العظمى والرحمة المهداة - مدعاة لكثير من العظة والتدبر .

وإني مذكّر بما روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن ، وحنى جبهته وأصغى سمعه ، ينتظر أن يؤمر فينفخ ؟ فكأن ذلك ثقل على أصحابه ، فقالوا : فكيف نفعل يا رسول الله ، أو نقول ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا ، وربما قال : توكلنا على الله « أخرجه الترمذي .

رزقنا الله - بمنّه وفضله - الانتفاع بهدي النبي عليه الصلاة والسلام ، وحسن التأسّي به « وجعل ذلك زلفاناً إلى حسن العاقبة في يوم قال العزيز الجبار فيه : ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ .

المحير يوم المحاد في التوجيه النبوي

بيان النبي ﷺ الذي يُطالعنا به الحديث النبوي الشريف ، وما تحمل نصوص الحديث من بصائر ... كل أولئك ، ليس ذلك المصدر الثر المبارك للمعرفة وكفى ، ولكنه يحمل - مع المعرفة - منهجاً بالغ الدقة والتأثير في التربية والسلوك ؛ وتلكم هي الهداية التي أكرم الله بني الإنسان بها ، على مر العصور ؛ فترى الهدي النبوي يعلم ويوجه ويربي ؛ ينمي في النفس فضائلها ، ويقوم ما يكون من معوج ، ويأخذ بيد المسلم والمسلمة إلى حيث القدرة على العطاء ، والإسهام ببناء المجتمع الأمثل ، ناهيك عما يبعث ذلك من طمأنينة في النفس ، وقدرة على المثابرة في ساعات العمل والجهاد ؛ الأمر الذي ينتهي بالمؤمن - إن أخلص الدين وصدق الوجهة ، وجعل الآخرة نصب عينيه - إلى سعادة الدنيا ، والفوز برضوان الله وجنته يوم الدين .

وهذه العملية العظيمة ، بشعبها كلها ، ومقوماتها جميعاً ، نجدها ثمرة من ثمرات كون الحديث : ما أثر عن النبي ﷺ من قول ، أو فعل أو إقرار ، أو وصف خلقي أو خلقي ؛ فهو يعلم ويربي بالقول والفعل والإقرار وكل ما هو من ذلك بسبيل .

وجدتني مسوقاً إلى تقرير هذه الحقيقة والتذكير بها - وهي متجددة الهداية والنفع - وأنا بسبيل أن أصل الحديث بما مر بنا من قريب ، من هدي النبي ﷺ في بيان ما ورد في الكتاب العزيز ، بشأن النفخ في الصور ، إيداناً بقيام الساعة ، ثم ما كشفت عنه بعض النصوص - كما روى الترمذي - من أنه صلوات الله وسلامه عليه - وهو الذي غفر الله له من ذنبه ما تقدم وما تأخر وجعل منه صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة - كان لا ينعم في هذه الحياة خشية لله ، وخوفاً من

أهوال القيامة التي يؤذن بها النفخ في الصور « كيف أنعم وصاحب القرن - يعني الصور - قد التقم القرن ، وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ » ؟ .

وليس بدعاً - وقد رأى الصحابة رضوان الله عليهم ذلك الترقب والتخوف منه عليه الصلاة والسلام - أن يشقَّ عليهم الأمر ويثقل ؛ وعندها قالوا : « كيف نفعل يا رسول الله - أو نقول - ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » . ذلكم واحد من الدروس بالغة العمق التي أعطاها رسول الله ﷺ لأمته ، بسلوكه ، وتجاوفي جنبه عن مضاجع النعيم ، والوقوف للغفلة ونسيان اليوم الآخر بالمرصاد ؛ فإذا كان المصطفى خاتم النبيين ، وهو هو فيما أعطي وأكرم ، تبلغ به الخشية من نفخ الصور هذا المبلغ : فعلى المسلم - وهو يذكر اليوم الآخر ويؤمن أنه حق لا ريب فيه - أن تكون وجهته ، حيث وجهه النبي القدوة الناصح عليه الصلاة والسلام وهي الوجهة المؤذنة بحسن الخاتمة بعون الله .

على أن الناظر في حديث النبي ﷺ ، وسيرته على وجه العموم ، يجد أنه كان يتجاوز نفسه أبداً ، إلى الخوف على أمته أن تصاب في آخرتها ، وأن ينال المسلمون من سوء العاقبة - لا سمح الله - ما ينال أولئك الذين عميت بصائرهم ، فكانوا من أهل الجحيم . وقد بلغ به الأمر ، أن نهى أصحابه عن أن يشربوا من آبار الذين كذبوا رسولهم صالحاً ، وعقروا الناقة التي نبهوا على عدم إيذاها ، فصبَّ عليهم ربهم سوط عذاب ، وأن يأكلوا من العجين الذي عجنوه بماء تلکم الآبار ، خشية أن يصيبهم ما أصابهم ؛ لأن الذي ينتظر ثمود يوم القيامة ، من النكال والعذاب الشديد ، أشد وأعتى مما عوقبوا به في الدنيا ، نسأل الله السلامة . قال الإمام مسلم . حدثني الحكم بن موسى أبو صالح قال : حدثنا شعيب بن إسحاق : أخبرنا عبيد الله عن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره « أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرض ثمود ، فاستقوا من آبارها ، وعجنوا العجين ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا ، ويلقفوا الإبل العجين ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة » كما روى مسلم بسنده عن عبد الله بن دينار أنه سمع

عبدالله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ لأصحاب الحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذيين ، إلا أن تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ؛ أن يصيبكم مثل ما أصابهم » . وفي رواية أخرى له أيضاً : أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : « مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجر ، فقال لنا رسول الله ﷺ : لا تدخلوا مسالك الذين ظلموا أنفسهم ، إلا أن تكونوا باكين ، حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، ثم زجر فأسرع حتى خلفها » : أي زجر ناقته فساقتها سوقاً كثيراً ، حتى جاوز تلك المسالك .

هكذا نرى أن رسول الله ﷺ - وهو الرحمة المهتدة وسيّد النصيحة الرحاء - كما يخشى على نفسه ، يخشى على أمته أن يصيبها ما أصاب الذين ظلموا أنفسهم وعتوا عن أمر ربهم ، وعصوا رسله ؛ ذلك لأن الأمر جدّ خطير - كما لا يخفى - فما أصاب أولئك الظالمين لأنفسهم وللحقيقة هنا ، هو عنوان المصير المفرع يوم المعاد ؛ وذلك ما ينتظر قوم هود وقوم صالح وآل فرعون وأضرابهم - على اختلاف العصور - يوم المعاد ، يوم ترى الظالمين المجرمين مقرنين في الأصفاد ، ﴿ سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ﴾ .

والحق أن ما كان عليه النبي صلوات الله وسلامه عليه « من ذكرٍ للموت والنفخ في الصور ، وما يكون من أهوال يوم القيامة ، ومن شديد الخشية على نفسه وعلى أمته .. أعطى عطاءه الطيب المبارك في النفوس ، فلم تعدم الأمة في عصر من العصور - بدءاً من عصر الصحابة - من يتابعون الطريق ، فيقفون على المنهل العذب من إرث النبوة ، يتذكرون ويذكرون ، ويكون لهم من الإخلاص في القول والعمل ، وأنهم يخافون يوم الحساب ، ما يسعفهم في أن تعمل الموعظة عملها ، ويأخذ التذكير سبيله إلى النفوس ، فيضاعف من جدّه في الطاعة العامل ، ويستيقظ الغافل ، ويعود الجانح ، وتعلو - في طاعة الله وتزكية النفس والنظر إلى العاقبة - همة من أصابته جائحة الركون إلى الدنيا ، وغزا قلبه شيء من نسيان يوم الدين .

أما الذين غلبت عليهم شقوتهم : فليسوا من الاتعاظ والتذكر في شيء والعياذ بالله ، وهذا من أمراض الأمة اليوم ، حيث الاغترار بالدار الفانية ، وما فيها من متاع قليل « وحيث الغفلة الضاربة - نتيجة الانزلاق الآثم - على كثير من القلوب ، حتى كأن أصحابها لا يعينهم في قليل ولا كثير ما خاطب الله به المؤمنين في آخر آية أنزلها على نبيه عليه الصلاة والسلام « من قوله جل شأنه : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ .

ولو فتحوا بصائرهم لكلام الله ، ولما كان عليه رسول الله ، من مراقبة وتذكر ، لكان لهم مع يوم المعاد ، وما يكون فيه من الأهوال ، وما يزرخ به من المشاهد العظام ، شأن آخر . هذا عمر رضي الله عنه - وهو يسير بالأمة على السنن الذي ورثه من هدي النبوة - يقول كما روى عنه ثابت الحجاج : « زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وحاسبوها قبل أن تحاسبوا ، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً ، أن تحاسبوا أنفسكم ، وتزينوا للعرض الأكبر » ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ أخرجه أبونعيم في الحلية . وفي رواية أخرى لابن الجوزي في « صفة الصفوة » « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر » ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ .

رضي الله عن الخليفة الثاني عمر ، الذي كان له من مراقبته لله عز وجل ، ومخافته يوم الحساب ، ما أسهم أيماً إسهام في تحقيق العدل ، والردع عن الظلم ، والحفاظ على إنسانية الإنسان ، وعلى حرية المسلم وكرامته في العالمين .

الظلم ظلمات يوم القيامة..

وعاقبة السوء للمفلس

كان من هدي النبي ﷺ ، أنه — مع المهام الجسام التي كان يرتاد ميادينها تبليغاً وتعليماً وجهاداً وبناءاً للفرد والمجتمع والدولة — يُرى صلى الله عليه وسلم لا يني ينمي التوازن — في النفوس — بين حركة الحياة في هذه الدار ، المنوط بها العمل ، وبين الخشية مما يكون في عرصات القيامة ، وما يمكن أن يؤول إليه الأمر يوم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . الأمر الذي ينعكس على السلوك ، استقامة في العمل ، وإحساساً بالمسؤولية ، وبعداً عن الركون إلى زائل النعيم ، ومتاع الغرور . ناهيك عن المراقبة الصادقة لله عز وجل ؛ فالعباد جميعهم مردُّهم إلى الله ، وهو سبحانه العليم بما يفعلون .

وتدل النصوص ، على أنه صلوات الله وسلامه عليه ، كثيراً ما كان يتخذ من الوعيد بما يحصل يوم القيامة من حساب وعقاب ، وإعلان عن المنحرف بسمة انحرافه وضلاله ، طريقاً من طرق الهداية في تثبيت المستقيم على استقامته ، ورد المخطيء إلى طريق الهدى والصواب . هذه آثام ثلاثة يبيِّن الرسول ﷺ أن الوقوع في أي منها يؤدي بصاحبه إلى أن لا يكلمه الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليه . إنه الوعيد بعقوبة ينخلع — لشدتها وعمق دلالتها — قلب المؤمن التقي ، خوف أن تقع به ، والإيمان يدعو إلى أن يحرص هذا المؤمن الحرص كله ، على أن ينجو بنفسه من تلك المهلكة ، بأن لا يقع فيما نبه عليه النبي عليه الصلاة والسلام ، قال الإمام البخاري ، حدثني عبدالله بن محمد قال : حدثنا سفيان عن عمرو عن أبي صالح السَّمان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ، رجلٌ حلف على سلعة لقد أعطي بها أكثر مما أعطي ،

وهو كاذب . ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ، ليقطع بها مال رجل مسلم ، ورجل منع فضل مائه . فيقول الله : اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك » جاء ذلك في كتاب المساقاة من الجامع الصحيح . وتحت « باب اليمين بعد العصر » أورد البخاري أيضاً حديثاً ، يحمل الوعيد يوم القيامة لثلاثة ذكر فيهم واحد بصفة مغايرة لصفة جاءت لأحد الثلاثة في الرواية السابقة « مع ذكر العذاب الأليم في الوعيد ، وعدم التزكية من الله . فقد روى بسنده عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ؛ رجل على فضل ماء بطريق يمنع منه ابن السبيل ، ورجل بايع رجلاً لا يبايعه إلا للدنيا ، فإن أعطاه ما يريد وفي ، وإلا لم يف له ، ورجل ساوم رجلاً بسلعة بعد العصر ، فحلف بالله لقد أعطي بها كذا وكذا فأخذها » . ورواه مسلم وأبو داود والترمذي بلفظ مقارب .

هذا : ونقع في حديث آخر على وعيد بالمصير نفسه لثلاثة ، فيهم اثنان لم يرد ذكرهما فيما سبق من الروايات ، وإن كان يجمع الكل ، أنهم لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم . ذلكم ما روى مسلم بسنده عن خرسة بن الحر عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » قال : فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرار . قال أبوذر : خابوا وخسروا من هم يارسول الله ؟ قال : المسبل ، والمنان ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب .

ألا إن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ، وهو المؤمن على أن يبلغ عن الله ما أراد سبحانه ... فلينظر امرؤ ، بم يلقي ربه عز وجل يوم العرض الأكبر ، وليبتعد عن مهاوي الردى وظلم النفس ، لكيلا يكون واحداً من هؤلاء ، الذين ينالهم وعيد الرسول عليه الصلاة والسلام .

وها هي ذى صورة أخرى ، من صور الوعيد الذى يتحقق يوم القيامة ، نجدها فيما توعد النبي ﷺ الظالمين ، بأن يكون ظلمهم الناس في الدنيا ، ظلمات عليهم يوم القيامة ، لا يبتدون معها سبيلاً ، حين يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم . وإنه لمشهد مروّع حقاً ، حين يتحوّل الظلم إلى ظلمات على أصحابه في الآخرة . قلوبهم مظلمة - والعياذ بالله - وأيديهم ملوثة بالأذى ، فجاء الجزاء ظلمات بعضها فوق بعض ، وفضيحة على رؤوس الخلائق يوم يقوم الأشهاد . فإذا رؤيت هذه الظلمات - والجزاء من جنس العمل - عرف الناس أن أصحابها ، هم ظلمة الناس في الدنيا .

قال الإمام مسلم : حدثنا عبدالله بن مسلمة بن قعنب قال : حدثنا داود - يعني ابن قيس - عن عبيد الله بن مقسم ، عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » . وروى مسلم بسنده عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يملئ للظالم ، فإذا أخذه لم يفلته » .

وينتقل بنا حديث رسول الله ﷺ إلى مشهد آخر من مشاهد الجزاء يوم القيامة عماده ذلك الإنسان الذى سماه رسول الله ﷺ المفلس ، هذا الإنسان يجيء يوم القيامة - وقد أساء إلى عباد الله وارتكب في حقهم ما نهى الله عنه - فيؤخذ لهم حسناته ، فإذا نفدت تلك الحسنات ، وبقي لهم حقوق ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار .

مشهد تتغلغل دلالاته إلى الفرد ، والجماعة ، وشتى أنواع التعامل والسلوك ، كيما يستقيم الجميع على الجادة ، ويحذروا الله واليوم الآخر ، ويتقوا ما يكون من عاقبة الذين يفسدون في الأرض ، ولا يصلحون ، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا

درهم له ولا متاع . فقال : إن المفلس من أمتي ، من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطي هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فئت حسناته قبل أن يقضي ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » وأخرجه أحمد ، والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

ولعل في هذا البيان من النبي عليه الصلاة والسلام ، ما يقطع العذر على من يؤمنون باليوم الآخر - ويبلغهم هذا الوعيد الذي يصوره مشهد المفلس الحقيقي ، وطريقة الاقتصاص منه ، والحال التي يؤول إليها في خاتمة المطاف ، من الطرح في النار ... - ثم يقعون في هذا التجاوز لحدود الله ، عندما يتعاملون مع إخوانهم . على أن النبي عليه الصلاة والسلام - وهو الرحمة المهداة - لم يدع الأمر على عواهنه في هذه القضية ، بل نبّه على أن يكون المسلم على حذر من تلکم العاقبة ، فبرّد المظالم « ويؤدي الحقوق إلى أصحابها ، قبل أن يأتي ذلك اليوم الذي لا بيع فيه ولا خلال ، ودعاه بالرحمة إن فعل ذلك : أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رحم الله عبداً كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال ، فجاءه ، فاستحلّه قبل أن يؤخذ ، وليس ثم دينار ولا درهم ؛ فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته ، وإن لم تكن له حسنات حملوه عليه من سيئاته » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث سعيد المقبري ، وقد رواه مالك بن أنس عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه .

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة وارزقنا حسن الانتفاع بما دَلَّ عليه نبينا محمد عليه الصلاة والسلام من السلوك المنجي - بعون الله - يوم الدين .

﴿وخشعت الأصوات للرحمن...﴾

وقد خاب من جمل ظلماً ﴿﴾

في طريقنا إلى اصطحاب ما يكشف عن الحشر ، وأحواله يوم القيامة ، من نصوص الحديث الشريف .. يدعوني الحرص على البعد عن التشتت في استجماع الحقائق ، أن أعيد إلى الأذهان ما أشرق به الهدى النبوي - تبياناً للكتاب العزيز - من إيضاح لما يكون من النفخ في الصور ، وهو ما عُبر عنه بالقرن في بعض الروايات ، حيث ينفخ في الصور النفخة الأولى ، وهي النفخة التي لا يسمعها أحد إلا صَعِقَ وأصغى ليتاً ، ورفع ليتاً كما جاء في الحديث الصحيح ، أي أمال عنقه إلى هنا وهنا من هول الصعقة . ثم ينفخ فيه النفخة الثانية ، فإذا الخلائق قيام ينظرون .

والذي نلمح إليه من كلام النبي ﷺ: هو البيان الأمين لما جاء في كتاب الله تعالى عن قيام الساعة ، والنفخ في الصور من مثل قوله جل شأنه : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾ . وقد مرّ بنا في صفحات سلفت حديث جامع رواه مسلم حول هذه المسألة الغيبية الكبرى ، ومما جاء في هذا الحديث قوله ﷺ : « ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً ، قال : وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق ، ويصعق الناس ، ثم يرسل الله - أو قال ينزل الله - مطراً كأنه الطل ، فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس هلمّ إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسؤولون .. » الحديث .

هكذا تعلن القدرة الإلهية إعلانها ، ويبدو مشهد الخلائق ، وهو المشهد الذي يبدو عدد أصحابه مستعصياً على الحصر ، وأي من العباد يستطيع حصر ذلك؟ ، والحق أنه لا يحيط به إلا الخالق القادر الذي هو بكل شيء محيط . مشهد يراه الرائي هنالك حيث يخرج الناس من قبورهم بعد النفخة الثانية ، كأنهم جراد منتشر ، ويقومون لرب العالمين . ومع هذا العدد الهائل للبشرية منذ بدء الخليقة إلى يوم البعث ، يمتد رواء الهول ، ويضرب الرقب بجرانه ، فلا تحسُّ لتلك الجموع الحاشدة صوتاً ، ولا تسمع لهم ركزاً : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ فهم ساعة يرون يوم القيامة وأهواله ، يستجيئون مسرعين إلى الداعي ؛ حيثما أمروا ، بادروا إليه لا يميلون عنه .. قال محمد بن كعب القرطبي : « يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة ، ويطوي السماء ، وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادي منادٍ ، فيتبع الناس الصوت يؤمونه » إنه الهول الذي تسقط أمامه الأقنعة ، وتنحسر المظاهر البراقة الخادعة ، ويخضع الجميع لله ، وتذل أعناقهم لعظمته ، فترى الكل مستجيباً إلى المنادي ، لا يعاند ولا يميل ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ قال ابن عباس وغيره في معنى « عنت » خضعت وذلت ، واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت ، القيوم الذي لا ينام . وهو قيّم على كل شيء ، يدبره ويحفظه ، فهو الكامل في نفسه ، الذي كل شيء فقير إليه ، لا قوام له إلا به . وقد خاب من حمل ظلماً يوم القيامة ؛ فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه ، حتى يقتصر للشاة الجماء من الشاة القرناء ، كما جاء في الحديث الصحيح . وفي الحديث القدسي « يقول الله عز وجل : وعزّي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم » وروى البخاري بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « الظلم ظلمات يوم القيامة » وقد أوردنا من قبل ما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة .. » الحديث .

ويستفاد مما قرره علماءنا أجزل الله ثوبتهم - كما نقل الحافظ بن حجر والإمام ابن الجوزي - أن الظلم يبلغ من السوء ، أنه يشتمل على أكثر من معصية ؛ فهو - إلى كونه ظلماً للنفس واعتداءً على الغير - وإيذاءً له بنفسه أو ماله ، أو دينه وعرضه ، أو أي حق من حقوقه المشروعة - هو مبارزة لله بالمخالفة ، عما شرع لعباده وأوجب من العدل والتراحم ، وانتهاكاً لحرمت الحق وإنسانية الإنسان ، وإضراراً بالجماعة . والمعصية فيه أشد من غيرها ؛ لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار . قالوا : وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب ؛ لأنه لو استنار القلب بنور الهدى ، لا اعتبر واتقى ؛ فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى ، اكتنفت ظلمات الظلم الظالم ، حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً .

وفي خطوة أخرى على هذه الساحة « حيث يقف الناس للمساءلة ، وترى أنه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، نجد في نصوص السنة على صعيد البيان للكتاب ، ما ينبئ عن قبض الله الأرض وطي السماء ، وعن الحال التي يحشر الناس عليها يوم المعاد ؛ ها هو ذا الإمام البخاري يعقد في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح باباً عنوانه « باب يقبض الله الأرض يوم القيامة » رواه نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ ثم قال : حدثنا محمد بن مقاتل قال : أخبرنا عبدالله قال : أخبرنا يونس عن الزهري عن أبي سلمة قال : حدثني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض » وكذا رواه مسلم . وروى مسلم بسنده أيضاً عن سالم بن عبدالله قال : أخبرني عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ »

وتدل بعض الروايات على أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان يبدو عليه

الاهتمام البالغ ، وهو يكشف عن هذه الحقيقة ببياناً لما جاء عنها في الكتاب الكريم : فقد روى مسلم وابن ماجة عن عبيد الله بن مقسم أنه نظر إلى عبد الله ابن عمر كيف يحكي رسول الله ﷺ قال : « يأخذ الله عز وجل سماواته وأرضيه بيديه فيقول : أنا الله - ويقبض أصابعه ويبسطها - أنا الملك !! حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه » حتى إني لأقول أساقط هو برسول الله ﷺ « يقبض أصابعه ويبسطها » هو النبي ﷺ .

هذا : وفي الباب الذي أتينا على ذكره ، روى البخاري بسنده عن أبي حازم قال : سمعت سهل بن سعد قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي . قال سهل أو غيره : ليس فيها معلّم لأحد » .

عفراء : بيضاء إلى حمرة . كقرصة النقي ومعنى قرصة النقي : الخبز الحواري قال ابن الأثير في « النهاية في غريب الحديث » : (وفيه « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء ، كقرصة النقي » يعني الخبز الحواري) والخبز الحواري : ما كان دقيقه أبيض وهو لباب الدقيق . وفسر الإمام الخطابي النقيّ بالدقيق النقي الخالي من الغش والنخال .

وإلى صفحات قادمات نتابع فيها الرحلة إن شاء الله مع نصوص آخر من حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام في هذا الشأن والله المستعان .

كما بدأنا أول خلق نعيده

جزى الله عنا محمداً ﷺ - فيما بلغ ونصح وبين - خير ما جزى نبياً عن أمته ؛ فقد كان في إعلامه الأمة بجزئيات ما يقع يوم القيامة ، وما يكون فيه ؛ مزيد من النصح الذى يجعل المؤمن على بصيرة من أمره ، كيما يتزود لذلك اليوم ، ويُعدّ العدة للتخلص من تللكم الأهوال ، فيكون - بفضل الله - من الفائزين .

وفي ذلك أيضاً قطع للعذر ؛ لأن الأمر لا يكون بغتة ، مادام العلم به قد حصل من كتاب الله ، ومن المؤمن على بيانه ، رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وفي رحلتنا مع نصوص الهدي النبوي ، المتعلقة بذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيباً ، وقفنا - من قريب - كلمات مباركات من الهدي النبوي ، على أمر عظيم ، وهو صفة الأرض التي يحشر الناس عليها يوم القيامة ، وذلك فيما روى البخاري بسنده عن سهل بن سعد قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي . قال سهل - أو غيره - : ليس فيها معلم لأحد » .

وقد أشرت إلى معنى « عفراء » وأنها البيضاء التي تضرب إلى الحمرة قليلاً كما قال القاضي عياض ، وأشرت كذلك إلى معنى « كقرصة النقي » ، وأن المراد الخبز الحواري كما يقول ابن الأثير ، أو الدقيق الخالي من الغش والنخال كما يقول الخطابي ، والخطب سهل ؛ إذ أن المؤدى يكاد يكون واحداً والله أعلم .

وهذه الأرض كما نرى في نص الحديث ، ليس فيها معلم لأحد . وفي رواية لمسلم - كما سنرى - ليس فيها علم لأحد ، والعلم والمعلم - على ما يرى الحافظ ابن حجر - بمعنى واحد . والمعلم - بفتح الميم واللام - الشيء الذى يستدل به على الطريق ؛ فهي مستوية ليس فيها علامة ، تدل على بناء ، أو سكن ، أو

عمل، ولا على أثر، أو شيء من العلامات البارزة التي يهتدي بها الناس إلى ما يريدون، من الطرق والأمكنة وما إلى ذلك. قال الإمام الخطابي: يريد - يعني الرسول ﷺ - أنها مستوية. وقال القاضي عياض: المراد أنها ليس فيها علامة سكنى ولا بناء ولا أثر، ولا شيء من العلامات التي يهتدى بها في الطرقات؛ كالجلبل والصخرة البارزة. وجميل قوله رحمه الله: وفيه تعريض بأرض الدنيا، وأنها ذهبت وانقطعت العلاقة منها. وقال العلامة محمد بن أبي جرة - كما لخص كلامه الحافظ ابن حجر -: (فيه دليل على عظيم القدرة، والإعلام بجزئيات يوم القيامة، ليكون السامع على بصيرة فيخلص نفسه من ذلك الهول، لأن في معرفة جزئيات الشيء قبل وقوعه، رياضة النفس وحملها على ما فيه خلاصها، بخلاف مجيء الأمر بغتة. وفيه إشارة إلى أن أرض الموقف - والله أعلم - أكبر من هذه الأرض، الموجودة، جداً، والحكمة في الصفة المذكورة، أن ذلك اليوم يوم عدل وظهور حق، فاقترضت الحكمة، أن يكون المحل الذي يقع فيه ذلك، طاهراً عن عمل المعصية والظلم، وليكون تجليه سبحانه على عباده المؤمنين على أرض تليق بعظمته، ولأن الحكم فيه إنما يكون لله وحده، فناسب أن يكون المحل خالصاً له وحده).

هذا: ولفظ رواية مسلم - وهي عن سهل بن سعد رضي الله عنه أيضاً - «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقُرصة النقي ليس فيها علم لأحد» والملاحظ - كما أشرنا من قبل - أن كلمة «معلم»، عند البخاري تقابلها كلمة «علم» هنا، وإن كانا بمعنى واحد. وجعل البخاري عبارة «ليس فيها معلم لأحد» من قول سهل بن سعد أو غيره. وهذا ما لانجده في رواية مسلم. بل نجد «ليس فيها علم لأحد».

صلى الله على معلم الناس الخير؛ هذا عن صفة الأرض التي يحشر عليها العباد !!! ولكن ماذا عن الحال التي يكون الناس عليها، يوم يلاقون ربهم على أرض المحشر؟ إن النصوص تقودنا - وهي تتحدث عن هذا الأمر الجلل - إلى

مشهد من مشاهد القيامة العظيمة المؤثرة ، وهو مشهد يأخذ سيمته الحقيقية من كون العباد - وقد قاموا لرب العالمين وحق عليهم قول جبار السماوات والأرض ﴿وقفوههم إنهم مسؤولون﴾ - كل منهم في شغل شاغل عن الآخر ، بما يواجهه من الهول ، وما يحيط به من ترقب المصير ، فلكل منهم يومئذ شأن يغنيه ، أجل يغنيه عن النظر إلى صورة ما عليه الناس ؛ فهم محشورون حفاة عراة غُرلاً - أي بلا ختان - إنه لا مكان في تلك الساعات العصيبة لأن ينظر امرؤ إلى عورة الآخر ، رجلاً كان أو امرأة .

ألا ما أشد ذلك الهول !! وما أخرج تلك الساعات التي لا منجاة من ويلها إلا برحمة الرحيم الرحمن . قال الإمام البخاري : حدثنا قتيبة بن سعيد قال : حدثنا سفيان عن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يقول : «إنكم ملاقو الله حفاة عراة غُرلاً» وقال في رواية أخرى : حدثنا علي قال : حدثنا سفيان قال : قال عمرو : سمعت سعيد بن جبير قال : سمعت ابن عباس قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «إنكم ملاقو الله حفاة عراة مشاة غُرلاً» . قال سفيان : هذا مما نعدُّ أن ابن عباس سمعه من النبي ﷺ . وله في رواية أخرى عن ابن عباس أيضاً قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : «يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غُرلاً» ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ، ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي ، فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يارب أصحابي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿وكنتم عليهم شهيدياً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ قال : فيقال : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم . زاد في رواية : «فأقول : سحقاً سحقاً» وأخرجه مسلم والترمذي والنسائي وأحمد وغيرهم .

وتتساءل عائشة رضي الله عنها ، حين تعلم أن الناس يحشرون حفاة عراة
غُرلاً عن هذا الأمر المهول : فيكون جواب الرسول ﷺ « الأمر أشد من أن يهتمهم
ذلك » وفي بعض الروايات ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ .

ولنا إن شاء الله عودة إلى هذه المسألة العقديّة الكبرى ، المرتبطة بالإيمان
بالغيب ، نستجلي دلالة الهدى النبوي فيها ، وما تزخر به من شدة الهول الذي
يغمر الناس في ذلك اليوم المهول .

وجزى الله عنا نبينا محمداً ﷺ خير ما جزى نبيناً عن أمته ؟ فقد تركنا على
بيضاء نقيّة ليّلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾

(١)

ما أعظم ما يتجه إليه المؤمن ، من استكانة إلى مولاه . تزين عمله الصالح ،
كيما يحشر يوم الحساب في زمرة من يأمنون عند الخوف ؛ و يقيهم الله شر ذلك، اليوم
المستطير ، حيث الهول الهائل ، والنذر التي تأخذ بمجامع القلوب ؛ ومن لطف الله
وكريم امتنانه على أمة الإسلام ، أنه أبان للمؤمنين في كتابه ، وعلى لسان نبيه عليه
الصلاة والسلام ، عما يكون في تلك الساعات العصيبات ، من مشاهد ، كي
يأخذوا حذرهم ، ويكونوا - برحمته تعالى - في مأمن من مزلات الأقدام ، والانصراف
إلى الجحيم . وقد أسعدنا الهدي النبوي من قريب بالإخبار عن واحد من أشد
مشاهد يوم الفصل ، وذلك باصطحاب بعض من الأحاديث الصحيحة ، التي
نصت على أن الناس يحشرون إلى ربهم حفاة عراة غُرلاً مصداقاً لقول الله تبارك
وتعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ .

وهذه خطوة - لا يحسن العدول عنها - مع تلكم النصوص ، بعد إشارة
عجلى إلى شيء من الهدي فيها ، كانت بمثابة التقديم ؛ فالفتاح السليم المبارك إلى
تصور ذلك المشهد ، بحسّ المؤمن « وخشية مما يكون عليه الأمر يوم المعاد ، أن
نصطحبها ونستجلي - قدر المستطاع - ما تحمل من معان ، وما تدل عليه حين
تكشف عن ذلك المشهد من وعد ووعد ، وكيف أن الأمر يوم القيامة ، أشد من أن
ينظر امرؤ - رجلاً كان أو امرأة - إلى عورة الآخر ، مع أن الكل مشاة حفاة عراة
غزل بلا ختان ؛ لأن ما يحيط بالناس في ظل ذلك الهول الهائل ، يجعلهم ، ولكل
امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، كما جاء من خلال تلك النصوص بيان الصادق
المصدوق عليه الصلاة والسلام .

هذا: والذي رأيناه من قبل : بعض ما أورده الإمام البخاري في «باب الحشر» من كتاب الرقاق في الجامع الصحيح من رواية عبدالله بن عباس رضي الله عنهما . ولفظه : « إنكم ملاقوا الله حفاة عراة مشاة غرلاً » وبمثل هذا جاءت رواية مسلم عن ابن عباس أيضاً أنه سمع النبي ﷺ يخطب وهو يقول : « إنكم ملاقوا الله حفاة عراة غرلاً » وجاء في روايات أخر التصريح بالحشر على الحال المشار إليها ؛ فمن حديث رواه الإمام البخاري قال ابن عباس : قام فينا النبي ﷺ يخطب فقال : إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً - ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ وروى البخاري ومسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « قام فينا رسول الله خطيباً بموعظة فقال : يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً ﴾ ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ، ألا إنه سيجاء برجال من أمتي ، فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يارب أصحابي ، يقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ قال : فيقال لي : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » قال مسلم : وفي حديث وكيع ومعاذ « فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » وهذا مما يذكرنا بأولئك الذين ارتدوا بعده ﷺ من أصحاب مسيلمة الكذاب ونحوهم من المنافقين ، أعاذنا الله من ذلك .

ولفظ الحديث عند الإمام أحمد في المسند « يحشر الناس حفاة عراة غرلاً فأول من يكسى إبراهيم عليه السلام ، ثم قرأ ﴾ ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وجاء في رواية الترمذي « كما خلُقوا » وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وفي لفظ لأحمد من رواية ابن مسعود رضي الله عنه من حديث طويل « إذا جيء بكم عراة حفاة غرلاً » وكما أسلفنا غير مرة ،

لم يكن هدي النبي ﷺ في شأن الحشر ، وما تكون عليه حال الناس يوم القيامة ، بمعزل عن الانفعال الصادق عند الأصحاب عليهم الرضوان ، بل كان التصديق ، وكان التأثير والانفعال مع الحقائق ، وشهد ما وصل إلينا من تاريخهم - وهم يديرون دفة الحياة وبينون حضارة الإسلام - ما كان لذلك كله من انعكاس على السلوك ، وصدق الوجهة عند الفرد والجماعة . ولقد بلغ الأمر بجابر بن عبدالله رضي الله عنهما ، أن رحل إلى الشام ، من أجل أن يسمع حديث الحشر ، والحال التي يكون عليها الناس ، يوم يحشرون ، ويلقون مالك الملوك ربهم سبحانه وتعالى وما يكون من القصاص العادل ، وأخذ الحقوق لأصحابها . قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد قال : أخبرنا همام بن يحيى عن القاسم بن عبدالواحد المكي عن عبدالله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابر بن عبدالله يقول : بلغني حديث عن رجل سمعه من النبي ﷺ ، فاشترت بغيراً ، ثم شددت عليه رحلاً ، فسرت عليه شهراً حتى قدمت الشام ، فإذا عبدالله بن أنيس ، فقلت للبواب : قل له جابر على الباب ، فقال : ابن عبدالله ؟ فخرج يطأ ثوبه ، فاعتنقني واعتنقته ، فقلت : حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص ، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الله عز وجل الناس يوم القيامة - أو قال العباد - عراة غرلاً بهما . قلت : وما بهما ؟ قال : ليس معهم شيء ، ثم يناديه بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقضيه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ، وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقضيه منه ، حتى اللطمة ، قال : قلنا : وكيف وإنما نأتي الله عز وجل عراة غرلاً بهما ؟ قال : بالحسنات والسيئات . »

أرأيت إلى هذا الاهتمام من جابر رضي الله عنه بحديث الرسول ﷺ وبخاصة ما له علاقة بذلك اليوم الذي تشخص فيه الأبصار ، ويحشر الناس على الحال التي دل عليها قول الله تبارك وتعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ !! وجزى الله

أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، يوم تساءلت عما يخطر في بال كل من يقرأ أو يسمع تلكم الأحاديث ، وكان في جواب النبي ﷺ ، ما دلّ على شدة الهول الذي يضرب بجرانه على أهل الحشر ، فينصرفون عن النظر إلى العورات ، لأن الأمر أشد من ذلك . وما أروع الحقيقة القرآنية ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ روى البخاري بسنده عن عبدالله بن أبي مليكة قال: حدثني القاسم بن محمد بن أبي بكر أن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « يُحشرون حفاة عراة غرلاً . قالت عائشة رضي الله عنها : قلت: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال : الأمر أشد من أن يهمهم ذلك » وفي رواية لمسلم: « قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال ﷺ : يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » .

ونجد في رواية للنسائي قولها رضي الله عنها للرسول عليه الصلاة والسلام بعد الذي سمعت عن الحشر : « فكيف بالعورات ؟ قال عليه الصلاة والسلام: لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .

سبحان الله أي مشهد هذا الذي يكون عليه العباد ، وأي شدة شادة تلكم التي تصرف ، حتى عن التفكير بأن ينظر إنسان - رجلاً كان أو امرأة - من الآخر ما هو محرم عليه النظر إليه ، مع أن الجميع محشورون حفاة عراة غرلاً !!
اللهم سلّم سلّم ، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة .

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾

(٢)

كان من رحمة النبي ﷺ بأمته ، أنه عني أيتها عناية بتوجيه المسلمين إلى معرفة ما تحمل ساعات القيامة ، من الترقب والخوف ، في خضم الأهوال التي تحفل بها تلك الساعات العصبيات ، وإلى كل ما يصل بحبل النجاة ، ويشمر - بعون الله وفضله - الفوز بنعيم الخلد في جنة النعيم .

ومما يتصل بالشرط الأول من تلكم القضية الكبرى ، ما نقع فيه ، على نصوص من السنة المطهرة ، تزخر بالكشف عن تلكم الحقائق الموهلة يوم الحساب ، والتي إذا قورن أي جزء منها بقدرة الإنسان العادية على الاحتمال ، وُجد أن لطف الله ، ثم شفاعة النبي ﷺ في الخلق لإمضاء المسألة والحساب ، هما اللذان يسعفان في أن يتابع الناس ، حتى تقال كلمة الفصل ، ويعلم المصير إلى الجنة أو النار .

ولقد يشهد لهذا ويؤكدده ، ما كان من عائشة رضي الله عنها - وهي الفقيهة التقية القانتة أم المؤمنين رضي الله عنها حيث تساءلت بشيء من العجب والاستغراب ، عما يخلفه كون العباد يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلاً ، من الوقوع في حرمة أن ينظر بعضهم إلى عورات بعض ، وكان من جواب النبي ﷺ تقريره الواثق ، لحقيقة مذهلة قد تخفى على الناس ، وهي أن الأمر في ظل تلك الأهوال المطبقة ، أشد من ذلك ، فلكل من العباد - على اختلاف ما هم عليه - شأن يغنيه عن أن ينظر إلى الآخرين ، فيتأثم برؤية العورات . فقد جاء عند البخاري ومسلم والنسائي قول عائشة رضي الله عنها : « النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض » ؟ وقول الرسول ﷺ في الجواب : « الأمر أشد من أن يهَمَّهم ذلك » أجل : الأمر أشد من أن يهَمَّهم هذا اللون من النظر « بحيث يلتفت

بعضهم إلى بعض ، وهم على هذه الحال من التجرد التي تُذكر بما كانوا عليه يوم ولدوا .. كيف لا ، وهم مقبلون على أحكم الحاكمين ، يواجهون حصاد ما قدّموا في الدنيا ؛ فإما إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين . وإما إلى نار وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين . وقد ينال العصاة فيها ما ينالهم من التأديب والتطهير ، ثم يُخرجون منها بكرامة التوحيد ، فضلاً من الله العزيز الحميد، ومن فضله - وهو الرحيم الرحمن - ما فتح لعباده من أبواب الشفاعة، التي تتم بإذنه سبحانه وتعالى .

ولك أن تذهب بذهنك كلّ مذهب، فيما تكون عليه مشاعر العباد ، في تلك الساعات المثقلة بالرهبة والخوف وشديد القلق ، والتي تحمل ما تحمل ، من الترقب المضني الذي يهزُّ الكيان هزّاً ، ويشغل المرء عن أي شيء وراء نفسه - كما ثبت ذلك في كتاب الله والصحيح من الأحاديث - تخوفاً مما سيكون عليه مصيره . وإذا كان الأمر كذلك - وهو حقيقة لا مرأى فيها - فأنى له أن يجد ما يدفعه إلى النظر إلى عورات الآخرين !! وأنى له أن ينصرف - ولو لحظات - عما هو فيه !! إنه في شغل شاغل دونه كل ما كان يشغله في دنيا الفناء ... والأمر يومئذ لمن بيده الأمر كله ، رب الأرض والسماء .

أرأيت إلى ما جاء في رواية للنسائي من قول النبي ﷺ ، رداً على تساؤل عائشة المثقل بالعجب والرعب : ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ حيث رأى في الكلمة القرآنية المنبئة عن حقيقة الموقف أفضل ما يقنع في هذا المقام ، ونعمت الفقيهة الواعية أم المؤمنين .

وهذه الآية الكريمة - وهي الآية السابعة والثلاثون من سورة «عبس» السورة المكية - قد سبقت بقوله تعالى : ﴿ فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه ﴾ ثم قال سبحانه : ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ فكأنه ﷺ يريد أن يفهم عائشة رضي الله عنها ، ومن ورائها الأمة ،

أن من المحال ، على الناس - يوم الحشر - وهم على هذه الحال حيث يفر المرء من أقرب الناس إليه قائلاً : نفسي نفسي - أن يلتفت الواحد منهم ، إلى ما تتسائلين عنه ؛ فلكل امرئ من العباد جيعاً ، شأن يغنيه .

ويبدو أن ذلك التساؤل المثلث بالكثير من الاستغراب « والرعب ، من قبلها رضي الله عنها ، والذي دعا إليه ما جاء في تلکم الأحاديث الصحيحة » من بيان الحال التي يحشر الناس عليها ، يوم يقوم الجميع لرب العالمين .. يبدو أنه قد وقع أيضاً من امرأة لم يذكر اسمها ؛ فقد جاء في رواية للترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « تحشرون حفاة عراة غرلاً . فقالت امرأة : أيبصر ، أو أيرى بعضنا عورة بعض ؟ فقال ﷺ : يا فلانة لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

وها نحن أولاء ، نقع على نص فيه نوع من التفصيل يكشف عن مدى الرعب الذي أصاب عائشة رضي الله عنها - وهو رعب مثقل بالاستغراب والتعجب كما أسلفت - حيث سمعت ما سمعت من رسول الله ﷺ مجيباً بقوله تعالى : ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ حول هذه القضية الكبرى ، وذلك المشهد المذهل يوم الحشر ؛ ثم عن العلاقة بين إخباره عليه الصلاة والسلام - بما أخبر - وبين الآية المشار إليها ؛ فقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن عائذ بن شريح عن أنس بن مالك قال : « سألت عائشة رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، إني سائلتك عن حديث ، أفتخبرني أنت به ؟ قال : إن كان عندي منه علم . قالت : يا نبي الله كيف يحشر الرجال ؟ قال : حفاة عراة . قالت : واسوأته من يوم القيامة ، قال : وعن أي ذلك تسألين ، إنه قد نزل علي آية لا يضرک إن كان علیکم ثياب أو لا يكون ، قالت : آية آية هي يا نبي الله ؟ قال : ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ . »

على أن هنالك رواية ، يرد فيها الذعر والتساؤل من زوجة أخرى ، من زوجات

النبي عليه الصلاة والسلام ، ولكن للعلماء في هذه الرواية مقال « وذلك ما أخرج
 البغوي في تفسيره عن عطاء بن يسار عن سودة زوج النبي ﷺ قالت : « قال رسول
 الله ﷺ : « يبعث الناس حفاة عراة غرلاً قد أجمهم العرق وبلغ شحوم الأذان ،
 فقلت : يا رسول الله واسوأناه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال : قد شغل الناس ،
 لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » قال الحافظ ابن كثير : هذا حديث
 غريب من هذا الوجه جداً ، وهكذا رواه ابن جرير عن أبي عمار الحسين بن
 حريث المروزي عن الفضل بن موسى ، ولكن قال أبو حاتم الرازي : عائد بن
 شريح - وهو أحد الرواة - ضعيف وفي حديثه ضعف .

ومهما يكن من أمر : فالمفروض بالمؤمن ، أن يكون له من تلك الأحاديث
 الثابتة عن رسول الله ﷺ ، والتي كشفت عما يحيط بالحشر من الأمور العظام ، ما
 يحفز به إلى عدم الركون إلى الدنيا - وهو يعمر الأرض ويكدح في الحياة - وإلى مزيد
 من العناية والاهتمام ، بكل ما من شأنه حسن الإقبال على الله ، وتقواه في السر
 والعلن ، والاستعداد ليوم لا يسأل فيه حميم حميماً : « وترى كل أمة جاثية ، كل
 أمة تدعى إلى كتابها ، اليوم تجزون ما كنتم تعملون » إنه اليوم الذي تحكم مشهدهم
 العباد فيه ، تلكم الحقيقة الهائلة المتمثلة في قول الله تعالى : « لكل امرئ منهم
 يومئذ شأن يغنيه » .

ولقد كان من رحمة النبي ﷺ بأمته ، أن وجّه المسلمين إلى ما فيه حسن
 العاقبة ؛ أمناً من الخوف يوم الفزع الأكبر « ونجاة من أهواله الجسام ؛ وطوبى لمن
 كان همّه الأخذ بهديه عليه الصلاة والسلام ؛ ففي كتاب الرقاق من الجامع
 الصحيح « باب كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » روى البخاري بسنده
 عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : « أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : كن
 في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل . وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا
 تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن
 حياتك لموتك » .

وما من ريب في أن عدم الركون إلى الدنيا ، والنظر إليها على أنها دار عمر وزوال، وأن الآخرة هي دار القرار ، كل أولئك ، مما يحمل المؤمن على التزود الصادق ليوم المعاد .

ومن ثمرات ذلك ما يعقبه الله من صفاء النفس، وجلاء القلب حتى كأنه يرى ويسمع ويحسُّ ما يكون من تلك المشاهد المذهلة في عرصات القيامة .
والسعيد السعيد من سلك طريق أهل السعادة والفلاح ، مشمراً عن ساعد الجدِّ في طلب سلعة الله الغالية ، جنة عدن نُزِلَ الأبرار ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ .

يَحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ

ما وقفنا عليه من نصوص، تكشف عما يكون من الهول يوم الحشر، وماتكون عليه حال العباد... يأخذ بنا إلى ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، من إخبار عن سوء حال الكفار، في معادهم يوم القيامة، وحشرهم إلى جهنم، في أسوأ الحالات وأقبح الصفات، جزاء ما كسبوا في الدنيا من المآثم والضلال المبين؛ وكفرهم بما جاءت به رسلم الذين تلو عليهم آيات ربهم « وأنذروهم لقاء يوم القيامة، ولم يألوا جهداً في بيان الحق، والدلالة على صراط الله المستقيم، ولكن من حقت عليهم الضلالة، عتوا عن أمر ربهم، وأصروا على العناد، واستكبروا على الحق وأهله، فكان لهم سوء المصير في ذلك اليوم الذي يحشرون فيه على أسوأ حال. قال الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿الذين يحشرون على وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ وقد عقد الإمام البخاري في كتاب التفسير من الجامع الصحيح، باباً جعل عنوانه هذه الآية فقال فيه: «باب ﴿الذين يحشرون على وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾» ثم قال رحمه الله: حدثنا عبدالله بن محمد قال: حدثنا يونس بن محمد البغدادي قال: حدثنا شيبان عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه « أن رجلاً قال: يا نبي الله يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ » قال قتادة: «بلى وعزة ربنا» ولفظ رواية الحاكم من وجه آخر عن أنس رضي الله عنه: «سئل رسول الله ﷺ: يحشر أهل النار على وُجُوهِهِمْ؟».

وفي رواية أخرى للبخاري، جاء التصريح بقول الرجل عند سؤاله الرسول عليه الصلاة والسلام عن هذه المسألة « كيف يحشر الكافر على وجهه؟ » وذلك عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال: « يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه؟

قال : « أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ؟ » قال قتادة : بلى وعزة ربنا .

وأنت ترى ، أن الذي دعا إلى هذا التساؤل ، ما جاء في الآية الكريمة من سورة الفرقان ، التي دلت بوضوح ، على أن الكافرين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ، ثم بينت الآية أنهم شرُّ مكاناً وأضل سبيلاً ، وكان من فقه الإمام البخاري : أن جعلها في التفسير ترجمة الباب الذي أورد تحته هذا الحديث - كما ذكرت آنفاً - ولقد أفادت الأمة أيها الفائدة من سؤال ذلك الرجل عن ذلك ؛ إذ كان في جواب النبي ﷺ - وهو لا ينطق عن الهوى - ما يكفي ويشفي ، فالله تعالى وهو الخالق القادر سبحانه ، كما قدر على أن يمشي الكافر على الرجلين في الدنيا ، فهو قادر بالأولى على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ، وكان من يقين قتادة وبالعقيدة تصديقه بما بينه الرسول ﷺ ووجه العقول إليه ، هذا القسم الذي حمله إلينا قوله : « بلى وعزة ربنا » . ويا هولاء ذلك المشهد يوم ترى الكفار يحشرون - بقدرة العزيز القهار - على وجوههم إلى جهنم وبئس القرار - إن الأنفة من الخضوع والذلة لله في الدنيا ، وإن عبادة غيره جل شأنه والخضوع له ، كل أولئك أعقبهم هذا الذي تراه الخلائق من حالهم يوم القيامة ، والجزاء من جنس العمل !

أين التعالي والتعاضم ؟ أين الاستكبار والعناد ... لقد استحال ذلك كله إلى ظلام كالح ، يضرب عليهم وهم على تلك الحال المهينة ، فبدل أن يمشوا على أرجلهم ، يحشرون على وجوههم ، والوجه من الإنسان أبرز ما فيه ، وعليه ترسم الآثار التي تنطوي عليها النفوس ... فما كان أعزهم في الدنيا - كما يزعمون وتسؤل لهم أهواؤهم والشياطين - وما أذلهم في ذلك المشهد الذي يكاد ينطق بالقضية من بدايتها ، وحتى تلکم النهاية المخزية .

هذا : وبالتصريح بكلمة « كيف » وبالخطاب بـ « يا رسول الله » بدل « يا بني الله » جاءت الرواية عند الإمام مسلم ، فقد روى بسنده عن شيبان عن قتادة قال :

حدثنا أنس بن مالك « أن رجلاً قال : يارسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : أليس الذي أمشاه على رجله في الدنيا » قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » ؟ قال قتادة : « بلى وعزة ربنا ». فالأمر مرتبط بإرادة الله وقدرته ؛ فقد شاء بحكمته أن يكون المشي على الحالة المعروفة في الدنيا ، وله سبحانه أن يشاء للكفار غير ذلك يوم تصف الوجوه للحي القيوم إيذاناً بما استوجبه مسلكهم في الدنيا من العقوبة على هذه الصورة في الآخرة ، وهو القادر القاهر سبحانه .

وفي خطوة أخرى على هذه الساحة المباركة ، من بيان المصطفى عليه الصلاة والسلام ، نقرأ ما أخرج الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنفاً مشاةً ، وصنفاً ركبانا ، وصنفاً على وجوههم ، قيل : يارسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إن الذي أمشاهم على أقدامهم ، قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حَذَبٍ وشوك » قال الترمذي : هذا حديث حسن . ورواه البزار أيضاً .

قال الحافظ ابن حجر : ويؤخذ من مجموع الأحاديث أن المقربين يحشرون ركبانا ، ومن دونهم من المسلمين على أقدامهم ، وأما الكفار : فيحشرون على وجوههم .

الحَدَب : الغِلظ المرتفع من الأرض .

اللهم ثبتنا بقولك الثابت ، واكتب لنا - بفضلك وإحسانك - أن نكون في زمرة من قلت عنهم في كتابك الكريم : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه ﴾ .

لنحكيكم قليلاً ولنبكيتم كثيراً!!

لم يكن عبثاً، بل كان عين الحكمة الهادية « ما جرى عليه الكتاب العزيز ، وبيانه من حديث خاتم النبیین عليه الصلاة والسلام ، على أسلوب التقرير والتأكيد المرة تلو المرة ، في بيان ما يكون بعد الموت ، وما ينتظر العباد في ذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيباً ، من الأمور العظام ، والأحوال الجسام . ونبينا صلوات الله وسلامه عليه - وقد أوتي جوامع الكلم - لم يزل شديد الاهتمام ببيان كل ما يلزم بيانه للأمة ، في هذه الشؤون ، وكان حفيظاً - على وجه الخصوص - بالكشف عما تزخر به عرصات القيامة ، من مشاهد مثقلة بكل ما يفزع ويهول ، كيما يكون المؤمن على يقظة ، لما سيكون عليه الأمر بعد أن تبلغ الروح الحلقوم ، ويوافيه الأجل ، ويدخل دار الجزاء ، بعد أن استوفى ما كتب له في دار العمل . وليس من القول المعاد : أن نعيد إلى الأذهان ما سبقت الإشارة إليه غير مرة « من أن النبي صلى الله وسلم وبارك عليه ، لم يأل جهداً في أن يجمع إلى البيان المومى إليه - وهو يفصل ما أجل القرآن الكريم أو يقرر ويؤكد - الدلالة على الطريق الموصلة إلى حسن العاقبة ، والنجاة - بفضل الله عز وجل - من تلك النذر المهولة والأمور العظام ، التي قال الله في شأنها : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ .

وذلكم هو المنهج الفريد المتكامل في التربية ، إذ تراه عليه الصلاة والسلام - وهو الرحمة المهداة - يكشف عما سيكون من تلك المشاهد المهولة في ساعات الحشر وفي عرصات القيامة ، وفي الوقت نفسه يأخذ بيد المؤمن - كما أشرنا - إلى حيث السلوك المتوائم مع طلب النجاة والفوز المبين ، في يوم يحشر فيه الكافرون على وجوههم إلى جهنم ، وترى أنه ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . ويقول

خزنة الجنة للمؤمنين ، بعد أن تفتح لهم أبوابها : ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ ويحمد المؤمنون ربهم على ما صدقهم من الوعد بتلكم العاقبة جزاء الإيمان والاستقامة على ما أراد ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾ .

ومن هذا الباب الذي يُشرق بالمنهج الفريد المتكامل في التربية ، ما روى البخاري في كتاب التفسير من الجامع الصحيح ، قال رحمه الله : حدثنا منذر بن الوليد بن عبد الرحمن الجارودي قال : حدثنا أبي قال : حدثنا شعبة عن موسى بن أنس رضي الله عنه قال : « خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلاً قط ، قال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً . قال : فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم وهم خنين - خنين - فقال رجل : من أبي ؟ قال : أبوك فلان فزلت هذه الآية : ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تُبَدَّ لكم تسؤكم ﴾ .

وفي كتاب الرقاق من الجامع الصحيح جعل البخاري قوله ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » عنواناً لباب قائم بذاته « وأخرج تحته بالسند عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول : قال رسول الله ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » والمراد بالعلم هنا في قوله ﷺ لو تعلمون ما أعلم - كما يقول الحافظ ابن حجر - : ما يتعلق بعظمة الله وانتقامه ممن يعصيه ، والأهوال التي تقع عند النزاع والموت ، وفي القبر ، ويوم القيامة ؛ ومناسبة كثرة البكاء وقلة الضحك في هذا المقام : واضحة ، والمراد به التخويف ، ولقد يزداد الأمر وضوحاً ، إذا علمنا أن لهذا الحديث سبباً أخرجه سُنيِد في تفسيره بسنده والطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما جاء فيه : « خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا يقوم يتحدثون ويضحكون فقال : « والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » ومن خلال الفهم العميق لهذه الكلمات المضئفة الهادية ، يقولها إمام الرحماء وسيد العالمين ﷺ ، من أن المؤمن في ذكره لما سيكون في حالة النزاع ، وبعد الموت ، وفي القبر ، ويوم القيامة ، تحول الیقظة الإيمانية بينه

وبين أن يكون لاهياً غافل القلب، يخوض مع الخائضين ، بل يُؤرقه ذلك ويحرك
كوا من نفسه ويجعله — مع رجائه فضل الله ورحمته — خائفاً وجلالاً يبيكي ذنوبه
ويتضرع إلى مولاه بخشوع وخضوع .. أقول : ومن خلال الفهم العميق لتلك
الكلمة الهادية المشرقة بالرحمة والنصح للأمة ، قال الحسن البصري رحمه الله : « من
علم أن الموت مورده » والقيامة مواعده ، والوقوف بين يدي الله تعالى مشهده ،
فحقه أن يطول في الدنيا حزنه » وفي كلام الحسن هذا : ما يذكرنا بقول النبي ﷺ :
« الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى
على الله الأماني » رواه أحمد والترمذي وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ، والحاكم
من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه وقد سبقت الإشارة إليه .

وإنا لنسأل الله الذي وسعت رحمته كل شيء ، أن يجعلنا من الذين يكتب لهم
هذه الرحمة ، ويأخذ بأيدينا إلى ما فيه السلامة من مشهد اليوم العظيم ، وأن
يحشرنا — وهو الكريم المنان — في عداد من يقال لهم : ﴿ ادخلوا الجنة لا خوف
عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ .

كيف يستوي المؤمن والكافر في الحشر؟

أن تكون حال الإنسان يوم الحشر ، على صورة تُشعر بها كان عليه في الدنيا من إيمان أو كفر ، طاعة أو معصية ؛ حقيقةً تبدى بعض مظاهرها يوم البعث والنشور ، في مشاهد تحمل من الهول المروّع ما تحمل ، وتؤذّن بذلك الخسران المبين لأولئك الذين عميت منهم البصائر في الدنيا ، وضلّوا سواء السبيل ... ولقد كانوا من قبل يجحدون ، أن يكون ما هم فيه من العناد والمكابرة ، سيّلهم إلى تلك الحال التي يحشرون عليها ، وما يتلو ذلك من خلود في العذاب المهين . لقد نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وتردّوا في حماة النسيان لما أتاهم من الآيات البينات ، فحقّت عليهم كلمة العذاب ، وصدق فيهم قول الحق تبارك وتعالى في سورة طه :

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ . ولقد أذنت نصوص الكتاب والسنة — كما سبق — بما يثبت أن الكافر يحشر على وجهه يوم القيامة ، وهو ما جاء في سورة الفرقان من قول الله جل شأنه :

﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً ﴾ وكيف أن النبي ﷺ — كما روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال — وقد سئل عن ذلك — : « أليس الذي أمشاه على رجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » ؟ وأن قتادة قال حين بلغه ذلك : « بلى وعزة ربنا » .

وإذا كانت الحال التي يحشر عليها الكافر يوم القيامة ، ويصيرها الخلائق في ذلك المشهد القاهر المهول ، نتيجة طبيعية لما كسب في دنياه ، لأن كل امرئ بما كسب رهين ، ولا يظلم ربك أحداً ، فليس من نافلة القول : تقرير أن هذه الحقيقة في وجهها الآخر ، تشرق بها تنزخر به النصوص من مبشرات للمؤمن ، تكشف عن رحمة الله به يوم الحشر ، جزاء ما قدّم من العمل الصالح ، القائم على

الإيمان وما يقتضيه، فالحال التي يكون عليها المؤمن عند الحشر، غير الحال التي يكون عليها الكافر، وكيف تستوي في ميزان العدل الإلهي عاقبة من آمن وعمل الصالحات، وعاقبة من جحد وكان من الضالين المكذبين. روى أبو ذر الغفاري رضي الله عنه قال: «إن الصادق المصدوق حدثني أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج: فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم في النار، وفوج يمشون ويسعون، يلقي الله الآفة على الظهر فلا يبقى، حتى إن الرجل لتكون له الحديقة يعطيها بذات القتب لا يقدر عليها» أخرجه النسائي في كتاب الجنائز «من السنن» بإسناد حسن.

ولقد يسعف في أن نقدر كرامة الله للمؤمن في ذلك اليوم العصيب، حق قدرها، أن نكون على ذكر من تلکم الأهوال التي تحيط بالناس في ساعات الحشر، وما هم عليه من الترقب الذي يضرب بثقله وشدته على النفوس، خوفاً من أن تكون السوء هي العاقبة؛ ولا تعجب من هذا الترقب المضني، وقد دنت الشمس من رؤوس الخلائق، وألجمهم العرق، وأحاطت بهم الشدة الشادة من كل صوب!!

وفي نصوص الحديث النبوي بيانٌ أيُّ بيان لهذه الأهوال المفزعَات المرعبات، التي تكون في ذلك اليوم المشهود. كان ذلك من النبي عليه الصلاة والسلام للأمة كي يأخذ المسلم بالأسباب التي تخلصه منها، مستعيناً بالله عز وجل، مخلصاً في العبودية له والضرع إليه؛ عقد الإمام البخاري في كتاب التفسير من الجامع الصحيح باباً جعل عنوانه قول الله تعالى في سورة المطففين ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقال رحمه الله: «باب ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾» ثم روى بسنده عن نافع عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه» وكان من فقهه أجزل الله مثوبته، أن عاد فأورد الحديث عن ابن عمر أيضاً في كتاب الرقاق من الجامع تحت باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال ابن عباس: وتقطعت بهم

الأسباب أي الوُصَلات في الدنيا».

وروى مسلم بسنده عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ :
«يوم يقوم الناس لرب العالمين» قال: يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه
وفي رواية ابن المثنى قال : « يقوم الناس » لم يذكر «يوم» . وقد عنون الإمام النووي
في شرحه لصحيح مسلم لهذا الحديث وما تلاه ، في الكلام على أهوال يوم القيامة
بقوله : «باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها» . ثم إن هذا المشهد الذي
تنفطر لهوله الأكباد ، حملت إلينا دواوين السنة روايات أكثر تفصيلاً في شأنه ،
الأمر الذي يزيد المؤمن حذراً على حذر ، ويحمّله على المسارعة إلى أخذ الأهبة ،
والعمل لما بعد الموت ، والسير في طريق الصادقين الذين يُعَدُّون لذلك اليوم
عُدَّتَه ، ذاكرين قول الله تعالى : ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ . لِيَوْمٍ عَظِيمٍ . يَوْمَ
يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ .

وتحت الباب المسمى إليه قريباً ، من كتاب الرقاق في الجامع ، روى البخاري
بسنده عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :
« يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ،
ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم » وروى مسلم بسنده عن ثور عن أبي الغيث عن
أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « إن العرق ليذهب يوم القيامة
في الأرض سبعين باعاً ، وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس أو إلى آذانهم » يشك ثور أيهما
قال . وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تدنو
الشمس من الأرض فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من
يلبلغ إلى نصف الساق ومنهم من يبلغ منكبيه ، ومنهم من يبلغ إلى العجز ومنهم
من يبلغ وسط فيه — وأشار بيده أجمها فاه — رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا ،
ومنهم من يغطيه عرقه — وضرب بيده وأشار » رواه أحمد والطبراني وإسناد الطبراني
جيد.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

شُرُّ النَّدَامَةِ... يوم القيامة

من الحقائق التي لا غنى عن استدامة تقريرها ووعي مدلولها : أن ما جاء عن النبي ﷺ من كشف عن تلك الأهوال التي تحيط بالناس يوم القيامة ، كان - إلى جانب أنه صورة من صور الأمانة في التبليغ - دعوةً مؤكَّدةً إلى المنهج المتكامل الذي على المسلم سلوكه في الدنيا ، وهو يمضي ما قُدر له من العمر ، كيما يكون مرمى بصره - وهو يتحرك على ساحة الحياة بواقعية وبصيرة - سلامة العاقبة وحسن المآب في الآخرة ، فلا ينسى - وهو يقود حركة الحياة - أن الدار الآخرة هي دار القرار ، وأنها هي الحياة الحقيقية ، كما قال الله تعالى في سورة العنكبوت وهي سورة مكية : ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ كما لا يغفل - وهو يخوض معركة العمل لنفسه ولأمته - عن تلکم العظائم ، التي تطبع مشاهد القيامة يوم الحشر الأكبر ، حيث الحزني المردي على الكافرين . ﴿ و يوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا ، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ [الأحقاف : ٣٤] .

ولقد أخذ الصحابة رضوان الله عليهم بهذا المنهج ، وكذلك فعل من تبعهم بإحسان عبر تاريخ الأمة الطويل . روى ابن أبي شيبة في « مصنفه » عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله : « إنما أخاف عليكم اثنين طول الأمل واتباع الهوى ، فإن طول الأمل ينسي الآخرة ، وإن اتباع الهوى يصد عن الحق ، وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة ، وإن الآخرة مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون .. فكونوا من أبناء الآخرة ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل » وقد جاء عن عبدالله بن مسعود أنه كان يكثر في خطبه أن يقول : « شُرُّ الْعَدَلِ - أي الملامة والعتب - عند الموت ، وشر الندامة يوم القيامة » .

كنت مسوقاً إلى التذكير بذلك المنهج الذي لا يخفى على ذي بصيرة إليه ، وبما كان له من آثار في حياة المسلمين الصادقين ؛ بدءاً من الصحابة عليهم الرضوان : بين يدي الرحلة المباركة ، مع روايات آخر من حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام في شأن ما يكون من الشدة يوم البعث والنشور ، لبيان ما يجب من الارتباط بين المعرفة وبين والسلوك على هذا الصعيد . وقد أوردت من قريب ما روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن العرق ليذهب يوم القيامة في الأرض سبعين باعاً ، وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس أو إلى آذانهم » . ورأينا تفصيلاً لهذا الإجمال ، فيما روى أحمد والطبراني . وروى الإمام مسلم في صحيحه ما يدل على أن الناس يكونون في العرق على قدر أعمالهم ؛ فقال رحمه الله : حدثنا الحكم بن موسى أبو صالح قال : حدثنا ابن حمزة عن عبد الرحمن بن جابر قال : حدثني سُلَيْم بن عامر قال : حدثني المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم مقدار ميل . قال سُلَيْم بن عامر : فوالله ما أدري ما يعني بالميل ، أمسافة الأرض ، أم الميل الذي تكتحل به العين ؟ . قال : فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق » فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حَقْوَيْهِ ، ومنهم من يُلجمه العرق إجماماً ، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه » . وأخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة من الجامع الصحيح - وهو السنن - وقال : حديث حسن صحيح .

الحَقُّوْ : مشد الإزار عند الخصر .

ولقد يرد على بعض الأذهان إشكال في هذا ، بسبب ما عرف الإنسان من قانون المسافة بين الشمس والأرض اليوم ، وأن ذلك في غاية الدقة ، وأنها لو كانت أقرب لكان كذا ، ولو كانت أبعد لكان كذا .. وجوابنا على ذلك أن هذا الذي يتحدث عنه الرسول ﷺ من الغيب الذي على المسلم أن يؤمن به ، لأنه صادر عن الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام . وما اكتشفه الإنسان - بطريق

العلم- من قوانين ، يجب أن يصحبه أن الذي أجرى الكون بقدرته التي لا تحُدُّ،
وحكمته التي لا تنهاى : هو الله تبارك وتعالى .. وإذا كان الأمر كذلك : فهو -
جل شأنه - قادر بالأولى ، على أن يحيط الناس بالأحوال - يوم القيامة - كيف يشاء ،
وعلى النظام الذى يريد ، فهو الخالق القادر الذى بيده ملكوت السماوات
والأرض ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . ثم إن قضية البعث والنشور كلها -
وبجميع ما فيها هي من نوع ما نقول ؛ فالذي قدر على إيجاد الحياة من العدم -
وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون - قادر على أن يحيى الموتى ، وأن يبعث
الخلائق ليوم لا ريب فيه ، وإذن فليس من العلم في شيء أن نحتكم فيما يكون من
الغيب الذى جاء به الخبر الصادق ، إلى قوانين اكتشفناها - وهي من خلق الله
تبارك وتعالى - ثم نجعلها حاكمة على قدرة الله وحكمته خصوصاً وأن الأمر أمر
عالم الغيب في الآخرة .

وفي تبيان لتلك القضية المرعبة ، قضية ما يصيب الناس من العرق ، وما ينالهم
من النصب ، في ذلك المشهد من مشاهد ذلك اليوم العظيم ، جاء في كلام الشيخ
محمد بن أبي جرة : « ومن تأمل الحالة المذكورة ، عرف عظم الهول فيها ، وذلك أن
النار تحف بأرض الموقف وتدنى الشمس من الرؤوس .. فكيف تكون حرارة
تلحم الأرض ، وماذا يرونها من العرق حتى يبلغ منها سبعين ذراعاً ، مع أن كل
واحد لا يجد إلا قدر موضع قدمه . فكيف تكون حالة هؤلاء في عرقهم مع
تنوعهم فيه ؟ إن هذا لما يبهز العقول ، ويدل على عظيم القدرة . ويقتضي الإيمان
بأمور الآخرة أن ليس للعقل فيها مجال ، ولا يعترض عليها بعقل ولا قياس ولا
عادة ، وإنما يؤخذ بالقبول ، ويدخل تحت الإيمان بالغيب . ومن توقف في ذلك
دل على خسارته وحرمانه . وفائدة الإخبار بذلك ؛ أن يتنبه السامع فيأخذ
بالأسباب التي تخلصه من تلك الأحوال ويبادر إلى التوبة من التبعات ، ويلجأ إلى
الكريم الوهاب في عونه على أسباب السلامة ، ويتضرع إليه في سلامته من دار
الهوان ، وإدخاله دار الكرامة بمنه وكرمه » .

اللهم اجعلنا من صادقي الإيمان بالغيب ، الذين تغشاهم رحمتك ، فينالون
إحسانك وفضلك في دار الكرامة والإحسان يا سميع الدعاء ، يا كريم العطاء .

يوم لا ظل إلا ظله

ما يزال الكلام موصولاً بالحديث عن الحشر، يوم يقوم الناس حفاة عراة غرلاً
لرب العالمين ، وذلك في ضوء ما ورد من الأخبار الموثقة عن الصادق المصدوق
سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وغير خاف ما تفيض به السنة ، من إبراز
لتلك الملامح المربعة المذهلة ، التي تطبع المشاهد في ذلك اليوم الذي لا قبل
للعباد بما يكون فيه إلا بفضل الله تعالى وعونه كما قال جل ثناؤه في سورة الحاقة :
﴿ فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والملك على أرجائها
ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ .

وليس عجباً من العجب - والعرق يلجم الناس والهول لا يفتأ يشتد في
الضرب على القلوب - أن يتمنى متمنٍ أن يرحمه الله ولو بالمصير إلى النار . فعن
عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الرجل ليُلجمه العرق
يوم القيامة فيقول : يارب أرحمني ولو إلى النار » رواه الطبراني في الكبير بإسناد
جيد ، وأبو يعلى ، ومن طريقه ابن حبان إلا أنها قالوا : « إن الكافر ليُلجمه العرق
فيقول .. » الحديث .

ومما يزيد في شدة ذلك الهول الهائل « ويضاعفها أضعافاً مضاعفةً » ما يبصر
الإنسان ، مما يلقي غيره من الناس إضافة إلى ما يلقي هو نفسه . ولقد أشار إلى
ذلك الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه « أخذاً مما أخبر به النبي
عليه الصلاة والسلام ؛ فقد روى الطبراني عنه بإسناد جيد قال : « الأرض كلها نار
يوم القيامة ، والجنة من ورائها كواعبها وأكوابها ؛ والذي نفس عبدالله بيده : إن
الرجل ليفيض عرقاً حتى يسبح في الأرض قامته ، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه وما
مسه الحساب . قالوا : مم ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : مما يرى الناس ويلقون » .

وهذا الذي نرى من الإخبار عن تلكم الساعات ، المثقلة بما لا يكاد يحتمل في ذلك اليوم العبوس القمطير ، يوجب أن يكون المؤمن أكثر استمساكاً بحبل الله المتين ، وتصديقاً بما جاء من تلك النُذُر عن سيد المرسلين ، وأن يكون أشدَّ حرصاً على تزكية نفسه ، وأخذها بكل ما هو مرضٍ لله ولرسوله ، كيما يحشر في عداد أهل الفلاح إن شاء الله ، ويتنظمه عقد من يقيهم الله شرَّ ذلك اليوم ويلقيهم نضرة وسروراً ، ويجزيهم بما صبروا جنة وحريراً .

ولا ينسى المرء حين يذكر نفسه والآخرين بذلك ، أن يذكر معه أن النبي ﷺ قد أسلم المؤمنين بهديه الكريم ، إلى كثير من أبواب الخير ، التي إذا ولجوها ، أظلمهم الله في ظله وأكرم مثواهم ، وجعلهم في زمر الناجين الفائزين . وإني مذكر - على سبيل المثال لا الحصر - ببعض ما ورد في هدي النبي عليه الصلاة والسلام من البشارة لأناس تزكو نفوسهم ، فيكونون على المستوى اللائق ، خشيةً لله ومراقبة له سبحانه ، فيوفيههم الله أعمالهم ويظلمهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله... وبشذرات مما ورد من الترغيب بعمل من الأعمال ، وأن فعل ذلك من المؤمن ، يكون سبيله لأن ينعم بظل عرش الله في ذلك اليوم العظيم ، الذي يتسم بمشهد الخلائق وهم يعانون من هول الحر وما يناهم من العرق الذي يُلجم كلاً بحسبه ، كما ورد في النصوص . قال الإمام البخاري : حدثنا مسدد : حدثنا يحيى عن عبيد الله قال : حدثني حُبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « سبعة يظلمهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله ؛ إمام عادل ، وفي رواية إمام عدل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » وقد روى البخاري هذا الحديث في عدد من الأبواب في كتابه الجامع كان منها «باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد » من كتاب الأذان ، و «باب

الصدقة باليمين » من كتاب الزكاة و« باب فضل من ترك الفواحش » من كتاب الحدود . كما أورده مختصراً في « باب البكاء من خشية الله عز وجل » من كتاب الرقاق . ورواه الإمام مسلم بلفظ مطابق تقريباً ، حيث أخرج في صحيحه بالسند المتصل عن حفص بن عاصم ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، الإمام العادل ، وشاب نشأ بعبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » وله عن أبي سعيد الخدري أو عن أبي هريرة بلفظ « ورجل معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه » . وقد أخرج الترمذي هذا الحديث في كتاب الزهد من الجامع الصحيح - سنن الترمذي - ولكن مع التخالف في قليل من الألفاظ ، والتقديم والتأخير في ذكر بعض السبعة المذكورين ، المنعم عليهم بتلك الكرامة يوم القيامة ، من الإطلال في ظل عرش الله فقال رحمه الله : حدثنا الأنصاري قال : حدثنا معن قال : حدثنا مالك عن حبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله ﷺ قال : « سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » إمام عادل ، وشاب نشأ بعبادة الله ، ورجل كان قلبه معلقاً بالمسجد ، إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله ، فاجتمعا على ذلك وتفرقا ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعت امرأته ذات حسب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » . قال أبو عيسى وهذا حديث حسن صحيح .

والله المسؤول أن يقينا شدة الهول يوم الدين ، وأن يكرمنا بما يكرم به عباده الصالحين . فيظلنا في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وصلاة الله وسلامه على الرحمة المهداة سيدنا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين .

من سبل النجاة.. في الهدي النبوي

عندما يدار الحديث عن يوم الفصل — وما أدراك ما يوم الفصل — وتعلن النصوص إعلانها في شأنه خطاباً للعقول والقلوب ، كيما يحسن المؤمن التزود لرحلة البقاء ، يبدو من الضرورة بمكان ، استذكار حقيقة أن النبي ﷺ لم يدع باباً من أبواب الخير إلا دلّ أمته عليه ، ورغب فيه ، ولا باباً من أبواب الشر إلا نبّه إليه وحذّر منه ، كل أولئك كان منه — فداه أبي وأمي — درءاً للجهالة والسقوط ، وحرصاً على حسن العاقبة ، والمعافة من تلکم العظائم التي تشهدها عرصات القيامة ، يوم يشتد الكرب فلا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً . إن وعد الله حق .

والهدي النبوي — وهو بيان الكتاب المعجز — يفيض ترغيباً وترهيباً بهذه الحقيقة ، فهو نور يهدي إلى ما فيه سعادة الدارين ، والنجاة يوم يقوم الناس لرب العالمين . أخرج الترمذي بسنده عن أبي كبشة الأنماري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه ، قال : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزاً ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر — أو كلمة نحوها — وأحدثكم حديثاً فاحفظوه ، قال : إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ، ويصل في رحمة ، ويعلم الله فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل . وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً ، فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه ربه ، فهو نية فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم ولا يتقي فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم الله فيه حقاً ، فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً ، فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه ربه ، فهو نية فوزهما فيه سواء » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . ورواه الإمام

أحمد في المسند والبغوي في « شرح السنة » . وجاء عند أحمد أيضاً برواية فيها شيء من الاختصار ، قال رحمه الله : حدثنا وكيع قال : حدثنا الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن أبي كبشة الأنماري قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر رجل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل به في ماله فينفقه في حقه ، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً ، فهو يقول : لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل ، قال : قال رسول الله ﷺ : فهما في الأجر سواء . ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يخطئ فيه ، ينفقه في غير حقه . ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً يقول : لو كان لي مال مثل هذا ، عملت فيه مثل الذي يعمل . قال : قال رسول الله ﷺ : فهما في الوزر سواء » .

ودلالة هذا الحديث ، على ما يصل بالمؤمن - أن لو عمل بمقتضاه - إلى عز الدنيا وسعادة الآخرة ، دلالة واضحة ليس فيها لبس أو غموض ، وهنالك ينجو بفضل الله ، مما يعاني الناس في مشاهد القيامة ، من الهول وما يتتابه من الرعب الشديد ... وما على المؤمن - إذا كان على ذكر من يوم الحساب وما فيه - إلا أن يسلك طريق النجاة التي أوضح معالمها ، من أرسله الله رحمة للعالمين صلوات الله وسلامه عليه ، فقد ترك أمته على المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك .

وفي خطوة أخرى ، على هذه الساحة من هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام ، في تحديد المنهج الذي على المؤمن أن يسلكه ليكون - بفضل الله ورحمته - من الناجين الفائزين برضوان الله يوم الحسرة ، حيث تحديق الأهوال المتلاطمة وتبلغ القلوب الحناجر ، ويلجم الناس العرق ، ولا يسأل حميم حميماً ... في خطوة أخرى على هذه الساحة ، تطالعنا كلمات نورانية في ذلك الهدى الكريم ، تبصر المؤمنين بحقيقة هي على غاية الأهمية ، كيما يتنبهوا ، ويحذروا ، ويعملوا على أن لا تضرب الغفلة على قلوبهم ، تلك الحقيقة هي : أن الجنة قد حفت بالمكاره . وأن النار قد حفت بالشهوات ، والسعيد السعيد من اجتاز الابتلاء ؛ وهو اختبار يتناول ميادين الحياة كلها من حيث السلوك ، فإما إلى جنة عرضها السماوات

والأرض، وإما إلى نار وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين .

قال الإمام مسلم : حدثنا عبدالله بن مسلمة بن قعنب قال : حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت وحديد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « حَفَّت الجنة بالمكاره وحَفَّت النار بالشهوات » وكذا رواه الترمذي ورواه مسلم بهذا اللفظ ، لفظ حفت عن أبي هريرة أيضاً ، فقال : وحدثني زهير بن حرب قال : حدثنا شبابة قال : حدثني ورقاء عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بمثله .

ونجد الحديث عند البخاري بلفظ « حجبت » على الأكثر ولفظ « حَفَّت » أيضاً ؛ فقد عقد رحمه الله في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح باباً عنوانه « باب حجبت النار بالشهوات » ثم قال : حدثنا إسماعيل قال : حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره » .

والحق أن الامتحان شاق وعسير ، ولكنه يسير على من يسه الله عليه ؛ فالمؤمن يعزم عزمته مستعيناً بالله عز وجل ، فيصبر على اقتحام المكاره التي تقوده إلى الجنة ، ويصبر على محاذرة تلكم الشهوات التي تسوقه إلى النار وتجعله يعاني ما يعاني من أهوال اليوم العظيم، وسبحان من إليه المرجع والمآب وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الحقبي بين المكاره والشهوات

في معرض التذكير بحقيقة كبرى في هدي النبي عليه الصلاة والسلام، تتعلق بنصحه للأمة في الدلالة على طريق الخير وأبوابه، والترغيب بها والدعوة إليها، والتنبيه على أبواب الشر، والترهيب منها والتحذير من سلوك مسالكها، الأمر الذي يضمن للمؤمن - بفضل الله وجميل عطائه - أن ينجو يوم الحسرة مما يغشى تلکم المشاهد من الهول، وأن يكون ممن يفوزون بالجنة التي فيها - كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم وغيره - ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

أقول: في معرض التذكير بهذه الحقيقة، التي يجدر بالمؤمن أن يكون أبداً على ذكر منها ■ يحتاج الأمر إلى مزيد من الاستنارة بما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه من قول النبي عليه الصلاة والسلام : « حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ » وبما أخرج مسلم عن أبي هريرة أيضاً، وما أخرج هو والترمذي برواية أنس رضي الله عنه من قوله ﷺ : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » قال الإمام النووي في شرحه لرواية مسلم : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » هكذا رواه مسلم « حُفَّتِ » ووقع في البخاري « حُفَّتِ » ووقع فيه أيضاً « حُجِبَتِ » وكلاهما صحيح. وقال الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث برواية « حُجِبَتِ » عند البخاري: كذا للجميع في الموضعين - يعني « حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ » إلا الفروني فقال : « حُفَّتِ » في الموضعين ، وكذا هو عند مسلم من حديث ورقاء بن عمر عن أبي الزناد - يعني عن الأعرج عن أبي هريرة - وكذا أخرجه مسلم والترمذي من حديث أنس .

وليس يخفى على ذي بصر في أسلوب النبي عليه الصلاة والسلام ، أن هذا

الحديث - بروايته « حَفَّت » و« حَجَبَتْ » وكلاهما صحيح كما قال الإمام النووي - هو من بديع الكلام وفصيحه ، ومن جوامع الكلم التي أوتيها النبي ﷺ من التمثيل الحسن ، حيث المعاني الغزيرة في الكلمات القليلة ، وحيث البلاغة التي لا تكاد تدانى في كلام البشر ، والأسلوب الرائع الفريد في كلام خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، المتسق الاتساق كله « مع أمانة البيان للكتاب الكريم المعجز ، والمعنى : أن الجنة - كما قال العلماء - لا توصل إلا بارتكاب المكار وأنها النار توصل بالشهوات ، وكذلك هما محجوبتان ، فمن هتك الحجاب وصل إلى المحجوب ، فهتك حجاب الجنة باقتحام المكار ، وهتك حجاب النار باقتحام الشهوات ، فأما المكار : فيدخل فيها الجهاد في سبيل الله والاجتهاد في العبادات ، والمواظبة عليها ، والصبر على مشاقها ، وكظم الغيظ والعفو والحلم ، والصدقة ، والإحسان إلى المسكين ، والإنفاق في سبيل الله . والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصبر عن الشهوات ، والصبر على ما يصيب المؤمن في سبيل مرضاة الله عز وجل ورفع الظلم عن المسلمين ونحو ذلك ... وأما الشهوات التي النار محفوفة بها : فالظاهر - كما يقول الإمام النووي - أنها الشهوات المحرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والغيبة واستعمال الملاحية ونحو ذلك من كل ما هو محرم ، وأما الشهوات المباحة : فلا تدخل في هذه ، لكن يكره الإكثار منها ، مخافة أن يجر إلى المحرمة ، أو يجعل القلب قاسياً ، أو يشغل عن الطاعات ، أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها ونحو ذلك .

هذا وقد أخرج الترمذي الحديث المشار إليه في «كتاب صفة الجنة» من الجامع الصحيح - السنن - ، وأورد رواية أنس رضي الله عنه ولفظها - كما ذكرت آنفاً - «حَفَّت الجنة بالمكاره وحَفَّت النار بالشهوات» وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه صحيح . ثم أورد الحديث الذي يعتبر - بحق - تفصيلاً لما أجمل في سابقه ، فروى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «لما خلق الله الجنة والنار، أرسل جبريل إلى الجنة فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت

لأهلها فيها قال: فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها قال: فرجع إليه، قال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بها فحفت بالملكاه، فقال: ارجع فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فرجع إليها فإذا هي قد حفت بالملكاه، فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد. قال: اذهب إلى النار، فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع إليه فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفت بالشهوات فقال: ارجع إليها، فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها » قال: أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وقد رواه أحمد وأبوداود والنسائي وابن حبان والحاكم والبغوي في شرح السنة.

وإني داع بما يدعو به عباد الله الصالحون: اللهم أجرننا من مشاهد هذا الهول يوم الحشر الأكبر، ونسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين » وعلى آله وصحابه ومن اهتدى بهداه واتبع سنته وجاهد في الله حق جهاده إلى يوم الدين.

بين المكاره والشهوات... الإمتحان الحسير

إنها لصورة عظيمة بالغة القوة والتأثير ، تثير القلب والعقل ، وتحفز إلى تخطي العوائق ، تلك التي أبرز النبي ﷺ بيانه الفذ من خلالها - وقد أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً - أن بين المرء ، وبين أن يفوز بالنعيم المقيم في جنة الخلد ، مهام عليه أن يقطعها ، بصدق الإيمان وصالح العمل ، ولو كان في ذلك شديد المخالفة للنفس والهوى ، وما يكون من حب النفس للعافية من المكاره والمصاعب .. تلك الصورة القوية المؤثرة هي التي أشرق بها قوله عليه الصلاة والسلام - على شيء من الاختلاف في الروايات - : « حَفَّتِ الجنة بالمكارة » أو « حُجِبَتِ الجنة بالمكارة » . وهذا جزء من حديث تحمل تمته - كما سبق - صورة أخرى ليست أقل عظمة وإثارة للقلوب والعقول ، وحفزاً للهمم على تجاوز الصعاب ، بغية الفوز بمرضاة الله تعالى ، والنجاة يوم الحسرة من عذاب غليظ .. أعني قوله عليه الصلاة والسلام : « وَحَفَّتِ النار بالشهوات » أو « وَحُجِبَتِ النار بالشهوات » إنها صورة تقابل سابقتها ، ويبين المصطفى صلوات الله وسلامه عليه من خلالها ، أن بين المرء وبين لظى النزاعِ للشوى ، حاجزاً عليه أن يطوِّع نفسه على عدم تخطيه وتجاوزه ، لأن تخطيه وتجاوزه يعنيان الوقوع في حماته ، والسقوط المردي في جهنم وبئس المهاد . ذلك الحاجز أو الحجاب : هو الشهوات المقعدة عن الخير وعمل الصالحات ، ولفظ الحديث يشمل تلك الشهوات ، بمختلف أنواعها وألوانها وبواعثها .

والنظر في الروايات - على تعددها - يسعف في تجلية المعنى المراد ، والاستئارة بما قصد إليه هذا البيان نبي الهدى عليه الصلاة والسلام . ولعل من الخير التذكير بأن الحديث ، حمل طابع الإجمال في روايتي الإمامين البخاري ومسلم ، وهذا الإجمال الذي يؤدي غرضه في الكشف عن بواعث الصراع بين المؤمن والمكارة ،

وبينه وبين الشهوات ، رأينا تفصيلاً له من قريب فيما روى أحمد وأبوداود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم في المستدرک والبغوي في شرح السنة ، حيث أوردت رواية الترمذي . ونحن على موعد مع مزيد من الإيضاح لهذه القضية الكبرى في هدي النبي عليه الصلاة والسلام وهو يتحرى للأمة طرائق الخير ، ويسلك بها مسالك الأمن يوم الخوف في عرصات القيامة ، وحسن المآب في البعد عن النار ودخول الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين . ها نحن أولاء نجد الحافظ ابن حجر يقرر في تناوله الحديث عند البخاري ، أن هذا النص الكريم من جوامع كلمه ﷺ وبديع بلاغته في ذم الشهوات وإن مالت إليها النفوس ، والحض على الطاعات وإن كرهتها النفوس وشق عليها . واتجه الحافظ رحمه الله إلى أن الحديث الذي جاء فيه شيء من التفصيل لهذه القضية ، التي لها ماله من أثر في سلوك المؤمن « من حيث البعد عن الغفلة » والتطلع إلى العاقبة يوم الدين ، فيه إيضاح الحديث الذي أدير عليه الكلام ، ولذلك أوردته معزواً إلى من رواه واستعان بذلك على مزيد من وضوح المعنى وبيان ، يقول رحمه الله : وقد ورد إيضاح ذلك من وجه آخر عن أبي هريرة ، فأخرج أبوداود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم من وجه آخر عن أبي هريرة رفعه « لما خلق الله الجنة والنار ، أرسل جبريل إلى الجنة فقال : انظر إليها ، قال : فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بها فحفت بالمكاره ، فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها ، فرجع فقال : وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد ، قال : اذهب إلى النار فانظر إليها ، فرجع فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال : ارجع إليها ، فرجع فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد » .

ثم بين أن هذا يفسر رواية الأعرج يعني رواية « حفت الجنة بالمكاره ، أو حجبت » الحديث ، فإن المراد بالمكاره هنا ما أمر المكلف بمجاهدة نفسه فيه فعلاً وتركاً ، كالإتيان بالعبادات على وجهها ، والمحافظة عليها ، واجتناب المنهيات قولاً

وفِعلاً « وأطلق عليها المكارة، لمشتقتها على العامل، وصعوبتها عليه، ومن جملتها الصبر على المصيبة، والتسليم لأمر الله فيها، والمراد بالشهوات : ما يستلذ من أمور الدنيا، مما منع الشرع من تعاطيه، إما بالأصالة، وإما لكون فعله يستلزم ترك شيء من المأمورات، ويلحق بذلك : الشبهات، والإكثار مما أبيح خشية أن يوقع في المحرم، فكأنه قال : لا يوصل إلى الجنة إلا بارتكاب المشقات المعبر عنها بالمكارة، ولا إلى النار إلا بتعاطي المحرمات، وهما محجوبتان : فمن هتك الحجاب اقتحم.

ويمكن القول بأن الحجاب الأول، وهو ما دون الجنة من المكارة، مطلوب اقتحامه « أما الحجاب الثاني وهو ما دون النار من الشهوات : فالمطلوب محاذرته والبعد عنه، لأن اقتحامه يعني الوقوع في النار والعياذ بالله، يؤكد ذلك أن « حُفَّتْ » - كما في الروايات الأخر - من الحفاف وهو ما يحيط بالشيء، فلا يتوصل إليه إلا بتخطيه كما في قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ وحفناهما بنخل ﴾ أي جعلنا النخل مطيفة بأحْفَتَهُمَا . فالجنة لا يتوصل إليها إلا بصدق العزيمة في قطع مفاوز المكارة، والنار لا ينجى منها إلا بترك الشهوات . على اتساع ميادين المكارة في كل ما يطلب من المسلم فعله، واتساع ميادين الشهوات في كل ما يطلب من المؤمن تركه .

وجيل ما كان من صنيع القاضي أبي بكر العربي في كتابه « عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي » فبعد أن أشار إلى روايتي « حَفَّتْ » « وحجبت » بيّن رحمه الله أن معنى « حجبت » جُعِلَتِ المكارة بينها وبين طالبها حجاباً ؛ فلا يصل إليها حتى يقتحمها، وكذلك قوله : « حَفَّتْ » معناه جُعِلَتِ حِفَافَتُهَا : أي على جوانبها، وهو الحجاب بعينه، لأن لفظ الحجاب أبلغ في بيان المنع من الوصول لأنه أخص به في الضدية وقوله : « حفت النار بالشهوات » مثله في التنزيل، وعكسه في المعنى .. وفي بيان لروعة التعبير النبوي وسمو الأداء الموصل إلى المطلوب العظيم بهذه الكلمات القليلة الجامعة قال رحمه الله : (وهو من بديع

الفصاحة وغريب البيان ؛ فمعنى « حفت النار بالشهوات » أن الشهوات موضوعة على جوانبها ، فمتى اقتحم الشهوة سقط في النار ، وكذلك قوله « حُجبت » ، أي جعلت الشهوات حجاباً بين العبد وبينها ، فإذا أتى الشهوة دخل النار ، لارتباطها معها واتصالها بها ، وأنها خطايفها ، فالنار لا يقصدها مرتكب الشهوة ، وإنما يقع فيها بالتسبب ، والجنة يطلبها ويقصدها المرء عن علم ، ولا يصل إليها إلا باحتمال المكروه . وفي هذا قال النبي ﷺ : « لما خلق الله الجنة والنار قال لجبريل : اذهب إلى الجنة فانظر إليها ، فرجع إليه وقال له : فوعزت لك لا يسمع بها أحد إلا دخلها - يعني اشتاق إلى دخولها أو احتال على دخولها - فلما خلق المكاره حولها قال له : وعزت لك لقد خفت أن لا يدخلها أحد ، » وبمثل هذا أيضاً كان القول في النار .

جزى الله عنا نبينا محمداً ﷺ بما بلغ فأحسن أيماً إحسان ، وبين فسما بيانه أيماً سمو ، ونسأله تعالى مزيداً من لطفه وتوفيقه .

الإظلال يوم القيامة.. وطرائق البز إليه

من الخير ومبشرات التوفيق للمؤمن ، أن يكون دائم الصلة بما يذكره بالله واليوم الآخر ، وما نطقت به السنن الإلهية من التكليف في هذه الدار العاجلة ، وما ينتظر المرء في دار الجزاء يوم يؤخذ بالنواصي والأقدام ، ويوفى كل إنسان حسابه كاملاً غير منقوص .

ومما يضمن دوام هذه الصلة ، ويجعل منها المورد الثر ، بالطاعة الذي يباعد بين المؤمن وبين الغفلة : النظر ببصيرة فيما ورد عن رسول الله ﷺ - وهو المبين عن الله ما أراد - في شأن اليوم الموعود ، بشارة كان ذلك أو نذارة ، ترغيباً أو ترهيباً ، خصوصاً وأن إمام الهداة صلوات الله وأزكى تسليحاته عليه ، لم يدع أن يكون خير ناصح في ذلك البيان ، ولم يغفل شاردة ولا واردة على ساحة الهدى والتبصير . روى الإمام أحمد بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لا تتمنوا الموت فإن هول المطلع شديد ، وإن من السعادة أن يطول عمر المرء ويرزقه الله الإنابة » وروى عن عمر رضي الله عنه قوله : « لو أن لي ما في الأرض جميعاً لافتديت به من هول المطلع » . قال ابن الأثير في النهاية : « يريد بالمطلع الموقف يوم القيامة ، أو ما يشرف عليه من الآخرة عقيب الموت ، فشبهه بالمطلع الذي يشرف عليه من موضع عال » .

ومما يفرح قلب المؤمن أنه - مع الوعيد الشديد ، كما أسلفت ، والكشف مما يطبق على العباد في ذلك اليوم المهول من الهم والفرع البالغين ، ومن تلكم المخاوف التي لها سلطان أي سلطان على النفوس - هنالك ما يبشر المؤمنين الذين يخلصون لله دينهم ، ويجتهدون في عمل الصالحات ، والجهاد في سبيل الله - وذكر رسول الله ﷺ فئات منهم - أن الله يظلمهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وكنت

أوردت في معرض الإشارة إلى ذلك ، ما صحّ عن الرسول عليه الصلاة والسلام من قوله : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ... » الحديث .

ومما ينشرح له الصدر ، ويدخل على قلب المؤمن ما يجعله مسروراً ، فرحاً بفضل الله ورحمته ، أن العدد في هذا الحديث لا مفهوم له ، فلا يعني تعبير «سبعة» أن إظلال الله في تلك الساعات المثقلة بالشدة والترقب المضني الذي لا يكاد يوصف لما يحدث من القلق - مقصور على السبعة المذكورين - بمعنى أن ليس لآخرين سواهم تلك الكرامة التي يتفضل الله بها على أهل القرب ، فيكون الروح والريحان - بل الفضل أوسع وأشمل ؛ فهناك العديد من النصوص التي تؤكد ما لبعضهم ، وتبشر غيرهم بما عند الذي لا تنفذ خزائن رحمته ولا ينقصها العطاء . قال الإمام مسلم : حدثنا قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس فيما قرأ عليه عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر عن أبي الحُبَاب سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » وكذلك رواه أحمد والدارمي . وظاهر النص - كما ترى - أن هؤلاء المتحابين بجلال الله ، بعظمته وطاعته لا للدنيا ، يغمرهم هذا الفضل ، فيكونون في ظله سبحانه من الحر والشمس ، ووهج الموقف ، وأنفاس الخلق ، وهذا - كما يقول القاضي عياض - قول الأكثرين . ونقل الإمام النووي عن عيسى بن دينار أن المعنى : كفُّهم من المكاره وإكرامهم ، وجعلهم في كنفه وستره . ويبدو - والله أعلم - أن المآل واحد ، فإنهم ينعمون بهذه الكرامة الربانية من الإظلال والستر ، وهم بأشد الحاجة إلى ذلك ، والله الحمد والمنة .

وجاء هذا الحديث عند مالك في الموطأ بلفظ « لجلالي » باللام عوضاً عن « بجلالي » بالباء . والأنس بعبر الرحمة التي يفيض بها هذا النص الكريم ، لمن يرقون إلى منزلة التحاب لعظمة الله لا للدنيا ، يأخذ بأيدينا إلى ميدان آخر من ميادين العطاء الإلهي في ساعات لا يسأل فيها حميم حميماً ، حيث دلّ رسول الله

أتمته على ما يكون سبباً لهذا العطاء .

ففي باب الجهاد ، ومعاونة المجاهدين والغزاة في سبيل الله ، نفع في هدي النبي ﷺ على ما يبشر به من يكون عوناً للغازي في سبيل الله ، بالقدر الذي يستطيع ، أن له بذلك أن يظله الله يوم القيامة ، وأكرم بها من بشارة ، ترتفع بالمؤمن المصدق بما يكون من أهوال الآخرة ، والرهق الذي يصيب الناس في المحشر ، إلى تجاوز ما يقعد عن الجهاد ومعاونة أهله ، كيما يفوز بمرضاة الله ويكون في عداد أولئك الذين تشملهم نفحات الرضا ، فيظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . قال الإمام أحمد في المسند ، حدثنا أبو سلمة الخزاعي قال : أنبأنا ليث ويونس قالوا : حدثنا ليث عن يزيد بن عبدالله بن أسامة بن الهاد عن الوليد بن الوليد عن عثمان بن عبدالله - يعني ابن سراقه - عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أظل رأس غاز أظله الله يوم القيامة ، ومن جهز غازياً حتى يستقل ، كان له مثل أجره حتى يموت . قال يونس : أو يرجع ، ومن بنى لله مسجداً يذكر فيه اسم الله تعالى بنى الله له بيتاً في الجنة » .

معنى « قال يونس : أو يرجع » أن يونس زاد في روايته بعد قوله أو يموت زاد « أو يرجع » . وتجدر الإشارة إلى أن راوي الحديث عثمان بن عبدالله بن سراقه ، أمه زينب بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فهو سبطه « وقد روى عثمان عن جده مرسلاً ، كما أخرج ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه حديثه عن جده عمر بن الخطاب ، ومقتضاه - كما يقول الحافظ ابن حجر - أن يكون سمع منه ، فالله أعلم . وقد ذكر الحافظ رحمه الله أنه وقع مصرحاً بسماعه منه عند أبي جعفر الطبري في كتابه « تهذيب الآثار » وذلك في ثلاثة أحاديث ، منها الحديث الذي نحن بصددده . والحديث رواه أيضاً أبو يعلى الموصلي في مسنده ، والحاكم وابن حبان والبخاري ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي فقال : صحيح .

وعلى ساحة التعامل الاقتصادي ، وتنمية روح التعاون الأخوي بين المسلمين ،

وإبعاد ما يكون من الجشع والطمع ، جاء الترغيب من النبي ﷺ لمن ينظر معسراً ، أو يضع عنه من الدين : أن الله يظله في ظله يوم القيامة . روى مسلم في صحيحه من حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر ، أن النبي ﷺ قال : « من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله » وروى الإمام أحمد بسنده عن عثمان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أظل الله عبداً يوم لا ظل إلا ظله أنظر معسراً أو ترك لغارم » ونجد عند الترمذي من رواية أبي هريرة رضي الله عنه قول النبي عليه الصلاة والسلام : « من أنظر معسراً أو وضع له ، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » . والذي عند ابن ماجه من رواية أبي اليسر رضي الله عنه قوله صلوات الله وسلامه عليه : « من أحب أن يظله الله في ظله ، فلينظر معسراً أو يضع له » .

والصدقة طريق ميمونة إلى فضل الله بالإطلال في ساعات الحشر ، وما أدراك ما ساعات الحشر . روى الإمام أحمد عن مرشد بن عبد الله اليزني قال : حدثني بعض أصحاب النبي ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن ظل المؤمن يوم القيامة صدقته » وفي رواية أخرى عن عقبة بن عامر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « كل امرئ في ظل صدقته ، حتى يفصل بين الناس أو قال : يحكم بين الناس » .

أعود إلى التذكير النافع إن شاء الله مرة أخرى ، بأن ما أوردته من النصوص المبشرة بظل الله يوم لا ظل إلا ظله ، ليست للحصر ، ولكنها إيذان بأن طرق الخير الموصلة إلى النجاة من أهوال القارعة ، مفتحة الأبواب لمن يعملون الصالحات ، طاعة لله ولرسوله مخلصين ، ويستعلون على حطام الدنيا وزخرفها ، واضعين نصب أعينهم أن يوم الدين آتٍ لا ريب فيه ، وأن العاقل من أخلص الوجهة وتزود لذلك اليوم بخير زاد ... ويا بؤس من تقعه الغفلة عن المسارعة قبل فوات الأوان والله الأمر من قبل ومن بعد .

ونضع الموازين القسط ليوم القيامة

من علامات الإيمان واستنارة القلب باليقين ، أن ترى المسلم ، خالص الوجهة في العبادة ، صادق العزيمة في التزود ليوم الحساب ، فتراه يُعدُّ العُدَّةَ لتلكم الساعات التي تعرض فيها الأعمال على الله ، فلا تخفى عليه جل شأنه من العباد خافية ، وتوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . وغير خاف ما لتلكم الساعات من الثقل ، كما أنها ساعات مترعة بالجهد والضيق الشديد ، يرى المرء رأي العين - وهي مطبقة عليه - مصداق قول الله جل شأنه في سورة الأنبياء : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ . فالحق تباركت أسماؤه وتقدس صفاته ، يعطي كل ذي حق حقه ، كما جاء في الكتاب العزيز ، وبيانه من حديث النبي عليه الصلاة والسلام ، فهو سريع الحساب ، وكل شيء محصى عنده في كتاب ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وعند العرض يوفي كلَّ حسابيه ويجازيه بعمله ٥ ولا يظلم ربك أحداً .

ولقد كان من دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام - وهو يتوجه إلى الباريء مالك يوم الدين الذي يقف العباد في يوم الفصل للسؤال والجزاء - كان من دعائه بارك الله عليه وعلى آله في العالمين : ﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ قال العلماء : أي يوم تحاسب عبادك بأعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

من هنا كان ما نجد في الهدى النبوى - بياناً لما في القرآن الكريم - من الدعوة إلى يقظة القلب ، لكيلا تعمى البصيرة ، فينسى المرء يوم الحساب ، ذلك لأن نسيان ذلك اليوم ، ظلم للنفس ، ووقوف بها على حافة الهاوية ، يوم العرض

الأكبر والحساب ، وأي هاوية أشد وأعتى ، من الوعيد الذي يحمله قول الله تعالى في سورة ص ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ . لقد حق عليهم العذاب الشديد ، بما تركوا من سلوك طريق الله الذي يباعد بين الإنسان وبين نسيان الآخرة ، ووقوف العباد بين يدي رب العالمين . أو بأنهم تركوا العمل بما يقتضيه الإيمان بذلك اليوم - فصاروا كالناسين . والحساب - في واقع الأمر - قريب قريب ، وطوبى لمن وضع هذه الحقيقة نُصب عينيه ، في هذه الدنيا ، ولم يقع في شرك الغفلة والنسيان واستبدال العاجلة بالآجلة ، ولقد جاء التحذير من الإعراض عن تلكم الحقيقة نتيجة الغفلة مبكراً في القرآن ؛ فقد افتتحت سورة الأنبياء - وهي سورة مكية - بقول الله جل ذكره : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ أخرج النسائي عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ ﴿ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ قال « في الدنيا » . وليس بدعاً أن يكون لدلول هذه الآية ، وما توجه إليه من التدبر والتذكر ، من أثر بالغ في سلوك من أكرمهم الله بيقظة القلب وتفتح البصيرة ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره ما روي في ترجمة عامر بن ربيعة ، أنه نزل به رجل من العرب ، فأكرم عامر مثواه ، وكلم فيه رسول الله ﷺ ، فجاءه الرجل فقال : إني استقطعت من رسول الله ﷺ وادياً في العرب ، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك . فقال عامر : لا حاجة لي في قطيعتك ، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ وروى الحافظ ابن عساكر قول بعضهم : أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول :

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن

فقل له : من أين أخذ هذا؟ قال من قول الله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ .

وإنه لمشهد عظيم من مشاهد القيامة ، جدير بأن يوقظ القلوب ، ويشحذ

العزائم للعمل الذى يُعقب - بفضل الله - النجاة يوم العرض الأكبر ، حيث يقول جبار السماوات والأرض: ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ أجل إنه لمشهد بالغ العظمة، توحى به الآية التي أشرنا إليها من قبل ، وهي الآية السابعة والأربعون من سورة الأنبياء ونعني بها قول الله عز وجل: ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ وكم في حديث النبي ﷺ من النماذج التي تعكس ما يحمله هذا المشهد - الذى يضم الخلائق وموازين الأعمال - من علم الله المحيط، وقدرته التي لا تدانيها قدرة ، وعدله المطلق جل شأنه وله سبحانه المثل الأعلى - ناهيك عن الرحمة التي وسعت كل شيء ، وهو الحكيم في وضعها حيث يشاء . من هذه النماذج ما روى الإمام أحمد بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «توضع الموازين يوم القيامة ، فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة ، ويوضع ما أحصى عليه الميزان قال : فيبعث به إلى النار ، قال : فإذا أدبر به ، إذا صائح من عند الرحمن عز وجل يقول : لا تعجلوا فإنه قد بقي له ، فيؤتى ببطاقة فيها (لا إله إلا الله) فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل به الميزان » .

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو نوح فزاد ؛ أنبأنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس عن الزهري عن عروة عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها «أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه ، فقال : يارسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأضربهم وأشتهم ، فكيف أنا منهم ؟ فقال له رسول الله ﷺ : يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم ، كان كفافاً لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل الذي بقي قبلك » فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف ، - يعني ويصيح - فقال رسول الله ﷺ : ما له لا يقرأ كتاب الله ﷻ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها

وكفى بنا حاسبين ﴿ فقال الرجل : يا رسول الله ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء ،
وإني أشهدك أنهم أحرار كلهم » .

هكذا تعمل الهداية عملها ، في نفوس الصادقين في التطلع إلى الهداية ،
فتراهم إذا ذكّروا بيوم القيامة والحساب ، ذكروا ، فسما بهم حب الآخرة ومسايفها
لأهل الإيمان ، على زخرف الدنيا وحطامها ، وذلك طريق أهل النجاة المفلحين
الذين صفت قلوبهم من الأكدار ، فانتفعوا بالهدي المحمّدي ؛ إخلاص وجهة ،
وعملًا للآخرة ففازوا بحسن المآب في يوم لا مردّ له من الله ﴿ إن الله لا يضيع أجر
المحسنين ﴾ .

من نوقش الحساب هلك

ما أكثر ما يقع الناظر في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : على النصوص التي تزيده يقيناً على يقين ، بأن نبينا ﷺ لم يلتحق بالرفيق الأعلى ، حتى أدى أمانة البيان لكتاب الله الكريم ، خير ما يكون الأداء ، وبلغ عن ربه ما أراد - جل شأنه - أفضل وأحكم ما يكون التبليغ .

وغير خاف ، أن كثيراً من القضايا الكبار ، كان يمكن أن تظل على إجمالها ، أو عمومها وإطلاقها ، لولا بيان النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن ذلك : العديد من الأمور العظام التي ستكون يوم القيامة ، وفي مقدمتها الحساب والناس معروضون على ربهم ، لا يملك الواحد لنفسه ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله . ولعل من المسلمات التي لا غناء عن استذكارها على الدوام ، ما يجب على المؤمن سلوكه - كما أسلفت غير مرة - من الاستعداد لتلك الساعات المثقلة بالشدة ، حيث يقف الناس للمساءلة بين يدي رب العالمين ، وحيث الحقيقة المعلنة في قول الله جل شأنه : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ . ولكن ما هي أبعاد ذلك بالنسبة للخلق ؟ أهو العرض ؟ أم هو مناقشة الحساب ؟ ذلك ما تكفلت ببيانه السنة المطهرة وكان من رحمة الله بالناس : أن فصل الإجمال الوارد في كتاب الله ، من قلده الله أمانة البيان عليه الصلاة والسلام .

هذه عائشة رضي الله عنها تسمع رسول الله ﷺ يقول : « من حوسب عذب » وفي رواية « من نوقش الحساب عذب » فيقع ذلك من نفسها موقع الاستغراب مع الذي تعلم من قول الله تعالى : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ وهنالك تحرص على أن تفهم بيان ذلك من صاحب الشريعة عليه

الصلاة والسلام ؛ ويؤدي رسول الله الأمانة ، ويجلي ذلك الأمر على أتم صورة - كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله - وكان من فقه الإمام البخاري رحمه الله أن استنبط من ذلك مراجعة من سمع شيئاً حتى يعرفه ، فعقد في كتاب العلم من جامع الصحيح باباً عنوانه : « باب من سمع شيئاً فراجعه حتى يعرفه » وقال هناك : حدثنا سعيد بن أبي مريم قال : أخبرنا نافع بن عمر قال : حدثني ابن أبي مليكة أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه ، وأن النبي ﷺ قال : « من حوسب عُذْب » قالت عائشة : فقلت : أو ليس يقول الله تعالى : ﴿ فسوف يحاسب بحسابٍ سييراً ﴾ قالت : فقال : « إنها ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب يهلك » .

والمراد بالعرض : عرض الناس على الميزان . ونوقش من المناقشة وأصلها الاستخراج - ومنه نقش الشوكة إذا استخراجها . والمراد هنا - كما يقول العلماء - المبالغة في الاستيفاء ؛ فمناقشة الحساب : تحقيقه وتدقيقه والاستقصاء فيه ، ولكن أين ما عند العبد أن يقوم لذلك ؟ قال الحافظ ابن حجر في الفتح : (والمعنى أن تحرير الحساب يفضي إلى استحقاق العذاب ، لأن حسنات العبد موقوفة على القبول ، وإن لم تقع الرحمة المقتضية للقبول ، لا يحصل النجاء) .

وفي الحديث - كما نرى - ما كان عند عائشة من الحرص على تفهم ما تسمع من النبي عليه الصلاة والسلام ، جزاها الله عن المؤمنين والمؤمنات خير الجزاء ، وأن النبي ﷺ ، لم يكن يتضجر من المراجعة في العلم ، بل يتسع صدره لكل ما فيه سلامة البيان وإيصال الخير لعباد الله ، لما أنه المؤمن على بيان الكتاب ، المبلغ - وهو صلوات الله وسلامه عليه الصادق المصدوق - عن الله ما أراد .

وعند الكلام في « التفسير » من الجامع الصحيح عقد الإمام البخاري عند الكلام على سورة ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ باباً عنوانه ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ وروى بسنده هناك أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد يحاسب إلا هلك . قالت : قلت يا رسول الله جعلني الله فداك ،

أليس يقول الله عز وجل : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فُسُوفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ؟ قال : ذاك العرض يُعرضون ، ومن نوقش الحساب هلك . وفي رواية لمسلم والترمذي وأبي داود « وهي عند البخاري أيضاً قال ابن أبي مُلَكِيَّة : « إن عائشة كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه ، إلا راجعت فيه حتى تعرفه ، وإن النبي ﷺ قال : من نوقش الحساب عَذَّب ، فقالت : أليس يقول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فُسُوفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا . وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾ ؟ فقال : إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك . » وفي رواية « وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عُدَّب » . وأخرج الترمذي في التفسير من كتابه الجامع بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من حوسب عذب » .

هكذا كشف النبي عليه الصلاة والسلام ببيانه الفذ « عن هذه الحقيقة ، وهي أن المراد من الآية الكريمة العرض ، حيث تعرض أعمال الناس على الميزان الذي يقيمه الله يوم القيامة بالقسط ، فيزن أعمال العباد ، ويجازيهم بتلك الأعمال ؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر . أما من وقع في التحقيق والتدقيق والاستقصاء — ولا يكون ذلك إلا بما كسبت يده — فهو هالك ، يكون نصيبه العذاب في جهنم وساءت مصيراً . ذلكم ما رأينا من قوله صلوات الله وسلامه عليه إيضاحاً لعائشة رضي الله عنها : « إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك » . وكان الذي استوقف أم المؤمنين رضي الله عنها قوله عليه الصلاة والسلام — كما رأينا — من « نوقش الحساب عُدَّب » مع أن الله تعالى يقول : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فُسُوفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا . وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾ .

أما بعد : فإن بيان النبي ﷺ لهذه القضية الكبرى — وهو الرحيم بأمته الحريص على نجاتها يوم الدين — جدير بأن يدفع المؤمن دفعاً صادقاً ، إلى مراجعة رصيده من العمل في الدنيا ، وهل هو جارٍ على سَنَنِ العمل المقبول صحة وإخلاصاً ، وأن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب ، نسأل الله أن يتغمدنا بفضله ورحمته ويجعلنا من الذين لا يُناقشون الحساب يوم المعاد ، إنه أرحم الراحمين .

تجملوا من مظالمكم قبل يوم الحساب

إذا ذكر الرحماء من عباد الله ، فحيَّهلا بالرحمة المهداة نبينا محمد ﷺ سيد الرحماء ، فلقد أرسله الله رحمة للعالمين ، وجاء وصفه في الكتاب الكريم أنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وإنها لرحمة تظهر آثارها - بلا استثناء - في كل جانب من جوانب هديه صلوات الله وسلامه عليه ، وحسبك أنه ﷺ لم يدع طريقاً يبلغ صاحبه سعادة الدنيا والآخرة ، إلا سلكه ودل الأمة عليه ، ولا طريقاً يودي بصاحبه إلى الشقوة ، إلا حذر منه ورغب عنه ؛ كل ذلك يباليغ الحكمة ورائع البيان .

وددت التذكير بهذه الحقيقة، التي لا يرتاب فيها إلا من عثيت منه البصيرة ، وسفه نفسه ، وانقلب - جامد الحس ، خبيث النفس - على عقبيه ، بين يدي التذكير مرة أخرى ببعض ما وجَّه إليه النبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في شأن السبيل المنجية يوم الدين ، يوم ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ وترى المشاهد المروعة ، والأهوال الآخذ بعضها برقاب بعض ، هنالك لا مفر ولا وزر ﴿ إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ ، الناس موقوفون لرب العالمين ، وأعمال العباد معروضة عليه سبحانه ، والموازين القسط ، تؤذن بنتائج الأعمال ، وحصاد ما زرع في الدار العاجلة ؛ فإما إلى الجنة التي وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وإما إلى جهنم وبئس مئوى المتكبرين .

وبعد : فهذا لون من ألوان الهداية التي تحمل من رحمة النبي ﷺ بأمته ، والحرص على نجاتها من تلكم الأهوال ، ما الله به عليم . ونعني بذلك : تحذيره ﷺ من الظلم ، وتجاوز الحدود التي شرعها الله ، تنظيماً للعلاقات بين العباد ؛ وما دام يوم الحساب واقعاً لا محالة : فعلى من كان عنده مظلمة لأخيه ، أن يتحلل منها برد

الحقوق ، والحصول على الرضى والمسامحة ؛ ذلك لأن عدم التحلل من تلكم المظلمة - في استمرار لتجاوز الحقوق والعدوان على الآخرين - طريق للهلكة يوم الفصل - والعياذ بالله - وذلك بضياع الحسنات ، وإن لم يكف ذلك مؤاخذه على الظلم والتعدي ، وأكل الحقوق ، ينتقل إلى العقوبة بطرح سيئات من سيئات المظلوم على الظالم « وسوء العاقبة هنالك واقع لا محالة ، والعياذ بالله . أخرج البخاري في كتاب المظالم من الجامع الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه ، أو شيء ، فليتحلله منه اليوم ، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح ، أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات ، أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » .

إن النبي عليه الصلاة والسلام - وهو يحمل أمانة النصح للأمة في دينها ودنياها وآخرتها - يريد للمؤمن أن لا يلقي الله يوم يقف الناس لرب العالمين ، للمساءلة والجزاء ، مثقلاً بظلم أخيه أو إخوانه المؤمنين ، ولذلك يدعو لتحلل الظالم من المظلمة التي لأخيه عنده . والمساورة إلى ذلك : واجبة قبل فوات الأوان ، وقبل أن لا يكون دينار ولا درهم في ذلك اليوم العصيب ؛ وإلا كان ما رأينا في النص من أخذ الحسنات ، فإن لم تكف ، طرح على الظالم من سيئات صاحبه المظلوم . وفي رواية أخرى للبخاري جاءت في كتاب الرقاق من الجامع : يقول رسول الله ﷺ فيما يروي أبوهريرة رضي الله عنه : « من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرح عليه » ولقد كان من بلاغة النبي ﷺ ، وحرصه على أن تأخذ الهداية في هذا الموضوع طريقها إلى النفوس : أنه - بجانب ما نرى من الأمر بالتحلل من المظالم في الدنيا - نفع على صورة أخرى وهي الترغيب العظيم لأئمة عليه الصلاة والسلام ، بهذا الفعل ؛ وذلك بالدعاء بالرحمة لمن يتحلل أخاه من مظلمته .

ويفترض بالمؤمن أن يحرص الحرص كله ، على امتثال أمر الرسول عليه الصلاة

والسلام، لأن طاعته من طاعة الله ، وعلى المبادرة إلى فعل ما به تُنال الرحمة التي دعا بها صلوات الله وسلامه عليه . وقد تقدّم ما أخرج الترمذي بسنده عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «رحم الله عبداً كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال ، فجاءه فاستحلّه قبل أن يؤخذ ، وليس ثم دينار ولا درهم، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته ، وإن لم يكن له حسنات، حمّله عليه من سيئاته» قال أبو عيسى ؛ هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث سعيد المقبري ، وقد رواه مالك بن أنس عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

هكذا نرى الأمر تارة بقوله ﷺ : « فليتحلّل » والأمر يقتضي الوجوب ما لم يُصرف عنه بقرينة ، ولا قرينة ، ونرى الدعاء بالرحمة لمن يفعل ذلك تارة أخرى . وما أجمل أن يستضيء قلب المؤمن بهذا ، فيقلع هذا المؤمن عن الظلم، ويعمل جاهداً ، على أن ينفذ عن كاهليه آثار التجاوز والاعتداء على الآخرين ، وذلك بسلوك السبيل التي وجه إليها الناصح الأمين عليه الصلاة والسلام .

هذا : والمراد بالحسنات - كما يقول الحافظ ابن حجر - : الثواب عليها ، وبالسيئات : العقاب عليها ؛ وقد استشكل إعطاء الثواب ، وهو لا يتناهى في مقابلة العقاب ، وهو متناه - لأن الكلام على من لقي الله مؤمناً مع الذي اجترحه في الدنيا - وأجيب بأنه محمول على أن الذي يعطاه صاحب الحق من أصل الثواب ، ما يوازي العقوبة عن السيئة ، وأما ما زاد على ذلك - بفضل الله - فإنه يبقى لصاحبه . وهذا من عظيم منة الله تبارك وتعالى . وقد أوضح ذلك الإمام البيهقي بقوله : (سيئات المؤمن على أصول أهل السنة، متناهية الجزء ، لأن من ثوابها الخلود في الجنة ؛ فوجه الحديث عندي - والله أعلم - أنه يعطى خصماء المؤمن المسمى من أجر حسناته ، ما يوازي عقوبة سيئاته، فإن فنيت حسناته، أخذ من خطايا خصومه ، فطرحت عليه ، ثم يعذب إن لم يعف عنه . فإذا انتهت عقوبة تلك الخطايا ، أدخل الجنة بما كتب له من الخلود فيها ، بإيمانه، ولا يعطى خصماؤه

ما زاد من أجر حسناته ، على ما قابل عقوبة سيئاته ، يعني من المضاعفة . لأن ذلك من فضل الله يختص به من وافى يوم القيامة مؤمناً والله أعلم .

صلى الله وسلم على الرحمة المهداة نبينا محمد الذي لم يأل جهداً في بيان الداء والدواء . ونسأل الله معافاته من الوقوع في الظلم ، وبخاصة ما كان ظلماً يخرج عن الإيمان ، حتى نلقاه - جل وعلا - راضياً عنا بمنه وكرمه .

وياويح الظالمين الذين يختم على قلوبهم ، فلا ينتفعون بهدي النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، ويبوؤون يوم القيامة بالخسران المبين ، ويفتضح أمرهم على رؤوس الأشهاد ، جزاء بما ظلموا ، وانتهكوا حرمت المؤمنين .

.. ثم كُـلِّحَ في النار

ما جاء في شأن الحساب والقصاص يوم القيامة - يوم الحسرة والندامة - من آي الكتاب الكريم ، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، جدير بالكثير الكثير من التدبر والتفكر ، والعمل على تطويع السلوك في هذه الدار ، لما يعقب النجاة بين يدي الله عز وجل في ساعات ، لا يجد فيها المرء إلا ما كسب ؛ ومن ذلك أن يتخفف مما اكتسب من مآثم الظلم وتجاوز الحقوق . وقد أسعدتنا من قريب ، وقفة عجل مع دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، من وقع في حاة الظلم، إلى أن يتحلل أخاه من مظلمته ، قبل أن يأتي يوم لا درهم فيه ولا دينار ، وإلا ناله البوار وسوء العاقبة ، ولسوف يندم عند القصاص ، ولات ساعة مندم .

وفي حديث موصول بهذا الذي دعا إليه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتوعد المهمل المسوّف له حتى وقوع الواقعة ، تحسن الإشارة إلى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ندّد بمن تُعميه الشهوة والهوى ، فيخالف عن أمر الله، بالعدوان على الآخرين ، وتجاوز ما شرع الله من معايير تحكم العلاقات بين المؤمنين وسماه «المفلس» مهما كان شأنه من الغنى والرفعة في أمور الدنيا . قال الإمام مسلم: حدثنا قتيبة بن سعيد وعلي بن حُجر قالا : حدثنا اسماعيل وهو ابن جعفر بن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ثم طرح في النار » . وأخرجه الترمذي في «باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص» من كتاب صفة يوم القيامة في الجامع الصحيح - سنن الترمذي - ثم

قال : قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح .

والملاحظ أن الحديث - كما أشرت آنفاً - أعطى تعريفاً دقيقاً للمفلس ، كما هو في المعيار الأخروي ، حيث العبد بأمس الحاجة إلى ما يثقل موازينه من الخير ، كيما يكون من أهل النجاة . في ساعات تبلغ فيها الشدة مبلغها ، وتطالعك المشاهد الموهلة بما تنخلع له القلوب ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .. ولكن هذا العبد - وهو على هذه الحال - يتوالى عليه الأذى ، بما قدمت يداه ، فلا تبقى له حسنات ، بل يطرح من سيئات من ظلمهم وآذاهم ، ثم يُطرح في النار . ذلكم هو الإفلاس حقاً ، والمصاب به هو المفلس بحق ، كما وضع ذلك في بيان رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ذلك بأن من فقد المال أو قلّ ماله في الدنيا ، يزول ذلك عنه بالموت ، أو بالغنى تفتح سبله من جديد ، أما ذاك الذي أصيب بفقدان حسناته عند القصاص والحساب ، ولم يكف ذلك بل طرح عليه من سيئات ضحاياه الذين أنزل بهم ظلمه في الدنيا ولقهم بعدوانه الأثيم : فهو المفلس الهالك لأن الخسارة التي ما بعدها خسارة ؛ ما يصيب المرء هناك ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً﴾ . قال الإمام النووي في معرض شرحه للحديث : (معناه أن هذا حقيقة المفلس ، وأما من ليس له مال أو قلّ ماله : فالتناس يسمونه مفلساً ، وليس هو حقيقة المفلس ، لأن هذا أمر يزول وينقطع بموته ، وربما ينقطع ببسار يحصل له بعد ذلك في حياته . وإنما حقيقة المفلس هذا المذكور في الحديث : فهو الهالك الهلاك التام ، والمعدوم الإعدام المقتطع ، فتؤخذ حسناته لغرمائه ، فإذا فرغت حسناته ، أخذ من سيئاتهم ، فوضع عليه ، ثم ألقي في النار ، فتمت خسارته وهلاكه وإفلاسه) .

هذا وقد نقل عن بعض أهل البدع ، إثارة شبهة مفادها : أن الحديث الذي نحن بصددده ، معارض لقوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ لأن فيه أن هذا الظالم المؤذي ، إذا لم يقض ما عليه بأخذ حسناته لمن ظلمهم وآذاهم ، يطرح عليه من سيئاتهم ، فكيف يتحمل أعباء إساءة الآخرين ؟ وجيل ما رد به الإمام المازري

المتوفى سنة ستة وثلاثين وخمسمائة للهجرة ، من أنه لا تعارض ؛ لأن ذلك الظالم المعتدي عوقب بظلمه وتعديه حدود الله في تعامله مع الآخرين ، فما عومل به ، كان من أجل قضاء ما ترتب عليه من حقوق . قال رحمه الله : (وزعم بعض المبتدعة أن هذا الحديث معارض لقوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ وهذا الاعتراض غلط منه وجهاله بيته ، لأنه إنما عوقب بفعله ووزره وظلمه ، فتوجب عليه حقوق لغرمائه ، فدفعت إليهم من حسناته ، فلما فرغت ، وبقيت بقية قوبلت على حسب ما اقتضته حكمة الله تعالى في خلقه وعدله في عباده ، فأخذ قدرها من سيئات خصومه ، فوضع عليه فعوقب به في النار ، فحقيقة العقوبة إنما هي بسبب ظلمه ، ولم يعاقب بغير جناية وظلم منه ، وهذا كله مذهب أهل السنة ، والله أعلم) .

والحق أن ما يحلُّ بهذا الظالم لنفسه وللآخرين - والأعمال معروضة على الله - مظهر من مظاهر العدل الإلهي ، لأن كل امرئ بما كسب رهين ، ولا يظلم ربك أحداً ، وقد حذّر النبي ﷺ - في بيانه للقرآن - من الظلم ، وأنذر من تعمى بصائرهم فيقعون فيه ، أسوأ العواقب في الدنيا والآخرة ، ومع ذلك ، ترى الإصرار من البعض على هذا الذي كان منه التحذير . روى البخاري بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «الظلم ظلمات يوم القيامة» وقد أحسن رحمه الله صنعا حين جعل هذا الحديث عنوان باب في كتاب المظالم من الجامع الصحيح فقال : « باب الظلم ظلمات يوم القيامة » ثم أورد الحديث . فمن أراد الآخرة ، وأن يكون ممن يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، حيث الظلام يلف الظالمين ، فعليه أن يسعى لذلك سعيه ، ويقف عند الذي وجه إليه الرسول عليه الصلاة والسلام .

اللهم اهدنا فيمن هديت ، واجعلنا ممن يربدون الآخرة ويسعون لها سعيها ، ذاكرين قول الله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴾ .

ماذا.. عن أول ما يحاسب به العبد

يوم الجمع يوم واقع لا ريب فيه ، والعباد كلهم راجعون في ظله إلى الله ، وهو سبحانه يجازي كلًّا بعمله ، ويوفي الجميع دينهم الحق .

وكم تحمل مشاهد ذلك اليوم ، من أهوال لا يجنبها إلا أهل الاستقامة المتقون ، الذين أنابوا في الدنيا إلى ربهم العليم الحكيم . ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون ﴾ . أما الذين أعمتهم الضلالة ووقعوا في مهاوي الغفلة والظلم : فلهم عذاب جهنم يصلونها وبش القرار ، وصدق ربنا إذ يقول : ﴿ واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين ﴾ .

وفي مواجهة هذه الحقيقة التي نطق بها الكتاب ، وأعطاهما حديث رسول الله ﷺ ما تستحق من البيان ، ما أشد ما كان من حرص النبي ﷺ - كما هو ثابت - على تجنب أمته ، مسالك الجنوح عن الصراط السوي ، لما يحمل ذلك من مخاطر تودي بصاحبها إلى الهلكة ، يوم يقوم الحساب .

وما مر بنا - من قبل - من صور هديه الكريم ﷺ في هذا المضمار ، يقودنا إلى صور أخرى ، ما بد من قراءتها ببصيرة المؤمن الذي تقوده المعرفة بما جاء عن الله ورسوله ، إلى العمل الصالح المخلص ، طلباً للنجاة يوم ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ وتجعله يخاف أشد الخوف على نفسه ، من الوقوع فيما حذر منه ، وتوعد على فعله ، النبي عليه الصلاة والسلام .

ومن صور الهداية التي نلمح إليها : ما جاء عن النبي ﷺ في شأن الصلاة التي هي أعظم ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين ، بأنها أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله ، فإن كان من أهل إقامتها على الوجه الذي ينبغي ؛

علماً بأحكامها ، وإخلاصاً لله عز وجل في أدائها ، كان ذلك عنوان فلاحه ونجاحه ، وإن كان الأمر غير ذلك : فهناك الحية والخسران ، أعاذنا الله والمؤمنين من شرهما . أخرج الترمذي بسنده عن قبيصة بن حُرَيْث أو حُرَيْث بن قَبِيصة أنه قال : قدمت المدينة فقلت : اللهم يسّر لي جليساً صالحاً قال : فجلست إلى أبي هريرة فقلت : إني سألت الله أن يرزقني جليساً صالحاً ، فحدثني بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لعل الله أن ينفعني به ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت ، فقد خاب وخسر ، فإن انتقص من فريضته شيء قال عز وجل : انظروا هل لعبدي من تطوع ؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر عمله على ذلك » قال : وفي الباب عن تميم الداري ، قال أبو عيسى : حديث أبي هريرة حديث حسن غريب من هذا الوجه . هذا : وقد أورد الترمذي هذا الحديث في الصلاة من كتابه الجامع باب « ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة » .

وفي «باب المحاسبة على الصلاة» من كتاب السنن الصغرى - المجتبى - أخرج النسائي بسنده عن همام عن قتادة عن حُرَيْث بن قبيصة قال : قدمت إلى المدينة ، قال : قلت : اللهم يسّر لي جليساً صالحاً ، فجلست إلى أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : فقلت : إني دعوت الله عز وجل أن ييسّر لي جليساً صالحاً فحدثني بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لعل الله أن ينفعني به قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أول ما يحاسب به العبد بصلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر - قال همام : لا أدري هذا من كلام قتادة أو من الرواية - فإن انتقص من فريضته شيء قال : انظروا هل لعبدي من تطوع ، فيكمل به ما نقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله على نحو ذلك « خالفه أبو العوام .

وقال النسائي : أخبرنا أبوداود قال : حدثنا شعيب يعني ابن بيان بن زياد ابن ميمون قال : كتب علي بن المديني عنه . ثم أورد رواية أخرى ليس فيها ما ذكر

من قصة قبيصة بن حريث، أو حريث بن قبيصة ، ولفظها كما يلي : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته فإن وجدت تامة كتبت تامة وإن كان انتقص منها شيء قال : انظروا هل تجدون له من تطوع ، يكمل له ما ضيع من فريضة من تطوعه ، ثم سائر الأعمال تجري على حسب ذلك » وفي رواية أخرى فيها شيء من الاختصار ؛ نجد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « أول ما يحاسب به العبد صلاته فإن أكملها وإلا قال الله عز وجل : انظروا هل لعبدي من تطوع ، فإن وجد له تطوع قال : أكملوا به الفريضة » .

أما الإمام أحمد رحمه الله : فنجد الرواية عنده عن رجل من أصحاب النبي ﷺ مع شيء من الاختلاف في اللفظ فقد جاء في المسند : حدثنا عبدالله قال : حدثني أبي قال : حدثنا حسن بن موسى قال : حدثنا حماد بن سلمة عن الأزرق بن قيس عن يحيى بن يعمر عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « أول ما يحاسب به العبد صلاته ، فإن كان أتمها كتبت له تامة ، وإن لم يكن أتمها قال الله عز وجل : انظروا هل تجدون لعبدي من تطوع فتكملوها بها فريضته ؟ ثم الزكاة كذلك ثم يؤخذ الأعمال على حسب ذلك » . وهذه رواية أبي داود وابن ماجه أيضاً . ورواه أبوداود كذلك بمعناه من رواية تميم الداري ، وأخرجه الحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي . وواضح - كما يقول أهل الدراية - أن الحديث صحيح بشواهده .

هكذا يطلع علينا الهدي النبوي بالمكانة العظيمة العظيمة ، التي يعطيها النبي عليه الصلاة والسلام - وهو لا ينطق عن الهوى - لإقامة الصلاة بأحكامها وخشوعها ، وصدق التوجه من خلالها إلى الباري المصور الذي يعلم السر وأخفى ، فاهول على أشده يوم الحساب ، والناس في ترقب للمصير ، والساعات العصيات ساعات حصاد لما قدم العبد في الدنيا ، في ظل ذلك المشهد الهائل المروع الزاخر بالترقب والخوف ، تجد أول ما يحاسب عليه العبد من عمله الصلاة ،

وبجانب الأهمية المعطاة لإقامة الصلاة في الحديث على اختلاف رواياته، نجد فيه ما نجد من نصح سيد العالمين لأُمته ، فهو يريد للمسلم أن يكون على يقظة قلبية يستعلي معها على الغفلة والمعوقات ، ويحسن التزود لتلكم الساعات العصيبات، لعل الله يحشره في زمرة السعداء الفائزين .

ولنا إن شاء الله عودة إلى هذا الحديث، نسعد ببعض معانيه الأخرى وأبعاده ، ونسأله تعالى أن يضيء قلوبنا بهدي نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام ، كيما نسعد بإقامة الصلاة على وجهها ، وننجو يوم التغابن مع الناجين .

أكثرُوا ذكرَ هادمِ اللذاتِ

حين يسلك المؤمن سبيل أهل الخشية الذين لا يفرطون في جنب الله ، وتورقهم شدائد يوم الحساب ، لما أنهم يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، وتراهم إذا ذكر الله وجلت منهم القلوب ، وخشعت الجوارح . وذرفت من الخشية الدموع ، وإذا ذكروا هول المطلع ، وما يكون في عرصات القيامة من مشاهد يشيب لها الوليد ، وكيف يحاسب العباد ويُسألون ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ .. حين يسلك المؤمن سبيل هؤلاء المتقين الأبرار ، تملك مراقبة الله عليه نفسه ، ويصبح ما أخبر عنه القرآن وبيته السنة عن ذلك اليوم العصيب ، كأنه أمام ناظريه يراه رأي عين ، وعندها لا يني مجدُّ ، ويجتهد في تحصيل كل ما من شأنه ، أن يثقل موازينه يوم الوعيد ، ويجعله بفضل الله من الفائزين بما بشر الله به . من تثقل موازينه ويأخذ كتابه بيمينه . من عيشة راضية وجنة نعيم ﴿ فأما من ثقلت موازينه . فهو في عيشة راضية . وأما من خفت موازينه . فأما هاوية . وما أدراك ما هي نار حامية ﴾ .

وهنا يرى هذا المؤمن لزماً ، أن يغتنم الفرص المتاحة ، والنعم المسبغة عليه . وفق المنهج الرباني - لتكون عونه على ما يتطلع إليه في الآجلة ، شأنه شأن المؤمنين الصادقين ، الذين لا تشغلهم الفانية عن الباقية ، ولا يدعون طريقاً من طرق النجاة يوم الحشر الأكبر ، إلا سلكوه ؛ أجل يغتنم كل ما أسبغ الله عليه من النعم الظاهرة والباطنة ، وما رزقه من الوسائل وهياً له من الأسباب ، للقيام بما كُلف به حق القيام ، والتقرب إلى مولاه بجلال الأعمال ، قبل أن تقوم في وجهه نوازع الهوى والشيطان ، وتقعه الصوارف والمعوقات ؛ وهكذا تجده كلما ذكر يوم الحساب وأحواله ، ازداد حرصاً على مبادرة الفتن والعقبات ، وما سيكون من أمور الساعة ، بالأعمال الصالحة ، والقرب النافعة ، لتكون زاده يوم اللقاء ،

وهناك تغمره النفحات الإلهية ، وينعم بما يكرم الله به عباده الخاشعين له ،
الخاضعين لجلاله ، الذين يعملون الصالحات مخلصين منيبين .

ولقد نبّه الرسول عليه الصلاة والسلام - وهو لا ينطق عن الهوى - على
وجوب هذه المبادرة : إذا أريدت النجاة في يوم يجد فيه العباد ما عملوا حاضراً ولا
يظلم ربك أحداً . قال الإمام الترمذي : حدثنا أبو مصعب عن محرز بن هارون
عن عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال
سبعاً ؛ هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مُطغياً ، أو مرضاً مُفسداً ، أو هرمًا
مفنداً ، أو مجهزاً ، أو الدجال فشرُّ غائب ينتظر ، أو الساعة ، فالساعة أدهى
وأمر » .

قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث الأعرج عن أبي
هريرة إلا من حديث مُحَرِّز بن هارون هذا . وقد روى بشر بن عُمر وغيره عن مُحَرِّز
ابن هارون هذا . وقد روى معمر هذا الحديث عن سمع سعيداً المقبريَّ عن أبي
هريرة عن النبي ﷺ نحوه وقال : « تنتظرون » .

هكذا نجد الرسول عليه الصلاة والسلام يعنى في هذا الحديث - وهو
يستخدم الواقع في التربية والتوجيه إلى الخير - بالحث على المسارعة إلى العمل ،
والمبادرة بالعبادة ، والتعجل بالطاعة - بأوسع معانيها والساحات التي تشملها -
فإن العبد - كما يقول أبو بكر بن العربي - بين هذه السبعة الأحوال ، في قواطع عن
الأعمال ؛ إما بفقر وإما بغنى « وإما بكبر » وإما بمرض ، وإما بموت ، وهو أشد
على العبد ، إلى آخر ما ذكر عليه الصلاة والسلام . وقد أورد الترمذي بعد هذا
الحديث ما روى أبو هريرة عن النبي ﷺ من قوله : « أكثرُوا ذكر هادم أو هادم
اللذات » وجميل قول صاحب « عارضة الأحوذى » تعليقاً على هذا النص ، وذكره
في أعقاب حديث الأمر بالمبادرة (إذا تذكر العبد الموت وكان منه على رَصَد ، إذ
هوُّه بالمرصاد ، انقطع أمله وكثر عمله ، وهانت عليه لذاته ، ولم يكن للدنيا قُدْر

عنده، إذ ليس بالحقيقة من قُطّانها ، وإنما هو ينزل نفسه بمنزلة الميت في كل حين من أحيائها ، فيعرض عن الدنيا ويقبل على الآخرة ، ويزهقُ الشيطان عنه ، ويلزمه الملك ، وخاصة إذا فعل فعل عثمان رضي الله عنه وقال قوله . وقد مر بنا أنه — رضي الله عنه — كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبسل لحيته ، فقليل له : تذكر الجنة والنار ولا تبكي وتبكي من هذا ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ قال : إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده شر منه ، وقال : ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أفظع منه « رواه الترمذي وغيره .

ألا ما أشد حرص النبي عليه الصلاة والسلام ، على توجيه الأمة إلى ما فيه الفلاح والفوز بمرضاة الله في الدنيا ويوم الدين ، وما أجل أن يُتلقى هديّه عليه الصلاة والسلام بإيمان ويقين ، ورغبة صادقة في العمل الصالح الذي يجده المؤمنون نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يوم المعاد .

ولعل من الخير ، أن نشير إلى أن الجيل القدوة الذي رباه النبي عليه الصلاة والسلام على عينه، وصاغت سلوكه يده الصنّاع ، كان على أعز مكان وأغلاه في حسن التقبل لهدي النبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، وجعل الهوى تبعاً له في كل حال ، كل أولئك مع التناصح فيما بينهم، على الأخذ بهذا الخير العميم .

جاء في وصية أبي بكر الصديق لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حين استخلفه: « أوصيك بتقوى الله يا عمر إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار ، لا يقبله بالليل ، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدي الفرائض .. ألم تر يا عمر إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا الباطل أن يكون خفيفاً .. إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا سمعت بهم قلت : إني أخاف أن لا

أكون من هؤلاء ، وذكر أهل النار بأقبح أعمالهم ، فأمسك عن حسناتهم، فإذا سمعت بهم قلت : إني لأرجو أن لا أكون منهم وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً لا يتمنى على الله غير الحق. فإذا حفظت وصيتي، فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك ، وإن ضيعت وصيتي ، فلا يكونن غائب أكره إليك من الموت ولن تعجزه .

اللهم ارزقنا خشيتك، وأسكن قلوبنا محبتك . اللهم رحمتك نرجو فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ، وأصلح لنا شأننا كله واغفر لنا ذنبنا كله برحمتك نستغيث ومن عذابك نستجير ، بيدك الخير إنك أنت التواب الرحيم .

الصحّة والفراغ.. والمبادرة بالأعمال

الصدق في طلب النجاة يوم التغابن ، وأن يكون المرء في عداد من ينشر الله عليهم رحمته ، فيحزحون عن النار ، ويدخلون جنة النعيم ،.. هذا الصدق ، لا بد له من أمانة تدل عليه ؛ وهي حسن الامتثال لما وجه إليه القرآن الكريم، وبينه المصطفى سيد العالمين ؛ من اغتنام فرص الخير ، والمصارعة إلى كل ما هو من ذلك بسبب ، ناهيك عما يجب على المؤمن ، من أن يبادر بالأعمال الصالحة والقربات النافعة ، ما يمكن أن يكون من الصوارف والمعوقات ، أو الركود إلى التسويف والخضوع لتسويلات النفس والشيطان، التي تؤذن بأن أجل العمل قد فات ، وأن الفائدة المتوخاة منه باتت في حيز المستحيل .

ومن حسن الامتثال المطلوب من المؤمن؛ المسارعة إلى التحقق بما هدى إليه النبي عليه الصلاة والسلام ، على ساحة العمل والسلوك ، وإلا كان الأمر أشبه بدعوى تفتقر إلى دليل .

وإني مذكر بما أسلفت عن النبي ﷺ في ذلك ، توطئة لاصطحاب ما جاء من دعوته صلوات الله وسلامه عليه إلى حسن الاستفادة من نعمتي الصحة والفراغ، وشكرهما الشكر الحقيقي ، لكيلا يقع المؤمن في البخس والنقص، على ساحة التعامل معهما ، فيكون من المغبونين .

أما عن المبادرة بالأعمال الصالحة قبل فوات الأوان : فقد روى الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال سبعاً ؛ هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً أو هرباً مفئداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال: فشر غائب ينتظر ، أو الساعة، فالساعة أدهى وأمر» وهذا ما يشدنا - كما أسلفت - إلى هديه ﷺ بشأن تلكم النعمتين العظيمتين : الصحة والفراغ .

قال الإمام البخاري : حدثنا مكي بن إبراهيم قال : أخبرنا عبد الله بن سعيد ، هو ابن أبي هند ، عن أبيه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » . أخرجه الترمذي وابن ماجه ، وقد رواه أحمد بتقديم كلمة الفراغ على كلمة الصحة إذ جاء عنده : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الفراغ والصحة » وأخرجه أبو نعيم في المستخرج عن عبد الله بن سعيد بسنده بلفظ « الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس » وأخرجه الدارمي بزيادة « من نعم الله » فجاء عنده بلفظ : « إن الصحة والفراغ نعمتان من نعم الله مغبون فيهما كثير من الناس » .

والغَبْنُ : بفتح الغين وسكون الباء : النقص في البيع ، يقال : غُبِنَ فهو مغبون أي منقوص في الثمن أو غيره ، وغُبِنَ رأيه غَبْنًا بتحريك الباء من باب تَعِب : قَلَّتْ حكمته وذكاؤه .

هكذا يكشف النبي ﷺ بهذه الكلمات الجوامع ، عن أهمية الصحة والفراغ في حياة المسلم ، مؤكداً وجوب استخدامهما فيما ينبغي ، ناعياً على الذين يتهاونون بأمرهما ولا يستعملونهما على الوجه المطلوب فيما يسعد في الدنيا ، ويقي ما تحمله عرصات يوم القيامة من مشاهد الهول وشديد الترقب في الآخرة ، مع أن الإيمان بما جاء عن الله ورسوله ، في شأن الآخرة ، وحشر الناس ووقوفهم للمساءلة بين يدي رب العالمين ، كل أولئك يقتضي أن تستخدم الصحة في طاعة المنعم سبحانه وتعالى ، بأوسع ما تحمل كلمة الطاعة من معنى ، وأن يملأ الوقت بالنافع والمرضي عند الله ، والذي لا يفعل ذلك ، يكون مغبوناً لكونه باعها بثمان بخس ، ولم يحمد رأيه في ذلك ، فاستبدل النقص أو الخسران بالريح .

وما من ريب في أن هذا الحديث - كما أسلفنا - من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام ، لأنه جمع في هذه الكلمات القليلة المعاني الغزيرة ، وذلك لبيان الأهمية البالغة لنعمتي الصحة والوقت في حياة الإنسان ، وموقع كل منهما في العمل

للاخرة ، ومتى يكون الربح ، ومتى تكون الخسارة على هذا الصعيد ؟ مشيراً
صلوات الله وسلامه عليه ، إلى أن المقصرين المصابين بالغبن فيهما كثير .

وقد أشار ابن بطال كما نقل الحافظ ابن حجر - رحمهما الله - إلى أن المرء لا
يكون فارغاً ، حتى يكون نقياً صحيح البدن ، فمن حصل له ذلك ، بأن توافر له
الصحة والفراغ ، فليحرص على ألا يغبن ، بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه ،
ومن شكره امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، فمن فرط في ذلك فهو مغبون .

وفي قوله : ﷺ : « كثير من الناس » إشارة إلى أن الذي يوفق في ذلك - كما
أسلفت - قليل ، وهو تنبيه منه ﷺ ، على ما يجب من علو الهمة ، كيما يكون المؤمن
في منجاة من الوقوع فيما وقع فيه أولئك المفرطون .

وزاد ابن الجوزي الأمر وضوحاً بما قرره ، من أن الإنسان قد يكون صحيحاً
ولا يكون متفرغاً لانشغاله بكسب المعاش ، وقد يكون مستغنياً ، ولا يكون
صحيحاً ، فإذا اجتمع الصحة والفراغ ، وقصّر في نيل الفضائل ، وجنح إلى
الكسل عن الطاعة والعمل الصالح ؛ فهو المغبون الذي ناله الخسران ، ذلك لأن
الدنيا مزرعة الآخرة ، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة ، حيث المسؤولية
والحساب ، فمن استعمل صحته وفراغه في طاعة الله تعالى ، فهو المغبوط ، ومن
استعملها في معصية الله فهو المغبون ، لأن الفراغ يعقبة الانشغال ، والصحة
يعقبها السقم ، ولو لم يكن إلا الهرم لكفى :

يسر الفتى طول السلامة والبقا فكيف ترى طول السلامة يفعل
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء إذا رام القيام ويحمل

وأنت واجد أن العلاقة ماسة ، بين دعوة النبي ﷺ إلى المبادرة بالأعمال
الصالحة « قبل أن تقع الصوارف عن العمل ، وبين اهتمامه ﷺ بتلكم نعمتين :
الصحة والفراغ ، إذ كيف يبادر بالأعمال الصالحة ، من تهاون في شأن ما أعطاه الله
من العافية ، وما هياً له من الوقت ؟ لقد تهاون في رأس المال الممنوح من الله ، فلا

بد أن يقلع عن ذلك ويعامل الله - كما يقول الطيبي - بالإيمان ومجاهدة النفس ، وعدو الدين ، ليربح خيري الدنيا والآخرة ، وعليه أن يجتنب مطاوعة النفس ومعاملة الشيطان ، لئلا يضيع رأس ماله مع الريح .

والواقع أنه كلما فتحت أمام الإنسان آفاق الحضارة ، شعر بالقيمة الهائلة للقدرة الصحية والوقت تماماً ، هذا في الدنيا .. فما بالك بأمور الآخرة ، مع الشعور بأن الصحة والفراغ نعمتان من الله ؟ إن الذي يقرأ بوعي وتدبر ما جاء في شأن يوم الفصل ، ويتجه ببصيرته إلى التفكير بما يثقل ذلك اليوم من مشاهد تنذر بالويل والثبور - ما لم تدرك المرأة رحمة الله - وما يجد العباد من الافتقار الكبير ، إلى مثقال الذرة عند ساعة الحساب .. إن الذي يقرأ النصوص على هذا السنن ، يجد أن من العبث العاثر ، أن يستهين ، ولو بأقل القليل من الوقت ، وأن يتبع هواه فيخلد إلى أرض التواني والكسل في طاعة الله ، والتزود لذلك اليوم المهول ، وماذا نحن صانعون بما نصت عليه الأحاديث ، من المسؤولية عن كل نعمة أنعم الله تبارك وتعالى علينا بها ؟ ماذا صنعنا بها ، وكيف تقربنا إلى الله تعالى ، أم أننا لم نتقرب والعياذ بالله ؟ يقول رسول الله ﷺ فيما روى الإمام الترمذي : « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله له : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً ، وسخرت لك الأنعام والحرث ؛ وتركتك رأساً وتربع ، فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا ؟ قال : فيقول : لا ، فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتني » . قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح غريب .

ومعنى قوله : اليوم أنساك : يقول : اليوم أتركك في العذاب ، هكذا فسّروه ، قال أبو عيسى : وقد فسّر أهل العلم هذه الآية ﴿ فاليوم ننساهم ﴾ قالوا : إنما معناه ، اليوم نترككم في العذاب .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد بن عبد الله المبين عن الله ما أراد ، وعلى آله وصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم اللقاء .

أثر العناية بالفرائض يوم الجزاء

الخير يجلب الخير إن شاء الله : حقيقة نذكرها ، وقد أسعدتنا قبل هذا وقفة مع ماجاء في هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، من أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة ؛ فإن صلحت : فقد أفلح وفاز بمرضاة الله ، وإن فسدت : فقد باء بالمذمة والخسران ، ومن عظيم فضل الله أنه إن كان له تطوُّع جُبر به ما انتقص من الفريضة ، ثم الزكاة كذلك ، ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك . وقد أوردت من قريب عدداً من الروايات التي تكشف عن هديه عليه الصلاة والسلام ، في منهج التعامل مع هذه الفريضة التي هي أهم أركان الإسلام بعد الشهادتين « وكيف أنه صلوات الله وسلامه عليه ، كان أحرص ما يكون ، تنبيهاً لأُمته على مثل هذه القضايا ذات الحجم الكبير في ساعات الحساب يوم القيامة » الأمر الذي يرتفع بالمؤمن إلى مستوى المعرفة الصحيحة بالأحكام ، ثم المراقبة الصادقة لله عز وجل في صلاته وسائر عباداته وأعماله ؛ لأنه إن أحسن هنا ، فاز بجزاء الإحسان هناك ، حيث المصير رهن - بعد فضل الله ورحمته - بمقدار ما يكون من صلاح العمل ، والإتيان به على الوجه المطلوب ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ ، ولما للصلاة من أهمية عظيمة في الإسلام « كانت هي أول ما يحاسب به العبد يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فليحفظ المؤمن لدينه ، بإقامة الصلاة حق إقامتها ، كيما تكون - إن شاء الله - عنوان سلامة العاقبة والنجاة .

هذا : ومن الروايات التي أشرنا إليها ما أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم أن رسول الله ﷺ قال : « أول ما يحاسب به العبد صلاته ؛ فإن كان أتمها كتبت له تامة ، وإن لم يكن أتمها قال الله عز وجل : انظروا هل تجدون لعبدي من تطوُّع فتكملوها بها فريضته ؟ ثم الزكاة كذلك ثم تؤخذ الأعمال على

حسب ذلك « ولفظ ابن ماجة « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته » وقال أبوداود: حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال : حدثنا إسماعيل قال ، حدثنا يونس عن الحسن عن أنس بن حكيم الضبي قال : خاف من زياد أو ابن زياد ، فأتى المدينة ، فلقي أبا هريرة قال: فنسبني فانتسبت له فقال: يافتي ألا أحدثك حديثاً؟ قال : قلت بلى رحمك الله ، قال يونس : وأحسبه ذكره عن النبي ﷺ قال : « إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة ؛ قال : يقول ربنا جل وعز ملائكته وهو أعلم : انظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها ؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئاً قال : انظروا هل لعبدي من تطوُّع ؟ فإن كان له تطوُّع قال : أتموا لعبدي فريضته من تطوعه ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم .»

وروى أبو يعلى بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما افترض الله على الناس من دينهم الصلاة » وآخر ما يبقى الصلاة، وأول ما يحاسب به الصلاة ويقول الله : انظروا صلاة عبدي ، فإن كانت تامة كتبت تامة ، وإن كانت ناقصة يقول : انظروا هل لعبدي من تطوُّع ؟ فإن وجد له تطوُّع تمت الفريضة من التطوع ، ثم قال : انظروا هل زكاته تامة ؟ فإن كانت تامة ، كتبت تامة ، وإن كانت ناقصة قال : انظروا هل له صدقة ؟ فإن كانت له صدقة تمت له زكاته .»

ومن الواضح أنه بمقدار الوعي المبصر لهذه الحقيقة التي يقررها الرسول عليه الصلاة والسلام ، من أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة، يكون الاهتمام الواعي الصادق ، بأداء تلك الفريضة على ميقاتها - كما أسلفنا - ، وإقامتها على الوجه الذي ينبغي ، استيفاء لأحكامها والخشوع فيها أكثر وأوفر .

ومن الجدير بالذكر : أن علماءنا رحمهم الله لم يدعوا أن ينظروا مع هذا الحديث برواياته المتعددة ، ما ورد من أن أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء ،

وقد نقل صاحب « تحفة الأحوذى » عن العراقي في « شرح الترمذي » أنه لا تعارض بين حديث الباب، وهو حديث الصلاة، وبين الحديث الصحيح : « إن أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء » فالحديث الأول محمول على حق الله تعالى، وهذا الحديث محمول على حقوق الآدميين فيما بينهم . فإن قيل : فأيهما يقدم ، محاسبة العباد على حق الله « أو محاسبتهم على حقوقهم ؟ فالجواب أن هذا أمر توقيفي ، وظواهر الأحاديث دالة على أن الذي يقع أولاً ، المحاسبة على حقوق الله تعالى قبل حقوق العباد . أما عن إكمال ما انتقص العبد من الفريضة بالتطوع : فيحتمل أن يراد به - كما يقول العراقي - ما انتقصه من السنن والهيئات المشروعة فيها ؛ من الخشوع والأذكار والأدعية ، وأنه يحصل له ثواب ذلك في الفريضة ، وإن لم يفعله ، وإنما فعله في التطوع » ويحتمل أن يراد به ما انتقص أيضاً من فروضها وشروطها ، ويحتمل أن يراد ما ترك من الفرائض رأساً فلم يصله ، فيعوض عنه من التطوع ؛ والله سبحانه وتعالى يقبل من التطوعات الصحيحة عوضاً عن الصلوات المفروضة .

وقال القاضي أبوبكر بن العربي في « عارضة الأحوذى » : (يحتمل أن يكون يكمل له ما نقص من فرض الصلاة وأعدادها بفضل التطوع ، ويحتمل ما نقصه من الخشوع ، والأول عندي أظهر ، لقوله : ثم الزكاة كذلك وسائر الأعمال ، وليس في الزكاة إلا فرض أو فضل ، فكما يكمل فرض الزكاة بفضلها ، كذلك الصلاة ، وفضل الله أوسع ، ووعدته أنفذ ، وعزمه أعم وأتم) .

وأياً كان العدم أو النقص : فكون المسلم ممن يُعنى بالإتيان بالنوافل ، فذلك من أبواب الفضل الإلهي ، حيث يكمل نقص الفريضة بالتطوع ، ونعماً يصنع المؤمن ، حين يبادر المخاوف الأخروية بالأعمال الصالحة ، ويسارع إلى التقرب إلى مولاه ، وإبعاد نفسه من النار ، بحسن أداء الفريضة ، والحرص على النافلة » فالتطوع بالنوافل من أعظم القربات إلى الله ، ومن محاسن ذلك : ما يكون من جبر نقص الفريضة يوم الحساب . أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه

قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » الحديث . وجاء في رواية لأحمد رحمه الله « .. وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء الفرائض ، وما يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، إن سألني أعطيته . وإن دعاني أجبتة ... » .

اللهم وفقنا للعمل الذي ننجوبه يوم الحساب ، واجعلنا من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أسأؤوا استغفروا ، واحفظنا من الغفلة وطريق الغافلين حتى نلقاك وأنت راض عنا سميع الدعاء .

أهلية التكليف... والمسؤولية يوم الحساب

تكرم الله للإنسان ، بجعله أهلاً للتكليف ، ثم المسؤولية عما كلف به ، يحمل العاقل على مزيد من الاهتمام بأخذ الحذر من الغفلة أو نسيان يوم الجزاء ، وما يكون في عرصات القيامة ، من مشاهد تطفح بالهول والرهبة من المصير ... ولقد ترك النبي ﷺ أمته على المحجة البيضاء ، فيما بين من مواطن المسؤولية والجزاء ما بين ، وكشف عن أبعاد ذلك ، في تلكم الساعات العصية ، حيث يضع ربنا الموازين بالقسط ، ولا يجد المرء عندها إلا ما قدّم . قال الترمذي : حدثنا عبدالله بن عبدالرحمن قال : أخبرنا الأسود بن عامر قال : حدثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن سعيد بن عبدالله بن جريج عن أبي برزة الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيم فعل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفق ، وعن عمره فيم أبلاه » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، وسعيد بن عبدالله بن جريج هو بصري وهو مولى أبي برزة رضي الله عنه وأبو برزة اسمه نضلة بن عبيد . وروى الترمذي أيضا عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفق ، وماذا عمل فيما علم » وهو حديث حسن . كما مر من قبل .

هكذا يكشف النبي ﷺ عن ميدان بالغ الأهمية ، من ميادين المسؤولية يوم الحساب ، حيث الأمور على أشدها هناك ، وهذا الميدان يشمل - فيما يشمل - سؤال المرء عن العمر - الذي هو فرصة متسعة من فرص العمل والتقرب إلى الله - فيم أفناه ، وسؤال عن العلم - الذي يقطع العذر ، ويكون حجة لصاحبه إن صحبه العمل ، أو حجة عليه إن لم يصحبه العمل - ماذا عمل به ، وإلى أي حد

طَوَّعَ سلوكه لما علم ، وسؤال عن المال من أين جاء به هل اكتسبه من الطرق المشروعة، وفي أي الطرق أنفق؟ هل شكر المنعم المتفضل فأنفق في مرضاة الله ، أم غفل عن الله وأنفق فيما لا يرضيه سبحانه ؟ وسؤال عن الجسم -الذي هو مركب الإنسان وهو يدير حركة الحياة- فيم أبلاه؟ وفي الرواية الأخرى - كما رأينا - سؤال عن الشباب بعد السؤال عن العمر « وهو تخصيص بعد تعميم » يدل على أهمية تلك المرحلة من مراحل العمر ، ويحتمل الشباب - وهم نبض الحياة في الأمة - مزيداً من المسؤولية ، تتناسب مع الحيوية والقدرة على العطاء .

وها نحن أولاء أمام صورة مرعبة من صور المسؤولية والجزاء ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ ، وهي صورة ذلك الإنسان الذي غفل عن الله ، وبدل أن يشكر النعم التي أنعم الله بها عليه ، بوضعها في طاعته سبحانه ، جنح عن الصراط السوي ، ولم يقدم شيئاً من الخير ، فيمضى به إلى النار والعياذ بالله . فقد أخرج الترمذي عن الحسن وقتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « يُجاء بابن آدم يوم القيامة وكأنه بذجٌ ، فيوقف بين يدي الله تعالى ، فيقول الله تعالى : أعطيتك وخولتك وأنعمت عليك ، فماذا صنعت ؟ : فيقول يارب جمعت وثمرته ، وتركته أكثر ما كان فارجعني أنك به ، فإذا عبد لم يقدم خيراً ، فيمضى به إلى النار » .

البَدْج بفتح الدال : ولد الضأن . قال أبو عيسى : وقد روى هذا الحديث غير واحد عن الحسن قوله ولم يسندوه .

هذا : وفي إسناد الحديث ضعف ، ولكن يشهد له معنى الحديث الآتي ، وهو ما روي عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أنها قالا : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيقول الله له : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسخرت لك الأنعام والحراث ، وتركتك ترأس وتربع ، أفكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ فيقول : لا ، فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتني » أخرجه

الترمذي وقال : هذا حديث صحيح غريب ، ومعنى قوله « اليوم أنساك » يقول : اليوم أتركك في العذاب ، هكذا فتروه . قال أبو عيسى ، وقد فسر بعض أهل العلم هذه الآية ﴿ فالיום ننسأهم ﴾ قالوا : إنما معناه : اليوم نترككم في العذاب وقد أُشير إلى ذلك من قبل .

من هنا كان السلف الصالح عليهم الرحمة والرضوان ، على ترقب تام ليوم التلاق ، وما يكون في ساعات الحشر من الأهوال ، ووضع كل واحد من العباد أمام الذي هو مسؤول عنه من النعم ؛ ماذا عمل بها وهل أدى حق الله فيها . والذي يُقضى مضاجعهم : محاسبة أنفسهم وماذا أعدوا من الزاد لذلك اليوم العصيب . روى أبو نعيم في الحلية بسنده أن أبا هريرة رضي الله عنه بكى في مرضه ، ف قيل له : ما يبكيك ؟ فقال : « أما إني لا أبكي على دنياكم هذه ، ولكني أبكي على بعد سفري ، وقلّة زادي » وأني أصبحت في صعود ومهبط على جنة ونار ، لا أدري لأيهما يؤخذ بي » وروى عن معمر قال : بلغني عن أبي هريرة أنه كان إذا مر بجنازة قال : « روحي فإننا غادون ، أو اغدي فإننا راثحون ، موعظة بليغة ، وغفلة سريعة ، يذهب الأول ويبقى الآخر ألا عقل ؟ » .

ثم كانت هذه اليقظة الإيمانية ، والتبصّر فيما أخبر عنه النبي ﷺ من مشاهد القيامة ، وما يقع من شدة وكره ووقوف للسؤال بين يدي رب العالمين ديدن من تبع الصحابة بإحسان ، في أخذ أنفسهم بالأعمال التي تكون بإذن الله سبيلهم إلى النجاة والفوز العظيم ، وفي مواظبتهم البليغة ، ونصحهم لعباد الله المؤمنين . وهذا ما نجده عند التابعي الثقة العابد الزاهد سعد بن بلال رحمه الله . روى أبو نعيم بسنده عن عبدالرحمن بن أبي حوشب قال : سمعت بلال بن سعد يقول : « أربع خصال جاريات عليكم من الرحمن مع ظلمكم أنفسكم وخطاياكم : أما رزقه : فدارٌ عليكم ، وأما رحمته : فغير محجوبة عنكم ، وأما ستره فأسبغ عليكم ، وأما عقابه : فلم يعجل لكم ، ثم أنتم على ذلك لاهون تجترئون على إلهكم ، أنتم تكلمون ، ويوشك الله تعالى يتكلم وتسكتون ، ثم يثور من أعمالكم دخان تسود

منه الوجوه ﴿ فانتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا
يظلمون ﴾ اللهم اجعلنا هداة مهتدين ، غير ضالّين ولا مضلّين ، وانفعنا بهدي
نبيك المصطفى صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين .

.. فالיום أنساكم كما نسيتني

لله ما أعظم دين الإسلام الذي أتم الله به النعمة على الأمة المحمدية ، وما أعظم أن يكون المؤمن ، على تقدير هذه النعمة وشكران لها ؛ وذلك بالتزام حدود الله ، واغتنام ما آتاه الله في الدنيا ، من أجل العمل للآخرة . وما من ريب في أن الطريق إلى ذلك - بعد الإيمان - معرفة صحيحة متصلة بأصول هذا الدين ومنابعه ، وسلوك تزيينه الاستقامة ، متسق مع تلك المعرفة . إن المؤمن ، حيث يأخذ نفسه بهذا المنهج القويم ، يكون في كنف الله وستره وعونه ، ويكون من أبناء الآخرة الذين يقدرُونَ المسؤولية هناك قدرها ، ولا ينسيهم ما يكون في الدنيا من زخرف ومتاع ، أنهم إلى الموت صائرون ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مِنَ فِي الْقُبُورِ﴾ .

ولقد بصر النبي ﷺ الأمة - وهو لسيد النَّصْحَةِ الرحماء - بما هو كائن يوم القيامة من سؤال الله عباده عما أنعم عليهم من نعم ، ماذا أدّوا حقه فيها ، وعلى أي وجه استخدموها . هل كانوا على ذكر من يوم الدين وساعات الحساب ، وما تحمل مشاهد القيامة ، من الشدة والكرب ، أم أنهم وقعوا في شرك النسيان ، والغفلة والضياغ ؟ أجل ، بصر النبي ﷺ بذلك ، ولم يدع زيادة لمستزيد ، وفي ذلك ما فيه ، من امتحان التفاعل الإيماني عند الأمة ، ومقدار التأثير الذي ينعكس على السلوك في كل ما هو من أمور الآخرة بسبيل . قال الإمام مسلم : حدثنا محمد بن أبي عمر قال : حدثنا سفيان عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال : « قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة ؟ قالوا : لا . قال : فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة ؟ قالوا : لا . قال : فوالذي نفسي بيده ، لا تضارون في رؤية ربكم ؛ إلا كما تضارون في رؤية أحدهما . قال : فيلقى العبد فيقول : أي فلّ

ألم أكرمك وأسودك ، وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذكرك ترأس وتربع ؟
 فيقول : بلى ، فيقول : أفضنت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإني أنساك كما
 نسيتني . ثم يلقي الثاني فيقول : أي قل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك
 الخيل والإبل وأذكرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى أي رب ، فيقول : أفضنت أنك
 ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإني أنساك كما نسيتني . ثم يلقي الثالث فيقول له
 مثل ذلك ، فيقول : يارب ، آمنت بكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت
 ويشني بخير ما استطاع ، فيقول الله : ههنا إذاً ، قال : ثم يقال له : الآن نبعث
 شاهداً عليك ، ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ ؟ فيختم على فيه ، ويقال
 لفخذه ولحمه وعظامه : انطقي ، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك
 ليتعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط الله عليه . وما من ريب في
 أن نطق هذه الجوارح على صاحبها المنافق « وشهادتها عليه حيث أنطقها الله
 الذي أنطق كل شيء » ، يذكر بقول الله تبارك وتعالى في سورة يس : ﴿ اليوم نختم
 على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ .

هذا : ومن الحقائق التي لا يرتاب فيها إلا معاند مكابر ، أن الجليل الذي رباه
 رسول الله ﷺ على عينه ، كان مثال التصديق ، وحسن الإفادة من هدي النبي ﷺ
 في النفس ، وفي أداء الأمانة بتوجيه الآخرين ، وتذكيرهم بما يكون يوم القيامة ،
 الأمر الذي يوجب على المؤمن ، أن يتزود له فيحسن الزاد « روى مسلم بسنده عن
 خالد بن عمير العدوي قال : « خطبنا عتبة بن غزوان رضي الله عنه فحمد الله
 وأثنى عليه ثم قال : أما بعد : فإن الدنيا قد آذنت بصرم ، وولت حذاء » ولم يبق
 منها إلا صباغة كصبابة الإناء يتصائبها صاحبها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا
 زوال لها ، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم ، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقي من شفة
 جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ، ولا يدرك لها قعرأ ، والله لتملأن أفعبجتم !! ولقد
 ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليها
 يوم وهي كظيظ من الزحام . ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ، ما لنا

طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا ، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك ، فأنزرت بنصفها ، وأنزرت سعد بنصفها . فما أصبح اليوم منا أحد ، إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار ، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً ، وإنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت ، حتى يكون آخر عاقبتها ملكاً ، فستخبرون وتجربون الأمراء بعدنا .

الصرم : الانقطاع والذهاب . ولّت حذاء : أي مسرة الانقطاع . الصُّبابة : البقية اليسيرة من الشراب تبقى في أسفل الإناء يتصاها : يشر بها . الكظيظ : الممتلئ .

ولقد أورد الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه : «طريق الهجرتين وباب السعادتين» أبياتاً لواحد من أهل الخشية السالكين ، نورد بعضها للعبرة والانتفاع إن شاء الله فيما يلي :

فيا عجباً من مُعرض عن حياته	وعن حظه العالي ويلهو ويلعب
ولو علم المحروم أيّ بضاعة	أضاع لأمسى قلبه يتلهب
فإن كان لا يدري فتلك مصيبة	وإن كان يدري فالمصيبة أصعب
بلى سوف يدري حين ينكشف الغطا	ويصبح مسلوباً ينوح ويندب
ويعجب ممن باع شيئاً بدون ما	يساوي بلا علم وأمر أعجب
لأنك قد بعت الحياة وطيبها	بلذة حلم عن قليل سيذهب
فهلا عكست الأمر إن كنت حازماً	ولكن أضعت الخزم والحكم يغلب
تصدّ وتنأى عن حبيبك دائماً	فأين عن الأحباب ويحك تذهب
ستعلم يوم الحشر أيّ تجارة	أضعت إذا تلك الموازين تنصب

جزى الله خير جزائه ، نبينا محمد بن عبدالله ، ورضي الله عن أصحابه الكرام الذين آمنوا وصدّقوا وكانوا خير مثال يحتذى في العمل بهديه ، صلوات الله وسلامه عليه وجزى الله الإمام ابن القيم خير جزائه على ما صنف وكتب في هذا الباب وذكّر بصنيع أولئك الأصفياء . والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

كفى بنفسك اليوم شهيداً عليك

إذا ذكر يوم الوعيد، يوم تجيء كل نفس معها سائق وشهيد ، كان ذلك مدعاة لأن يزيد المؤمن من صلته بأخباره ، بمشاهدته ، ونذره ، وأحواله ، كيما يكون على اليابسة ، علماً وعملاً وأخذاً بأسباب النجاة التي يطمح إلى تحقيقها عباد الله الصالحون. ذلك بأن الفقه في أخبار ذلك اليوم - كما ترى في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام - جدير ، بأن يدفع إلى العمل الجاد المبصر للآخرة ، وأن يكون المعيار الأخروي هو المقدم في وزن الأعمال والتصرفات ، وفي هذا الهدى النبوي ، ما يوحى ، بأن المؤمن عندما يعطي العمل للآخرة حقه من العناية ، معرفة بالأحكام وإخلاصاً لله عز وجل ، يكرمه الله بأن يكفيه أمر دنياه ، لأن الآخرة خير له من الأولى « وهي بلا ريب خير وأبقى ، جاء في بعض وصايا الإمام سفيان الثوري رحمه الله قوله : « أحسن سريرتك يحسن الله علانيتك » وأصلح فيما بينك وبين الله يصلح الله فيما بينك وبين الناس ، واعمل لآخرتك يكفك الله أمر دنياك . بع دنياك بآخرتك تربخهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً ».

ولقد ترك النبي ﷺ الأمة على المحجة البيضاء ، حيث كشف - وهو المؤيد بالوحي - بإحاطة تامة - كما أسلفنا - عما يكون في اليوم الموعود ، بين العباد وخالقهم جل شأنه وتباركت أسماؤه ، وعن المآل الذي يصير إليه ، أولئك الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، ورانت الغفلة على قلوبهم ، فسوا الله واليوم الآخر ، وكانوا من أهل النار . وقد رأينا في صفحات خَلَّتْ ما روى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث طويل قول المنافق يوم القيامة : « يارب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدق ، ويشني بخير ما استطاع فيقول الله : ههنا إذاً ، أي قف ههنا حتى تشهد عليك جوارحك إذ قد صرت منكراً .. ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك » ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليه ،

لأن عمى القلب « جعله يظن أن نهج النفاق الذي كان عليه في الدنيا، يمكن أن ينفع في هذا اليوم العصيب أيضاً .. » فيختم على فيه « ويقال لفخذه وعظامه: انطقي فتنتطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليُعذر من نفسه » يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه ». أرايت إلى هذا المشهد المروّع من مشاهد القيامة ؟ أنكر المنافق وكذب ، فأنتطق الله جوارحه بالشهادة عليه، فكانت هذه الجوارح شاهد الله الذي يعلم السر وأخفى عليه: الآن نبعث شاهدنا عليك .

هكذا تعلن الحقيقة إعلانها ، ويخسر الزيف وأهلوه ، ويكب المنافق في الدرك الأسفل من النار ، أما أعماله التي حسبها تنطلي على الآخرين : فلم تغن عنه شيئاً، لأنها فقدت أعز ركن وأغلاه ، وهو الإيمان .

وهذه صورة أخرى، من صور أخاذة فياضة بالعظائم والعبر ، تضمها تلك المشاهد التي يفترض أن تشحذ العزائم، وتباعد بين المرء، وبين النفاق وأهله، وتُعلي قدر العلم الأخروي، في نظر المؤمن ، كيما يكون من المسارعين في الخيرات، والأعمال الصالحات التي حرّرت من الشوائب والأكدار ، أولئك الذين تكتب لهم النجاة في ساعات الهول ، ويفوزون برضوان الله ، وما أعد لأهل الفلاح والخشية من النعيم المقيم. أخرج الإمام مسلم بسنده عن سفيان الثوري عن عُبيد المُكْتَب عن فضيل عن الشعبي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ ، فضحك ، فقال : هل تدرون مم أضحك ؟ قلنا: الله وسوله أعلم، قال : من مخاطبة العبدربه ، يقول : ياربُّ ألم تُجرني من الظلم، قال : بلى » قال: فيقول : فإني لا أجزى على نفسي إلا شاهداً مني ، قال : فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، قال : فيختم على فيه ، فيقال لأركانها: انطقي ، قال : فتنتطق بأعماله ، قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام ، قال : فيقول: بُعداً لكنّ وسُحقاً فعنكن كنت أناضل » ورواه النسائي وابن أبي حاتم .

وغير خافٍ أن حديث النبي عليه الصلاة والسلام في هذا : لون مبارك من ألوان البيان، لما جاء في القرآن الكريم حول هذا المشهد الناطق بما يؤول إليه أمر أعداء الله، من مثل قول الله جل وعز في سورة فصلت : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ .

يوزعون : يساقون ويُدفعون إلى جهنم .

هذا : وقد ذكر الحافظ ابن كثير ما روى ابن أبي حاتم بسنده عن يونس بن عبيد عن حميد بن هلال قال : قال أبو بردة : قال أبو موسى : « يدعى الكافر والمنافق للحساب ، فيعرض عليه ربه عز وجل عمله فيجحد ويقول : أي وعزتك لقد كتب عليّ هذا الملك ما لم أعمل ، فيقول له الملك : أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا ؟ فيقول : لا وعزتك رب ما عملته ، قال : فإذا فعل ذلك ختم على فيه » .

أما المؤمن : فيعترف بالخطأ ، ويرجو مولاه المغفرة ، قال شيخ المفسرين الطبري : حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال : حدثنا ابن عُليّة قال : حدثنا يونس بن عُبيد عن حميد بن هلال قال : قال أبو بردة : قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : « يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة ، فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه ، فيعترف ، فيقول : نعم أي رب عملت عملت عملت ، قال : فيغفر الله تعالى له ذنوبه ويستره منها ، قال : فما على الأرض خليفة ترى من تلك الذنوب شيئاً ، وتبدو حسناته ، فودّ أن الناس كلهم يرونها . ويدعى الكافر والمنافق للحساب ، فيعرض عليه ربه عمله ، فيجحد ويقول : أي رب وعزتك ، لقد كتب علي هذا الملك ما لم أعمل ، فيقول له الملك : أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا ؟

فيقول: لا وعزتك أي رب ما عملته « فإذا فعل ذلك ختم الله على فيه » . قال
أبوموسى الأشعري رضي الله عنه : فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى ،
ثم تلا : ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا
يكسبون ﴾ .

اتقوا النار ولو بشق تمرّة

كثيرة هي تلك الأحاديث ، التي تضع العباد أمام الحقائق المذهلة التي تواجه الإنسان يوم القيامة ، وفي الوقت نفسه ، تقدم قوارب النجاة ، وتأخذ بيد المكلف إلى ساحة العمل المجدي في هذه الدار ، وهو العمل الخالص لله عز وجل مهما قلّ ، مادام هو الممكن ، ومادام قد فُعل على الوجه الذي بيّنه الرسول عليه الصلاة والسلام ، فإذا توافر للمسلم ذلك ، كان العمل قميناً - بفضل الله تعالى - أن يقي صاحبه مصارع السوء في ذلك اليوم العصيب ، حيث تشتد الحاجة إلى العمل المنجي ، ويتعاضم الافتقار إلى جبار السماوات والأرض الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى ؛ لأن الهول شديد شديد ، والساعات تمر مثقلة بالكثير الكثير ، من الترقب والمشقة ، حيث ترى كل أمة جاثية « ولكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، قال الإمام البخاري : حدثنا عمر بن حفص قال : حدثني الأعمش قال : حدثني خثيم عن عدي بن حاتم قال : قال النبي ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان ، ثم ينظر فلا يرى شيئاً قدومه ، ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار ، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرّة » .

إنه الموقف الذي لا محيص منه ، وهو حقيقة يؤمن بها المسلم ، إيماناً يجعلها منه ، كأنه يراها هنا في الدار العاجلة ويحسّها ، فليعدّها العدة ، وليحكّم المعيار الأخروي في العمل ، والعاقل كل العاقل من تزوّد لتلك الرحلة ، ولقي ربه بقلب سليم . وتحمل الرواية عند الإمام مسلم شيئاً من التفصيل ، الذي يسعف في مزيد من وضوح الرؤية من أجل العمل والإعداد ، فقد روى بسنده عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّم ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق

تمرة» ثم قال الإمام مسلم : زاد ابن حجر : قال الأعمش : وحدثني عمرو بن مرة عن خيثمة مثله ، وزاد فيه «ولو بكلمة طيبة» وقال إسحاق : قال الأعمش : عن عمرو بن مرة عن خيثمة . وله في رواية أخرى عن عدي بن حاتم أيضاً قال : «ذكر رسول الله ﷺ النار فأعرض وأشاح ، ثم قال : اتقوا النار ، ثم أعرض وأشاح حتى ظننا أنه كأنها ينظر إليها ، ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة» فمن لم يجد فبكلمة طيبة» . وجاء في رواية ثالثة لمسلم أيضاً «أنه ﷺ ذكر النار فتعوذ منها، وأشاح بوجهه ثلاث مرات ، ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة» .

وذلك ما نجده عند الإمام البخاري عن عدي بن حاتم : قال النبي ﷺ : «اتقوا النار ثم أعرض وأشاح ، ثم قال : اتقوا النار ثم أعرض وأشاح ثلاثاً ، حتى ظننا أنه ينظر إليها ، ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة» . وواضح أن هذا كله ، فيمن لا يجد إلا ذلك القليل مما يتقي به النار ، بدلاً في سبيل الله ، فما بالك بمن يجد ما هو أكثر وأوفر ؟ كيف لا يبنى وقاية تقيه من النار، يصوغها من العمل المرضي لله عز وجل ؟

أما وقد دلّ النبي عليه الصلاة والسلام - وهو الرحمة المهداة - على الطريق ، وبين الأمر خير بيان ، فلا عذر لمعتذر يأتي يوم القيامة ، فيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، ولا يجد المخرج من الوقوع في النار التي تستقبله - وهي مآب الطاغين - إلا ما قدّم في هذه الدنيا ، من الغرس الطيب والعمل الذي يكون نوراً بين يديه ، ومنجاة مما يقع فيه الخلق الذين عميت عنهم البصائر في الدنيا ، حتى إذا نسوا الله في عاجل أمرهم ، عاقبهم بالنسيان في آجله ، وكان مأواهم النار وبئس القرار .

وفي تأكيد لمقام العمل هنا ، وأثره في ساعات المسؤولية هناك «تطالعنا رواية الترمذي عن طريق الأعمش : « ما منكم من رجل إلا سيكلمه ربه يوم القيامة

وليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه ، فلا يرى شيئاً إلا شيئاً قدمه ، ثم ينظر أشأم منه ، فلا يرى شيئاً إلا شيئاً قدّمه ، ثم ينظر تلقاء وجهه فتستقبله النار ، قال رسول الله ﷺ : « من استطاع منكم أن يقي وجهه حر النار ولو بشق تمره فليفعل » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . حدثنا أبو السائب قال : حدثنا وكيع يوماً بهذا الحديث عن الأعمش ، فلما فرغ وكيع من هذا الحديث قال : من كان هاهنا من أهل خراسان ، فليحتسب في إظهار هذا الحديث بخراسان ، لأن الجهمية ينكرون هذا . اسم أبي السائب : سلمُ ابنُ جنادة بن سلم بن خالد بن جابر بن سمرة الكوفي . والحديث رواه النسائي وابن ماجة والدارمي .

هذا : والناظر في هديه عليه الصلاة والسلام ، في شأن النهج الذي على المؤمن أن يسلكه في دار العمل هنا ، استعداداً ليوم المسؤولية والحساب والجزاء هناك ، نجد أنه صلوات الله وسلامه عليه ، لم يأل جهداً في أن يكشف لأمته عن ضرورة الحفاظ على الوقت ، واغتنام الفرص ، قبل أن يأتي اليوم الذي لا مردّ له من الله ، حيث يفوز الذين استنفدوا الطاقة في مرضاة ربهم ، والتقرب إليه ، والتخلق بأخلاق المؤمنين حقاً ، والذين لهم مغفرة عند ربهم ورزق كريم . أخرج الترمذي في كتاب الزهد من الجامع الصحيح - سنن الترمذي - عن يحيى بن عبيد الله قال : سمعت أبي يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « ما من أحد يموت إلا ندم ، قالوا : وما ندامته يا رسول الله ؟ قال : إن كان محسناً : ندم أن لا يكون ازداد ، وإن كان مسيئاً : ندم أن لا يكون نزع » فالمحسن يندم على أن لا يكون ازداد من الإحسان الذي ينفع في ذلك اليوم العظيم ، والمسيء يندم على أن لا يكون انتهى عن الإساءة وتاب وأناب ، عسى أن يغفر الله له ما فرط من ذنوب وآثام ..

ربنا اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنا وما أنت أعلم به منا أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير ..

على جسر جهنم.. اللهم سلم سلم

كلما ازداد إقبال المؤمن على الآخرة ، وسلك مسالك الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ازداد حرصاً على إمعان النظرات المتبصرة ، فيما جاء عن رسول الله ﷺ - وهو يبلغ الرسالة ، ويبين الكتاب - في شأن يوم المعاد ، وما يقبل عليه العباد من المسؤولية والجزاء ، كلُّ بما قدّم وعمل . وهذا - بعون الله تعالى - طريقه لأن يكون من أهل التوفيق ، الذين لا تلهيهم الدنيا بملذاتها وشهواتها - مهما كانت الزخارف والمغريات - عن ذكر الله ، والتفكير بما يكون يوم الحساب ، ولا تشغلهم - وهي دار الزوال - عن الآجلة التي هي دار القرار ، والتفكير بما يكون يوم الحساب ، وفي الوقت نفسه ، يبلغ بهم الخوف والرجاء ، أن يديموا غسل الحوبة بالندم والاستغفار ، ويقبلوا على التوبة قبل أن تبلغ الحلقوم .

وإذا كان الأمر كذلك - ولب القضية وجوهرها ما يكون من الإقبال على الآخرة - فالاستزادة من مخالطة النصوص التي تؤذن بما يزرع به اليوم الآخر من مشاهد ، وتكشف عن الحقائق التي درج المتخلفون عن ركب أهل التقوى ، أن يهوتوا من شأنها ، ويلبسوها المعاني التي تنصح بحب الدعة والغفلة... أقول: الاستزادة من مخالطة النصوص على هذه الشاكلة ، رغبة في العلم والعمل : من التعقل الأخروي ، أن يجعلها المؤمن هجيراً ، كيما يكون ذلك عوناً له على التأسي بأهل التقوى المحسنين ، والانصراف عن طريق الغافلين الذين ينسأهم ربهم يوم الدين .

وهذه الإشارة ، ذات نسب إلى ما نحن بسبيله ، من متابعة الحديث عن مساءلة الله عباده ، يوم لا يسأل حميم حميماً « وما يكون من نصب الصراط الذي ما بد من أن يعبروا عليه ، وهم على يقين ، بأن المصير إما إلى جنة الخلد التي وعد

المتقون ، وإما إلى نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى . عقد الإمام البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح باباً عنوانه : « الصراط جسر جهنم » وقال هناك : حدثنا أبو اليان قال : أخبرنا شعيب عن الزهري قال : أخبرني سعيد وعطاء بن يزيد أن أباهريرة رضي الله عنه أخبرهما عن النبي ﷺ ، حدثني محمود قال : حدثنا عبدالرزاق قال : أخبرنا معمر عن الزهري عن عطاء ابن يزيد الليثي عن أبي هريرة قال : « قال أناس : يارسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : فإنكم ترونه يوم القيامة ، كذلك يجمع الله الناس فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه .. فيتبع من كان يعبد الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون ، فيقول أنا ربكم فيقولون : نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا أتانا ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه ، ويضرب جسر جهنم ، قال رسول الله ﷺ : فأكون أول من يُجيز ، ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلم سلم ، وبه كلاليب مثل شوك السعدان ، أما رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله . فتخطف الناس بأعمالهم ، منهم الموبق بعمله ، ومنهم المخردل ثم ينجو . حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج ، ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله ، أمر الملائكة أن يُخرجوهم فيعرفونهم بعلامة أثار السجود ، وحرم الله على النار أن تأكل من بني آدم أثر السجود ، فيخرجونهم قد امتحشوا ، فيُصبُّ عليهم ماء يقال له ماء الحياة ، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل ، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار ، فيقول : يارب قد قشبنني ريحها ، وأحرقني ذكاؤها فاصرف وجهي عن النار ، فلا يزال يدعو الله فيقول : لعلك إن أعطيتك أن تسألني غيره ،

فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره ، فيصرف وجهه عن النار ، ثم يقول بعد ذلك :
 ياربِّ قربني إلى باب الجنة ، فيقول : أليس قد زعمت أن لا تسألني غيره ؟ ويلك
 يا ابن آدم ما أغدرك . فلا يزال يدعو ، فيقول : لعلِّي إن أعطيتك ذلك تسألني
 غيره ، فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره ، فيعطي الله ما شاء من عهود ومواثيق
 أن لا يسأله غيره ، فيقربه إلى باب الجنة ، فإذا رأى ما فيها سكنت ما شاء الله له أن
 يسكت ، ثم يقول : ربِّ أدخلني الجنة . ثم يقول : أو ليس قد زعمت أن لا
 تسألني غيره ؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك ؟ ، فيقول : يارب لا تجعلني أشقى
 خلقي ، فلا يزال يدعو حتى يضحك ، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها ،
 فإذا دخل فيها ، قيل : تمنَّ من كذا . فيتمنى . ثم يقال له : تمنَّ من كذا فيتمنى ،
 حتى تنقطع به الأماني ، فيقول له : هذا لك ومثله معه ، قال أبوهريرة : وذلك
 الرجل آخر أهل الجنة دخولاً » ثم قال البخاري : قال عطاء : وأبوسعيد الخدري
 جالس مع أبي هريرة لا يغير عليه شيئاً من حديثه حتى انتهى إلى قوله : « هذا لك
 ومثله معه » قال أبوسعيد : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « هذا لك وعشرة أمثاله »
 قال أبوهريرة : حفظت « ومثله معه » .

وهكذا يؤكد عطاء - وهو هنا عطاء بن يزيد الليثي المتوفى سنة سبع ومائة
 للهجرة - يؤكد موافقة أبي سعيد الخدري بأبهريرة رضي الله عنهما في نص هذا
 الحديث بطوله إلا أن أبوسعيد يحفظ « هذا لك وعشرة أمثاله » وأبوهريرة يحفظ
 « هذا لك ومثله معه » .

شبه رسول الله ﷺ كلاليب الصراط بشوك السعدان ، والسعدان : جمع
 سعدانة وهو نبات ذو شوك يضرب به المثل في طيب مرعاه ، قالوا : (مرعى ولا
 كالسعدان) . وقوله ﷺ : « أما رأيتم شوك السعدان » هو استفهام تقرير
 لاستحضار الصورة المذكورة ، وهي صورة خطف الكلاليب الناس بأعمالهم .
 ونقل الحافظ ابن حجر عن الزين بن المنير قوله : « تشبيه الكلاليب بشوك
 السعدان خاص بسرعة اختطافها وكثرة الانتشاب فيها مع التحرز والتصون تمثيلاً

لهم بما عرفوه في الدنيا وألفوه بالمباشرة».

وورد في الحديث كلمة « امتَحشوا » وفي بعض الروايات « امتَحِشُوا » ومعناها احترقوا . ذُكَاؤُهَا بفتح الذال : شدة وهجها قال ابن الأثير في « النهاية » : وفي حديث ذكر النار « قشبنى ريحها وأحرقني ذُكَاؤُهَا » الذُّكَاءُ : شدة وهج النار . يقال : ذُكِبْتُ النار : إذا أتممت إشعالها ورفعَتَهَا . وذكت النار تذكو ذُكَاً - مقصور - أي اشتعلت وقيل : هما لغتان .

وللحديث بقية ، نسعد فيها ثانية باصطحاب هذا النص الكريم المثلل بالتوجيه والعبر ، ونرى ماله من روايات أخر ، تسهم في مزيد من الوضوح وتبيين الملامح ، ونسأله تعالى أن يجعلنا من الذين يجوزون الصراط . ملطوفاً بهم لا تخطفهم الكلاليب ، ولا تزلُّ بهم الأقدام ، منعماً عليهم بجنة الرضوان - فضلاً من الله ورحمة - إنه نعم المولى ونعم النصير .

الصراط جسر جهنم

في الحديث الذي أورده الإمام البخاري في باب عنوانه « باب الصراط جسر جهنم » من كتاب الرقاق في الجامع الصحيح - كما رأينا من قريب - حقائق إيمانية لا بد من استذكارها ، إذ نطالع فيما نطالع ، أن الصراط حق ، وأن دعاء الرسل هناك حق ، وأن الناجين يكرمون بحسب منازلهم ، وأن أهل الضلالة ، لا يقوون على جوازه ، ويسقطون في جهنم . فقد جاء هناك : « ويضرب جسر جهنم » ، قال رسول الله ﷺ : « فأكون أول من يُجيز ، ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلّم سلّم » وفي رواية مسلم - كما سيأتي : « ويضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلّم سلّم » .

هكذا يدل الحديث ، على ثبوت هذا المشهد العظيم الهائل : الصراط يضرب - يُجذّ - بين ظهري جهنم ، وترى الناس محشورين للعبور عليه ، وكلهم على هذا الترقب والحذر الشديد ، فالمؤمنون يكرمهم الله بالنجاة ، على حسب منازلهم ، والآخرين يغمرهم ظلام الضلال ، فيسقطون في نار لظى ، أعادنا الله برحمته ومنه وفضله ، من هولها وعذابها الغليظ .

وأحقية وجود الصراط ، وأنه جسر جهنم ، هو مذهب أهل الحق كما يتضح من ترجمة الإمام البخاري للأحاديث الواردة في ذلك بقوله : « الصراط جسر جهنم » وقال الإمام النووي رحمه الله : وهو جسر على متن جهنم يمر عليه الناس كلهم ، فالمؤمنون ينجون على حسب حالهم - أي منازلهم - والآخرين يسقطون فيها أعادنا الله الكريم منها .

والرسول ﷺ أول من يُجيز : أي أول من يمضي عليه ويقطعه ، يقال : أجزت

الوادي وجزته، لغتان بمعنى واحد، وينقل عن الأصمعي قوله: أجزته: قطعته وجزته: مشيت فيه والله أعلم.

ولشدة ما يكون من الأهوال، وما يحمل ذلك المشهد من اضطراب النفوس، خشية سوء المصير والوقوع في جهنم، لا يتكلم في حال الإجازة، إلا الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن كمال شفقتهم ورحمتهم للخلق، يكون دعاؤهم: «اللهم سلّم سلّم». نقول هذا، لأنه قد يظن أن الكلام ممتنع يوم القيامة، إلا في حال إجازة الصراط، ففي ذلك اليوم المشهود مواطن، يتكلم فيها الناس، وتجادل كل نفس عن نفسها، ويسأل بعضهم بعضاً، ويتلاومون، ويخاصم التابعون المتبوعين كما قال تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب. إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرزؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾.

وقد استنبط العلماء من دعاء الرسل «اللهم سلّم سلّم» في تلك الساعات العصية، ساعات إجازة الصراط، أن الدعوات تكون بحسب المواطن، فيدعى في كل موطن بما يليق به؛ وذلك ما علمناه رسول الله وعرف من هديه. وقد جاء في بعض الروايات أن شعار المؤمن على الصراط «رب سلّم سلّم» قال الإمام الترمذي: حدثنا علي بن حُجر قال: أخبرنا علي بن مسهر عن عبدالرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعيد عن المغيرة بن شعبة قال: قال رسول الله ﷺ: «شعار المؤمن على الصراط رب سلّم سلّم» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من حديث المغيرة بن شعبة لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن إسحاق. وفي الباب عن أبي هريرة، اللهم لطفك بعبادك.

ألا إن هذا الدعاء الذي يلهمه الله الرسل عليهم الصلاة والسلام - والمؤمنين

عموماً - كما نصت هذه الرواية عند الترمذي - أنسب وأصلح ما يكون من الدعاء في تلك الساعات المثقلة بالحرج وشديد الرعب، حيث الخطر المحقق، والمصير المخوف المرتقب .

هذا والكلام على الصراط - جعلنا الله ممن يجوزونه بسلام - يصلنا بما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام من أن الصراط هو أحد مواطن ثلاثة يطلب فيها النبي ﷺ ، فهو لا يخطئها : الصراط والميزان والحوض . وأكرم الله أمتنا بأن سأل أنس بن مالك رضي الله عنه الشفاعة ، فأمره أن يطلبه أول ما يطلبه عند الصراط؛ فإن لم يجده ، فليطلبه عند الميزان ، وإلا فعند الحوض . ذلكم ما أخرج الإمام الترمذي بسنده عن النضر بن أنس بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال : سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة . فقال : أنا فاعل . قال : قلت يا رسول الله فأين أطلبك ؟ قال : تطلبني أول ما تطلبني على الصراط قال : قلت : فإن لم ألقك على الصراط ؟ قال : فاطلبي عند الميزان . قلت : فإن لم ألقك عند الميزان قال : فاطلبي عند الحوض ، فإني لا أخطيء هذه الثلاثة المواطن . قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وجاء في مسند الإمام أحمد حدثنا عبدالله قال : حدثني أبي قال : حدثنا يونس بن محمد قال : حدثنا حرب ابن ميمون عن النضر بن أنس عن أنس قال : سألت نبي الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة قال : قال : أنا فاعل بهم ، قال : فأين أطلبك يوم القيامة يا نبي الله قال : اطلبي أول ما تطلبني على الصراط ، قال : قلت : فإذا لم ألقك على الصراط ؟ قال : فأنا عند الميزان ، قال : قلت فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال : أنا عند الحوض لا أخطيء هذه الثلاث مواطن يوم القيامة .

ألا ما أحوج الناس في ذلك اليوم العصيب، إلى رحمة الله الواسعة ولطفه الكبير . وهنيئاً لمن قدّموا في الدنيا ما يؤهلهم لتلك الرحمة وجبل اللطف، فتراهم، وقد أشرق عليهم نور الشفاعة المحمدية ، وياويح من لم تدركه هذه الرحمة ، من وخيم العاقبة وسوء المصير . ولقد يعجز العقل عن وصف ما يدخل من الفرح

على قلوب الناجين الذين تدرّكهم ألطف الله وينالون الشفاعة ؛ روى الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن صهبان قال : سمعت أبا بكره عن النبي ﷺ قال : « يُحمل الناس على الصراط يوم القيامة فتتقادع بهم جنبه الصراط تقادع الفراش في النار ، قال : فينجي الله تبارك وتعالى برحمته من يشاء ، قال : ثم يؤذن للملائكة والنبين والشهداء أن يشفعوا ، فيشفعون ويخرجون ، ويشفعون ويخرجون ، ويشفعون ويخرجون ، وزاد عفان مرة فقال أيضاً : ويشفعون « ويخرجون من كان في قلبه ما يزن ذرة من إيمان » قال أبو عبد الرحمن حدثنا محمد بن أبان قال : حدثنا سعيد بن زيد مثله .

قال علماء اللغة : التقادع : التهافت والتتابع في الشيء ، كأن كل واحد يدفع صاحبه أن يسبقه ، قال الإمام الرازي : وفي الحديث : « يحمل الناس على الصراط يوم القيامة فتتقادع بهم جنبتا الصراط تقادع الفراش في النار » .

اللهم اجعلنا في تلك الساعة المهولة ، ممن يستجاب فيهم دعوة رسلك عليهم السلام : اللهم سلّم سلّم . يا أرحم الراحمين .

ذَكَرَتِ النَّارُ فَبِكَيْتِ

أهل الفلاح الذين صفت بالتقوى قلوبهم ، واستنارت بالإيمان عقولهم ، لا يفتؤن يعملون من الصالحات ، ويأتون من القربات ما يزيد إيمانهم بالغيب ، الأمر الذي يزيدهم طمأنينة على طمأنينة ، ويجعل ما أخبر به القرآن ، وبينته السنة : قريباً من نفوسهم ، حتى كأنه بين ظهرانيهم يرونه بأمر أعينهم ، يشهدونه مصدقين ، ويحسون وجوده الحق ، لا يخالطهم في ذلك أدنى ريب أو التباس ، الأمر الذي يسعف في الاستقرار النفسي ، والتفاضل برحمة الله في عاجل الأمر وآجله . ومن هذه القضايا التي يريح الإيمان بها قلب المؤمن وعقله : أن الصراط حق . ومعلوم أن مذهب أهل الحق إثباته « وأنه كائن لا محالة ؛ فهو جسر يضرب على جهنم ليعبر عليه الناس إلى مصيرهم - كما سبق الحديث عن ذلك آنفاً - فالمؤمنون ينجون على حسب منازلهم ، والآخرون يسقطون في نار السعير ، نعوذ بالله العزيز الرحيم من عذابها وشر بلواها .

والمؤمن عندما يتصور ذلك المشهد ، الذي هو حق لا ريب فيه ، يزداد خوفاً من سوء العاقبة والعقاب ، كما يلوذ بربه خاشعاً خاضعاً ، رجاء المغفرة والثواب ، ومن غير اللائق ولا المقبول ، أن يطيع المؤمن نفسه وهواه ، فيصيبه طائف من الغفلة ، يجعله يتقاصر عن العمل الصالح في هذه الدار ، ويقعد عن النَّصَب في سبيل الله مع القاعدين . ولذلك ما بد من الدأب المبصر ، على تزكية النفس ومحاسبتها ، ومجافاة الهوى وشياطين الإنس والجن ﴿ قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ﴾ .. لا بد من ذلك ، كيما تكون مشاهد القيامة وما تحمل من الأهوال نصب عين المؤمن ، تذكره إذا غفل ، وترتفع به إلى معايير الآخرة وعدم الركون إلى مغريات العاجلة إذا وني .

ولقد دلت الأحاديث الصحيحة على أن الناس يكونون على الصراط، وقد حصل ما حصل من تبدل الأرض والسموات، بقدرة الواحد القهار، قال الإمام مسلم : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدثنا علي بن مسهر عن داود عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل : ﴿يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ فأين يكون الناس يومئذ يارسول الله ؟ فقال : « على الصراط » وبهذا اللفظ رواه ابن ماجة في باب « ذكر البعث » من كتاب (الزهد) في السنن . والآية التي تشير إليها السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، هي قوله تعالى في الآية الثامنة والأربعين من سورة إبراهيم : ﴿يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وقد سُبقت بقول الله جل وعز : ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مَخْلُوفًا وَعَدَهُ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾. وأخرج الترمذي بسنده عن الشعبي أيضاً عن مسروق قال : « تلت عائشة هذه الآية : ﴿يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ قالت : يارسول الله « فأين يكون الناس ؟ قال : على الصراط » . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وروي من غير هذا الوجه عن عائشة ، أم المؤمنين - رضي الله عنها - وقد كانت من أحرص الناس على فقه ما يتلى في بيت رسول الله ﷺ من الكتاب والحكمة ، وأن لا تدع أن تستفسر وتساءل وتستضيء بالجواب ، وأعطاه الله ما أعطاها ، من دقة الفهم والقدرة على النفاذ .. أم المؤمنين أجزل الله ثوبتها تخبرنا ، بأنها كانت أول من سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام ، عن الآية المذكورة في سورة إبراهيم ، قال عبدالله بن الإمام أحمد : حدثني أبي قال : حدثنا بن أبي عدي عن داود عن عامر عن مسروق قال : قالت عائشة : « أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قالت : فقلت : أين الناس يومئذ يارسول الله ؟ قال : على الصراط » .

وغير خاف أن الرسول عليه الصلاة والسلام - كما تدل الروايات - قد كشف لها رضي الله عنها - وقد سألته هذا السؤال - أن أحداً من أمته لم يسأله عنه قبلها .

ولا يخفى ما في ذلك من التكريم لها ، ومن تقرير تلك الفضيلة فيها ، فضيلة التطلع إلى المعرفة ، والفهم من صاحب الشريعة المؤيد بالوحي عليه الصلاة والسلام . وكما حملت أسئلة أم المؤمنين جزاها الله خير الجزاء ، إلى الأمة ما حملت من الخير ، والهداية في الدين والدنيا والآخرة . جاء في مسند أحمد : حدثنا عبد الله قال : حدثنا أبي قال : حدثنا عفان قال : حدثنا القاسم بن الفضل قال : قال الحسن : قالت عائشة : يا رسول الله ﴿ يوم تُبدّل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ أين الناس ؟ قال : « إن هذا لشيء ما سألتني عنه أحد من أمتي قبلك ، الناس على الصراط » والحق أن المدة التي يقضيها العباد وهم على الصراط ، والتي لا نعرف مداها في عمق الزمن ، ساعات مثقلات بالخوف المضني ، والحذر الشديد الشديد ، ولو كشف الغطاء عما يصيب النفوس من هول ذلك المشهد ، لرأيت العجب العجاب . وأشد من هذا ما يكون من طبيعة الصراط ، وكيف هو ، وقد ضرب جسرًا بين ظهري جهنم ، ومما جاء في ذلك ما روى مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه من قوله : « ولقد بلغنا أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف » . نسأل الله لطفه ونقول : يارب سلّم سلّم .

وحملت إلينا بعض النصوص صورة مهولة أخرى عن الصراط ، وأنه من المواطن التي لا يذكر فيها أحد أحدًا ، إذ كلُّ واحد من العباد « لديه من الحذر وخوف المصير حيث تخطف جهنم من أذن لها أن تخطفه — ما يشغله عن الآخرين . أخرج أبو داود بسنده عن يونس عن الحسن عن عائشة أنها ذكرت النار فبكت ، فقال رسول الله ﷺ : ما يبكيك ؟ قالت : ذكرت النار فبكت ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدًا : عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل ، وعند الكتاب حين يقال : ﴿ هاؤم اقرؤا كتابيه ﴾ حتى يعلم أين يقع كتابه « أي يمينه أم في شماله ، أم من وراء ظهره ، وعند الصراط ، إذا وضع بين ظهري جهنم » قال يعقوب : عن يونس ، وهذا لفظ حديثه . وفي رواية أخرى عنها رضي الله عنها قالت : « قلت :

يارسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال : يا عائشة أما عند ثلاث فلا : أما عند الميزان حتى يثقل أو يخفّ : فلا ، وأما عند تطاير الكتب ، فإما أن يعطى يمينه أو يعطى بشماله : فلا ، وحين يخرج عنق من النار - يعني طائفة منها - فينطوي عليهم ويضغط عليهم ، ويقول ذلك العنق : وكُلت بثلاثة ، وكلت بمن ادعى مع الله إلهاً آخر ، وكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، وكلت بكل جبار عنيد فينطوي عليهم ، ويطرحهم في غمرات جهنم ، ولجهنم جسر أدق من الشعرة وأحد من السيف ، عليه كالليب ، وحسك ، تأخذ من شاء الله ، والناس عليه كالطرف ، وكالبرق ، وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : رب سلم سلم ، فتموج ، فسالم ، ومخدوش سلم - أي كالأسير - ومكور في النار على وجهه . قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» : رواه أحمد وفيه ابن لهيعة - وهو ضعيف وقد وثق ، وبقيّة رجاله رجال الصحيح .

وما من ريب في أن المؤمن الذي يداخله من الخشية ما يداخله ، حين يذكر هذا المشهد وأمثاله ، من مشاهد القيامة ، يدفعه ذلك - بعون الله - إلى حسن التزود بالتقوى ، وذكر الآخرة وبذلك يأمن إن شاء الله يوم الخوف .

روى أبو بكر ابن أبي شيبة عن الحسن البصري أنه قال : «إن المؤمنين عجلوا الخوف في الدنيا ، فأمنهم الله يوم القيامة ، وإن المنافقين أخرؤا الخوف في الدنيا فأخافهم الله يوم القيامة» .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وهو المسؤول - جل شأنه - أن يسلك بنا - وهو ذو الفضل العظيم - طريق النجاة والأمن يوم يقوم الحساب .

فضل الله . وآخر أهل الجنة دخولاً

أخرج أبو نعيم في «الحلية» من طريق أبي بكر بن أبي شيبة عن معمر عن يحيى عن الحسن البصري أنه قال : « إن المؤمن قوَّام على نفسه بحاسب نفسه لله ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق هذا الأمر على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة ، إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول : والله إني لأشتهيك ، وإنك لمن حاجتي ، ولكن والله ما من وُصلة إليك ، هيهات حيل بيني وبينك ، ويفرط منه الشيء فيقول : ما أردت إلى هذا ، مالي ولهذا ، والله مالي عذر بها ، والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله ، إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلكتهم ، إن المؤمن أسير في الدنيا ، يسعى في فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتى يلقي الله عز وجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه في ذلك كله . »

وددت أن تكون كلمات هذا التابعي القدوة رحمه الله ، مدخلاً إلى ما نحن بسبيله ، من متابعة الكلام على الصراط الذي يُضرب يوم القيامة جسراً بين ظهري جهنم ، حيث يكون المؤمن على أشد حال من الخوف والرجاء ، يضرع معها إلى الله جبار السماوات والأرض الذي لا يسأل عما يفعل ، أن يمنّ عليه بفكاك رقبته ونجاته من النار .

والذي يزيد الأمر شدة : ما يكون من مشهد الناس - وهم يعبرون جسر جهنم أو يحاولون العبور - وبهذا الجسر كلاليب مثل شوك السعدان ؛ إنها صورة مرعبة ، قربها رسول الله ببلاغته إلى الناس . كلاليب لا يعلم قدر عظمها إلا الله .. انظر إليها وهي تخطف الناس بأعمالهم ، منهم الموبق بعمله ، ومنهم المخردل ، ثم ينجو . ومن الخير - زيادةً في البيان - استذكار ما جاء في ذلك عند الإمام البخاري ، وذلك في الرواية المطوّلة التي أخرجها عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الرقاق

من الجامع الصحيح ، تحت باب عنوانه . « الصراط جسر جهنم » .

ورغبة في تبين المعنى المراد من مختلف جوانبه ، يحسن إيراد بعض الروايات الأخرى . وفي خطوة إلى تحقيق ذلك . نتجه إلى ما جاء عند الإمام مسلم في صحيحه . إذ في الرواية شيء من الاختلاف عما جاء في رواية الإمام البخاري ؛ فقد روى رحمه الله بسنده عن ابن شهاب عن عطاء بن يزيد الليثي أن أبا هريرة أخبره « أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ، فقال رسول ﷺ : هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ، قالوا : لا يا رسول الله ، قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : فإنكم ترونه كذلك ، ويجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبّعهُ ، فيتبع من كان يعبد الشمس ، الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت ، الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه » فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون » فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه . ويُضربُ الصراط بين ظهري جهنم ، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلّم سلّم ، وفي جهنم كالليب مثل شوك السعدان ، هل رأيتم السعدان ، قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله ، تخطف الناس بأعماهم » فمنهم المؤمن الموبق بعمله ، ومنهم المجازي حتى يُنَجَّى » .

إنه لمشهد مخيف حقاً ، ولا منجاة من مخاطره ، إلا بلطف من الله اللطيف الخبير ؛ وكم يحسن المؤمن إلى نفسه « وينأى عن ظلمها ، إذا اتخذ من هول ذلك المشهد ، حافزاً يحفزهِ إلى طريق النجاة ، يسلكها بعزيمة صادقة ، وقلب متصل بالله الرحيم الرحمن ؛ فقد جاء بعد ذلك قوله ﷺ : « .. حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار ، أمر الملائكة أن يخرجوا

من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ، ممن أراد الله تعالى أن يرحمه ، ممن يقولون : لا إله إلا الله ، فيعرفونهم في النار ، يعرفونهم بأثر السجود - تأكل النار من ابن آدم إلا السجود - حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيُخرجون من النار وقد امتحشوا - أي احترقوا - فيصب عليهم ماء الحياة ، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل - أي كما تنبت بذرة البقول والعشب في مجرى السيل من الطين والغشاء والمراد التشبيه في سرعة النبات وحسنه وطراوته .

وفي بشارة تفرح قلوب المؤمنين ، قال ﷺ بعد ذلك : «ثم يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار - وهو آخر أهل الجنة دخولاً - فيقول : أي رب اصرف وجهي عن النار فإنه قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها - أي آذاني وأهلكني وغير جلدي وصورتي لهبها واشتعالها - فيدعو ما شاء الله أن يدعوه ، ثم يقول الله تبارك وتعالى : هل عسيت إن فعلتُ ذلك بك أن تسأل غيره ؟ فيقول : لا أسألك غيره ، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء الله ، فيصرفُ الله وجهه عن النار .

فإذا أقبل على الجنة ورآها ، سكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول : أي رب قدّمني إلى الجنة . فيقول الله : أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيتك ، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك ، فيقول : أي رب ، ويدعو الله حتى يقول له : هل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيره ؟ فيقول : لا وعزتك ، فيعطي ربه ما شاء الله من عهود ومواثيق ، فيقدمه إلى باب الجنة ، فإذا قام إلى باب الجنة ، فرأى ما فيها من الخير والسرور ، فيسكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول : أي رب أدخلني الجنة ، فيقول الله تبارك وتعالى له : أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت ، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك ! فيقول : أي رب لا أكون أشقى خلقك ، فلا يزال يدعو الله ، حتى يضحك الله تبارك وتعالى منه ، فإذا ضحك الله منه قال : ادخل الجنة ، فإذا دخلها ، قال الله : تمتّه ، فيسأل ربه ويتمنى حتى إن الله ليذكره من كذا وكذا ، حتى إذا انقطعت به الأمانى قال

تعالى : لك ذلك ومثله معه .

قال عطاء بن يزيد : وأبوسعيد الخدري مع أبي هريرة ، لا يرد عليه من حديثه شيئاً ، حتى إذا حدث أبوهريرة : أن الله قال لذلك الرجل : ومثله معه ، قال أبوسعيد : وعشرة أمثاله يا أبا هريرة ، قال أبو هريرة : ما حفظتُ إلا قوله : لك ذلك ومثله معه . قال أبو سعيد : أشهد أني حفظت من رسول الله ﷺ قوله ذلك لك وعشرة أمثاله . قال أبوهريرة : وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً .

وليس هذا عجباً في سعة رحمة الله تعالى !! والمهم أن يتخذ المؤمن من هذا العطاء السخي ، باعثاً على أخذ الأهبة والإعداد لتلك الساعات العصيبات . وصلاة الله وسلامه على نبينا محمد نبي الهدى والرحمة وعلى آله وصحابه الذين حملوا عنه هذا الدين ، وما به يسعد المؤمن في الدنيا ، وينجوه من أهوال يوم التناد ، يوم قال فيه جبار السماوات والأرض : ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ .

الذين يسعون نورهم بين أيديهم وبأيمانهم

الأحاديث الواردة في شأن الصراط - كما تؤكد ضرورة الإيمان ، بأنه واقع لا محالة - تكشف عن مورد من موارد الاعتبار والعظة ، فيما هو عليه ؛ من وجود كلاليب فيه ، تشد الهالكين إلى السقوط في جهنم ، بينما يتفاضل الناجون حسب منازلهم . وقد استوعبت هذه الأحاديث معالم ذلك المشهد المهل من مشاهد يوم الفصل ، وما أدراك ما يوم الفصل . ولئن كانت تلك النصوص من الهدى النبوي ، تخبر الخبر الصادق ، عما سيحدث في ذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيباً ، إنها في الوقت نفسه ، تحمّل الناس أمانة العمل الذي يتسق مع هذا الذي سوف يقع لا محالة ، فحلقة المعرفة تقود بلا كلفة ولا عنت ، إلى الحلقة التي تليها ، وهي المسؤولية التي تقتضي شغل الوقت بالعمل الصالح والاستئثار بهدي الكتاب والسنة ، من أجل النجاة يوم الدين ، والفوز بمرضاة رب العالمين ، التي مآلها جنات تجري من تحتها الأنهار أعدت للمتقين . أما من رانت على قلوبهم الغفلة : وأعرضوا عما جاءهم من البينات والهدى ، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، ناسين الله واليوم الآخر ، فمآلهم سوء العاقبة ، ونار ﴿وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ .

وما من ريب ، في أن من ثمرات الإيمان والعمل الصالح ، أن يعطى المؤمنون والمؤمنات يوم القيامة نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم . ولا تسل عن موقعه العظيم - والشدة الشادة مستحكمة عند الصراط - قال تعالى في سورة الحديد : ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم . يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾ ذكر الحافظ ابن كثير عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : ﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾ أنه قال :

على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً ، من نوره في إبهامه يتقد مرة ، ويطفأ مرة . ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير . وقال الحسن البصري : ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ يعني على الصراط .

وفي بعض الآثار : أن الناس كلهم يعطون النور ، ولكن نور المنافقين ينطفئ عند الصراط . قال الضحاك : ليس أحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طفيء نور المنافقين ، فلما رأى المؤمنون ذلك ، أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفيء نور المنافقين ، فقالوا : ربنا أتم لنا نورنا . وفي حديث ابن عباس عند ابن مردويه : فيعطى كل إنسان منهم نوراً ثم يوجهون إلى الصراط ؛ فما كان من منافق : طفيء نوره ، وفي لفظ : « فإذا استووا على الصراط ، سلب نور المنافقين فقالوا للمؤمنين : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ... ﴾ » الآية .

ولا يرتاب مرتاب في أن ظلام الضلالة والظلم في الدنيا ، ونسيان الله واليوم الآخر ، يعقبان أصحابهما ، ما لا قبل لهم به في تلكم اللحظات الحرجات على الصراط . وقد ضرب جسراً على جهنم وسبحان اللطيف الخبير - أخرج أبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه عن بشر بن عاصم قال : « كتب عمر بن الخطاب عهداً لبشر بن عاصم فقال : لا حاجة لي فيه ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الولاة يجاء بهم يوم القيامة فيقفون على جسر جهنم ، فمن كان مطوعاً لله ، تناوله الله بيمينه حتى ينجيّه ، ومن كان عاصياً لله ، انحرف به الجسر إلى واد من نار يلتهب التهاباً . قال : فأرسل عمر إلى سلمان وأبي ذر ، فقال لأبي ذر : أنت سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم والله ، وبعد الوادي واد آخر من نار . قال : وسأل سلمان ، فلم يخبر بشيء ، فقال عمر : من يأخذها بما فيها ؟ فقال أبو ذر : من سلب الله أنفه وعينه وأصرع خده إلى الأرض . »

وفي حديث موصول مع الكلام على الصراط جسر جهنم ، تحسن الإشارة إلى

أن ما أوردته من قبل، من روايتي البخاري ومسلم، قد جاء عند الإمام أحمد في المسند بلفظ مختصر عنهما، ذلك ما روى هناك بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يضرب جسر على جهنم، قال النبي ﷺ: فأكون أول من يجيز، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وبها كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان، قالوا: نعم يا رسول الله» قال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى فتخطف الناس بأعمالهم، فمنهم الموبق بعمله ومنهم المخردل». وجاء في رواية مسلم «فأكون أنا وأمتي أول من يجيز» قال الإمام النووي: المعنى أكون أنا وأمتي أول من يمضي على الصراط ويقطعه، يقال: جاز الوادي وأجازه: إذا قطعه وخلفه. قال القرطبي صاحب «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» والمتوفى سنة ست وخمسين وستمائة: (يحتمل أن تكون الهمزة هنا للتعدية، لأنه لما كان هو وأمه أول من يجيز على الصراط، لزم تأخير غيرهم عنهم حتى يجوز، فإذا جاز هو وأمه، فكأنه أجاز بقية الناس). ووقع في حديث عبدالله بن سلام عند الحاكم: «ثم ينادي مناد أين محمد وأمه؟ فيقوم فتبعه أمته برّها وفاجرها فيأخذون الجسر، فيطمس الله أبصار أعدائه فيتهافتون من يمين وشمال، وينجو النبي والصالحون».

والمخردل - كما يقول ابن الأثير في النهاية - المرمي المصروع، وقيل: المقطع تقطعه كلاليب الصراط حتى يهوي في النار.

هذا: وقد آن أن نصحب رواية الترمذي وموضع الكلام على الصراط منها؛ ففي ذلك إن شاء الله، مزيد من تجلية المعنى المراد؛ فقد روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ثم يطلع عليهم رب العالمين فيقول: ألا يتبع كل إنسان ما كانوا يعبدونه فيمثل لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب التصاوير تصاويره، ولصاحب النار ناره، فيتبعون ما كانوا يعبدون، ويبقى المسلمون، فيطلع عليهم رب العالمين، فيقول: ألا تتبعون الناس؟ إلى أن يقول: «.. فيعرفهم نفسه ثم يقول: أنا ربكم فاتبعوني،

فيقوم المسلمون ، ويوضع الصراط ، فيمرون عليه مثل جياذ الخيل والركاب ، وقولهم عليه : سلّم سلّم . ويبقى أهل النار ، فيطرح منهم فيها فوجٌ ، ثم يقال : هل امتلأت ؟ فتقول : «هل من مزيد» ثم يطرح فيها فوجٌ ، فيقال : هل امتلأت ؟ فتقول : «هل من مزيد» ؟ حتى إذا أوعبوا فيها ، وضع الرحمن قدمه فيها ، وأزوى بعضها إلى بعض ، ثم قال : قط ، قالت : قط قط ؛ فإذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، قال : أتى بالموت ملبيّاً ، فيوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار ، ثم يقال : يا أهل الجنة ، فيطَّلعون خائفين ، ثم يقال : يا أهل النار ، فيطَّلعون مستبشرين يرجون الشفاعة ، فيقال لأهل الجنة ولأهل النار : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون - هؤلاء وهؤلاء - : قد عرفناه ، هو الموت الذي وكَّل بنا ، فيضجع « فيذبح ذبحاً على السور الذي بين الجنة والنار ، ثم يقال : يا أهل الجنة خلودٌ لا موت ، ويا أهل النار خلودٌ لا موت » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح... ومعنى قوله في الحديث : « فيعرّفهم نفسه » : يعني يتجلى لهم .

ولله الحمد في الأولى والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾

ما أحوج الإنسان ، أياً كان موقعه في هذه الحياة ، إلى مخالطة ما أخبر عنه النبي ﷺ - وهو الرحمة المهداة - من أمور يوم القيامة ، وما يصحب ذلك من مشاهد مروعة تدع الناس - إلا من رحم ربك - على حال لا تكاد توصف ، لشدة الهول وترقب المصير . فلقد كان ﷺ خير ناصح لأمته ، بل لبني الإنسان أجمعين ، من سبقه ومن لحقه ، عندما بشر وأنذر ، وكشف اللثام عما سيكون من سؤال القبر والنفخ في الصور ، والبعث بعد الموت ، والحشر والنشر ، والوقوف للمساءلة بين يدي رب العالمين ، ومن وضع الميزان ، وضرب الصراط بين ظهري جهنم .. ثم عما يؤول إليه أمر كل واحد من العباد ؛ من دخول الجنة ، أو القذف في النار ..

ذلك بأنه ﷺ جعل الناس - بصنيعة المبارك الميمون - على بينة من أمرهم ؛ يعقل من يعقل ، فيشغل النفس بتقوى الله والعمل الصالح ، ضمناً للزاد المناسب لتلك الرحلة ، فهو على ذكر مما يلزم لذلك ، يجتهد السّير ولا ينسى الله واليوم الآخر . ويصدّ عن الحق من يصدّ ؛ ترين على قلبه الضلالة ، وتلفّه بظلامها الغفلة عن الله ، ونسيان يوم الحساب ، وهنا ينقلب على عقبيه ظالماً نفسه ، ويحشر يوم القيامة أعمى ، تخطفه كلاليب الصراط وتلقي به في جهنم ، لا يبالي الله به في أي وادٍ هلك !!

والعهد قريب بنصوص من هدي خير العباد ، مؤذنة بأن كلاليب الصراط - وهو الجسر المضروب بين ظهري جهنم - تخطف الناس وهم يمرون عليه - على حسب منازلهم - والسعيد من أدركته رحمة الله ، فنجوا من ذلك الهول ، وكان من الفائزين . وقد بلغت النصوص في هذا المقام حدّاً عظيماً ، في بيان ما ينفع الأمة بيانه من شؤون هذا الجسر الذي يُجعل - بقدره الله تعالى - بين ظهري جهنم ، ولا

تسل عن الاختبار الصعب، الذي لا يعرف حاكماً ولا محكوماً هناك .

غير أن هنالك نصوصاً ، تحمل مزيداً من وصف ذلك الجسر ، يتجلى فيها المزيد من حرص النبي ﷺ على أمته ، أن ينالها ذلك الخطر المهول ، في حال المرور من فوقه - وقد اشتد الكرب ووجفت القلوب - . ففي باب ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ من كتاب التوحيد في الجامع الصحيح ؛ روى البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « قلنا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً ؟ قلنا : لا ، قال : فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون في رؤيتهما ، ثم قال : ينادي مناد ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبيهم ، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم ، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم . حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر ، وغُبرات من أهل الكتاب ، ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب ، فيقال لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد عزيزاً ابن الله ، فيقال : كذبتُم لم يكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟ قالوا : نريد أن تسقينا ، فيقال : اشربوا فيتساقطون في جهنم ، ثم يقال للنصارى : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال : كذبتُم لم تكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟ فيقولون : نريد أن تسقينا ، فيقال : اشربوا ، فيتساقطون ، حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر ، فيقال لهم : ما يحبسكم وقد ذهب الناس ؟ فيقولون : فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم . وإنا سمعنا منادياً ينادي : ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون وإنما ننتظر ربنا ، فيأتهم الجبار في صورة غير صورته التي رآه فيها أول مرة ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فلا يكلمه إلا الأنبياء ... إلى أن يقول : ثم يؤتى بالجسر ، فيُجعل بين ظهري جهنم قلنا : يا رسول الله وما الجسر ؟ قال : مذخضة مزلة ، عليه خطاطيف ، وكلايب ، وحسكة مفلطحة لها شوكة عُقيفاء تكون بنجد يقال لها : السعدان ، المؤمن عليها كالطرف ، وكالبرق ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ؛ فنادى مُسلم ، وناج

مخدوش ، ومكدوس في نار جهنم، حتي يَمَرَّ آخرهم ، يُسحبُ سحْباً ؛ فما أنتم بأشدَّ لي مناشدةً في الحق - قد تبين لكم - من المؤمن يومئذ للجبار .

وإذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم(*) ، يقولون : ربنا إخواننا الذين كانوا يصلون معنا ، ويصومون معنا ، ويعملون معنا ، فيقول الله تعالى : اذهبوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان ، فأخرجوه ، ويحرم الله صورهم على النار ، فيأتونهم - وبعضهم قد غاب في النار إلى قدميه ، وإلى أنصاف ساقيه - فيُخرجون من عرفوا ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فأخرجوه ، فيُخرجون من عرفوا ، قال أبوسعيد : فإن لم تصدقوني فاقروا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا ﴾ . فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون ، فيقول الجبار: بقيت شفاعتي ، فيقبض قبضة من النار ، فيخرج أقواماً قد امتحشوا، فيلقون في نهر بأفواه الجنة يقال له: ماء الحياة، فينبتون في حافيه كما تنبت الحبة في حmil السيل، قد رأيتموها إلى جانب الصخرة ، وإلى جانب الشجرة ، فما كان إلى الشمس منها، كان أخضر ، وما كان منها إلى الظل ، كان أبيض ، فيخرجون كأنهم اللؤلؤ ، فيجعل في رقابهم الخواتيم، فيدخلون الجنة » فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الرحمن ، أدخلهم بغير عمل عملوه ، ولا خير قدموه ، فيقال لهم : لكم ما رأيتم ومثله معه » .

هكذا يجيب النبي ﷺ من سأله عن الجسر الذي يجعل بين ظهري جهنم بقوله : «مدحضة مزلة » أي تزل فيه الأقدام وتزلق ، « عليه خطاطيف وكلايب » الخطاطيف : جمع حُطَاف . قال ابن الأثير في النهاية : وهو الحديد المعوجة كالكلوب يختطف بها الشيء يجمع على خطاطيف . ومنه حديث القيامة « فيه خطاطيف وكلايب » .

وكان مجيء اللفظين على هذه الصورة « لأن الكلايب جمع كلوب وهو حديدة معوجة الرأس أيضاً . وهذا من بلاغته الفذة عليه الصلاة والسلام ، لما أنه

(*) ولا يذر عن الكشمهني « وبقي إخوانهم » .

أراد أن يقرب المشهد ، بكل ما فيه من الهول والمخاطر المرتقبة ، كي يكون المؤمنون على المحجة البيضاء ، في إدراك ما سيكون ، ويعقدوا العزم على حسن التزود في العاجلة الفائية . لذلك اليوم . وفي الجسر مع الخطاطيف والكلاليب حسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء : أي ملتوية تكون بنجد يقال لها : السعدان .

هذا : وتحذر الإشارة هنا إلى أن الإمام الترمذي : بعد أن روى الحديث الجامع عن الرؤية ومخاطبة الرب عباده ، وتحليه للمؤمنين ، وعن الصراط وما يتعلق به ، وعن ذبح الموت وما إلى ذلك - وقد أوردت بعضه من قريب - بعد هذا : ذكر رحمه الله أنه حديث حسن صحيح ثم قال : وقد روي عن النبي ﷺ روايات كثيرة مثل هذا ، ما يذكر فيه أمر الرؤية أن الناس يرون ربهم ، وذكر القدم وما أشبه . والمذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة : مثل سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وابن المبارك ، وابن عينة ، ووكيع ، وغيرهم : أنهم رَوَوْا هذه الأشياء ، ثم قالوا : تُروى هذه الأحاديث ونؤمن بها ، ولا يقال : كيف ؟ وهذا الذي اختاره أهل الحديث ؛ أن تُروى هذه الأشياء كما جاءت ، ويؤمن بها ، ولا تُفسَّر ولا تُتوهم ، ولا يقال : كيف ؟ وهذا أمر أهل العلم الذي اختاروه وذهبوا إليه . ثم قال : ومعنى قوله في الحديث : « فيعرفهم نفسه » يعني : يتجلى لهم .

اللهم الطف بنا واجعلنا - بفضلك - عند المرور على الصراط من الناجين الفائزين ؛ فإنه لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، إنك أهل التقوى ، وأهل المغفرة ، والمحمود يا ربنا على كل حال .

هؤلاء عتقاء الله

في أعقاب القراءة النافعة إن شاء الله ، للحديث الجامع الذي رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه - وفيه ما يثير كوامن الإيمان بالغيب ، والرغبة الصادقة في معرفة المزيد عما تكون عليه حال الناس ، عند المرور على الجسر المضروب بين ظهري جهنم - تحسن القراءة المتأنية - بمشاركة العقل والقلب - لرواية أخرى له ففيها ما يطمئن قلب المؤمن ، ويزيد الأمر وضوحاً ، على طريق استجلاء المعاني وتبيين المراد . إذ جاء في تلك الرواية التي أخرجها رحمه الله في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه - بعد الكلام على أحقية رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى يوم القيامة - قول رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب ، إلا يتساقطون في النار ؛ حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغُبرِ أهل الكتاب - يعني بقاياهم - فيدعى اليهود ، فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد عُزيراً ابن الله فيقال : كذبتُم ، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فماذا تبغون ؟ قالوا : عطشنا ياربنا فأسقنا ، فيشار إليهم ألا تردون ؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً ، فيتساقطون في النار . ثم يدعى النصارى ، فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال لهم : كذبتُم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فيقال لهم : ماذا تبغون ؟ فيقولون : عطشنا ياربنا فأسقنا ، قال : فيشار إليهم ألا تردون ؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضه بعضاً ، فيتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من يعبد الله من بر وفاجر ، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى ، في أدنى صورة من الصور التي رآه فيها ، قال : فما تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، قالوا : ياربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ، ولم نصاحبهم ، فيقول : أنا ربكم ،

فيقولون : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً - مرتين أو ثلاثاً - حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب ، فيقول : هل بينكم وبينه آية ، فتعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم - فيكشف عن ساقٍ ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه ، إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة ، كلما أراد أن يسجد ، خرَّ على قفاه ، ثم يرفعون رؤوسهم ، وقد تحوّل في صورته التي رأوه فيها أول مرة ، فقال : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، ثم يضرب الجسر على جهنم ، وتحلّ الشفاعة ، ويقولون : اللهم سلّم سلّم ، قيل يا رسول الله ، وما الجسر؟ قال : دحض مَزَلَّةٌ ، فيه خطاطيف وكلاليب ، وحسك تكون بنجد ، فيها شوكة يقال لها : السعدان ، فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق ، وكالريح ، وكالطير ، وكأجاويد الخيل الركاب ، فناج مسلّم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس في نار جهنم؛ حتى إذا خلاص المؤمنون من النار ، فوالذي نفسي بيده ، ما منكم من أحد بأشدّ مناشدة لله في استقصاء الحق ، من المؤمنين لله ، لإخوانهم الذين في النار ، يقولون : ربّنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون ، فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم . فتحترّم صورهم على النار ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، قد أخذت النار إلى نصف ساقه ، وإلى ركبتيه ، ثم يقولون : ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول : ارجعوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير ، فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون : ربّنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا ، ثم يقول : ارجعوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير ، فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون : ربّنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحداً ، يقول : ارجعوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير ، فأخرجوه ، فيُخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون : ربّنا لم نذر فيها خيراً .

وكان أبوسعيد الخدري يقول : إن لم تصدقوني بهذا الحديث ، فأقرؤوا إن شئتم ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ فيقول الله عز وجل : شفعت الملائكة وشفع النبيون « وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار ، فيخرج منها قوماً لم يعملوا

خيراً قط ، قد عادوا مُحمّاً ، فيلقِيهم في نهر في أفواه الجنة ، يقال له نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحَبّة في حميل السيل ، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ، ما يكون إلى الشمس أصيفرُ وأخضرُ ، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيضُ ، فقالوا : يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية ، قال : فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم ، يعرفهم أهل الجنة ؛ هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة .
بغير عمل عملوه ، ولا خير قَدَموه ، ثم يقول : ادخلوا الجنة ، فما رأيتموه ، فهو لكم ، فيقولون ربّنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين ، فيقول : لكم عندي أفضل من هذا ، فيقولون : يا ربّنا أيُّ شيءٍ أفضل من هذا ؟ فيقول : رضاي ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

ولزيد من التوثيق الذي ينشده العلماء ، قال مسلم : قرأت على عيسى بن حمّاد زُغَبَة المصري هذا الحديث في الشفاعة وقلت : أحدث بهذا الحديث عنك أنك سمعت من الليث بن سعد ؟ فقال : نعم . قلت لعيسى بن حمّاد : أخبركم الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري أنه قال : قلنا : يا رسول الله أنرى ربنا؟ قال رسول الله ﷺ : هل تضارّون في رؤية الشمس إذا كان يومٌ صحوٌ ؟ قلنا : لا ، وسقت الحديث حتى انقضى آخره ، وهو نحو حديث حفص بن ميسرة ، وزاد بعد قوله : « بغير عمل عملوه ولا قدم قَدَموه » « فيقال لهم : لكم ما رأيتم ومثله معه » . قال أبو سعيد : بلغني أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف . وليس في حديث الليث « فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين » وما بعده ، فأقر به عيسى بن حماد .

جاء في وصف الجسر - وهو الصراط - أنه دحض مزلة أو مزلة بفتح اللام وكسرها والمراد : الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر - كما سبق - ويقال : دحضت الشمس أي مالت ، وحجة داحضة أي : لا ثبات لها . والله حسبنا ، وهو نعم الوكيل .

من نوقش الحساب هلك

من مشاهد اليوم الموعود التي كشفت عنها النصوص ، في حديث من لا ينطق عن الهوى - عليه الصلاة والسلام - والتي تدعو إلى كثير من العظة والتذكر، ومجانبة الغفلة ومسالك الغافلين ... من هذه المشاهد ، تلك التي تحمل إلى الأمة ما يكون من مناجاة الله العبد يوم القيامة - في عديد من الأحوال والصور - وما يكون من عَرْضَات ؛ عرضتان : جدال ومعاذير ، وعرضة تتطير عندها الصحف في الأيدي ؛ فأخذُ بيمينه ، وأخذُ بشماله . وحديث العَرْض - من حيث هو - حديث كما يقول الإمام الترمذي في جامعه - السنن - حديث صحيح حسن ، لكن حديث تعدد العَرْضَات للعلماء فيه مقال . غير أن جوهر القضية الكبرى ، القضية التي ينبغي أن لا يبارح المؤمنُ تمثُلها - وهو يكدح في هذه الحياة - أعني إتياء الكتاب باليمين ، أو بالشمال ، أو من وراء الظهر ؛ فهو من الأمور المنصوص عليها في الكتاب العزيز ، وصحيح السنة النبوية المطهرة - كما سبق - ، والله اللطيف المستعان . قال الترمذي : حدثنا سويد بن نصر قال : أخبرنا ابن المبارك عن عثمان بن الأسود عن ابن أبي مُليكة عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من نوقش الحساب هلك » قلت : يارسول الله إن الله تعالى يقول : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْتَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ . قال : ذلك العرض « قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح حسن . ورواه أيوب أيضاً عن ابن أبي مُليكة . وروى بسنده عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يُعرض الناس يوم القيامة ثلاثَ عَرْضَات ، فأما عَرْضَتَان : فجدالٌ ومعاذير ، وأما العرضة الثالثة : فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي ؛ فأخذُ بيمينه وأخذُ بشماله » . ورواه البعض عن الحسن عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، غير أن إسناده الحديث ضعيف لأن الحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة كما أنه لم يسمع من أبي موسى . لذلك قال أبو عيسى : ولا يصح هذا

الحديث من قَبْلَ أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة ، وقد رواه بعضهم عن علي الرفاعي عن الحسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ ، قال أبو عيسى : ولا يصح الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي موسى . وقد نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» كلام الترمذي هذا ثم قال : وهو عند ابن ماجة وأحمد من هذا الوجه ، مرفوعاً . وأخرجه البيهقي في «البيع» بسند حسن عن عبدالله بن مسعود موقوفاً .

هكذا يدفع الناس عن أنفسهم في المرة الأولى ، ويقولون : لم يُبلغنا الأنبياء ، ويحاجُّون الله تعالى - وهو ما عبَّر عنه بالجدال والمعاذير - وفي المرة الثانية يعترفون ويعتذرون ، بأن يقول كلُّ : فعلته سهواً وخطأً وجهلاً ، أو نحو ذلك - كما قال صاحب «المرقاة شرح المشكاة» - أما في المرة الثالثة : فتطير الصحف في الأيدي ؛ فمنهم آخذ بيمينه وهو من أهل السعادة ، ومنهم آخذ بشماله وهو من أهل الشقاوة « عافانا الله من ذلك ، وجعلنا ممن يؤتون كتبهم بأيامهم ، ويفوزون برضوان الله وما أعدَّ لعباده المتقين في جنات النعيم .

وهذه صورة أخرى ، من صور مناجاة الله للعبد يوم القيامة ، تحمل البشري بالمزيد من فضل الله ومغفرته لعبده المؤمن ، كما تحمل النذارة بما يؤول إليه أمر الكافرين والمنافقين ، حيث ينادى بهم على رؤوس الخلائق : ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ . وقد روى البخاري حديث هذه الصورة التي تحمل الوعد والوعيد ، في عدد من المواطن من كتابه «الجامع الصحيح» وجاءت إحدى تلك الروايات في كتاب المظالم «باب قول الله تعالى : ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾» . إذ قال رحمه الله : حدثنا موسى بن اسماعيل قال : حدثنا همام قال : حدثني قتادة عن صفوان بن مُحَرِّز المازني قال : « بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما ، آخذٌ بيده إذ عرض رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ في النجوى ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله يُدني المؤمن ، فيضعُ عليه كنفه ويستره فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أي رب .

حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه هلك ، قال : سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته . وأما الكافرون والمنافقون : فيقول الأَشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » .

والنجوى في الأصل : السرّ والمراد بها هنا - كما يقول ابن الأثير - مناجاة الله تعالى للبعد يوم القيامة ، وسياق الحديث يدل عليه . وكنف الله تعالى : ستره ورحمته ولطفه .

وللبخاري في رواية أخرى من طريق صفوان أيضاً « بينا ابن عمر يطوف إذ عرض رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن - أو قال يا ابن عمر - هل سمعت النبي ﷺ يقول في النجوى ؟ فقال : سمعت النبي ﷺ يقول : « يُدنى المؤمن من ربه - وقال هشام : يدنو المؤمن - حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه : تعرف ذنب كذا؟ يقول : أعرف ، يقول : رب أعرف (مرتين) فيقول : سترتها في الدنيا ، وأغفرها لك اليوم ، ثم تطوى صحيفة حسناته . وأما الآخرون - أو الكفار - : فينادى على رؤوس الأَشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم » .

هكذا تجدد الإيمان الصادق ، مع التذكر عندما يمسّ المؤمن طائف من الشيطان ، والاعتراف بالذنب بين يدي الله عز وجل ، كل أولئك يكون - بفضل الله - بريد أن يوضع هذا المؤمن - في تلك الساعات العصيات - في كنف الله ، يقربه ويغفر له ويرحمه . أما الكفار والمنافقون : فيجزون بما كسبوا من الكفر، والعناد وظلم النفس ، والعباد ، أن ينادى بهم على رؤوس الأَشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ، ويساقون إلى جهنم وبئس المهاد .

وتزداد الصورة وضوحاً يدعو إلى المزيد من العظة والاعتبار ، بما نرى من رواية مسلم ، حيث روى بسنده عن صفوان بن محرز قال : قال رجل لابن عمر : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى ؟ قال : سمعته يقول : « يُدنى المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل ، حتي يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه ، فيقول : هل

تعرف؟ فيقول :أي رب أعرف ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وإني
أغفرها لك اليوم ، فيعطى صحيفة حسناته . وأما الكفار والمنافقون : فينادى بهم
على رؤوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على الله .

اللهم ثبتنا على الإيمان « واسلك بنا طريق البررة الصادقين واحفظنا من شر
الوقوع في حاة المنافقين الكاذبين ، الذين يفتضح أمرهم على رؤوس الخلائق يوم
الدين .

البطاقة المنجية

كلما أطال المؤمن الاصطحاب المتبصر لحديث النبي عليه الصلاة والسلام « أكرمه الله بالمزيد من المعرفة التي تنير السبيل » وتعين على تجاوز الصعاب التي تعترض العمل الأخروي ؛ من داخل النفس ، أو من خارجها. أقول هذا ، على طريق المتابعة لصور آخر ، من مخاطبة العبد ربه في ساعات المساء ، المترعة بالخوف والترقب . وذلك في اليوم الذي ترى الناس ، وقد أحاطت بهم شدة الهول من كل مكان ، فلكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .

وفي ظل هذه الحقيقة ، نقف عند حديث - مر بنا نحوه في مناسبة أخرى ، من قبل - ينقل إلينا ضحك النبي ﷺ من مخاطبة العبد ربه « وما يؤول إليه الأمر من الختم على فيه ، ونطق أركانه التي أمرت بالنطق بالشهادة عليه ، ولا ينفعه أن يدعوا عليهن بقوله : بعداً لكن وسُحقاً » ذلكم ما روى مسلم بسنده عن الشعبي عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : هل تدرون مم أضحك ؟ قال : قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : من مخاطبة العبد ربه ، يقول : يارب ألم تُجْرني من الظلم ؟ قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فإني لا أجزى على نفسي إلا شاهداً مني قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتين شهوداً ! قال : فيختم على فيه « فيقال لأركانه : انطقي ، قال : فتنتطق بأعماله ، قال : ثم يخلئ بينه وبين الكلام » قال : فيقول : بعداً لكن وسُحقاً ، فعنكن كنت أناضل ..»

معنى أناضل : أجادل وأخاصم.

هكذا أعذر الرجل من نفسه ، حيث أزال الله عذره من قبل نفسه ، بكثرة ذنوبه وشهادة أعضائه عليه بحيث لم يبق له عذر يستند إليه ، وكانت شهادة

أعضائه استجابة لطلبه ، أن لا يظلم عندما قال : فإنني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني ، وتلك المخاطبة ، التي خاطب بها ذلك العبد المثقل بالأوزار وعماية القلب ربه ؛ هي التي أضحكت رسول الله ﷺ ، وفي ذلك تنبيه أي تنبيه ، على عدم الوقوع في شرك الغفلة التي تنسي العبد خالفه العليم الخبير وتنتهي به إلى ما انتهى إليه حال ذلك العبد ، الذي لقي الله على حال ، أودت به إلى شر عاقبة وأسوأ مصير .

ويا لله ما أعظم نعمة الإيمان ، وما أكرم المؤمن الصادق - الذي أضاء نور الشهادتين قلبه - على الله ، وما أحسن أن يقرّ المؤمن بذنبه « ويؤوب بالتوبة إلى مولاه .

ولننظر إلى أثر ذلك ، وما يؤول إليه مصير هذا العبد من عباد الله ؛ حيث المسألة بين يدي ربنا الرحيم الرحمن ؛ فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعين سجلاً ، كلُّ سجلٍ مثل مدِّ البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : أفلك عُذْرٌ ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول الله تعالى : بلى إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم اليوم ، فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : احضر وزنك ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : فإنك لا تظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ؛ فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ؛ ولا يثقل مع اسم الله شيء . » . أخرجه الترمذي بإسناد صحيح في كتاب الإيمان من الجامع - سنن الترمذي - باب « ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله » . واللفظ له وأخرجه أيضاً ابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم ، والبيهقي ، وغيرهم .

وفي رواية ابن ماجه شيء من التفصيل ، يزيد من وضوح هذه الصورة

المباركة، التي تتجلى فيها رحمة الخالق جلّ شأنه بعباده المؤمنين « وتعاظم زنة الكلمة الطيبة لا إله إلا الله محمد رسول الله . قال رحمه الله : حدثنا محمد بن يحيى قال حدثنا ابن أبي مريم قال : حدثنا الليث قال : حدثني عامر بن يحيى عن أبي عبد الرحمن الحبلي قال : سمعت عبد الله عمرو يقول : قال رسول الله ﷺ : « يُصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق » فينشر له تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل مدّ البصر ، ثم يقول الله عز وجل : هل تنكر من هذا شيئاً ؟ فيقول : لا ياربّ ، فيقول : أظلمت كتبتي الحافظون ؟ ثم يقول : ألك عن ذلك حسنة ؟ فيُهاب الرجل ، فيقول : لا ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسناتٍ ، وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قال : فيقول : ياربّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : إنك لا تُظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ...

معنى يُهاب : يوقع في هيبة . طاشت : ارتفعت لخفتها . والبطاقة : الرقعة الصغيرة . والسجل : الكتاب الذي كتبت فيه الأعمال ، يقال : سجّل القاضي : قضى وحكم ، وأثبت حكمه في السجل .

هذا : وما تجدر الإشارة إليه ، أن الغفلة عما جاء في الكتاب العزيز ، وفي هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، في شأن الارتباط التام بين العمل في الدنيا ، والمسؤولية بين يدي المولى عز وجل في الآخرة : مرض عضال يعاني منه كثير من المسلمين الذين أصبحوا يفكرون بعقول ، كأنها عقول من لا يؤمنون بيوم الحساب ، وقيسون الأمور بالمقاييس الماديّة ، والمنافع العاجلة ، التي لا تقيم كبير وزن ، لما جاء من نصوص كثيرة واضحة الدلالة في الكتاب والسنة ، حول هذا الموضوع الجلل ، وأنّى لهم العذر ، وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً الحرص كله ، على أن يبين للأمة ما يسلك بها سبيل النجاة ، يوم توضع الموازين القسط ليوم القيامة ، وتستعلن الحقيقة التي يحملها قول الله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره .

ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿!! فعن عائشة رضي الله عنها قالت : « جاء رجل فقعد بين يدي رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني ، وأشتمهم وأضربهم ؛ فكيف أنا منهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : إذا كان يوم القيامة ، يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم وبقدر ذنوبهم ، كان كفافاً لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم ، دون ذنوبهم ، كان فضلاً لك ، وإن كان عقابك إياهم ، فوق ذنوبهم ، اقتُصَّ لهم منك الفضل ، فتنحى الرجل وجعل يهتف ويكي ، فقال له رسول الله ﷺ : أما تقرأ قول الله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا نظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ فقال الرجل : يا رسول الله ما أجد لي وهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم ، أشهدك أنهم أحرارٌ كلهم . » أخرجه الترمذي وهو حديث حسن . وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن غزوان ، وقد روى أحمد بن حنبل عن عبدالرحمن بن غزوان هذا الحديث . وأخرج الحديث أيضاً ابن جرير الطبري في « تهذيبه » والبيهقي .

وصلاة الله وسلامه على من أدى الأمانة ، فأحسن الأداء ، وبلغ الرسالة ، فأحسن البلاغ ، وعلى آله الطيبين الأطهار ، وصحابته البررة الأخيار ، وكل من أحسن التأسّي والاتباع ، ورزق سلامة الفهم والانتفاع .

فِيْمُضَى إِلَى النَّارِ!!

ما أَشدَّ ما تحمل ساعات الهول يوم القيامة، من حصاد هو قاصمة الظهر، والطريقُ إلى سواء الجحيم، إنه حصاد ما عمل أولئك الذين لم يقدّموا خيراً، وكانوا لا يرجون لله وقاراً، ولا يرفعون بكلمة الهداية رأساً، اجتالهم الشياطين، وركبهم الهوى، ودرجوا على أن يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبشّ القرار ﴾ .

وهذا الذي نتحدث عنه « من تلك العاقبة وسوء المصير ، كان مما نبّه عليه نبينا محمد عليه الصلاة والسلام - وهو يبين عن الله ما جاء في شأن القيامة وأهوالها - فهذا إنسان يقفه الله بين يديه ، ويذكره نعمه عليه ، ويدّعي هو ويدّعي ، وفي خاتمة المطاف ، يُمضى به إلى النار ، لأنه خالي الوفاض من الخير ، فليس لديه أثارة من طاعة ، أو مخافة لله » تكون مفتاح نجاته من عذاب السعير .

جاء في كتاب القيامة من الجامع الصحيح - سنن الترمذي - قوله رحمه الله : حدثنا سعيد بن نصر قال : أخبرنا ابن المبارك قال : أخبرنا اسماعيل بن مسلم عن الحسن ، وقتادة عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يُجاء بابن آدم يوم القيامة كأنه بدّج ، فيوقف بين يدي الله » فيقول الله له : أعطيتك وخوّلتك وأنعمت عليك ، فماذا صنعت ؟ (فيقول : يارب جمعتُه وثمّرتُه » فتركته أكثر ما كان، فارجعني آتِك به ، فيقول له : أرني ما قدمت فيقول : يارب جمعتُه وثمّرتُه ، فتركته أكثر ما كان ، فارجعني آتِك به) فإذا عبْدٌ لم يقدم خيراً ، فيمضى به إلى النار » وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

البَدَج : ولد الضأن - كما مرَّ من قبل - وجمعه: بذجان بالكسر . وقال ابن

الأثير في «جامع الأصول»: البَدْج: كلمة فارسية تكلمت بها العرب وهو أضعف ما يكون من الحُمْلان. قال أبو عيسى: وقد روى هذا الحديث غير واحد عن الحسن قوله «لم يُسندوه»، وإسماعيل بن مسلم يضعّف في الحديث من قبل حفظه، وفي الباب عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري. ولكن هذا الحديث يشهد له ما كنا أوردنا من قبل وهو ما أخرج الترمذي بسنده أيضاً عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله له: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسخرت لك الأنعام والحراث، وتركك ترأس وتربيع؛ أفكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ قال: فيقول: لا، فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني» قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح غريب.

ومعنى قوله: «اليوم أنساك» يقول: اليوم أتركك في العذاب، هكذا فسّره. قال أبو عيسى: وقد فسّر بعض أهل العلم هذه الآية ﴿فاليوم ننساهم﴾ قالوا: إنما معناه: اليوم نتركهم في العذاب. ومعنى «ترأس»: يكون رئيس القوم، و «تربيع»: تأخذ رُبع الغنيمة كما كان في الجاهلية، والمعنى: ألم أجعلك رئيساً مطاعاً!

هذه الصورة المهولة، التي يشهد الخلائق من خلالها، عاقبة أولئك الذين نَضَبَتْ نفوسهم من الخير، واستحبُّوا العمى على الهدى، وتبعث في نفس العاقل ما تبعث من المخافة، والرغبة من سوء المصير... هذه الصورة، تقابلها صورة أخرى في مشاهد يوم الدين - وما أكثر مشاهد الخوف والرجاء يومذاك التي تحمل في طياتها آثار رحمة الله بعباده الذين ما زال في أعماقهم بقية باقية من ندى الخير والإعتراف بالذنب والتسليم لما يقضي به الله رب العالمين - وليست بعيدةً وقفننا مع ما روى الترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقي وغيرهم عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ من حديث ذلك الرجل من أمة محمد ﷺ، الذي يخلّصه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فبعد أن يُنْشَرَّ له

تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل مثل مد البصر ، فلا ينكر منها شيئاً ، ويعترف بأن الكتب الحافظين لم يظلموه ، يقول الله له : بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم اليوم ، فتخرج بطاقة فيها ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : أحضر وزنك ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : فإنك لا تظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفه ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شيء .

وإذا كانت النفحة المباركة تذكر بأختها : فهذه صورة أخرى ، يبذل الله فيها سيئات واحد من عباده ، حسنات . أخرج مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها . رجل يؤتى به يوم القيامة . فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها ، فيعرض عليه صغارها ، فيقول له : عملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ، وعملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر . وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال - له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة . فيقول : رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا » قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

أما بعد : فهذا بيان النبي عليه الصلاة والسلام الذي ترك الأمة على بيضاء نقية ليُلها كنهها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فطوبى لمن انتفع بهذا الهدى الكريم ، وعمل لما بعد الموت ، وكانت «مشاهد القيامة» من سلوكه في هذه الدار ، بحسبان .

المسؤولية الفردية يوم الدين

لعل من الإنصاف للحقيقة ، وحسن تقدير عمل العاملين : أن نشير إلى أن ساعات الهول، وشديد الخوف يوم الفزع الأكبر، وما تحمل مشاهد ذلك اليوم ، من صور تنخلع لها القلوب ، كل أولئك كان ملء سمع السلف الصالح وبصرهم؛ يذكرونه على أحوالهم كلها ، فيأخذهم ذلك إلى ساحة العمل، والاجتهاد في تقوى الله والعمل المبرور ، وشد الأيدي على هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، فيما أخبر به عن الداء والدواء ؛ ذلك بأنه ﷺ - كما أشرت غير مرة - لم يدع أن يبين لأمته « ما فيه الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، حين كشف القناع، عما سيكون يوم الحساب، وعن الطرائق التي تجنب - إذا سلكت - ويلات ما ينتظر الغافلين المعرضين ، لما أن هذا السلوك مجلبة - إن شاء الله - لفيض رحمته سبحانه وتعالى ، ولطفه بعبده التواب المنيب إليه .

من ذلك ما جاء عنه ﷺ ، من توجيهه إلى ملء ما قدر الله من الحقة الزمنية - التي هي عمر الإنسان - بالصالح من العمل ، ومحاولة حفظها من سيء العمل ، وبيان أن الخيرية في الأولى « وأن نقيضها في الثانية ؛ والعاقل من ذكر فتذكر .

وعلى هذا : يكون طول عمر المرء - مصحوباً بالتقوى وصالح العمل - سبيل النجاة بإذنه تعالى . والعكس بالعكس . نجد هذا فيما أخرج الترمذي وغيره - واللفظ للترمذي - عن عبدالله بن بسر « أن أعرابياً قال : يارسول الله من خير الناس؟ قال : من طال عُمره وحسن عمله » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وفي الباب عن أبي هريرة وجابر رضي الله عنهما . وله من رواية أخرى عن أبي بكر عن أبيه « أن رجلاً قال : يارسول الله أيُّ الناس خير ؟ قال : من طال عُمره وحسن عمله ، قال : فأَيُّ الناس شرٌّ ؟ قال : من طال عمره

وساء عمله « قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

إنه المعيار الدقيق الذي يبدو - وهو من نور النبوة - على نسب صحيح من بيان قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ والطريق التي لا طريق غيرها - بفضل الله وعونه - إلى النجاة يوم الحساب ، يوم ترى الناس سكارى - حيارى - من شدة الهول وعظم الترقب والتساؤل ، عما يكون المصير ، وما هم بسكارى - ما شربوا المسكر الذي يذهب بالعقل - ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ أجل ... ولكن عذاب الله شديد ، والعاقل كل العاقل من تبصر وتفكر وعمل في العاجلة على أن يتزوّد بخير الزاد للأجلة .

وما من ريب أيضاً ، في أن معيار الخيرية وما يقابلها ، وكون ذلك منوطاً بطول العمر مع حسن العمل - من هنا - وبطول العمر وسوء العمل - من هناك - .. ما من ريب في أن هذا ، على صادق النسب إلى بيانه ﷺ ، لما جاء من هدي كتاب الله العزيز على هذه الساحة - وما أكثر ذلك وأوفره - من مثل قول الله الرحيم الرحمن في سورة آل عمران ، بدءاً من الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ .

وأنت واجد في هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، منهجاً لا يرتفع إلى دقته وسموه إلا نبي يوحى إليه ، وهو منهج قوامه - على صعيد التذكير بالمسؤولية يوم يقوم الناس لرب العالمين - ربط واقع الإنسان المحدود وجوده على هذا الكوكب - وهو يمضي ما كتب له في دار الفناء من زمن يطول أو يقصر - بما سيكون يوم

الدين ، يوم تستعلن الحقيقة التي يغفل عنها الكثير من الناس في الدنيا ، أولئك الذين أسلموا لغير الله وجوهرهم ، وخضعت تصرفاتهم للشيطان ، والهوى والشهوات ، بدل أن تعنوا للحق القيوم الذي بيده ملكوت السماوات والأرض - تلك الحقيقة ، هي ما دل عليه يقيين قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وقفوههم إنهم مسؤولون ﴾ من المسؤولية الفردية : فكل فرد مسؤول بين يدي رب العالمين . يؤكد ذلك قوله سبحانه : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

أخرج البخاري في كتاب الأحكام « باب من شاق شاق الله عليه » من الجامع الصحيح من طريق أبي تيممة الهُجَيمِي قال : شهدت صفوان ، وجُنْدَباً وأصحابه ، وهو يوصيهم ، فقالوا : هل سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً ؟ قال : سمعته يقول : من سَمَعَ سَمَعَ الله به يوم القيامة ، قال : ومن شاق شقاً - أو شاقاً - الله عليه يوم القيامة ؟ قالوا : أوصنا ، فقال : إن أول ما يتن من الإنسان بطنه ، فمن استطاع أن لا يأكل إلا طيباً فليفعل ، ومن استطاع أن لا يُجال بينه وبين الجنة ، بملء كفٍ من دم أهرأه فليفعل .

صفوان : تابعي ثقة مشهود من أهل البصرة . وجُنْدَب : هو ابن عبد الله البجلي الصحابي المشهور ، وكان من أهل الكوفة ، ثم تحول إلى البصرة . وأصحابه : أي أصحاب صفوان .

أرأيت إلى هذا الارتباط !! من سَمَعَ هنا في الدنيا ، سَمَعَ الله به في يوم القيامة ، ومن شاق هنا في الدنيا ، شق الله عليه أو شاق الله عليه يوم القيامة . سَمَعَ فلان بفلان : إذا فضحه وأظهر عيباً كان يستره ، ومن فعل ذلك بالناس ، فإن الله يفعل به مثله ؛ بأن يهتكه ويكشف عيوبه للناس في الدنيا والآخرة .

قالوا : ويجوز أن يراد بالتسميع ، الرياء ؛ فالله يعاقب المرائي من جنس عمله ، فيظهر الى الناس ، أن غرضه طلب الرياء وأن عمله لم يكن خالصاً . ومن أدخل

المشقة على المؤمنين، فظلمهم وآذاهم ، أو شاقَّهم بالمخالفة ومفارقة الجماعة ، فإن الله يعاقبه على ذلك يوم القيامة ، كما في حديث عائشة الذي رواه مسلم من قوله ﷺ : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً ، فشقَّ عليهم » فاشقَّ عليه .

وفي آخر الحديث الأسبق : وعيد شديد على قتل المسلم بغير حق ، يوضحه ما روى الطبراني عن جندب قوله : « تعلمون أني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحولنَّ بين أحدكم وبين الجنة - وهو يراها - ملء كف دم من مسلم أهرقه بغير حلِّه » .

أهرقه : أراقه ؛ لأن الهاء في هَرَّاق بدلٌ من همزة أراق .

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وشرح صدورنا للعمل الذي يسلك بنا سبيل النجاة والفوز المين يوم الهول الأكبر، إنك وليُّ ذلك والقادر عليه .

وصلى الله وسلم وبارك على معلم الناس الخير ، الذي عمل على أن تصلح عاجلة العباد ، بما نبه عليه ، مما يكون في الآجلة من المساءلة والحساب . وعلى آله وصحابه ومن استمسك بستته إلى يوم الدين .

الظلم في الدنيا ظلّما ت في الآخرة

كان فيما رأينا من هدي النبي ﷺ ، على ساحة الكشف عما يكون يوم القيامة ، وما يلقي الناس من شذائد - وقد استبان ت بلا لبس حقيقة ﴿ وقفوه م إنهم مسؤولون ﴾ - أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان على المنهج الأقوم في بيانه للأمة ، عندما أوضح العلاقة بين حركة الحياة في سلوك المسلم ، وبين السؤال عن كل صغيرة وكبيرة يوم القيامة ، وفي ذلك ما فيه ، من بناء البواعث الذاتية ، على العمل الصالح ، والاستقامة على طاعة الله وتقواه ، في السر والعلن ، كائناً ما كان الثغر الذي أقام الله عليه المسلم في هذه الدار الفانية ، التي هي معبر للدار الباقية. وطوبى لمن كان على ذكر من هذه الحقيقة أبداً ، فلم يخضع لوساوس الغفلة ، ولا نسي الخالق الذي يعلم السر وأخفى ، ولا يوم الحساب . ونصوص الهدي النبوي التي سعدنا بالرحلة معها من قريب ، ليست للحصر ، بل تأخذ بأيدينا ، إلى نماذج مضيئة أخرى ، تزيد الأمر وضوحاً ، وتعين في تثبيت المستقيم على الطاعة ، وإيقاظ الغافل ، أن لو كان حريصاً على التذكر وانتهاج سبيل المبصرين : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ .

ها نحن أولاء أمام مشكلة كبرى - هي مشكلة الظلم - يطالعنا التوجيه المحمدي بالكشف عن واقع الصلة بينها ، وبين العقوبة المعدة للظالم في الآخرة ، فيرهب من الظلم ، ويبين بكثير من الوضوح والجلاء ، أنه ظلّما ت يوم القيامة . ولست بحاجة إلى التنبيه على ما تعنيه كلمة «الظلمات » في ذلك اليوم العصيب ، ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ ولكن لانور للمنافقين والظالمين والكافرين . ولندع للذهن أن يذهب كل مذهب في تفسير هذا العنوان وهو الظلمات لهؤلاء ، بينما نور البررة الأخيار يسعى بين أيديهم

وبأيامهم. أخرج مسلم عن جابر بن عبد الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » وأخرج البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «الظلم ظلمات يوم القيامة » وكلام الرسول ﷺ هذا كلام المبلغ عن الله عز وجل ، وطاعته ﷺ من طاعة الله ، « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

وامتحان المسلم في مقدار الامتثال والتنبه، كائن أبدأ في العمل بهدي المصطفى عليه الصلاة والسلام، فليس لمؤمن ولا مؤمنة خيرة فيما جاء عن الله ورسوله، أن يقول واحد منهم: أفعل أولاً أفعل .. فمقتضى الإيمان : أن يمثل المسلمون والمسلمات لما قضى الله ورسوله من الأمر ؛ ومما يناقض دعوى الإيمان: عدم الامتثال والاستسلام . قال الله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾ . ثم ماذا يفعل الغافلون والظالمون ؟ وهم على دعوى الإيمان مقيمون ؟ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ . من أجل هذا كان أهل البصيرة أحرص ما يكونون على صالح العمل ، وأن تستنير صحائفهم بالتقوى ومجانبة الظلم يوم تعرض الأعمال على الله تبارك وتعالى ، ويثير المخاوف في نفوسهم أيّ خسران يلحق بهم ، على ساحة العمل الأخرى .

من أمثلة ذلك - والأمثلة تكاد تعز على الحصر - ما يرى الناظر من خبر أسماء بنت عميس رضي الله عنها ، وخوفها من أن يكون الآخرون سبقوها بالهجرة حقاً ، وأنهم أحق برسول الله ﷺ ، ثم فرحها وفرح كل الذين هاجروا من اليمن ، وألقتهم السفينة في الحبشة ، وعادوا مع جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، حيث وافوا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر ، فأسهم لهم . روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن ، فخرجنا

مهاجرين إليه ، أنا وأخوان لي ، أنا أصغرهم ، أحدهما أبو بردة ، والآخر : أبو رهم - إما قال : في بضعة وإما قال : في ثلاثة وخمسين ، أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي - قال : فركبنا سفينة ، فآلقنا سفيتنا إلى النجاشي بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده ، فقال جعفر : إن رسول الله ﷺ بعثنا ها هنا ، وأمرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا ، قال : فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً . قال : فوافقنا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر ، فأسهم لنا - أو قال : فأعطانا منها - وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً ، إلا لمن شهد معه ، إلا لأصحاب سفيتنا مع جعفر وأصحابه ، قسم لهم معهم ، قال : فكان ناس من الناس يقولون لنا - يعني لأهل السفينة - : سبقناكم بالمهجرة ، قال : فدخلت أسماء بنت عميس - وهي ممن قدم معنا - على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة ، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر إليه ، فدخل عمر على حفصة ، وأسأء عندها ، فقال عمر حين رأى أسأء : من هذه ؟ قالت : أسأء بنت عميس . فقال عمر : آحبشية هذه ؟ آبحرية هذه ؟ فقالت أسأء : نعم ، فقال عمر : سبقناكم بالمهجرة فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم ، فغضبت ، وقالت كلمة : يا عمر ، كلا والله ، كتتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم ، وكنا في دار - أو في أرض - البُعءاء البُعءاء في الحبشة ، وذلك في الله وفي رسوله ، وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً ، حتى أذكر ما قلت لرسول الله ، ونحن كنا نؤذى ونخاف ، وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ وأسأله ، ووالله لا أكذب ولا أزيغ ، ولا أزيد على ذلك ، قال : فلما جاء النبي ﷺ قالت : يانبي الله ، إن عمر قال كذا وكذا ، فقال رسول الله ﷺ : ليس بأحق بي منكم ، وله لأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم - أهل السفينة - هجرتان .

قالت : فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالاً ، يسألوني عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم رسول الله ﷺ .

قال أبو بردة : فقالت لي أسأء : فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني .

وفي كلام موصول بقوله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة» ظلماته : مخازٍ وفضائح على رؤوس الأشهاد ، وسوقٌ إلى جهنم وبئس المهاد.. أين هذا الذي نرى في حديث أسماء بنت عُميس رضي الله عنها ، من عدل النبي ﷺ ، حين أعطى لكل ذي حق حقه في شأن الهجرة ، ومن امثال عمر ، ورغبة أسماء في أن لا تُحرم شيئاً من ثواب الهجرة وما لها من ضياءٍ في تاريخ الإسلام!!.. أين هذا ، من سلوكٍ ظالم يُعقِب ظلمات الخزي ، والندامة يوم القيامة!! وليس بنافع الظالمين اعتذارهم القميء عما أجرموا في الدنيا ، وتعسفوا في استعمال الحق عندما كانوا من ذوي السلطان ، ولا هم يُرجعون إلى الدنيا ، ليعملوا غير الذي عملوا هناك من قباحت - كما يزعمون -!! ذلك قوله جلّ ثناؤه في سورة الروم : ﴿ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يُستغثون ﴾ .

ولقد كان من فقه الإمام البخاري يرحمه الله ، ما يُرى في عدد من تراجم أبواب (كتاب المظالم) في الجامع الصحيح عنده « من توثيق العلاقة ، بين ظلم الظالم في الدنيا ، وعقابة الصارم - على ساحة المسؤولية - يوم الحساب ، وما تكون عليه حاله المهينة والناس قيام ينظرون ؛ فتحت قوله : (كتاب المظالم) جاء قوله : « في المظنة والغضب وقول الله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعي رؤوسهم ﴾ : رافعي رؤوسهم . المقنعُ والمقمحُ واحد »

المهطع : الذي ينظر في ذلّة وخشوع لا يقطع بصره « ومقنعي رؤوسهم : رافعيها ليعودوا فيطأطئوها.. وهكذا.

ونقرأ تحت «باب قصاص المظالم» « قال مجاهد : «مهطعين» مُديمي النظر. وقال غيره : مسرعين لا يرتدُّ إليهم طرفهم. ﴿ وأفندتهم هواء ﴾ يعني جُوفاً لاعتقوله هم. ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ، ألم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال.

وسكتتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم
الأمثال ﴿ ٥٠ ﴾ .

وياويح الظالمين الذين يهون عليهم أن يُلغوا - بتصرفهم - إنسانية الإنسان ،
وحقوقه ، وما كرمه به ، غافلين أو متغافلين عن حقيقة أن « الظلم ظلمات يوم
القيامة » وأن « دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب » ؛ فإذا غفلوا هم
وزبانيتهم ، فإن الله - الذي حرّم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرماً - لا
يغفل سبحانه . وما أكثر النصوص في ذلك !! جاء في حديث أخرجه أحمد من
رواية عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة .. كان منها
في قوله ﷺ : « وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً : فظُلْمُ العباد بعضهم
بعضاً ؛ القصاص لا محالة » [المسند: ٦ / ٢٤٠] .

اللهم انصر عبادك المستضعفين . وأهلك أعداءك الظالمين الجاحدين ، أنت
الناصر وأنت المعين « ولا حول ولا قوة إلا بك يا ذا الجلال والإكرام .

الشفاعة العظمى

عندما تذكر الأمور العظام، التي تزخر بها مشاهد القيامة - حيث الشدة الشادة تضرب بجرائها على الخلائق - ما بدّ من أن يذكر معها، ما أعطى الله نبينا محمداً ﷺ من الخصائص - ومنها الشفاعة العظمى - في شأن القضاء بين العباد، وإراحتهم من هول الموقف، وشدائده المذهلة، حيث يجد الناس أجمعون، أنهم بأمس الحاجة إليه ﷺ، ليخرجهم من المأزق المطبق عليهم بأثقاله ومصاعبه، ولا يجدون بعد رحلة طويلة، طلباً للخلاص ولو إلى الجحيم... لا يجدون غيره صلوات الله وسلامه عليه، شافعاً بين الأنبياء والرسل عليهم السلام، يحقق لهم عند مالك يوم الدين جل شأنه ما هم متطلعون إليه، من القضاء بين العباد، لينفضوا إلى المساءلة، ومن بعدها إلى ما يكون من المصير هذا إلى جانب ما أعطي صلى الله وسلم وبارك عليه من الشفاعة لأمته، على حسب المنازل، وما يتطلع إليه أولئك الذين تحفق قلوبهم طلباً للنجاة، أو التخفيف من نتائج المساءلة بين يدي رب العالمين.

أخرج الإمام البخاري في كتاب التيمم من الجامع الصحيح بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر» وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس عامة» وفي رواية أخرى له عن جابر رضي الله عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس كافة، وأعطيت

الشفاعة». قال ابن دقيق العيد - كما نقل عنه الحافظ ابن حجر -: (الأقرب في كلمة الشفاعة - هنا - أن اللام فيها للعهد ، والمراد الشفاعة العظمى في إراحة الناس من هول الموقف ، ولا خلاف في وقوعها) وكذا جزم النووي وغيره . أما الشفاعة الخاصة بأمته عليه الصلاة والسلام على حسب المنازل - وهي مصداق كونه الرؤوف الرحيم بالمؤمنين - فقد جاء النص عليها في عدد وافر من الأحاديث ، وفي بعض تلك الأحاديث : أنه صلوات الله وسلامه عليه ، اختبأ دعوته المستجابة شفاعةً لأمته يوم القيامة ، قال الإمام البخاري : حدثنا إسماعيل قال : حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها ، وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعةً لأمتي في الآخرة » وأخرج مسلم بسنده عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها ، فيستجاب له فيوثاقها ، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة » ورواه مالك في « الموطأ » .

وجاء ما يعطي مزيداً من الوثوق بهذا ، في رواية أخرى عند البخاري ومسلم ، وهي أن أبا هريرة رضي الله عنه قال لكعب الأحبار : إن نبي الله ﷺ قال : « لكل نبي دعوة يدعوها ، فأنا أريد إن شاء الله أن أختبئ دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة ، فقال كعب لأبي هريرة : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال نعم » .

ونفع في بعض تلك النصوص المباركة ، على أن الشفاعة نائلة - إن شاء الله - من مات من هذه الأمة المحمدية ، على التوحيد الخالص - فهو لا يشرك بالله شيئاً ، ولا يدعو من دونه أحداً - الأمر الذي يوجب المزيد من العناية بأمر الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » التي عليها مدار الإسلام وأخذ الحذر من كل ما يحفوها ، أو يسير بالمسلم على خلاف ما تقتضيه ، كي لا يقع في شيء من الشرك الأصغر - وما أكثر الدواعي الشيطانية إليه - فضلاً عن الوقوع في الشرك الأكبر ؛ فالذين تهفو قلوبهم إلى شفاعة المصطفى عليه السلام ، ما بدؤوا من أن

يدخلوا من هذا الباب المشرق الوضاء. قال الإمام مسلم : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبه وأبو كريب واللفظ لأبي كريب قالاً : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإنّي اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله ، من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً » وأخرجه الترمذي بنحوه .

ومما يجدر ذكره : أن سلامة القاعدة بالنسبة للمسلم - وهي أن يلقي الله وهو لا يشرك به سبحانه شيئاً - عنوان خيرية في تلكم الساعات ، التي يكون العبد فيها أحوج ما يكون إلى نفحة من نفحات الرحمة الربانية ، تدفعه إلى أن يكون في زمرة الناجين ؛ فمما جاء في شأن الشفاعة أيضاً ، وأنها لأهل الكبائر من أمته عليه الصلاة والسلام : ما روى أبوداود في كتاب السنة من « السنن » عن أشعث الحُدّاني عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » قال المنذري : وأخرجه البخاري في « التاريخ الكبير » بالإسناد الذي أخرجه أبوداود . وأخرج الترمذي بسنده عن معمر عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وفي الباب عن جابر . ثم روى بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » قال محمد بن علي : فقال لي جابر : يا محمد ، ومن لم يكن من أهل الكبائر ، فما له وللشفاعة ؟ قال أبو عيسى : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، يستغرب من حديث جعفر ابن محمد .

هذا ، وجاء الحديث برواية أخرى فيها التأكيد بـ (إن) ، والنص على يوم القيامة ؛ فقد أخرج ابن ماجة بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن شفاعتي يوم

القيامة لأهل الكبائر من أمتي » .

وإلى أن نلتقي على متابعة ما ورد من تفصيل ما يحدث بين يدي الشفاعة العظمى والشفاعة الخاصة : أود التذكير بدءاً بنفسي ، بحقيقة أن الطريق إلى رحمة الله يوم الحساب ، والتكرمة بشفاعة نبينا المصطفى خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام : إخلاص الدين لله ، وتزكية النفس . لتكون طيعة السلوك وفق مقتضيات الإيمان ، ثم صدق توجه العبد لله - الذي لا ربَّ غيره ، ولا خير إلا خيره - أن يتغمده برحمته ، ويجعله ممن تنالهم شفاعة المصطفى عليه الصلاة والسلام .

والفضل أولاً وآخرأ له سبحانه ، ولكن على المؤمن أن يأخذ بأسباب النجاة من النار والفوز بالجنة ، امثالاً لأمر الله ورسوله بذلك ، وإنه لأمرٌ من مقتضيات أهلية التكليف ، بعد نعمة الإيمان .

.. واشفع تشفع

دلالة ما نطقت به صحاح الأحاديث، في شأن ما حُصَّ به النبي ﷺ من الشفاعة العظمى، دلالة سامية عميقة، تعبّر عن جانب مما أكرم الله به نبيه ﷺ من عظيم القدر والشرف؛ ذلك لأنها شفاعة، تأخذ طابع العموم لجميع الخلائق المحشورين في الموقف، إلى ربهم يوم الدين، أن يريحهم الله من أهوال الموقف، ويقضي بينهم؛ فهي شفاعة للقضاء والفصل بين العباد كلهم، دونما تمييز. ولك أن تتصور بشاقب ذهنك وفكرك، أيّ منجاة يصيرون إليها بعد شفاعته عليه الصلاة والسلام؛ ولذلك كانت الشفاعة العظمى. وقد أكرمه الله — والأمة من ورائه — بالدعوة المستجابة التي اختبأها شفاعة لأمته في ذلك اليوم من الدين.

والحق أن الشفاعة العظمى — وهي من المكارم التي خصه الله بها — وكانت عظمى، لما أنها تتعلق بالخلائق عموماً — كما سلف — لا بالأمة المحمدية على وجه الخصوص — هذه الشفاعة ثبت في السنة تفصيل القول فيها، وفي المقدمات التي تسبقها، حيث يلجأ العباد إلى عدد من الرسل عليهم الصلاة والسلام، كي يكونوا شفعاءهم عند الله، من أجل فصل القضاء، يدفعهم إلى ذلك رغبة الخلاص من ساعات الكرب الشديد المرهق، وإهم المطبق على صدورهم، والضيق الحرج الذي لا يجدون منه فكاً، أجل يدفعهم إلى ذلك: رغبة الخلاص من هذا الذي هم فيه؛ ولكن الرسل يعتذرون، وتظل رغبة الفصل في القضاء بين الخلائق قائمة، ويستجيب رسول الله ﷺ، فيشفع ويشفع ويتحقق — بإكرام الله — المطلب العام الجلل. وما رأيناه من قبل في هذا الشأن قليل من كثير. وقال البخاري: حدثنا سليمان بن حرب قال: حدثنا حماد بن زيد قال: حدثنا معبد بن هلال العنزي قال: اجتمعنا ناس من أهل البصرة، فذهبنا إلى أنس بن مالك، وذهبنا معنا ب ثابت البناني إليه يسأله عن حديث الشفاعة، فإذا هو في

قصره ، فوافقناه يصلي الضحى ، فاستأذننا فأذن لنا — وهو قاعد على فراشه — فقلنا
لثابت: لا تسأله عن شيء أدلّ من حديث الشفاعة ، فقال : يا أبا حمزة هؤلاء
إخوانك من أهل البصرة جاؤوك يسألون عن حديث الشفاعة فقال : حدثنا محمد
ﷺ : إذا كان يوم القيامة ماج الناس في بعض ، فيأتون آدم فيقولون : اشفع لنا إلى
ربك فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بإبراهيم ، فإنه خليل الرحمن ، فيأتون
إبراهيم فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بموسى ، فإنه كليم الله ، فيأتون موسى ،
فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بعبسى ، فإنه روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى ،
فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بمحمد ﷺ ، فيأتونني فأقول : أنا لها ، فاستأذن
على ربي « فيؤذن لي ويلهمني محامداً أحمده بها لا تحضرنى الآن ، فأحمده بتلك
المحامد ، وأخرّ له ساجداً ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك » وسل
تُعط ، واشفع تُشَفَّع ، فأقول : يارب أمّتي أمّتي ، فيقال : انطلق فأخرج منها من
كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان ؛ فأنطلق فأفعل ، ثم أعود فأحمده بتلك
المحامد ، ثم أخرّ له ساجداً ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل
تُعط « واشفع تُشَفَّع » فأقول : يارب أمّتي أمّتي ، فيقال : انطلق فأخرج منها من كان
في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان ، فأنطلق فأفعل « ثم أعود فأحمده بتلك
المحامد ، ثم أخرّ ساجداً ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك » وسل
تُعط واشفع تُشَفَّع ، فأقول : يارب أمّتي أمّتي ، فيقول : انطلق فأخرج من كان في
قلبه أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار ، فأنطلق ،
فأفعل ».

يقول راوي الحديث عن أنس: فلما خرجنا من عند أنس قلت لبعض
أصحابنا: لو مررنا بالحسن ، وهو متوارٍ في منزل أبي خليفة ، فحدثنا بما حدثنا
أنس بن مالك ، فأتيناه فسلمنا عليه ، فأذن لنا ، فقلنا له : يا أبا سعيد جئناك من
عند أخيك أنس بن مالك ، فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة ، فقال : هيه ،
فحدثناه بالحديث ، فانتهى إلى هذا الموضع فقال : هيه ، فقلنا: لم يزد على هذا ،
فقال: لقد حدثني وهو جميع منذ عشرين سنة، فلا أدري أنسي، أم كره أن

تتكلوا ، فقلنا يا أباسعيد ، فحدثناه ، فضحك وقال : خُلِقَ الإنسان عجولاً ، ما ذكرته إلا وأنا أريد أحدثكم . حدثني كما حدثكم به ، قال : « ثم أعود الرابعة ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخزُّ له ساجداً ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يُسمع ، وسل تُعطَ ، واشفع تُشفَّع ، فأقول : يارب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله ، فيقول : وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي ، لأخرجنَّ منها من قال : لا إله إلا الله » .

وأخرج هذا الحديث أيضاً من رواية أنس رضي الله عنه مسلم في صحيحه ، ولفظه في آخر الرواية قال - أي الحسن - : قد حدثنا به منذ عشرين سنة وهو يومئذ جميع ، ولقد ترك شيئاً ما أدري أنسي الشيخ ، أو كره أن يحدثكم فتتكلوا . قلنا له : حدثنا ، فضحك وقال : خُلِقَ الإنسان من عجل ، ما ذكرت لكم هذا ، إلا وأنا أريد أن أحدثكموه . « ثم أرجع إلى ربي في الرابعة ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخزُّ له ساجداً فيقال لي : يا محمد ارفع رأسك وقل يُسمع لك ، وسل تُعطَ ، واشفع تُشفَّع ، فأقول : يارب ائذن لي فيمن قال : لا إله إلا الله . قال : ليس ذاك لك - أو قال : ليس ذاك إليك - ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي » لأخرجن من قال لا إله إلا الله » قال - أي معبد بن هلال العنزري راوي الحديث عن أنس - فأشهد على الحسن أنه حدثنا به أنه سمع أنس بن مالك ، - أراه قال : قبل عشرين سنة وهو يومئذ جميع - .

قوله عز وجل : « وجبريائي » فهو بكسر الجيم : أي عظمتي وسلطاني وقهري . قال الإمام النووي وأما قوله : فأشهد على الحسن أنه حدثنا به .. إلى آخره ، فإنما ذكره تأكيداً ومبالغة في تحقيقه وتقريره في نفس المخاطب ، والإفقد سبق هذا في أول الكلام والله أعلم .

هذا : والذي عليه المحققون أن ما ذكر من تلکم الشفاعة للأمة ، يكون بعد الشفاعة في فصل القضاء ، وهو ما كان يرجوه العباد ، وانتهاوا بطلبه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام . ونسأله تعالى أن يكتبنا في زمرة من تنالهم شفاعته - صلوات الله وسلامه - يوم الحساب .

المقام المحمود.. وفصل القضاء

الناظر في نصوص السنة الواردة في شأن الشفاعة العظمى، يوم الحشر الأكبر، تلك المكرمة التي خُصَّ بها نبينا محمد عليه الصلاة والسلام - فيما خصه الله به من المكارم - لا يجد عند الإحاطة بدأً من اعتقاد أن ذلك ، سوف يكون من المشاهد المؤثرة المبشرة ، التي تفرح نفوس المؤمنين ، وتدخل المزيد من الطمأنينة إلى قلوبهم ، ويفترض أن يُسرَّ بها كل امرئ ، أوتي قدراً من الإنصاف والعقل السليم ؛ ذلك بأن هذه الخصوصية في حقيقتها : إكرام اخلائق بالفصل في القضاء يوم الدين - وقد شفع لهم خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام - بعد اشتداد الكرب وتفاقم الخطب ، وتمنيهم - لشدة ما هم فيه من الحزن والحزن - الانصراف ولو إلى النار .

ومع الخطوة الأولى ، لتبيّن الحجم الذي تأخذه هذه القضية ، كان اصطحاب واحدة من روايات الإمام البخاري - من قريب - وفيها الإشارة إلى أن الشفاعة العظمى : إحدى عدد من الخصائص التي أكرم بها النبي عليه الصلاة والسلام ، دون رسل الله جميعاً ؛ فكل من سئل الشفاعة من الأنبياء - بدءاً بآدم وانتهاءً بعيسى عليهم الصلاة والسلام - صدر منه الاعتذار . وتبلغ الشدة مبلغها في الناس ، ويطبق عليهم الغم القاتل من كل مكان ، فيأتون رسول الله صلى الله وسلم وبارك عليه ، فيقول : أنا لها ، ويكون ما يكون من إكرام الله له ، والاستجابة لشفاعته .

والذي تجدر الإشارة إليه : أن هذه الشفاعة العظمى ، عند أكثر العلماء : المقام المحمود الذي جاء التصريح به في القرآن الكريم ، وذلك بقوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر

كان مشهوداً. ومن الليل فتعجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴿
و «عسى» في كتاب الله للتحقق، لا للترجي شأن الأفعال التي على هذه الشاكلة
كلها. قال الإمام الطبري : (عسى ولعل من الله واجبة). فالمقام المحمود -
بفضل الله - حاصل يومذاك لسيدنا محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام .
أخرج الترمذي في كتاب التفسير من الجامع الصحيح « سنن الترمذي » عن داود
بن يزيد الزُّغافري عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في
قوله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ سئل عنها قال : « هي
الشفاعة » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن ، وداود الزُّغافري هو داود الأزدي
ابن يزيد بن عبدالله ، وهو عم عبدالله بن إدريس . وأخرجه أحمد في المسند . وقال
الإمام البخاري : حدثنا إسماعيل بن أبان قال : حدثنا أبو الأحوص عن آدم بن
علي قال : سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول : « إن الناس يصيرون يوم القيامة
جُثّاً ، كلُّ أمة تتبع نبيها ، يقولون : يا فلان اشفع ، حتي تنتهي الشفاعة إلى النبي
ﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود » . وهذا واضح - كما ترى - في تفسير ابن
عمر رضي الله عنهما للشفاعة العظمى بالمتقام المحمود ، الذي ورد ذكره في قوله
تعالى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً
محموداً ﴾ .

الجُثّا : جمع جُثوة - بالضم - كخطا وخطوة : الشيء المجموع . قال ابن الأثير
في « النهاية في غريب الحديث » (ومنه حديث ابن عمر رضي الله عنهما : إن
الناس يصيرون يوم القيامة جُثّاً كل أمة تتبع نبيها » أي جماعة . فيكون المعنى :
يصيرون جماعات كل جماعة تتبع نبيها . وحكى - رحمه الله - أن هذه اللفظة وردت
« جُثِّي » بتشديد الياء جمع جاثٍ ، وهو الذي يجلس على ركبته .

هذا : وقد جاء في بعض الروايات ما يؤكد أن الشفاعة العظمى - وهي المقام
المحمود - إنها تكون ليقضى بين الخلق - كما سبق - . من ذلك ما روى البخاري
عن عبيد الله بن أبي جعفر أنه قال : سمعت حمزة بن عبدالله بن عمر رضي الله

عنهما قال : قال النبي ﷺ : « ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ، وليس في وجهه مُزعة لحم ، وقال : إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن ؛ فبينما هم كذلك ، استغاثوا بآدم ، ثم بموسى ، ثم بمحمد ﷺ ، وزاد عبدالله : حدثني الليث قال : حدثني ابن أبي جعفر « فيشفع ليقضى بين الخلق ، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب ، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً ، يحمده أهل الجمع كلهم » .

هكذا يأخذ النبي ﷺ بحلقة باب الجنة ، ويظهر فضله على سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، بما يعطى من ذلك المقام العظيم الذي يحمده أهل الجمع كلهم . قال الحافظ في « فتح الباري » : (والمقام المحمود هو الشفاعة العظمى ، التي اختص بها ، وهي إراحة أهل الموقف من أهوال القضاء بينهم ، والفراغ من حسابهم . والمراد بأهل الجمع : أهل الحشر ، لأنه يوم يجمع فيه الناس كلهم) .

من هنا نجد أنه ، لما كان هذا المقام مقام الشفاعة لفصل القضاء ، وإراحة أهل الموقف - على اختلاف مللهم ونحلهم - من تلكم الأهوال ، أهوال القضاء بينهم ، ومعرفة المصير بعد الحساب ... كان مقاماً محموداً يحمده فيه النبي ﷺ الخلائق جميعهم « وهو ما ذهب إليه الأكثرون الذين اتجهوا إلى أن معنى قوله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ افعّل الذي أمرتك به من إقامة الفرائض في أوقاتها ، والتهجد بالليل ، لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً ، يحمذك فيه الخلائق كلهم ، وخالقهم تبارك وتعالى .

وتجدر الإشارة إلى أن شيخ المفسرين الإمام الطبري - بعد أن قرر أن أكثر أهل التأويل ، على أن المقام المحمود ، هو الذي يقوم به يوم القيامة للشفاعة للناس ، ليرحمهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم ... - أورد بسنده عدداً من الآثار التي تؤيد ما ذهب إليه . من ذلك ما روى عن ابن عباس رضي

الله عنهما قوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ قال : المقام المحمود : مقام الشفاعة، كما روى عن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ قال : المقام المحمود : مقام الشفاعة يوم القيامة . وروى مثل ذلك عن مجاهد ولكن بلفظ : شفاعة محمد يوم القيامة . وقال رحمه الله : حدثنا عبد الرحمن قال : حدثنا سفيان عن أبي إسحاق عن صلة بن زفر عن حذيفة رضي الله عنه قال : « يُجمع الناس في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر حفاةً عراةً كما خلقوا ، قياماً لا تكَلِّمُ نفس إلا بإذنه ، ينادى يا محمد فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك ، والشر ليس إليك ، والمهديُّ من هديت ، عبدك بين يديك ، وبك وإليك ، ولا منجا منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت، فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله تعالى » .

وأنت ترى أن الحاجة إلى النظر في مزيد من النصوص، قائمة، بغية استجلاء أوفر لهذه المكرمة التي اختص الله بها محمداً عليه الصلاة والسلام وما يتعلق بها. والله أرجو أن يكون لنا من هدي النبي ﷺ في هذا الأمر العظيم ، ما يزين القلوب بالخشية من يوم الحساب ، ويحفز على سلوك الطريق الأقوم التي تجعل صاحبها أهلاً لنيل شفاعة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام والفوز بالجنة ، والنجاة من عذاب السعير .

المقام المجهود.. وثمره الدعاء بالوسيلة

في متابعة للكلام على واحد من أعظم مشاهد القيامة ، وهو مشهد الشفاعة العظمى من النبي ﷺ للناس ، من أجل فصل القضاء بين الخلائق .. يبدو من الضرورة بمكان ، أن يتخذ المسلمون من ذلك ، باعثاً على المزيد من اليقين بعظمة قدر المصطفى صلوات الله وسلامه عليه عند الله ، وما يقتضي ذلك ، من محاسبة النفوس على التقصير في جنب الله ، وفي حسن التأسي به صلوات الله وسلامه عليه ؛ فليس من الإنصاف في شيء ، زعمُ التقدير الكامل ، والمحبة الصادقة للنبي عليه الصلاة والسلام ، ثم المجافاة عن سنته « ومظاهرة أعداء الله على شريعته. إن مشهد الشفاعة العظمى يوم الدين ، جدير بالكثير من التأمل المبصر ، الذي يدفع إلى العمل ، ويحرك العزائم ، ويوقظ الهمم ، إلى ما فيه استئناف طريق الخير ، والتحويلُ الصادق للسلوك ، كيما يتسق مع الذي هدى إليه صاحب هذه الشفاعة التي خصه الله بها تعظيماً لقدره عليه الصلاة والسلام .

وهنا لا بد من استذكار ما قاله المحققون من العلماء : من أن الشفاعة العظمى ، هي المقام المحمود الذي ورد ذكره في سورة الإسراء . وهذا يرشد إلى ما روى النسائي بإسناد صحيح من حديث حذيفة رضي الله عنه قال : « يجتمع الناس في صعيد واحد ، فأول مدعو محمد ، فيقول : لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك ، المهدي من هديت ، عبدك وابن عبدك ، وبك وإليك ، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت » فهذا قوله : « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » وصححه الحاكم . ومن الواضح أن هذا تفسير من حذيفة رضي الله عنه للمقام المحمود الذي اختص الله به نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام ، في ذلك اليوم الذي تشخص فيه الأبصار ، وتبلغ الشدة فيه أن تضع كل ذات حمل حملها ، فتكون شفاعته صلى الله عليه وعلى آله

وسلم ، سبباً في أن يريح الخلائق ربهم من عظيم ما هم فيه من الهم والغم والضيق . وهذا لا ينسي ما أكرمه الله به من شفاعته عليه الصلاة والسلام لأُمته ، إذ اختبأ دعوته - وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم - لتحقيق ذلك جزاءه الله عن الأمة خير الجزاء .

ثم إن حديث حذيفة رضي الله عنه ، قد أخرجه الطبري في « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » - كما مر بنا من قبل - ولكن بلفظ « يُجمع الناس في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر ، حفاة عراة كما خُقلوا ، قياماً ، لا تكلم نفس إلا بإذنه ، ينادي : محمد ، فيقول : لبيك وسعديك والخير في يديك ... » الحديث . فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله تعالى .

وهنا لاغنى عن التذكير بما أخرج الإمام البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : « إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثّاً ، كل أمة تتبع نبيها ، يقولون : يا فلان اشفع ، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ ، وذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود » .

وكان لابد من هذا التذكير ، لدفع ما قد يتوهم ، من أن بين حديث ابن عمر هذا ، وحديث حذيفة رضي الله عنهم ، شيئاً من المنافاة ؛ والواقع غير ذلك ، فلا منفاة بينهما ، لأن هذا الكلام - كما يقول الحافظ في الفتح - كأنه مقدمة للشفاعة .

أما بعد : ففي هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، الذي أكرم الله به هذه الأمة ، ما يرغّب المسلمين بشيء ذي صلة بالمقام المحمود ، لو فعله المسلم بخلوص نية وصدق توجه إلى الله عز وجل ؛ هوّن الله عليه من كُرب يوم القيامة ، وحلت له شفاعته النبي ﷺ . وما أحوج الناس في يوم يقول الله فيه : ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ إلى تخفيف الكرب ، وشفاعة صاحب الشفاعة صلوات الله وسلامه عليه . ذلكم ما رغب به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، من الدعاء حين يسمع المسلم النداء : أن يؤثّر الله النبي الكريم صلوات الله وسلامه

عليه الوسيلة والفضيلة ، وأن يبعثه مقاماً محموداً الذي وعده ، وأن المسلم إن فعل ذلك : حلت له شفاعته نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام .

أخرج البخاري في كتاب التفسير من الجامع الصحيح تحت «باب عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً» عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة » ثم قال البخاري : رواه حمزة بن عبد الله عن أبيه - يعني ابن عمر - عن النبي ﷺ . وأخرجه البخاري باللفظ نفسه ، عن جابر في كتاب الأذان من الجامع الصحيح « باب الدعاء عن النداء » .

هكذا تفتّح أبواب الخير للمسلم ، ويأخذ بيده البيان النبوي الكريم ، إلى ما لو دعا به ، فاز بتلك النعمة العظيمة ، التي لا يقدر قدرها ، وهي نيل شفاعته نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام .

هذا : وقد جاء بيان « الوسيلة » المدعو بها للنبي عليه الصلاة والسلام ، فيما روى مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلّوا عليّ ؛ فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة ، حلت له الشفاعاة » وأخرجه أبوداود في سننه عن عبد الله بن عمر أيضاً ، ولكن بلفظ « فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعاة » .

ولقد كان من تمام النعمة ، ورود تفسير لمعنى الوسيلة في بعض روايات الحديث .. فقد أخرج الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال

رسول الله ﷺ : « سلوا الله لي الوسيلة ، قالوا : يا رسول الله ، وما الوسيلة ؟ قال : أعلى درجة في الجنة ، لا ينالها إلا رجل واحد ، وأرجو أن أكون أنا هو » وأخرجه أحمد والنسائي وابن ماجة وابن خزيمة وغيرهم .

أما عن الفضيلة الواردة في الدعاء المطلوب : فذهب الحافظ ابن حجر إلى أنها المرتبة الزائدة على مراتب سائر الخلق ، ويحتمل أن تكون منزلة أخرى ، أو تفسيراً للوسيلة . ولم يجد الحافظ بداً من اللجوء إلى هذه الاحتمالات ، لأنه لم يرد نص توقيفي ، بتحديد معناها ، كالذي ورد في معنى الوسيلة .. وكل ذلك خير إن شاء الله .

وفي كلام موصول بالحديث عن المقام المحمود ، تجدر الإشارة إلى أن ما جاء في السنة هو - في حقيقته - لون من ألوان البيان التقريري ، لتلك العدة الربانية الكريمة ، التي اقترنت بفعل التحقق « عسى » في سورة الإسراء أعني قوله عز وجل : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ . ومن إكرام الله لأهل الإيمان ، ما فتح ربنا لكل منهم - مكلّفين ومكلّفات - من هذا الباب المبارك على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام .. الباب الذي يصل بالمؤمن ، إلى أن يكون - بفضل الله ورحمته - من الفائزين بشفاعة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ؛ فعلى كل مؤمن ومؤمنة - قياماً بهذا الحق - أن يكون في دعائه عندما يسمع النداء : قوله : « وابعثه - يعني خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه - مقاماً محموداً - أو المقام المحمود - الذي وعده » .

ولكم يُعَبِّطُ أولئك الذين يرزقون ، أن تكون ألسنتهم رطبة بذكر الله ، والصلاة على النبي صلى الله وسلم وبارك عليه ، وأداء هذا الدعاء ، وما كان على شاكلته ، حقَّ الأداء ، بقلب حاضر ، ونفس راضية مطمئنة ؛ فذلك عنوان خير غامر ، يهدي صاحبه - برحمة الله - إلى حسن العاقبة يوم الدين ، والخطوة بشفاعة سيد المرسلين ، ولا تسئل عما يكون بعد ذلك ، من الخلود في النعيم المقيم ، والفوز برضوان من الله أكبر ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

الشفاعة.. والدعاء عند النداء

مشهد ما يكون لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم، من المقام المحمود، يوم يقف الناس لرب العالمين، المقام الذي يحمده عليه الخلائق أجمعون، لما أنه يخرج بهم إلى فصل القضاء، والفراغ من الحساب، والانتهاى إلى معرفة المصير، بعد أن غشيه من الهم والغم ما غشيه، وبعد أن ضرب عليهم الترقب المردى سداد.. هذا المشهد العظيم في ذلك اليوم، ذو دلالة واضحة على أحقية الوفاء، بتلك العدة المباركة في سورة الإسراء، لسيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه، وأنه لا أحد أوفى بوعده من الله. وقد زاد الأمر إشراقاً مجيئاً عدد من نصوص السنة، التي حملت البيان التقريري لهذا العطاء الرباني له عليه الصلاة والسلام، والذي يتسبب بهذا الخير للناس أجمعين يومذاك؛ ذلكم ما رأينا من الأحاديث التي ترغّب في أن يدعو المسلم إذا سمع النداء، بأن يؤتي الله النبي ﷺ الوسيلة والفضيلة، وأن يبعثه المقام المحمود الذي وعده، وأن المسلم إن فعل ذلك، وجبت له الشفاعة.

وكان من عناية علمائنا بهذا الأمر العظيم، أن تبصروا في مجيء بعض الروايات بلفظ المقام المحمود معرّفاً، ومجيئاً بعضها منكرّاً؛ فقد جاءت روايات النسائي وابن حبان وابن خزيمة بلفظ «وابعثه المقام المحمود» بالتعريف، وجاءت رواية البخاري - كما رأينا من قبل - بلفظ التنكير. «وابعثه مقاماً محموداً» وهو محمود لأنه مقام يحمده فيه الأولون والآخرون. وهو - في الأصل كما يقول الإمام النووي - مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات، والرواية بتنكير «مقاماً» كأنها حكاية للفظ القرآن. ونقل عن الطيبي قوله: (إنما نكره لأنه أفخم وأجزل كأنه قيل: مقاماً محموداً أي محموداً بكل لسان) وهذا لا يتنافى - والله أعلم - مع الرواية بالتعريف، لأن المال - كما يقول العلماء - إلى المقام الذي جاء

ومن الخير أن نشير ، إلى أن رواية التعريف ، جاءت أيضاً من طريق علي بن عياش شيخ البخاري بالسند إلى جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ، حيث ورد فيها « .. وابعثه المقام المحمود الذي وعدته إلا حلت له شفاعتي يوم القيامة » ونقع في رواية للبيهقي على زيادة « إنك لا تخلف الميعاد » . وعقد الإمام ابن خزيمة في « جامع أبواب الأذان والإقامة » من صحيحه باباً عنوانه « صفة الدعاء عند مسألة الله عز وجل للنبي ﷺ الوسيلة واستحقاق الداعي بتلك الدعوة الشفاعة يوم القيامة » ثم قال : أخبرنا أبو طاهر قال : أخبرنا أبو بكر قال : أخبرنا موسى بن سهل الرملي قال : أخبرنا علي بن عياش قال : حدثنا شعيب بن أبي حمزة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : « من قال إذا سمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة » وابعثه المقام المحمود الذي وعدته ، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة » .

وقال ابن حبان في (باب الأذان) من صحيحه : « ذكر إيجاب الشفاعة في انقيامة من سأل الله جلّ وعلا لصفية صلى الله عليه وسلم المقام المحمود عند الأذان يسمعه » أخبرنا ابن خزيمة قال : حدثنا محمد بن يحيى قال : حدثنا علي ابن عياش قال : حدثنا شعيب بن أبي حمزة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال : قال النبي ﷺ : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته ، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة » .

ومن الواضح أن ابن حبان ، فيما ترجم للحديث ، كان كلامه فيما ذهب إليه من الترجمة ، أكثر دلالة على أهمية النظر إلى المقام المحمود في فقه النص ، إذ جعل سؤال المقام المحمود للنبي ﷺ في الدعاء عند سماع النداء ، هو الأساس في

إيجاب الشفاعة؛ ذلك قوله - كما رأينا - « ذكر إيجاب الشفاعة في القيامة لمن سأل الله عز وجل لصفية ﷺ المقام المحمود عند الأذان يسمعه » وفي ذلك ما فيه من التوجيه - من خلال الترجمة المشعرة بفقه الحديث - إلى تلكم المكانة العظيمة للمقام المحمود ، الذي خُصَّ به النبي ﷺ دون أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام ، والذي جعله الله باباً كريماً من أبواب الفضل على الخلائق جميعاً ؛ ومعاذ الله أن ينقص ذلك من قدر الوسيلة والفضيلة ، تلكما المنزلتين العظيمين الجليلتين ، والحمد لله الذي خُصَّ - بفضلِه - نبينا محمداً ﷺ بالعدد الوافر من الخصائص ، وجعله سيد ولد آدم بإطلاق .

أما الإمام ابن خزيمة : فقد اتجه في الترجمة التي وضعها للحديث ، إلى الوسيلة ، وهي المنزلة التي علمنا من خلال الأحاديث الصحيحة ، أنها منزلة فريدة في الجنة لا تليق إلا له عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم . ومن الخير أن نعيد إلى الأذهان ما ورد بشأنها مما روى مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة ، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ؛ فمن سأل لي الوسيلة ، حلت له الشفاعة » .

هذا : وهنالك أقوال آخر في المقام المحمود ، لست بسيل التفصيل فيها ؛ كاجلس على العرش ، والجلوس على الكرسي ، وأخذ لواء الحمد ؛ ويظهر أن المقام المحمود - كما يحكي بعض المحققين - هو مجموع ما يحصل له ﷺ في تلك الحالة . وفي مقدمة ذلك الشفاعة العظمى . وكأن بعض الأمور مقدمات للشفاعة ، إذ يشعر قوله ﷺ في آخر الحديث : « حلت له شفاعتي » أن الأمر المطلوب له ، هو الشفاعة .

ومهما يكن من أمر : فإن التراجم التي وضعها علماءنا أجزل الله مشوبتهم

للأحاديث - وقد رأينا منها صنيع البخاري وابن حبان وابن خزيمة- هي صورة من فقههم لتلك الأحاديث ، ومخالطتهم العقلية والقلبية لسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام . وهذا يتضح - أكثر ما يتضح عند الإمام البخاري رحمه الله ، حتى قالوا : فقه البخاري في تراجم أبواب الصحيح أو في تراجمه . وقد يختلف اجتهداهم في وضع هذا العنوان أو ذاك . ولكن الشراح رحمهم الله - على تفاوت مراتبهم - لم يألوا جهداً في بيان ما يجب بيانه من الحديث ، وقد رأينا من قبل أن الإمام البخاري قد ترجم لحديث سؤال المقام المحمود للرسول عليه الصلاة والسلام في كتاب الأذان من الجامع الصحيح بقوله : «باب الدعاء عند النداء» . وترجم له في كتاب التفسير عند إيراد ما جاء في شأن سورة الإسراء بقوله : «باب عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً» .

والأهمُّ الأهمُّ وراء ذلك كله بالنسبة للمسلم ، أن يكون على بينة من أمره ، يدرك مدى المسؤولية التي حُمِّلَهَا بيان النبي عليه الصلاة والسلام للكتاب ، وأن يكون ما جاء عنه في شأن القيامة - على وجه الخصوص - نصَّبَ عينيه خوفاً ورجاءً، فلا يقعده عن العمل رجاء ؛ فذلك فتنة الشيطان ، ولا يئسه من رحمة الله وشفاعة النبي ﷺ خوف ؛ فذاك توهم الغافلين . وليكن على ذكر دائم لقوله تعالى : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ .

الشفاعة.. ومسؤولية المسلم

حديث رسول الله ﷺ المبين عن الله ما أراد، منبع ثرٌ من منابع العطاء الخير، وحسبك أنه بيان الكتاب المعجز، والطريق المشرقة إلى فهم هذا الدين؛ ما كان منه ذا صلة بعالم الغيب، وما كان ذا صلة بعالم الشهادة. ومن هنا كانت طاعة رسول الله، من طاعة الله، لما أنه المبلغ عن الله، والمبين كتابه. ومن هنا أيضاً كانت عناية العلماء بسند الحديث ومتمنه.

حملني على التقديم - أو التذكير - بهذه المعاني، ما أجد من دواعي المتابعة لفهم أهل العلم من النصوص الواردة في شأن ما اختص الله به نبينا محمداً ﷺ، من «المقام المحمود» الشفاعة العظمى، من أجل فصل القضاء بين الخلق، وهو مقام يحمد فيه الأولون والآخرون، وليس أحد إلا وهو تحت لوائه فيه، حيث يسجد بين يدي جبار السماوات والأرض، ويقال: اشفع تشفع، وتكون شفاعته لجميع الخلائق، في إزالة هول الموقف، والانصراف إلى فصل القضاء. ومن النصوص التي أعنيها - على هذه الساحة - ما روى البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنها - والعهد باصطحابه قريب - أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة» وأخرجه النسائي وابن خزيمة وابن حبان بلفظ «المقام المحمود» بالتعريف.

فقد استشكل بعض العلماء - كما يقول الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» - جعل استحقاق الجنة، ثواباً لقائل ذلك، مع ما ثبت من أن الشفاعة للمذنبين! وهذا من المستشكل، محاولة لتجلية الأمر، وفهم المراد من خلال النصوص مجتمعة دون بتر واحد عن الآخر.

قال الحافظ رحمه الله : وأجيب بأن له صلى الله عليه وسلم شفاعاتٍ أخرى ؛ كإدخال الجنة بغير حساب ، وكرفع الدرجات ، فيعطى كل أحد ما يناسبه . ثم ذكر ما نقل القاضي عياض عن بعض شيوخه ، أنه كان يرى اختصاص ذلك - يعني الشفاعة - بمن قاله مخلصاً ، مستحضراً إجلال النبي عليه الصلاة والسلام ، لامن قصّد بذلك مجرد الثواب ، ونحو ذلك ، ولكنه لم يرتض هذا الرأي فقال : وهو تحكّم غير مرضي ، ولو كان إخراج الغافل اللاهي ، لكان أشبه .

هذا : وما يجدر التنبيه عليه ، أنه كلما كان المرء أعمقَ تصوراً وإدراكاً لمشاهد القيامة ، وما تزخر به من الشدة الأليمة والهول المطبق - وهذا لا يكون إلا بتزكية النفس على الوجه المطلوب - كان أقرب إلى المستوى الذي يستطيع ، معه بما يرزق من حلاوة الإيمان واستنارة البصيرة ، أن يقدر مشهد الشفاعة العظمى - وهي المقام المحمود الذي يحمده الأولون والآخرون - حق قدره .

فهذا المقام الذي يشفع فيه النبي ﷺ للخلق - من لدن آدم إلى يوم الدين - من أجل فصل القضاء ، هو في أحد وجهيه : خصوصية للنبي عليه الصلاة والسلام ، لم يشركه فيها نبي مرسل ، ولا ملك مقرب ، وفي الوجه الآخر : نعمة عظمى لا يكاد يدرك مداها ، تُسبّغ على الخلائق أجمعين ، وهو في الوقت نفسه : إعلان أحقية الوفاء بالعِدّة المباركة ؛ ومن أوفى بعهده من الله !!

وفي نظرات ثاقبة لهذه الخصوصية العظيمة ، التي يشهدها الخلق ويحمدونها ، كانت للعلماء وقفاتٌ دقيقة رقيقة « عند تفسيرهم للآيات المتعلقة بها ؛ من ذلك ما نرى عند الإمام القرطبي مثلاً . إذ قال عند تفسير الآية التي تلي قوله تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ وهي قوله عز وجل : ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ قيل : المعنى أمّثني إماتة صدق ، وابعثني يوم القيامة مبعث صدق ، ليتصل بقوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ كأنه لما

وعده بذلك ، أمره أن يدعو ، لِيُنَجِّزَ له الوعد .

وقيل : أدخلني في المأمور ، وأخرجني من النهي .

وقيل : علّمه ما يدعو به في صلاته ؛ من إخراجهم من بين المشركين ، وإدخاله موضع الأمن ، فأخرجه من مكة ، وصيّره إلى المدينة . وهذا المعنى رواه الترمذي عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة ، فنزلت ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾ وقال : هذا حديث حسن صحيح . وتقديم القول الأول وهو : (أمتني إماتة صدق وابعثني يوم القيامة مبعث صدق ، ليتصل بقوله : ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ كأنه لما وعده ذلك أمره أن يدعو لينجز له الوعد) يوحى بأنه لا تعارض مآلاً . بين ما ذكر من الأقوال . فالفضل كائن في الدنيا والآخرة . ووعد الله حق وصدق .

ولعل مما يؤيد ذلك : ما نجد عند صاحب «التحرير والتنوير» في بيانه لمعنى الآية المذكورة ؛ فهو يرى أنه لما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالشكر الفعلي ، عطف عليه الأمر بالشكر اللساني ، بأن يتهل إلى الله ، بسؤال التوفيق في الخروج من مكان . والدخول إلى مكان ، كيلا يضره أن يستفزّه أعداؤه من الأرض ليخرجوه منها ، مع ما فيه من المناسبة لقوله تعالى : ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ فلما وعده بأن يقيمه مقاماً محموداً ، ناسب أن يسأل أن يكون ذلك حاله . في كل مقام يقومه . وفي هذا التلقين إشارة إلهية إلى أن الله مخرجه من مكة إلى مهاجرة .

وفي تأكيد لهذا المعنى ، واتساع في دلالاته ، كانت الإشارة إلى أنه في المدخل والمُخرج من قوله تعالى : ﴿أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾ اختيار هنا الاسم المشتق من الفعل المتعدي ، للإشارة إلى أن المطلوب ، دخول وخروج ميسران من الله تعالى ، وواقعان بإذنه . وذلك دعاء بكل دخول وخروج مباركين ، لتمام المناسبة بين المسؤول ، وبين الموعود به . وهو المقام المحمود . . وهذا السؤال

يَعْمُ كل مكان يدخل إليه ، ومكان يخرج منه . والصدق هنا : الكمال وما يحمد في نوعه ، لأن ما ليس بمحمود فهو كالكذب ، لأنه يخلف ظن المتلبس به .

أعود مرة أخرى ، إلى تذكير نفسي ، ومن يؤرقهم طلب النجاة يوم الدين ، بأن بيان النبي ﷺ في شأن القيامة ؛ بشارة ونذارة ، وما أعطاه الله من المقام المحمود ، والشفاعة لأمته ، التي هي من بواعث الرجاء ، لمن تقلقهم شدة الخوف .. كل أولئك أمانة في أعناق المسلمين ، وإشعاراً بالمسؤولية التي لا يتخذها وراءه ظهيراً ، إلا من سَفِهَ نَفْسَهُ وظلمها ، وأعرض عن الحق ، اتباعاً للهوى وطاعةً لشياطين الإنس والجن .

والله المسؤول أن يأخذ بأيدينا إلى ما به نكون من أبناء الآخرة « الذين يخشون ربهم بالغيب ، ويخافون سوء الحساب ، وبذلك لا نُحْرَمُ - بفضل الله ومنه - شفاعة نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام .

ما تقتضيه أخبار الشفاعة

عما لا يختلف في شأنه عاقلان ، أن الأخبار الصادقة الواردة في شأن عالم الغيب- ومنها أخبار القيامة وما يكون يوم يعرف المجرمون بسيماهم ، فيؤخذ بالنواصي والأقدام - أمانة في أعناق المسلمين من الواجب أن يولوها، ما هي جديرة به من التبصّر الواعي ، الذي يقود إلى أخذها مأخذ الجد ، على ساحة التصور ، وعلى ساحة السلوك وتصريف الأمور . وليس العهد بعيداً بالكلام على الشفاعة العظمى ، تلك المكرمة الربانية، التي أوتيتها نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام . والتي يحمد عليها الأولون والآخرون . وكم لذلك من دلالات ، ينبغي أن تأخذ أبعادها في حسّ المؤمن وضميره ، كي تنعكس مزيداً من الحب له عليه الصلاة والسلام ، ومضاعفةً للعمل على إحياء سنته ، والتزود بتقوى الله ليوم الحساب .

والكلام على الشفاعة العظمى: يشدُّنا إلى الكلام على شفاعته بأتمه ؛ فهو صلى الله عليه وسلم إمام النبيين ، وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم ، وله في الوقت نفسه شفاعة خاصة بأتمه - على تفصيل فيما تعطيه النصوص - . قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر قال : حدثنا زهير يعني ابن محمد عن عبد الله بن محمد عن الطفيل ابن أبيّ بن كعب عن أبيه عن النبي ﷺ قال: « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين ، وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم » غير فخر » قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : «لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس وادياً - أو شعباً - لكنت مع الأنصار » . ولأحمد في رواية أخرى : حدثنا زكريا قال : حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبيّ بن كعب عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين .. » فذكر نحوه .

ولفظ الرواية الأولى : نجده عند ابن ماجة ؛ إذ روى في «السنن» بسنده عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم » غير فخر .

والتحدث بتلك النعم العظمى - مصحوباً بذلك التواضع الرفيع - واضح في كلامه عليه الصلاة والسلام . ولقد يقدر المرء بعض قَدَر تلك الخصائص، أو كَلَّه - مع التوفيق - إذا كان على ذكر مما يزخر به ويزخر ذلك اليوم ، من ساعات عصيبات وهول هائل، ترى الناس من شدته لا يلوون على شيء ، ويبلغ بهم الخوف ، أن يقول كل واحد منهم : نفسي نفسي .

ويبدو - والله أعلم - أن النبي صلوات الله وسلامه عليه - وهو أعلم الناس بأحوال ذلك اليوم وأهواله ، وما فيه النجاة - بفضل الله - من ذلك الكرب العظيم - ... كان كَلِفاً بأن يبيِّن لأُمَّته ما خصَّه الله به من الفضل ، الذي يستعلن يوم يقوم الناس لرب العالمين ، لما يترتب على ذلك وأمثاله، من الاعتزاز الإيماني « والحوافز النافعة المجدية ، على طريق السالكين المنبيين إلى الله . وقد يكون ، كشف عن ذلك غير مرة . وفي عدد من المناسبات - على طريق الهداية والتبليغ - أخرج الترمذي في كتاب المناقب من الجامع الصحيح - سنن الترمذي - بسنده عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه » قال : فخرج ، حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون ، فسمع حديثهم ، فقال بعضهم : عجباً أن الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلاً ، اتخذ إبراهيم خليلاً ، وقال آخر : ما هذا بأعجب من كلام موسى ، كلمه تكليماً ، وقال آخر : فعيسى كلمة الله وروحه ، وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم ، فسلم وقال : قد سمعت كلامكم ، وعجبكم أن إبراهيم خليل الله ، وهو كذلك ، وموسى نبيُّ الله ، وهو كذلك ، وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك . ألا وأنا حبيب الله ، ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ، ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ، ولا فخر ، وأنا أول

من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي ، فيدخلنيها ومعني فقراء المؤمنين، ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ، ولا فخر» قال أبو عيسى : هذا حديث غريب . وأخرجه الدارمي بهذا اللفظ في المقدمة من « السنن » .

وللترمذي في رواية أخرى عن أبي بن كعب أيضاً عن النبي ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر » .

ألا ما أشد الحاجة في ذلك اليوم العصيب، إلى تلك الشفاعة ، وما أكرم محمداً ﷺ على الله ، حتى جعله أول شافع ومشفع يوم القيامة . أخرج الإمام مسلم بسنده عن عبدالله بن فروخ قال : حدثني أبوهريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع » .

وهذه المكرمات التي تنطق بها النصوص ، والتي تبدى مشرقة على رؤوس الخلائق ، يوم الفصل مترابطة تمام الترابط، آخذ بعضها برقاب بعض، مبنية تمام الإبانة ، عن إكرام الله للأمة المحمدية، ببعثه من أرسله الله رحمة للعالمين ؛ وما على المسلم ، إلا أن يكون على النهج السوي في دار العمل هنا ، النهج الذي يؤهله لأن يكون بفضل الله ، الإنسان الباني الجدير بالتمكين، والعزة في الدنيا ، ولنيل الشفاعة في الآخرة ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ جاء في شرح الإمام النووي هذا الحديث : (وأما قوله ﷺ : « يوم القيامة » مع أنه سيدهم في الدنيا والآخرة ، فسبب التقييد أن في يوم القيامة يظهر سؤدده لكل أحد ، ولا يبقى منازع ولا معاند ونحوه ، بخلاف الدنيا ، فقد نازعه ذلك فيها، ملوك الكفار وزعماء المشركين ، وهذا التقييد قريب من معنى قوله تعالى : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ مع أن الملك له سبحانه قبل ذلك ؛ لكن كان في الدنيا، من يدعي الملك، أو من يضاف إليه مجازاً ، فانقطع كل ذلك في الآخرة) .

وإني مورد - إضافة إلى ما مر بنا من قبل - بعضاً من الروايات التي تقرر ما

ذِكْرَ وتؤكدّه . فقد جاء الحديث عند الإمام أحمد في المسند بلفظ « الأرض » بدلاً من « القبر » إذ روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أنا سيد ولد آدم ، وأول من تنشق عنه الأرض وأول شافع وأول مشفع » وله في رواية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع يوم القيامة ولا فخر » .

هذا : وبجانب ما كشف عنه عليه الصلاة والسلام ، من تلكم الفضائل التي شاء الله أن يختص بها ، وأن تكون طائفةً منها يوم القيامة - ومنها الشفاعة العظمى وشفاعته بأمره ، وهي الأمة المرحومة - بين صلوات الله وسلامه عليه ، أنه ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد سأل سُئِلَ الشفاعة ، وعلمه ﷺ بما تحمل مشاهد القيامة من الهول الهائل ، جعله - والله أعلم - يختبيء دعوته للشفاعة ، ويجعلها لمن مات من أمته لا يشرك بالله شيئاً ، أو لأهل الكبائر منهم ، كما ورد في بعض النصوص .

اللهم تفضل علينا بأنفهم عن نبيك المصطفى ورسولك المجتبي ، والعمل - على بصيرة - بهديه القويم ، كيما نكون ممن تنشر عليهم رحمتك يوم الدين ، وتدرّكهم شفاعته صلوات الله وسلامه عليه ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً ﴾ .

اللهم أمتي أمتي!!

لا يَدْعُ - ورسول الله عليه الصلاة والسلام بالمؤمنين رؤوف رحيم - وساعات يوم الفصل ، ساعات مثقلة بما يقضُّ المضاجع ، ويسلمُ القلوب إلى شديد الخوف وعظيم القلق - أن يكون ما أُعطي صلوات الله وسلامه عليه - من المنزلة العظيمة عند الله ، وما خُصَّ به من خصائص ، ليست لأحد من الأنبياء والمرسلين - روحاً وريحاناً على الأمة المحمدية ، ونوراً يضيء الطريق إلى جنة عرضها السماوات والأرض ، أعدت للأبرار الصالحين ؛ ذلك بأنه عليه الصلاة والسلام كان - وهو يأخذ المسلمين بأسباب الهداية والتمكين في هذه الدار دار الممر والعمل والجهاد - لا يني أن يكون شقيقاً على الأمة ، أغلى ما تكون الشفقة وأعلاها ، فهو أبداً يخاف أن تنتكب الجادة ، فيصييها يوم المعاد ، ما أصاب الأمم التي خالفت عن أمر الله ، وعصت رسله ، والله عزيز ذو انتقام .

قال الإمام مسلم : حدثني يونس بن عبد الأعلى الصَّدَقِيُّ قال : أخبرنا ابن وهب قال : أخبرني عمرو بن الحارث ، أن بكر بن سواده حدّثه عن عبدالرحمن ابن جبير عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما « أن النبي ﷺ تلا قول إبراهيم : ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني .. ﴾ الآية وقول عيسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ . فرفع يديه ، فقال : اللهم أمتي أمتي ، وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله ما يبكيك ؟ فاتاه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال - وهو أعلم - فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك » وأخرجه ابن أبي حاتم من رواية عبدالله بن عمرو أيضاً . وفي الحديث - كما يقول العلماء - البيان الواضح لكمال شفقتة ﷺ على أمته ، واعتنائه بمصالحهم ، واهتمامه بأمرهم ، ناهيك عن

البشارة العظيمة لهذه الأمة زادها الله شرفاً ، بها وعدها الله تبارك وتعالى بقوله :
«سنرضيك في أمتك ولا نسوءك» .

ولا تسل عما في هذه الكلمات النورانية المباركة، من بيان عظيم منزلة النبي ﷺ عند الله تعالى ،وعظيم لطفه سبحانه به ﷺ ، الأمر الذي له ماله من الأثر ، في جلب الخير العميم للأمة ، التي يفترض أن تكون على مستوى الشكران لهذه النعمة العظيمة ؛ إيماناً وعلماً وعملاً ، وجهاداً في سبيل الله . وما أشد الحاجة - يوم يقف الناس لجبار السماوات والأرض ، وتحقق بالناس المخاطر - إلى هذا اللطف الإلهي الكريم ، ومنه هذه الشفاعة كما سيأتي . ولقد اتجه الإمام النووي إلى أن هذا الحديث من أرجى الأحاديث لهذه الأمة ، أو أرجاها . وواضح ، أن الحكمة في إرسال جبريل لسؤاله ﷺ ، إظهار شرفه صلوات الله وسلامه عليه ، وأنه بالمحل الأعلى ، فيُسترضى ، ويكرم والله أعلم .

وما من ريب في أن الحديث موافق لقول الله عز وجل في سورة الضحى
﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وأما عن قوله تعالى : «ولانسوءك» فيما أمر به جبريل عليه السلام ، أن يبشر به النبي ﷺ : فنقل النووي عن الإمام عبدالله بن إسماعيل التميمي الأصبهاني : أنه تأكيد للمعنى ، أي لا نحزنك ، لأن الإرضاء قد يحصل بحق البعض بالعفو عنهم ، ويدخل الباقي النار ، فقال تعالى :
نُرضيك ولا ندخل عليك حزناً ، بل ننجي الجميع ، والله أعلم .

والحق أن رحمة النبي ﷺ بالمؤمنين وإشفاقه من سوء العاقبة للأمة يوم الدين : كل أولئك ، مما زاد في تأثره القلبي ، حتى البكاء ، وتفاعله مع قوله جل شأنه في سورة إبراهيم : ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ وقوله تعالى على لسان عيسى عليه الصلاة والسلام في سورة المائدة - كما ورد في النص الذي نحن بصدده - ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ . حتى قال الحافظ ابن

كثير رحمه الله: وهذه الآية - يعني آية المائدة - لها شأن عظيم ونباٌ عجيب، وقد ورد في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قام بها ليلة، حتى الصباح يرددها. وقد أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه قال: صلى النبي ﷺ ذات ليلة، فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها، ويسجد بها ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلما أصبح قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية، تركع بها وتسجد بها؟ قال: إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي « فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله من لا يشارك بالله شيئاً » وله من طريق آخر وسياق آخر بسنده عن جَسْرَةَ بنت دجاجة « أنها انطلقت معتمرة فانتهت إلى الرَبْذَةِ ، فسمعت أبا ذر يقول: قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي في صلاة العشاء، فصلّى بالقوم، ثم تخلف أصحاب له يصلون، فلما رأى قيامهم وتخلّفهم، انصرف إلى رحله، فلما رأى القوم قد أخلّوا المكان، رجع إلى مكانه يصلي، فقمت خلفه، فأومأ إلى يمينه، فقمت عن يمينه » ثم جاء ابن مسعود، فقام خلفي وخلفه، فأومأ إليه بشماله، فقام عن شماله، فقمتا ثلاثتنا، يصلي كل رجل منا بنفسه » ويتلو من القرآن ما شاء الله أن يتلو، فقام بآية من القرآن يرددها، حتى صلى الغداة، فلما أصبحنا، أومأت إلى عبدالله بن مسعود أن سله ما أراد إلى ما صنع البارحة » فقال ابن مسعود، بيده: لا أسأله عن شيء، حتى يحدث إليّ، فقلت: بأبي أنت وأمي، قمت بآية من القرآن ومعك القرآن، لو فعل هذا بعضنا، لوجدنا عليه، قال: « دعوت لأمتي » قلت: فماذا أجبت، أو ماذا رد عليك؟ قال: « أُجِبْتُ بِالَّذِي لَوْ اطَّلَعَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ طَلَعَتْ عَنْهُمْ الصَّلَاةُ » قلت: أفلا أبشر الناس؟ قال: بلى، فانطلقت معنفاً قريباً من قذفة حجر، فقال عمر: يا رسول الله إنك إن تبعث إلى الناس بهذا نكلوا عن العبادة؛ فناداه أن ارجع فرجع. وتلك الآية ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ، وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

هذا: وقد أورد النسائي حديث قيام الرسول ﷺ بالآية المذكورة « في كتاب الصلاة من السنن الصغرى » المجتبى » وجعل عنوانه « ترديد الآية » ثم روى

بسنده عن قدامة بن عبدالله قال : حدثني جَسْرَةُ بنت دَجَاجَةَ قالت : سمعت أبا ذر يقول : « قام النبي ﷺ ، حتى اذا أصبح بآية ، والآية ﴿ إِن تَعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ » . أما البيهقي : فقد أورد الحديث في كتاب الصلاة من السنن الكبرى تحت باب « ترتيل القراءة » إذ روى بسنده هناك عن خرشة بن الحر عن أبي ذر قال : سمعت رسول الله ﷺ ، وهو يصلي ذات ليلة ، وهو يردد آية ، حتى أصبح بها يركع وبها يسجد ﴿ إِن تَعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ ﴾ قلت : يا رسول الله ما زلت تردد هذه الآية حتى أصبحت قال : « إني سألت ربي الشفاعة لأمتي وهي نائلة من لا يشرك بالله شيئاً » ثم جاء برواية جسرة رحمها الله .

صلى الله وسلم على الرؤوف الرحيم بالمؤمنين ، الشفيق عليهم في الدنيا ويوم الدين ، وردَّ المسلمين إلى حسن التأسّي به ، وإلى ما فيه الانتفاع بهديه ، كيما تصلح حالهم في العاجلة ، ويظفروا بالسعادة الأبدية في الآخرين .

شفاعته ﷺ وفخله

أسعدتنا من قريب، وقفة مباركة طيبة ، مع بعض من نصوص الهدي النبوي الناطقة برأفة النبي ﷺ ، ورحمته بالمؤمنين ، وكمال شفقته عليهم، وإشفاقه أن يصيبهم النكال يوم المعاد - وقد بلغت القلوب الحناجر ، وامتألت خَوْفاً وجزعاً - وأن تُسلَّكَ بهم سبيل تجافي سبيل الفوز بالجنة، والنجاة من النار . وما من ريب في أنه صلوات الله وسلامه عليه، قد أعطي بجانب الشفاعة العظمى - وهي المقام المحمود - الشفاعة الثانية الخاصة بأتمته ، وتحمل إلينا نصوص السنة ابتهاله إلى الله، أن يعطيه تلك الشفاعة ، وأنه اختبأ دعوته التي من الله بها عليه، شفاعة لأتمته في الآخرة، كما حصلت الإشارة إلى ذلك من قبل . وهذه ضميمة من الأحاديث في شأنها ، تزيد المؤمن يقيناً على يقين بوقوعها يومذاك ؛ ففي كتاب الدعوات من الجامع الصحيح ، عقد الإمام البخاري باباً عنوانه : « لكل نبي دعوة مستجابة » وقال : حدثنا إسماعيل قال : حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها ، وأريد أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة ، ثم قال رحمه الله : وقال لي خليفة : قال معتمر : سمعت أبي عن أنس عن النبي ﷺ قال : لكل نبي سؤال سؤلاً ، أو قال : لكل نبي دعوة قد دعا بها » فاستجيب ، فجعلت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ».

ومن فقه الإمام البخاري في تراجم الأبواب، أنه أورد هذا الحديث أيضاً في كتاب التوحيد من الجامع الصحيح تحت «باب المشيئة والإرادة» فأخرج بسنده عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل نبي دعوة » فأريد أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » وقد أسلفت من قبل أن علمه ﷺ بها يحمل يوم القيامة من الأهوال، حيث الضرورة الملحة لبارقة أمل

تُشعر بالنجاة ، وتجاوز الصعاب المروعة ، إلى الزحزحة عن النار ، ودخول الجنة ، مع الذي ملأ الله به قلبه من الرحمة بالأمّة ، والشفقة عليها . كل أولئك - والله أعلم - جعله جزاء الله عن الأمّة خير الجزاء ، يتجه هذه الوجهة في اختباء دعوته ، شفاعته لأمته يومئذ ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً . فانت واجد أنه أثر أمته بهذه الدعوة ، وكان حكيماً - جَدّاً حكيم ، في وضع الأمور مواضعها ، لأن الناس أحوج ما يكونون في ذلك اليوم إلى الشفاعة ، فجعل الدعوة فيما ينبغي ، وفي أهم أوقات الضرورة الملحة - كما أسلفنا - ناهيك عما في هذا الحديث ، من بيان فضله صلوات الله وسلامه عليه على سائر الأنبياء ، وماله من كرامة متميزة - وهو النبي المصطفى عند الله عز وجل - قال ابن بطال : (في هذا الحديث بيان فضل نبينا ﷺ على سائر الأنبياء ، حيث أثر أمته على نفسه وأهل بيته بدعوته المجابة ، ولم يجعلها أيضاً دعاءً عليهم بالهلاك كما وقع لغيره ممن تقدم) وقال ابن الجوزي : (هذا من حسن تصرفه ﷺ لأنه جعل الدعوة فيما ينبغي ، ومن كثرة كرمه ، لأنه أثر أمته على نفسه ، ومن حسن نظره ، لأنه جعلها للمذنبين من أمته ، لكونهم أحوج إليها من الطائعين) وقال النووي (فيه كمال شفقتة ﷺ على أمته ، ورأفته ، واعتناؤه بالنظر في مصالحهم ، فجعل دعوته ، في أهم أوقات حاجتهم) .

هذا : وقد أخرج الإمام مسلم هذا الحديث في عدد من الروايات ، وفي أكثرها يحمل النص عبارة - ان شاء الله - فقد روى بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لكل نبي دعوة ، وأردت إن شاء الله أن أختبىء دعوتي شفاعته لأمتي يوم القيامة » وله في رواية أخرى عن ابن شهاب أن عمرو بن أبي سفيان بن سفيان بن أسيد بن جارية الثقفي أخبره أن أبا هريرة قال لكعب الأحبار : إن نبي الله ﷺ قال : « لكل نبي دعوة يدعوها ، فأنا أريد إن شاء الله أن أختبىء دعوتي شفاعته لأمتي يوم القيامة » . فقال كعب لأبي هريرة : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال أبو هريرة : نعم . وفي بعض الروايات ، ما يشعر بأن الأنبياء عليهم الصلاة

والسلام تعجلوا دعواتهم المستجابة ، وأنه ﷺ اختبأ دعوته شفاعة لأمته يوم الدين ، وأن هذه الشفاعة نائلة إن شاء الله من مات من الأمة المحمدية لا يشرك بالله شيئاً . قال الإمام مسلم : حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة وأبو كريب - واللفظ لأبي كريب - قالوا : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دنوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً » وفي رواية أخرى « لكل نبي دعوة مستجابة يدعوا بها ، فيستجاب له فيؤتاها ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » وفي لفظ « دعاها في أمته » وفي آخر « دعاها لأمته » .

وهذه الروايات يفسر بعضها بعضاً ، ولا بد من النظر فيها مجتمعة . ومعناها - كما يرى الإمام النووي - أن كل نبي له دعوة متيقنة الإجابة . وهو على يقين من إجابتها ، وأما باقي دعواتهم : فهم على طمع من إجابتها ، وبعضها يجاب ، وبعضها لا يجاب . ونقل عن القاضي عياض أنه يحتمل أن يكون المراد : لكل نبي دعوة لأمته كما في الروایتين الأخيرتين والله أعلم .

وبعد : فلا بد من الإشارة ؛ إلى أن عدداً من الروايات - كما سيأتي فيما بعد إن شاء الله - يحمل تقييد نيل الشفاعة ، بعدم الشرك بالله تعالى ، وكما رأينا آنفاً . من هذه الروايات ما نجد في كتاب الدعوات من الجامع الصحيح - سنن الترمذي - حيث أخرج أبو عيسى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل نبي دعوة مستجابة ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، وهي نائلة إن شاء الله من مات منهم لا يشرك بالله شيئاً » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . والروايات بهذا القيد : تقتضي التذكير بما سلف ، من أن العلماء ، قد وفقوا بين تعليق الشفاعة على التوحيد ، وبين ما جاء من كونها لأهل الكبائر ، ويأتي تفصيل ذلك في حينه إن شاء الله !

رزقنا الله التوحيد الخالص ، والعمل بما يقتضيه ، وصلى الله وسلم وبارك على الشافع المشفع ، وعلى آله وصحابه الذين آمنوا به واتبعوا النور الذي أنزل معه صدقاً في المواطن ، وإخلاصاً في الطاعة ، وإحساناً في التزود ليوم لا ريب فيه ، فكانوا أجدر الناس بشفاعته عليه الصلاة والسلام ، التي اختبأ الدعوة المستجابة لها ، رحمة بأمته وإشفاقاً عليها ، جزاه الله خير ما جزى نبياً عن أمته ، وآتاه الوسيلة والفضيلة ، وبعثه المقام المحمود الذي وعده في كتابه العزيز .

الشفاعة.. والتوجيه الخالص

لا يسأم المؤمن - وهو يسعى للآخرة سعيها - من معاودة النظر في كل ما هو من مبشرات النجاة يوم الدين بسبب . ومن عيون ذلك : ما ورد من الخبر الصادق في شأن شفاعة ﷺ لأمته ، عند الله بإذنه يوم تَجْفُ القلوب ، وتستولي الخشية من سوء القرار ، على النفوس . وإنها لبشارة عظيمة ، جديرة بأن يعمل المؤمن ، ليكون يومئذ من أهلها .

ولقد كان من فضل الله على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن لكل منهم دعوة مستجابة . ولأمر ما ، تعجل كل نبي دعوته في الدار العاجلة ، وأكرم الله الأمة المحمدية ، بأن اختبأ رحمة العالمين سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام دعوته شفاعة لأمته يوم الحساب . كما رأينا عند البخاري ومسلم والترمذي .

ومن الروايات التي جاء فيها ذكر التعجل : ما أخرج ابن ماجه في كتاب الزهد «باب ذكر الشفاعة» من السنن بسنده عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته » وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، فهي نائلة من مات منهم لا يشرك بالله شيئاً » وأخرج الإمام مالك في الموطأ عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لكل نبي دعوة يدعوا بها ، فأريد أن أختبي دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة » . ومما يجدر ذكره : أن شفاعة النبي ﷺ الخاصة هذه ، قد جاء ذكرها في بعض الروايات ، مضمومة إلى حديث الشفاعة العظمى بطوله ؛ الأمر الذي يوحى - والله أعلم - بتعدد المواقف التي كان صلى الله عليه وسلم ، يكشف فيها لأمته عما سيكون يوم الفصل ، ويثير في قلوب أصحابه كوامن الإيمان ، من أجل العمل والإعداد لذلك اليوم العظيم ، ومن ورائهم من يدخل في

هذا الدين ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها » أخرج الإمام أحمد بسنده عن علي ابن زيد عن أبي نضرة قال : خطبنا ابن عباس رضي الله عنهما على منبر البصرة فقال : قال رسول الله ﷺ : « إنه لم يكن نبي إلا له دعوة قد يُنجزها في الدنيا ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر » ويبيدي لواء الحمد ولا فخر ، آدم فمن دونه ، تحت لوائي ولا فخر ؛ ويطول يوم القيامة على الناس ، فيقول بعضهم لبعض ، انطلقوا بنا إلى آدم أبي البشر ، فليشفع بنا إلى ربنا فليقبض بيننا ... إلى أن يقول : فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى اشفع لنا إلى ربك فليقبض بيننا ، فيقول : إني لست هناكم ، اتَّخَذْتُ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وإنه لا يهمني اليوم إلا نفسي ، ولكن أرايتم لو كان متاع في وعاء مختوم عليه ، أكان يقدر على ما في جوفه حتى يُفَضَّ الخاتم ؟ قال : فيقولون : لا ، فيقول : إن محمداً ﷺ خاتم النبيين ، وقد حضر اليوم ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال رسول الله ﷺ ، فيأتونني فيقولون : يا محمد اشفع لنا إلى ربك فليقبض بيننا ، فأقول : أنا لها ، حتى يأذن الله عز وجل لمن يشاء ويرضى ، فإذا أراد الله تبارك وتعالى أن يصدع بين خلقه ، نادى مناد : أين أحمد وأمه ، فنحن الآخرون الأولون ، ونحن آخر الأمم ، وأول من يحاسب ، فتُفْرَجُ لنا الأمم عن طريقنا ، فنمضي غُرّاً محجلين من أثر الطَّهْور ، فتقول الأمم : كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها ، فنأتي باب الجنة ، فأخذ بحلقة الباب ، فأقرع الباب ، فيقال : من أنت ؟ فأقول : أنا محمد ، فيفتح لي ، فأتي ربي عز وجل على كرسيه أو سريه - شك حماد - فأختر له ساجداً فأحمده بمحمد لم يحمده بها أحد كان قبلي ، وليس يحمده بها أحد بعدي ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه . وقل تُسمع واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول : أي رب أمتي أمتي ، فيقول : أخرج من كان في قلبه مثقال كذا وكذا - لم يحفظ حماد - ثم أعيد فأسجد ، فأقول ما قلت ، فيقال : ارفع رأسك ، وقل تُسمع ، وسل تُعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : أي رب أمتي أمتي ، فيقول : أخرج من كان في قلبه مثقال كذا وكذا دون الأول ، ثم أعيد

فأسجد ، فأقول مثل ذلك فيقال لي : ارفع رأسك وسل تعطه ، واشفع تشفع فأقول: أي رب أمتي أمتي ، فيقال : أخرج من كان في قلبه مثقال كذا كذا دون الأول ، ثم أعيد فأسجد فأقول مثل ذلك ، فيقال لي : ارفع رأسك وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول: أي رب أمتي أمتي ، فيقال : أخرج من كان في قلبه مثقال كذا كذا دون ذلك .

هكذا يبدأ الحديث بخصائص ، يذكرها النبي ﷺ بتواضع جم ، وأدب لا يجارى ، ومنها اختباء دعوته شفاعا عند الله - بإذنه - لأمته في الآخرة . ويكون من الحكمة أن يسهب صلوات الله وسلامه عليه في الكلام النير المبارك عن الشفاعا العظمى ، حيث يتحقق للخلائق ما يريدون ، ثم يذكر ﷺ استجابة ربه الكريم المنان « لدعوته فيما أراد من الشفاعا بأمته ، على تلکم الصور التي نطق بها النص من كلامه عليه الصلاة والسلام ، فيما أخبر - وهو الصادق المصدوق - عن ذلك كله .

وما يؤكد شفقة النبي ﷺ على أمته ، وحرصه على أن تكون من أهل النجاة يوم الحسرة ، ما جاء عنه صلوات الله وسلامه ، عليه أنه خُيّر بين الشفاعا وغيرها ، فاختار الشفاعا ، جزاه الله خير ما يجزي نبياً عن أمته ، جاء في كتاب القيامة من الجامع الصحيح سنن الترمذي : حدثنا هناد قال : حدثنا عبدة عن سعيد « عن قتادة ، عن أبي المليح عن عوف بن مالك الأشجعي قال : قال رسول الله ﷺ : «أتاني آت من عند ربي ، فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة ، وبين الشفاعا ، فاخترت الشفاعا ، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئاً » . وقد روي عن أبي المليح عن رجل آخر من أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ ، ولم يذكر عن عوف بن مالك ، وفي الحديث قصة طويلة . حدثنا قتيبة قال : حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن أبي المليح عن عوف بن مالك عن النبي ﷺ نحوه . وهذا ما نجده عند ابن ماجه بلفظ مقارب ، مع شيء من الزيادة ؛ فقد أخرج في كتاب الزهد ، باب « ذكر الشفاعا » من السنن عن سُنيَم بن عامر أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدرون

ما خيّرني ربي الليلة ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه خيّرني بين أن يُدخل نصفَ أمتي الجنة ، وبين الشفاعة . فاخترت الشفاعة « قلنا : يا رسول الله ! ادع الله أن يجعلنا من أهلها ، قال : هي لكل مسلم » .

وما أحسبني بحاجة إلى تجديد التذكير بأن الشفاعة - كما تعطي النصوص - منوطة بالتوحيد الخالص لله عز وجل ، ومن كان على التوحيد الخالص ، لم يقعه الفرح بها - وهي من فضل الله ورحمته بهذه الأمة - عن أخذ نفسه بأسباب الاستقامة ، وخشية الله بالغيب ، وتقواه سبحانه في السر والعلن ، والحرص على أن يكون هديّ الشافع المشفع صلوات الله وسلامه عليه ، طريقه المسلوكة إلى دار البقاء ، يوم يضع الله الموازين القسط ليوم القيامة ، وهنالك توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

المبشرات.. وشجذ الهمم للطلاعة

ما من ريب في أن أحاديث الشفاعة، تجعل الرجاء بفضل الله ورحمته، يربو ويتعظم، الأمر الذي يدع المؤمن أقرب إلى الطمأنينة، بأنه من أهل النجاة والفوز، في تلك الساعات الفاصلة يوم اللقاء، ولكن يفترض في الوقت نفسه، أن تكون ثمرة التفاعل مع تلك الأحاديث، والتأثر بمدلولاتها وعطائنها، حافزاً فعّالاً من حوافز الاستزادة من كل ما يقرب إلى الله زلفى في هذه الدار، دار التكليف والعمل، وباعثاً من بواعث الحرص، على أن تزين تصرفات المؤمن تقوى الله وخشيته - جل شأنه - بالغيب ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾. ومن الأهمية بمكان، استذكار أن السلف الصالح رضوان الله عليهم، ما كانت تزيدهم المبشرات، إلا قوة في شجذ انهم للمسارة إلى الطاعة والجهاد، وإعداد العدة ليوم الحساب، حتى كأنهم يرون الجنة والنار رأي عين ۝ بل إن بعضهم كان إذا رأى النار في الدنيا، أذكرته نار الآخرة جهنم، وأصابه من الرعب والخوف من سوء العاقبة ما أصابه، لما يتقال من عمله - مهما كان هذا العمل - إذا وزن بما يجب أن يكون. على أن إخلاص التوجه إلى الله في طلب الرحمة، يوم لا ينفع إلا الرحمة - ومنها شفاعة النبي ﷺ - من الأمور التي لا ينبغي لمؤمن أن يغفل عنها، أو يقصر في أن يرجوها بذلة وخشوع وخضوع.

أقول هذا وفي الجعبة شذرات مباركات، تتعلق بنصوص الشفاعة والتفاعل معها، صنّع المختبين المنيين. من ذلك ما ذكرت المصادر عن الثقة العابد الربيع ابن خُثَيْم - من جلة التابعين - الذي قال له عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : «لورآك رسول الله ﷺ لأحبك».

أخرج أبو نعيم في الحلية بسنده عن بكر بن ماعز أنه قال : « انطلق الربيع بن خُثَيْم وعبدالله بن مسعود إلى شاطئ الفرات ، فمرّ بأولئك الحدادين ، فلما رأى

تلك النيران « خرّ مغشياً عليه ، فرجع إليه ، فقال: ياربيع ! فلم يجبه ، فانطلق فصلّى بالناس العصر ، ثم رجع إليه ، ياربيع ياربيع ، فلم يجبه ، ثم انطلق فصلّى بالناس المغرب ، ثم رجع ، ياربيع ياربيع ، فلم يجبه ، حتى ضربه برد السّحر . ورواه أبووائل عن عبدالله . كما أخرج أبو نعيم بسنده أيضاً عن أبي وائل قال : خرجنا مع عبدالله بن مسعود ومعنا الربيع بن خثيم « فمررنا على حداد ، فقام عبدالله ينظر حديدة في النار ، فنظر ربيع إليها ، فتمايل ليسقط ، فمضى عبدالله ، حتى أتينا على أتون على شاطئ الفرات ، فلما رأى عبدالله النار تلتهب في جوفه ، قرأ هذه الآية ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ إلى قوله ﴿ ثبوراً ﴾ قال : فصعق الربيع « فاحتملناه ، فجئنا به إلى أهله ، قال : ثم رابطته إلى المغرب فلم يفق ، ثم إنه أفاق فرجع عبدالله إلى أهله .

هذا: والذي يلي قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿ تغيظاً وزفيراً ﴾ قوله سبحانه : ﴿ وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً . لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾ .

ولقد أردت هذه الكلمات ، أن تكون ذكرى — والذكرى تنفع المؤمنين — بين يدي المتابعة اخادفة لكلمات مضيئات في شأن البشارة ، بأن خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، لا بد أن يشفع عند الله يوم الحشر الأكبر للمذنبين من أمته ، الذين ما توا وهم لا يشركون بالله شيئاً .. عسى أن يستزيد من العمل العاملين ، وأن يوفق المقصرون — وأنا منهم — إلى الحرص على أن تكون مبشرات الشفاعة ، غير مقطوعة النسب عن نصوص التكليف ، والدعوة إلى الأخذ بكل ما يُربي الإيمان في النفوس ، ويحفز على الجهاد والاستكثار من القربات ؛ طاعة لله وإخلاصاً في تقواه ، شأن السلف الصالح الأمناء على العمل بدين الله ، الذين كانوا على إرث النبوة في ذلك ، جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين كل خير . وهذه مسألة مهمة — والله أعلم — على طريق تركية النفس ، والانتفاع بالأخبار الصادقة عن يوم الدين ، كيما يكون لها سلطانها على السلوك ؛ فإذا اقترن ذلك ، بصورة عملية من صنيع السلف

الصالح ، تثير الرغبة في التأسي ، كان ذلك خيراً على خير .

ونعود إلى ما نحن بسبيله . قال الإمام أحمد في المسند : حدثنا عبدالصمد قال : حدثنا محمد بن أبي المليلح الهذلي قال : حدثني زياد بن أبي المليلح عن أبيه عن أبي بردة عن عوف بن مالك الأشجعي «أنه كان مع النبي ﷺ في سفر ، فسار بهم يومهم أجمع ، لا يحُلُّ لهم عقدة ، وليلته جمعاء ، لا يحُلُّ عقدة إلا لصلاة ، حتى نزلوا أوسط الليل ، قال : فرقب رجل رسول الله ﷺ حين وضع رحله ، قال : فانتهيت إليه ، فنظرت فلم أر أحد إلا نائماً ، ولا بعيراً إلا واضعاً جراحه نائماً . قال : فتناولت ، فنظرت حيث وضع النبي ﷺ رحله ، فلم أره في مكانه ، فخرجت أتخطي الرجال ، حتى خرجت إلى الناس ، ثم مضيت على وجهي في سواء الليل ، فسمعت جرساً ، فانتهيت إليه فإذا أنا بمعاذ بن جبل والأشعري ، فانتهيت إليهما ، فقلت : أين رسول الله ﷺ ؟ فإذا هزير كهزير الرحا ، فقلت : كان رسول الله ﷺ عند هذا الصوت ، قالوا : اقعد اسكت ، فمضى قليلاً ، فأقبل حتى انتهى إلينا ، فقمنا إليه ، فقلنا : يا رسول الله فزعنا إذ لم نرك ، واتبعنا أثرك » فقال : إنه أتاني آت من ربي عز وجل ، فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة ، وبين الشفاعة ، فاخترت الشفاعة ، فقلنا : ندركك الله والصحبة إلا جعلتنا من أهل شفاعتك ، قال : أنتم منهم ؛ ثم مضينا ؛ فيجيء الرجل والرجلان ، فيخبرهم بالذي أخبرنا به ، فيذكرونه الله والصحبة ، إلا جعلهم من أهل شفاعته ، فيقول : فإنكم منهم ، حتى انتهى الناس فأضربوا عليه ، وقالوا : اجعلنا منهم قال : فإني أشهدكم أنها لمن مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً .»

وأخرجه أحمد من طريق أخرى عن عوف بن مالك الأشجعي أيضاً قال : «عرس رسول الله ﷺ - ذات ليلة - فافترش كل منا ذراع راحلته ، قال : فانتهيت إلى بعض الليل ؛ فإذا ناقة رسول الله ﷺ ليس قدامها أحد ، قال : فانطلقت أطلب رسول الله ﷺ ، فإذا معاذ بن جبل وعبدالله بن قيس قائمان ، قلت : أين رسول الله ﷺ ؟ قالوا : ما ندري ، غير أنا سمعنا صوتاً بأعالي الوادي ، فإذا مثل

هزير الرحا قال: امكثوا يسيراً، ثم جاءنا رسول الله ﷺ فقال: إنه أتاني آت من ربي فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، فقلنا: ننشدك الله والصحبة، لما جعلتنا من أهل شفاعتك، قال: فإنكم من أهل شفاعتي، قال: فأقبلنا معانيق إلى الناس، فإذا هم قد فزعوا وفقدوا نبيهم، وقال رسول الله ﷺ: إنه أتاني الليلة من ربي آت، فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، قالوا: يارسول الله ننشدك الله والصحبة، لما جعلتنا من أهل شفاعتك؛ فلما أضبوا عليه قال: فأنا أشهدكم أن شفاعتي لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمتي».

معانيق: أي مسرعين. وهزير الرحا: صوت دورانها. قال ابن الأثير: (وفيه «إني سمعت هزيراً كهزير الرحا» أي صوت دورانها). فلما أضبوا عليه: أي فلما أكثروا عليه، يقال: أضبوا: إذا تكلموا متتابعاً، وإذا نهضوا في الأمر جميعاً.

جزى الله نبينا محمداً ﷺ - على ما اختار - من الشفاعة للأمة - ما هو أهله « وكتب لنا أن نكون في الآخرة من أهلها، والله الحمد في الأولى والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل.

عموم الشفاعة.. وأسعد الناس بها

هذه خطوة أخرى ، مع نصوص من الهدي النبوي ، تسعف — بعون الله — في تجلية ما يبدو في الظاهر تعارضاً بين تلك النصوص الواردة في شأن من يكونون أهلاً لأن تنالهم شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ إذ هناك ما يدل ، على أنها لمن مات لا يشرك بالله شيئاً ، وهنالك ما يدل ، على أنها لأهل الكبائر من الأمة . ولم يُعجز العلماء ذلك ، عن التوفيق بين دلالات النطق الكريم — كما أشرت من قبل — وتبيين القاعدة التي يقوم عليها هذا الإكرام من الله عز وجل ، حين أعطى نبيه المصطفى ﷺ العطاء الجزيل ، وحقق له ما أراد من الرحمة بأمته .

عقد الإمام أبوداود في « كتاب السنة » من السنن باباً في الشفاعة قال فيه : حدثنا سليمان بن حرب قال : حدثنا بسطام بن حريث عن أشعث الخداني عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » وبهذا اللفظ أخرجه ابن حبان والحاكم .. وبهذا اللفظ أيضاً ، ومن الطريق نفسها رواه أحمد في المسند . وأخرجه البخاري كذلك في « التاريخ الكبير » عن أنس ابن مالك رضي الله عنه ولكن بلفظ « شفاعتي لأهل الكبائر » وأخرج الترمذي في « كتاب القيامة » من الجامع الصحيح — سنن الترمذي — بسنده عن معمر بن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال : قال : رسول الله ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه . وفي الباب عن جابر : ثم روى بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » قال محمد بن علي : فقال لي جابر : « يا محمد من لم يكن من أهل الكبائر ، فماله وللشفاعة ؟ » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه يستغرب من حديث جعفر بن محمد . قال « صاحب تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي » : والحديث

ضعيف لضعف محمد بن ثابت ، ولكنه يعتضد بحديث أنس المذكور ، رواه الطبراني عن ابن عباس ، والخطيب عن ابن عمر وعن كعب بن عجرة رضي الله تعالى عنهم . والحاجة إلى الشفاعة قائمة لرفع الدرجات ، إن لم يكن المسلم ممن أشير إليهم في هذه النصوص . ونجد عند ابن ماجة رواية بزيادة « إن » المؤكدة ولفظ « يوم القيامة » حيث روى بسنده عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن شفاعتي يوم القيامة لأهل الكبائر من أمتي » وله في رواية أخرى تحمل شيئاً من التفصيل والتعليل عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خُيِّرَ بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة ، فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى ، أترونها للمتقين ؟ لا ، ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين » قال البوصيري في الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات .

والملاحظ ، أن العلماء يتأولون هذا الحديث الذي خصّ بالشفاعة أهل الكبائر من الأمة ، بأنه يعني الشفاعة التي هي دعوة النبي ﷺ التي ادخرها لأئمة ؛ فالإضافة في كلمة « شفاعتي » بمعنى ال العهدية ، أي الشفاعة التي وعدني الله بها ، ادّخرتها لأهل الكبائر من أمتي ، وفتر ذلك — كما نقل عن المناوي — بأنه نوضع السيئات ، والعفو عن الكبائر ، وأما الشفاعة لرفع الدرجات : فلكل من الأتقياء والصلحاء الذين استحقوا هذا الإكرام بتقواهم وصلاحهم . وقد ورد في بيان ذلك العديد من نصوص السنة المطهرة ، من ذلك ما أخرج الترمذي بسنده عن عطية عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن من أمتي من يشفع للفتام من الناس ، ومنهم من يشفع للقبيلة ، ومنهم من يشفع للعصبة ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

ومهما يكن من أمر : فإن الأساس في الموضوع : أن يلقي المسلم ربه وهو على الدين الخالص ، توحيداً لله تبارك وتعالى ، وبُعداً عن كل ما يعكر صفو هذا التوحيد ؛ وذلك بأن يموت — يوم يموت — وهو على قول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، خالصاً من قلبه ونفسه ، روى البخاري في كتاب العلم من الجامع الصحيح

بسند من أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث!! أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه». وفي رواية «من قَبِلَ نفسه» ومن الواضح أن في قول النبي ﷺ: «من قال لا إله إلا الله» احترازاً عن الشرك. ولا بد من التنبيه على أن المراد من الحديث: النطق بالكلمة الطيبة بجزأها، لكن قد يكتفى - كما يقول العلماء - بالجزء الأول من كلمتي الشهادة لأنه صار شعاراً لمجموعهما. فإذا قال الموحد: «لا إله إلا الله، فالقصد: لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وقد اتجه الحافظ ابن حجر، إلى أن أفعل التفضيل في قوله ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي...» على بابه؛ فكل أحد يلقي الله على التوحيد الخالص، يحصل له سعد بشفاعته عليه الصلاة والسلام، ولكن المؤمن المخلص أكثر سعادة بها؛ فإنه ﷺ يشفع في الخلق جميعاً لإراحتهم من هول الموقف والقضاء بينهم، ويشفع في بعض الكفار، بتخفيف العذاب، كما صح في حق أبي طالب، ويشفع في بعض المؤمنين بالخروج من النار بعد أن دخلوها، وفي بعضهم بعدم دخولها بعد أن استوجبوا دخولها، وفي بعضهم بدخول الجنة بغير حساب، وفي بعضهم برفع الدرجات فيها؛ فظهر الاشتراك بالشفاعة، وأن أسعدهم بها المؤمن، المخلص والله أعلم.

هذا ولعل أبا هريرة رضي الله عنه سأل هذا السؤال، عند تحديته ﷺ بقوله «وأريد أن أختبيء دعوتي شفاعة لأهل الكبائر من أمتي» - كما مر بنا - غير مرة. ثم إنه غير خافٍ ما يدل عليه قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو من قَبِلَ نفسه» من ضرورة الإخلاص في قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، الذي ينبني عليه ما ينبني، وأن يكون ذلك باختياره. وقد وقع في رواية أحمد وصححه ابن حبان من رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه، ما يفيد ضرورة

تصديق القلب اللسان، واللسان القلب، وقد جاء في تلك الرواية « وشفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً وأن محمداً رسول الله يصدق لسانه قلبه، وقلبه لسانه ».

وجميل ما ذهب إليه الحافظ ابن حجر في « الفتح » من أن الشفاعة المسؤول عنها هنا : بعض أنواع الشفاعة، وهي التي يقول ﷺ في شأنها : أمتي أمتي ، فيقال له : أخرج من النار من في قلبه وزن كذا من الإيمان ؛ فأسعد الناس بهذه الشفاعة ، من يكون إيمانه أكمل ممن دونه ، وأما الشفاعة العظمى في الإراحة من كرب الموقف : فأسعد الناس بالشفاعة : من يسبق إلى الجنة ، وهم الذين يدخلونها بغير حساب ، ثم الذين يلونهم ، وهو من يدخلها بغير عذاب ، بعد أن يحاسب ويستحق العذاب ، ثم من يصيبه لفح النار ولا يسقط .

والحاصل — كما يقول الحافظ رحمه الله — أن في قوله « أسعد » إشارة إلى اختلاف مراتبهم في السبق إلى الدخول ، باختلاف مراتبهم في الإخلاص ولذلك أكد بقوله : « من قلبه » مع أن الإخلاص ؛ محله القلب ، ولكن إسناد الفعل إلى الجارحة ، أبلغ في التأكيد والله أعلم .

الحوض.. والكوثر

من المشاهد العظيمة الغامرة بفضل الله وإحسانه يوم الدين « مشهد الحوض ووروده؛ وقد جاءت النصوص لتدل بوضوح لا يحتمل اللبس ، على أن نبينا محمداً ﷺ يكرمه الله بالحوض يوم القيامة ، وهو الحوض الذي من ورده شرب ، ومن شرب لم يظماً أبداً ، وثبت أنه ﷺ فرط الأمة على الحوض ، أي سابقها إليه كالمهيء له .

قال القاضي عياض رحمه الله في «إكمال العلم» - كما نقل الإمام النووي :-
أحاديث الحوض صحيحة ، والإيمان به فرض ، والتصديق به من الإيمان ، وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة ، لا يتأول ولا يختلف فيه ، وحديثه متواتر النقل ، رواه خلائق من الصحابة .

قال الإمام مسلم : حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا يعقوب ، يعني ابن عبد الرحمن القاري ، عن أبي حازم قال : سمعت سهلاً يقول : سمعت النبي ﷺ يقول : « أنا فرطكم على الحوض ، من ورد شرب ، ومن شرب لم يظماً أبداً ، وليردَنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثم يحال بيني وبينهم » قال أبو حازم : فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث ، فقال : هكذا سمعت سهلاً يقول ؟ فقلت : نعم ، قال : وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسماعته يزيد فيقول : «إنهم مني ، فيقال : إنك لا تدري ما عملوا بعدك ، فأقول : سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي » .

كما عقد الإمام البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح باباً عنوانه :
«باب في الحوض وقول الله تعالى : ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ وقال عبدالله بن زيد قال النبي ﷺ : اصبروا حتى تلقوني على الحوض» .

ثم جاء بعدد من الأحاديث كان منها ما روى بسنده عن أبي عوانة عن سليمان عن شقيق عن عبدالله عن النبي ﷺ « أنا فرطكم على الحوض » .

وقد جمع الروايات بطرقها الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه « البعث والنشور » بأسانيدھا وطرقھا المتكاثرات فقال القاضي عياض : وفي بعض هذا ما يقتضي كون الحديث متواتراً .

وهذا الذي نرى من كون النبي ﷺ فرط الأمة على الحوض - أي سابقها إليه - جاءت به الرواية عند مسلم وغيره أيضاً . قال الإمام مسلم : حدثني أحمد بن عبدالله بن يونس قال : حدثنا زائدة قال : حدثنا عبد الملك بن عمير قال : سمعت جندباً يقول : سمعت النبي ﷺ يقول : « أنا فرطكم على الحوض » .

وتضع الأحاديث أيدينا على صفات لهذا الحوض الذي يكرم الله به نبيه ﷺ ومن يقسم له أن يرده من أمته . روى البخاري بسنده عن ابن أبي مليكة قال : قال عبدالله بن عمرو : قال النبي ﷺ : « حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منها فلا يظمأ أبداً » . وله في الجامع الصحيح أيضاً عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « الكوثر الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه » ، قال أبو بشر : قلت لسعيد : إن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة ، فقال سعيد : « النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه » . وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ما آنية الحوض ؟ قال : « والذي نفس محمد بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المصحية . آنية الجنة ، من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه ، يشخب فيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ . عرضه مثل طولہ ، ما بين عمان إلى أيلة ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل » أخرجه مسلم .

وها نحن أولاء نجد الترمذي يختص صفة أواني الحوض بباب خاص في

كتاب القيامة من الجامع الصحيح - سنن الترمذي - وقد أخرج بسنده هناك عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر قال : « قلت يا رسول الله ما آنية الحوض ؟ قال : والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في ليلة مظلمة مصحية . آنية الجنة ، من شرب منها شربة لم يظمأ آخر ماعليه ، عرضة مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

وفي بيان لتلك الكرامة العظيمة للإمام النبیین عليه الصلاة والسلام ، وتذكير للأمة بالعلاقة بين الكوثر والحوض ، كيما تسلك طريق الشكر للنعمة ، وتكون لها الخطوة بذلك العطاء الإلهي لنبيها صلوات الله وسلامه عليه ... نجد الرسول الكريم ، يكشف عن بعض ذلك في عدد من نصوص الهدى النبوي ؛ روى أبو داود في كتاب السنة من السنن بسنده عن المختار بن فلفل قال : سمعت أنس ابن مالك رضي الله عنه يقول : « أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه متبسماً » فإذا قال لهم : وإما قالوا له : يا رسول الله لم ضحكت ؟ فقال : إنه أنزلت عليّ أنفاً سورة فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ » حتى ختمها فلما قرأها قال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه نهر وعذني ربي عز وجل في الجنة ، وعليه خير كثير ، عليه حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب .

وتطالعنا بعض الروايات ، بما فيه الجمع بين كونه ﷺ فرطاً الأمة على الحوض ، وبين بعض صفات الحوض ؛ من ذلك ما روى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ألا إني فرط لكم على الحوض ، وإن بُعد ما بين طرفيه كما بين صنعاء وأيلة كأن الأباريق فيه النجوم » .

اللهم آت أنفسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها . اللهم اجعلنا ممن يجدون في طلب الآخرة بالاستقامة على طاعتك وطاعة رسولك ، علماً وعملاً ، وجهاداً ، حتى نكون ممن يكرمون بورود حوضه ﷺ ، فلانظماً بعد ذلك أبداً .

فَرَطُ الْأُمَّةِ عَلَى الْحَوْضِ ﷺ

نصوص الحديث النبوي، واضحة الدلالة ، في إنبائها عما يكون من إكرام الله جل شأنه لإمام الهداة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، بالحوض المورد ، وكيف يتعدى ذلك إلى الأمة المحمدية ، حيث يتفضل الله على من يشاء بوروده على المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وأن من قُسم له أن يردّه ، شرب ، ومن شرب منه شربة لم ينله ظمأ ، ولا سقم بعدها أبداً . وهنا لابد من وضع العلاقة بين الحوض وبين الكوثر الوارد ذكره في سورة الكوثر ، بالحسبان .

وتقودنا هذه الحقيقة التي دلت عليها الكلمات الهاديات ، إلى النظر فيما كان عليه السلف الصالح – جزاهم الله عن الأمة كل خير – من إيمان عميق بهذه المكرمة العظيمة ، حتى كأن الواحد منهم يراها في هذه الدار – حيث عالم الشهادة – ماثلة أمام ناظره . ومن سعي حثيث على طريق العبودية الخالصة والتقوى ، والنصح للأمة ، والمحبة الصادقة للرسول ﷺ ، وحسن اتباعه والتأسي به ، كيما يكونوا من أولئك الواردين على الحوض ، الذين ينعمون بما تفضل الله به عليه وعلى أمته ، وما خصّه به في الدنيا والآخرة ، من الفضائل العظام .

قال الإمام الحجة أبو محمد عبدالحق الإشيلي الأزدي المتوفى سنة ٥٨١ في كتاب « العاقبة » بين يدي إirاده أحاديث الحوض : (قد سمعت - رحمك الله - بعطش هذا اليوم والتهابه - يعني يوم القيامة - وما يصل إلى القلوب من أواره واحتراقه ، وأن الماء في ذلك اليوم أعز موجود وأعظم مفقود ، وأن لا منهل مورود ، إلا حوض صاحب المقام المحمود ﷺ ، ولا مشرب لأمته سواه ، ولا تبرد أكبادهم إلا به ، وأن الشربة منه ، تروي من الظمأ ، وتشفي من الصدى ، وتذهب كل داء ، فلا يظمأ شاربها ولا يسقم بعدها أبداً ، وأنها ترد العقل العازب ، والشباب

الذاهب ، ويؤوب معها من الزمن الصالح ما لم يكن قبل بأيب ، وأنه لا يرد ذلك الحوض إلا من ورد في الدنيا حوض شرعته ، وتمسك بسنته ، وتوفي على ملته ، وإلا فيجلى عنه ، ولا يدنو منه ، ولا يكاد ، ويضرب عنه ضرباً تنقطع له الجوانح والأكباد).

وإذا كان تأكيد القناعة الإيمانية ، بأن الحوض محقق الوجود - يوم يقوم الناس لرب العالمين - نافعا ، فإن متبصراً بالنصوص ، لا يرتاب في أن وصف النبي ﷺ له - كما مر بنا من قبل - لم يدع ريبة لمستريب ، في استيقان وجوده ، الأمر الذي دعا أهل الخشية ، إلى الجمع بين الإيذان بهذه الحقيقة ، وبين العمل الذي يكون - بتوفيق الله - طريقهم إلى ورود الحوض ؛ ونراهم يدعون الله تعالى أن يرزقهم في الدنيا علمه ، وفي الآخرة رزقه ؛ فإن من صفاته : أن من شرب منه لم يظماً أبداً . أخرج الإمام مسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إني لَبِقْعِرِ حَوْضِي أَذُودُ النَّاسِ لِأَهْلِ الْيَمَنِ » أضرب بعصاي حتى يرفض عليهم . فُسئل عن عرضه فقال : من مقامي إلى عمان . وسئل عن شرابه ؟ فقال : أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، يَغْتُ فيه ميزابان يُمْدَّانه من الجنة ، أحدهما من ذهب والآخر من ورق .

عُقر الحوض : مؤخره ، وقوله : لأهل اليمن ، أي لأجل أن يرد أهل اليمن ، والدُّود : الطرد والدفع . يرفض : يتفرق ، وارفَضَ الدمع إذا جرى متفرقاً مترششاً ، والمراد : حتى يسيل عليهم ماء الحوض . وقوله ﷺ يَغْتُ فيه ميزابان هو من غت الماء يَغْتُ إذا جرى جرياً له صوت ، قال ابن الأثير : وقيل : يدفق الماء فيه دفقاً متتابعاً .

والنبي ﷺ يُرضيه ويُثلج صدره ، أن يكون أكثر النبيين عليهم الصلاة والسلام وُزاداً على حوضه ؛ لأن لكل نبي حوضاً ، والكل يريد كثرة الواردين . أخرج الترمذي بسنده عن قتادة عن الحسن عن سُمرة قال : قال رسول الله ﷺ :

«إن لكل نبي حوضاً وإنهم يتباهون أيُّهم أكثرُ واردةً، وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة». قال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن النبي ﷺ مرسلًا ولم يذكر فيه سُمرة ، وهو أصح .

ولما كان المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فرط الأمة على الحوض ، رأيناه يدل من سألته الشفاعة يوم القيامة ، على مواطن وجوده صلوات الله وسلامه عليه ؛ وهي الصراط والميزان والحوض ، فإن لم يلقه على الصراط ولا عند الميزان ، فليطلبه عند الحوض ، لأنه ﷺ لا يخطئ هذه المواطن الثلاثة - كما مرّ ذلك من قبل - وقد روى الترمذي الحديث الكاشف عن ذلك في باب «ما جاء في شأن الصراط» من جامعه الصحيح «السنن» قال رحمه الله : حدثنا عبد الله بن الصباح الهاشمي قال : حدثنا بدل بن المحبر قال : حدثنا حرب بن ميمون الأنصاري أبو الخطاب قال : حدثنا النضر بن أنس بن مالك عن أبيه قال : «سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة ، فقال : أنا فاعل ، قال : قلت : يارسول الله ، فأين أطلبك ؟ قال : أول ما تطلبني على الصراط قال : قلت : فإن لم ألقك ؟ وفي رواية - فإن لم ألقك - أي أجذك - على الصراط ؟ قال : فاطلبي عند الميزان ، قلت : فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال : فاطلبي عند الحوض ، فإني لا أخطيء هذه الثلاث المواطن ». قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وأخرجه الإمام أحمد - مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ - . جاء في المسند : حدثنا عبد الله قال : حدثني أبي قال : حدثنا يونس بن محمد قال : حدثنا حرب ابن ميمون عن النضر بن أنس عن أنس رضي الله عنه قال : «سألت نبي الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة ، قال : أنا فاعل بهم ، قال : فأين أطلبك يوم القيامة يا نبي الله قال : اطلبي أول ما تطلبني على الصراط . قال : قلت : فإذا لم ألقك على الصراط قال : فأنا عند الميزان ، قال : قلت فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال : فأنا عند الحوض لا أخطيء هذه الثلاث مواطن يوم القيامة ».

وهذا الحديث الذي دلّ على تلکم المواطن التي لا یخطئها سید العالمین صلوات الله وسلامه علیه يوم القيامة ، والتي تسبّب بالکشف عنها سؤال الصحابي الجلیل أنس بن مالک رضي الله عنه النبي ﷺ الشفاعة ، أورده الحافظ ابن کثير في « البداية والنهاية » وقال : رواه الترمذی من حديث بدل بن المحبّر وابن ماجّة في سننه من حديث عبدالصمد؛ كلاهما عن حرب بن میمون بن أبي الخطاب الأنصاري البصري من رجال مسلم ، وقد وثقه علي بن المديني وعمرو ابن علي الفلاس ، وفرقا بينه وبين حرب بن أبي عبدالرحمن العبدي أيضاً .

ولنا عودة إلى هذا الحديث الميمون - إن شاء الله - طلباً للمزيد من الاستنارة بمعانيه وأبعاد الإیمان به في حياة أهل الإیمان ، ونسأل الله بأسمائه الحسنی وصفاته العلا أن يجعلنا ممن یردون الخوض في ذلك اليوم العصيب ، الخوض الذي ، من شرب منه شربة ، لم یظمأ بعدها أبداً ، وهو - سبحانه - المحمود على کل حال .

الورود على الحوض متى يكون؟

البيان الشافي عن الحوض المورود ، ومكانته على ساحة الإكرام والمثوبة لعباد الله الصالحين ، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ، وظلوا على العهد ؛ وفاء بالموثق الذي قطعوه على أنفسهم بالإيمان ... هذا البيان في حديث النبي عليه الصلاة والسلام ، صفحة مباركة ، ينتظمها عقد ما يدل على عظيم قدره صلى الله عليه وسلم ومكانته الرفيعة عند الله عز وجل - ومن ورائه أمته - وما يكون له يوم القيامة - حيث الأهوال العظام والمصائب الجسام التي تضرب على قلوب الناس بالأسداد - من خصائص ومكارم ، وهو في الوقت نفسه ، لون مشرق بالغ التأثير ، من الهدى في دعوة المسلمين إلى الاستمسك بما من الله عليهم « من الكتاب والسنة ، والعض بالنواجذ على ما فيهما من النور والهداية - وكل ما في الكتاب والسنة نور وهداية - والاستعلاء على نوازع الأهواء والشياطين ، كيما يكون كل مسلم ومسلمة على الطريق التي تصل بصاحبها - وهو يسارع إلى مغفرة الله وجنته في دار الخلد إلى منزلة أن يكون - برحمة الله وفضله - أهلاً لورود الحوض على نبيه الشافع المشفع عليه الصلاة والسلام ، فيشرب منه « ولا يظماً بعد ذلك أبداً ، ولا يذاد عنه ، كما تزداد الإبل الضالة ، يطردها من يطردها عن ورود الماء .

أقول هذا : لأنه قد ثبت في صحاح الأحاديث : أن الرسول ﷺ يرى يوم القيامة أناساً من أمته يذادون عن الحوض ، كما تزداد الإبل الضالة ، فيقول : « أليسوا من أمتي ؟ فيقال له : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » .

وأنت ترى أن الله تعالى ، شاء بحكمته أن يكون المصطفى عليه الصلاة والسلام فرطاً الأمة على الحوض ، وقد كشف ﷺ في كثير من أحاديثه عن ذلك ، فأبان أنه فرط أمته على الحوض ، أي سابقهم كالمهييء له . وذلك وجه من وجوه

رحمته بالمؤمنين إذ أنه - كما صنعه سبحانه على عينه - بالمؤمنين رؤوف رحيم .

وحين يدار الحديث عن رأفته ورحمته ﷺ بالمؤمنين « تطل على هذه الساحة واحدة من وقائع كثيرة ، تدل أوضح دلالة على رأفته ورحمته بالواحد من أفراد الأمة ؛ فهو لا يضيق ذرعاً براغب في الشفاعة يوم الحساب ، يلج عليه في الطلب ، والسؤال عن موعد اللقاء في عرصات القيامة » ويكون الحوض ثالث ثلاثة من المواطن التي حددها صلوات الله وسلامه عليه ، مكاناً لهذا اللقاء ، كي يحقق للسائل طلبته في أن يفوز بشفاعته ﷺ ، ويسلكه الله في زمرة من يخلدون في الجنة دار المتقين ، وهو الرحيم المتفضل سبحانه .

ودليل ذلك ما جاء في رواية لأحمد والترمذي ، أوردتها في مناسبة أخرى ، أن الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، سأل النبي ﷺ الشفاعة وكان من جواب الرسول الكريم : أنه فاعل إن شاء الله . ويصرُّ أنس على معرفة المكان الذي يطلب فيه الرسول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، كي يطمئن قلبه ، ويستريح إلى أنه من أهل الشفاعة بإذن الله ، يدعوهُ إلى ذلك أدبه مع الله وخشيته بالغيب ، وصدق محبته لنبه صلى وسلم وبارك عليه .

ولما استجاب ﷺ لطلبه قال له : يا رسول الله فأين أطلبك ؟ قال : اطلبني أول ما تطلبني على الصراط ، وخشي أنس أن لا يقسم له لقاء ، فقال : فإن لم ألقك على الصراط ؟ قال : « فاطلبي عند الميزان . وكذلك احتاط رضي الله عنه للأمر بعد الثانية فقال : فإن لم ألقك عند الميزان ؟ عندها قال صاحب الحوض المورود عليه الصلاة والسلام : « فاطلبي عند الحوض المورود ؛ فإنني لا أخطئ هذه الثلاث مواطن » . رأيت إلى خلق الرأفة والرحمة الذي وصف الله به نبيه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، كيف تجلّى واضحاً مشرقاً غاية الإشراق في هذه الواقعة التي سوف تقع في يوم يشيب لهوله الوليد ؟

وفي حديث موصول بما سبق ، نذكر ما أخرج أبو بكر البزار بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا فرط بين أيديكم ، فإن لم تجدونني فلإني على الحوض ، وسيأتي أقوام رجال ونساء ، ثم لا يدوقون منه شيئاً » .

هذا وسؤال أنس بن مالك رضي الله عنه النبي ﷺ الشفاعة يوم القيامة ، دعا العلماء للتساؤل عن هذه الشفاعة ، فقالوا : المقصود بالشفاعة التي سأها أنس كما جاء النص : الشفاعة الخاصة من بين هذه الأمة ، دون الشفاعة العامة . وتبيناً لقوله : قلت يا رسول الله فأين أطلبك ؟ قال الطيبي رحمه الله : أي في أي موطن من المواطن التي أحتاج لشفاعتك أطلبك لتخلصني من تلك الورطة ؟ فأجاب ﷺ : « عند الصراط ، وعند الميزان ، وعند الحوض » أي أفقر الأوقات إلى شفاعتي : هذه المواطن .

وقد يبدو شيء من التعارض الظاهري بين ما يتقرر في هذا الحديث ، وبين الذي مر بنا من قبل ، من حديث عائشة رضي الله عنها الذي أخرجه أبو داود : فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال ﷺ : « أما في ثلاثة مواطن : فلا يذكر أحد أحداً ، عند الميزان حتى يعلم أين يخف ميزانه أم يثقل ؟ ، وعند الكتاب حين يقال : هاؤم اقرؤوا كتابيه حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره ؟ ، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم » قال الطيبي : جوابه لعائشة بذلك ، لثلاث تتكل على كونها حرم رسول الله ﷺ ، وجوابه لأنس ، كيلا يأس .

واتجه بعض العلماء في التوفيق بين الحديثين اتجاهاً آخر : فقد نقل صاحب تحفة الأحوذى عن القاري قوله : فيه أنه خادم رسول الله ﷺ ، فهو محل الاتكال أيضاً ، مع أن اليأس غير ملائم له أيضاً . فالأوجه أن يقال : إن الحديث الأول محمول على الغائبين ، فلا أحد يذكر أحداً من أهله الغيب ، والحديث الثاني محمول على من حضره من أمته . وهكذا بين النبي عليه الصلاة والسلام لأنس

رضي الله عنه ، ومن وراء ذلك للأمة ، أنه لا يتجاوز هذه المواطن الثلاثة في ذلك اليوم العصيب الزاخر بالمشاهد المؤذنة بالمصير ، ولا أحد يفقده فيهن جميعاً ، فلا بد أن يلقاه في موضع منهن .

وتحسن الإشارة بعد هذا : إلى أن الحديث يدل على أن الحوض بعد الصراط ، وإلى ذلك أشار الإمام البخاري في صحيحه ، حيث أورد أحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة وبعد نصب الصراط ، قال الحافظ ابن حجر في الفتح : وإيراد البخاري لأحاديث الحوض ، بعد أحاديث الشفاعة وبعد نصب الصراط : إشارة منه إلى أن الورود على الحوض ، يكون بعد نصب الصراط والمرور عليه ، وأيّد ذلك بالحديث الذي نحن بصددده .

ثم ذكر الحافظ ، أنه قد استشكل كون الحوض بعد الصراط ، بما ورد - كما سيأتي - من أن جماعة يُدفعون عن الحوض ، بعد أن يكادوا يردون . ويذهب بهم إلى النار . ووجه الإشكال : أن الذي يمر على الصراط ، إلى أن يصل إلى الحوض ، يكون قد نجا من النار ، فكيف يُرد إليها ؟ قال رحمه الله : ويمكن أن يحمل على أنهم يقربون من الحوض ، بحيث يرونه ويرون النار ، فيدعون إلى النار ، قبل أن يخلصوا من بقية الصراط . وذهب أبو عبدالله القرطبي في كتابه « التذكرة في أحوال الموت وأمور الآخرة » إلى أن الصحيح - كما يرى - أن للنبي ﷺ حوضين ؛ أحدهما في الموقف قبل الصراط ، والآخر داخل الجنة . وكل منهما يسمى كوثرًا ، ولم يرتض الحافظ ذلك ، لأن الكوثر نهر داخل الجنة - كما تدل النصوص - وماؤه يصب في الحوض ، ويطلق على الحوض كوثر لكونه يُمدُّ منه .

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

عمر بن عبد العزيز.. وورود الحوض

كلما أنعم المؤمن النظر فيما يكون يوم القيامة من مشاهد وأهوال ، وما يطلع على الناس، من المكرمات العظام لنبينا محمد ﷺ ، ومنها الحوض المورود، وإكرام الأمة المحمدية بوروده والشرب منه، إلا من أثقلته المعوقات ، أو دُفع عنه بسبب مخالفته عن أمر الله ورسوله .. كلما أمعن المؤمن النظر في هذا ، ازداد إيماناً بضرورة التصديق الذي لا تشوبه شائبة ، بأن ما أخبر عنه الرسول ﷺ واقع لا محالة ، وأن على المؤمن - في هذه الدار - وهي مزرعة الآخرة - أن يبذل قصارى جهده على طريق العمل الصالح والتقوى ، كي يكون يوم القيامة من الفائزين، ويحظى بكرامة الورد على ذلك الحوض الذي صَحَّ من صفاته العظيمة، ما صَحَّ عن النبي ﷺ .

وقد سلف القول فيما كان من اختلاف العلماء، في أن الحوض ؛ هل هو قبل الصراط ، أو بعده ، وما رجحه الحافظ وكثير من العلماء، أنه بعد الصراط ، غير أن الأهم في الموضوع ، ما ذكرت من ضرورة الإيذان به ، والعمل على أن يكون المسلم من أهل وروده إن شاء الله .

من أجل هذا : كانت النقمة الشديدة بعد ثبوت النصوص التي بلغت مبلغ التواتر - كما يرى المحققون - على من يبدو منه شيء من التشكك في أمر الحوض ووروده ؛ فقد سمع أنس رضي الله عنه قوماً يتذاكرون الحوض ، فقال : ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتحاورون في الحوض ، لقد تركت عجائز خلفي ، ما تصلي امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبي ﷺ .

قال القرطبي في « الجامع لأحكام القرآن » : وفي حوضه يقول الشاعر :

يا صاحب الحوض من يدانيكا وأنت حقاً حبيب باريكا

وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره - يعني الحوض - قد أعطيه رسول الله ﷺ زيادة على حوضه صلى الله عليه أزكى صلاة وسلّم تسليماً كثيراً .

ولكم كان أهل الخشية والإيمان بالغيب، إيمانهم بعالم الشهادة ، يخافون على أنفسهم، أن لا يكون لهم حظ الورود الذي هو من أعظم ما يكرم به المؤمنون يوم الدين . ذلك لأن الكيس - كما قال عليه الصلاة والسلام - من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى . قال بعض العلماء عند الكلام على قول الرسول ﷺ : « إن لكل نبي حوضاً يباهون أيهم أكثر واردة ، وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم واردة » : فهذا رجاء رسول الله ﷺ ؛ فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين، وليحذر أن يكون متمنياً ، ومغتوراً ، وهو يظن أنه راج ، فإن الراجي للحصاد: من بث البذر ، ونقى الأرض وسقاها الماء، ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ، ودفع الصواعق إلى أوأن الحصاد . أما من ترك الحرثة والزراعة وتنقية الأرض وسقيها: وأخذ يرجو من فضل الله ، أن ينبت له الحب والفاكهة ، فهذا مغتر ومتمن ، وليس من الراجين في شيء . وهكذا رجاء أكثر الخلق، وهو غرور الحمقى نعوذ بالله من الغرور والغفلة . فإن الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا ، قال الله تعالى : ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ .

وهذا يقودنا إلى مثل رائع من أمثلة الإيمان العميق، بما جاء عن النبي ﷺ في شأن الحوض ، والحرص على السلوك الموصل بعون الله، إلى الفوز بمكرمة الورود عليه، والشرب منه ، مع صدق الإنابة والتحسر على التقصير .. ذلكم هو خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ورضي عنه .

قال الإمام الترمذي : حدثنا محمد بن اسماعيل قال : حدثنا يحيى بن صالح ، حدثنا محمد بن المهاجر عن العباس عن أبي سلام الحبشي قال : بعث إليّ عمر بن عبدالعزيز ، فحملت على البريد قال : فلما دخلت عليه قلت : يا أمير المؤمنين

لقد شق علي مركبي البريد ، قال يا أبا سلام ما أردت أن أشق عليك ، ولكن بلغني عنك حديث تحدّثه عن ثوبان عن النبي ﷺ في الحوض ، فأحييت أن تشافهني به ، قال أبو سلام : حدثني ثوبان عن النبي ﷺ قال : حوضي من عدن إلى عمان البلقاء ، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن « وأحلى من العسل ، وأكاويه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين ، الشعث رؤوساً ، الدنس ثياباً » الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم أبواب السّدّد » قال عمر : « لكنني نكحت المتنعمات ، وفتح لي السّدّد ، ونكحت فاطمة بنت عبد الملك ، لا جرم أني لا أغسل رأسي حتى يشعث ، ولا أغسل ثوبي الذي يلي جسدي حتى يتسخ » . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب من هذا الوجه . وقد روي هذا الحديث عن معدان بن أبي طلحة عن ثوبان عن النبي ﷺ ، وأبو سلام الحبشي اسمه ممطور وهو شامي ثقة .

ثم إن الذي فعله عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، لا يعدو أن يكون العدول عما هو تجاوز للحد المطلوب في النظافة والتنظيف ، مما يعد تنعماً وترفاً ، وليس النظافة المطلوب شرعاً أن يكون عليها المؤمن ؛ وإذا لوحظ ما كان عمر أجزل الله مثوبته من الترف ، قبل أن يلي الخلافة ، ازداد الأمر وضوحاً فيما عناه ، جزاه الله عن الأمة كل خير .

من كذب به.. لا سقاه الله منه

ما من ريب في أن المؤمن المصدق بما جاء عن رسول الله ﷺ من الغيب، كالذي أوردت من أحاديث الحوض فيما سبق، يكون في نعمة غامرة من الطمأنينة واستنارة القلب وراحة النفس في الدنيا، كما يكون له - إذا مات على ما ذاق من حلاوة ذلك الإيمان - الحظ الأوفى في الآخرة إن شاء الله ؛ وما ظنك بأولئك الذين يمشي نورهم بين أيديهم وبأيمنهم، ويردون على الحوض يشربون منه، حيث رسول الله ﷺ فرطهم عليه !! أما أولئك الذي يغشاهم من الشك ما يغشاهم: فلا تسلم عما يساورهم من القلق النفسي، والتوهم المضني، والخيرة القتالة ؛ فهم على حال ينهش قلوبهم فيها الاضطراب ، ولا يفتؤون يصطلون بنار الخواء الروحي . وما أسوأ أن يهمل المرء عقله، ويتجاوز الدليل الناصع والحجة القاطعة، إلى حيث سلطان الهوى والشيطان ، والنفس الأمارة بالسوء ، فهناك الخسران المبين في الدنيا ويوم الدين .

أخرج أبو داود بسنده إلى أبي طالت عبد السلام بن أبي حازم قال: « شهدت أبا برزة رضي الله عنه دخل على عبيد الله بن زياد، فحدثني فلان، سمى مسلم، يعني ابن إبراهيم، وكان في السَّط، فلما رآه عبيد الله قال : إن محمديكم هذا الدحداح - يعني القصير - ؟ ففهمها الشيخ فقال : ما كنت أحسب أني أبقي في قوم يعبروني بصحبة محمد ﷺ ، فقال له عبيد الله : إن صحبة محمد ﷺ لك زين غير شين، ثم قال : إنما بعثت إليك لأسألك عن الحوض ، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر فيه شيئاً ؟ قال أبو برزة : نعم ، لا مرة، ولا اثنتين، ولا ثلاثاً، ولا أربعاً، ولا خمساً ، فمن كذب به فلا سقاه الله منه، ثم خرج مغضباً .

السَّط : الصفُّ من الناس .

وأورد الحافظ عبدالرزاق الصنعاني هذه الواقعة في المصنف، برواية فيها طول، وذلك عن عبدالله بن بريدة الأسلمي قال : (شك عبيد الله بن زياد في الحوض، الذي يُذكر - وكانت فيه حروريةٌ - ميل إلى الفرقة من الخوارج، فقال : أرايتم الحوض، ما أراه شيئاً، فقال له ناس من صحابته : فإن عندك رهطاً من أصحاب النبي ﷺ، فأرسل إليهم فاسألهم . فأرسل إلى رجل من مزينة، فسأله عن الحوض، فحدثه، ثم قال : أرسل إلى أبي برزة الأسلمي، فأتاه وعليه ثوبا حَبْرَةٍ، قد انتزرت بواحد وارتدى بالآخر، قال راوي الخبر : وكان رجلاً لحياً إلى القصر فلما رآه عبيد الله ضحك ثم قال : إن محمديكم هذا الدحداح ؟ قال : ففهمها الشيخ فقال : واعجبه، ألا أراني في قوم يعدُّون صحابة محمد ﷺ عاراً !! قال : فقال له جلساء عبيد الله : إنما أرسل إليك الأمير ليسألك عن الحوض؛ هل سمعت رسول الله ﷺ يذكره ؟ قال : نعم، سمعت رسول الله ﷺ يذكره، فمن كذب به فلاسقاؤه الله منه . قال : ثم نفص رداءه وانصرف غضبان. فأرسل عبيد الله إلى زيد بن الأرقم، فسأله عن الحوض، فحدثه حديثاً مَوْثَقاً أعجبه، فقال : إنما سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : لا ... ولكن حديثه أخِي . قال: فلا حاجة لنا في حديث أخيك).

ويبدو أن الحديث الذي نفى زيد أن يكون سمعه من رسول الله ﷺ، هذا الحديث.. وإلا فقد حدث هو بأحاديث عديدة عن الحوض، فقال أبوسبرة - رجل من صحابة عبيد الله -: فإن أباك حين انطلق وافداً إلى معاوية رضي الله عنه، انطلقت معه، فلقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فحدثني من فيه إلى في حديثاً سمعه من رسول الله ﷺ، فأملأه عليّ وكتبته، قال : فإني أقسمت عليك لما أعرفت هذا البرذون، حتى تأتيني بالكتاب، قال : فركبت البرذون، فركضته حتى عرق، فأتيته بالكتاب، فإذا فيه: (هذا ما حدثني عبدالله بن عمرو ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يبغض الفُحْشَ والتَّفَحُّشَ، والذي نفس محمد بيده، لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفحش وسوء

الجوار ، وقطيعة الأرحام ، وحتى يُخَوِّنَ الأمين ويؤتمن الخائن ، والذي نفس محمد بيده، إن أسلم المسلمين ، لمن سلم المسلمون من لسانه ويده ، وإن أفضل الهجرة ، لمن هجر مانهاه الله عنه ، والذي نفسي بيده ، إن مثل المؤمن كمثل القطعة من الذهب ، نفخ عليها صاحبها ، فلم تتغير ولم تنقص ، والذي نفس محمد بيده ، إن مثل المؤمن كمثل النحلة ، أكلت طيباً ووضعت طيباً ، ووقعت فلم تكسر ، ولم تفسد ، ألا وإن لي حوضاً ما بين ناحيته كما بين أيلة إلى مكة ، أو قال : صنعاء إلى المدينة ، وإن فيه من الأباريق مثل الكواكب ، هو أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ؛ من شرب منه ، لم يظمأ بعدها أبداً « قال أبو سبرة : فأخذ عبيد الله الكتاب ، فجزعت عليه ، فلقيت يحيى بن يعمر ، فشكوت ذلك إليه . فقال : والله لأنا أحفظ له مني لسورة من القرآن ، فحدثني به كما كان في الكتاب سواء .)

هذا ، وقد سبقت الإشارة فيما مضى إلى أن كثيراً من المحققين يرون بالدليل ، أن أحاديث الحوض ، بلغت مبلغ التواتر ، فالسعيد السعيد : من استمسك بها جاء عن الله ، وعن الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ، ولم يصرفه صارف عن مقتضى التصديق الجازم ، ثم راح يعمل بعمل المخبتين المقربين ، الذين لا تلهيهم الدنيا بمتاعها وزخرفها عن الآخرة ، الآخرة التي هي دار البقاء ، وفيها من إكرام الله ﷺ ، ولمن آمن به وصدق بما جاء به ، مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ وكما أن الحوض مكرمة تفضل الله بها على نبينا صلوات الله وسلامه عليه ، فورود ذلك الحوض ، من فضل الله على الأمة المحمدية ، وهنيئاً للصادقين صدقهم ، يردون ذلك الحوض ، ويشربون منه ، فلا يظمؤون بعد ذلك أبداً .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين - الذي استودع الأمة أمانة الإيمان بالغيب والعمل بما يقتضيه ذلك الإيمان - ، وعلى آله وصحابه الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ، أما المنافقون : فلهم شأن آخر !

ولعل من الخير أن نشير ، إلى أن ما كان من عبدالله بن زياد وميله إلى رأي الخوارج في الحوض ، يذكر - وبضدها تتميز الأشياء - بما ذكرنا من قريب عن خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه وأرضاه، الذي كان - على عظيم عدله وورعه وتقواه - يخشى أن لا يكون من الذين يردون الحوض ، وأن يحجزه عن ذلك ، ما حظي به من نعيم الدنيا ، مع أنه كان من أزهق الناس فيها، وهو في سدة الحكم ، بل كان رحمه الله مضرب المثل في ذلك . أما عبيدالله هذا !! - وكان والياً على البصرة والكوفة - فإلى جانب إساءته البالغة في قتله الحسين رضي الله عنه سبط رسول الله ﷺ ... والمخالفة عما يليق من سلوك الوالي مع أصحاب الرسول ﷺ فيما هو ثابت على أكمل وجه من الصحة، صدر عنه ذلك التشكك الجاهل المهين .. وقد ذكر الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » أنه كانت في ابن زياد، جرأة ومبادرة إلى ما لا يجوز ، ومالا حاجة به؛ لما ثبت في الحديث الذي رواه أبو يعلى ومسلم - واللفظ لمسلم - « أن عائذ بن عمرو - وكان من أصحاب رسول الله ﷺ - دخل على عبيدالله بن زياد فقال : أي بُني !! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن شر الرعاء الحطمة فإياك أن تكون منهم » فقال له : اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ ، فقال : وهل كانت لهم نخالة ؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم ».

« الحطمة » : هو العنيف برعاية الإبل في السوق والإيراد والإصدار « يلقي بعضها على بعض ويشتد عليها . ضربه ﷺ مثلاً لوالي السوء ، ويقال أيضاً : « حُطِمَ » بلاهاء . نخالة : يعني أن عائذاً ليس من فضلاء الصحابة وعلمائهم . وفي ذلك من سوء الأدب ما فيه .

قال ابن كثير : وروى غير واحد عن الحسن أن عبيدالله بن زياد ، دخل على معقل بن يسار يعود . فقال له : إني محدثك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ أنه قال : « ما من رجل استرعاه الله رعية ، يموت يوم يموت ، وهو غاش رعيته ، إلا حرم الله عليه الجنة ».

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾
اللهم لا تضلنا بعد الهدى ، واحفظنا من نزغات الشياطين والهوى ، وأوردنا يوم
القيامة حوض نبيك المصطفى عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم . والحمد لله الذي
هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ...

المكذَّبون.. الظلم وأعدائهم.. لا ورود

في مستهل هذه الكلمات الموصولة بالحديث عن مكرمة الحوض التي أعطيها النبي عليه الصلاة والسلام ، أود أن أدعو بها دعا به بعض علمائنا يرحمهم الله حين قال: اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة « خصَّ الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم. وقد اشتملت الأخبار على وصفه، ونحن نرجو أن يرزقنا الله في الدنيا علمه ، وفي الآخرة ذوقه ؛ فإن من صفاته: أن من شرب منه لم يظمأ أبداً .

والواقع أن من التوفيق ، أن يدعو المؤمن ربه مخلصاً، بأن يرزقه الله في الدنيا إيماناً ، يثمر العلم بتلك المغيبات التي أخبر عنها الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام - ومن عيونها : الحوض المورد - وأن يرزقه كذلك، ورود هذا الحوض والشرب منه يوم الجزاء ، فإنه لا يحرم ذلك إلا محروم ، وقد دعا بعض أصحاب النبي ﷺ - كما أسلفنا - على من كذَّب به أن لا يسقيه الله عز وجل منه .

ومن البدهة بمكان ، وجوب أن يكون المؤمن شديد الخوف من مثل هذا ، حريصاً الحرص كله ، على تجنب ما يورث الوقوع فيه أو فيما يوصل إليه . جاء في مسند أحمد قول عبدالله ابنه : حدثني أبي قال : حدثنا عبدالرزاق قال : أنبأنا معمر عن مطر عن عبدالله بن بريدة الأسلمي قال : « شك عبيدالله بن زياد في الحوض ، فأرسل إلى أبي برزة الأسلمي ، فأتاه ، فقال له جلساء عبيدالله : إنما أرسل إليك الأمير ليسألك عن الحوض ، فهل سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً ؟ قال : نعم سمعت رسول الله ﷺ يذكره ، فمن كذب به فلا سقاه الله منه » وقد مرّ بنا - من قريب - ما روى أبوداود في السنن وعبدالرزاق في المصنف من أن عبيدالله بن زياد، كان منه موقف الإنكار للحوض ، وإن كانت بعض الروايات تشير إلى أنه قد رجع عن ذلك والله أعلم بحقيقة الحال . قال الحافظ : وعند أحمد من طريق

عبدالله بن بريدة عن أبي سبرة الهذلي قال : « قال عبيدالله بن زياد : ما أصدق بالحوض ، وذلك بعد أن حدثه أبوبرزة والبراء ، وعائذ بن عمرو ؛ فقال له أبو سبرة : بعثني أبوك في مال إلى معاوية ، فلقيني عبدالله بن عمرو فحدثني ، وكتبته بيدي من فيه : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : موعدكم حوضي .. » الحديث . فقال ابن زياد حينئذ : أشهد أن الحوض حق . » . ويبدو أن الصحابة الذين حدثوا هذا الوالي عن الحوض كان يسوءهم ما يرون منه في شأن التصديق ، وليس هذا غربياً ، فهم على اليقين الذي لا يتزعزع من التصديق بذلك ، ويرون منه ما يرون !! روى أبو يعلى الموصلي من طريق سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال : « دخلت على ابن زياد - وهم يذكرون الحوض - فقال : هذا أنس فقلت : لقد كانت عجائز بالمدينة كثيراً ما يسألن ربهن أن يسقيهن من حوض نبيهن » . قال الحافظ : وسنده صحيح .

والحق أنه فيما وراء التصديق - وقد تواترت أحاديث الحوض - فإن النبي عليه الصلاة والسلام - وهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى - لم يدع أن يرغب في كل ما ينتهي بالمسلم إلى ورود الحوض ، ويرهب مما يمكن أن يجعله من المحرومين من ورده حفظنا الله من ذلك ؛ فالؤمنون المستقيمون على طاعة الله الذين يقومون بعبادته جل وعلا حق القيام - وفي مقدمة ذلك الصلاة بشرائطها وأركانها وواجباتها وسننها والخشوع فيها ، وكل ما يتعلق بها من الطهارة الظاهرة والطهارة الباطنة ... هؤلاء المؤمنون المتقون يعرفهم النبي ﷺ حين يردون عليه الحوض ، غراً محجلين من أثر الوضوء ، ليست لأحد غيرهم ، ونعمت الكرامة هذه ، ونعم عطاء الكريم هذا . أخرج ابن ماجه بسنده عن ربعي عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن حوضي لأبعد من أيلة إلى عدن ، والذي نفسي بيده لأنيته أكثر من عدد النجوم ، وهو أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، والذي نفسي بيده إني لأذود عنه الرجال كما يذود الرجل الإبل الغريبة عن حوضه . قيل : يا رسول الله أتعرفنا ؟ قال : نعم تردون عليَّ غراً محجلين من أثر

الوضوء ، ليست لأحد غيركم » وأخرج بسنده أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ « أنه أتى المقبرة فسلم على المقبرة فقال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله تعالى بكم لاحقون . ثم قال : « لوددنا أننا رأينا إخواننا » قالوا : يارسول الله أو لسنا إخوانك ؟ قال : أنتم أصحابي . وإخواني الذين يأتون من بعدي ، وأنا فرطكم على الحوض . قالوا : يارسول الله ، كيف تعرف من لم يأت من أمتك ؟ قال : رأيتم لو أن رجلاً له خيلٌ غُرٌّ محجلة بين ظهري خيل دُهمٍ بُهمٍ ، ألم يكن يعرفها ؟ قالوا : بلى . قال : فإنهم يأتون يوم القيامة غُرّاً محجلين من أثر الوضوء ، قال : أنا فرطكم على الحوض ... » الحديث .

ولا يدع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، أن يرغب في كل ما من شأنه النجاة يوم القيامة ، وورود الحوض ، ويرهب من كل ما هو عكس ذلك . ها هو ذا ترغيبه ﷺ في استقامة السلوك ، وتحكيم ضوابط الإسلام في كل ما يأخذ المسلم أو يذر ، في علاقته بالآخرين ، مهما علت منازلهم في هذه الدار أو دنت . فمن اقتحم العقبة ، وحكم في كل شأن من شؤونه معايير الكتاب والسنة ، فهو القريب من الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويرد عليه الحوض ، ومن خالف عن أمر الله ورسوله ، واتبع هواه في معاونة الظالمين ، ومظاهرة أهل الباطل ، وتصديقهم بكذبهم ، وحيفهم على أهل الحق ، فليس من الرسول ﷺ في شيء ، وليس الرسول ﷺ منه في شيء ، ولا يرد عليه الحوض . قال الحافظ أبو بكر عمرو ابن عاصم الشيباني المتوفى سنة سبع وثمانين ومائتين في كتاب « السنة » : حدثنا أبو بكر قال : حدثنا الفضل بن دكين عن سفيان عن أبي حصين عن عاصم العدوي عن كعب بن عجرة قال : قال : رسول الله ﷺ : « إنه سيكون بعدي أمراء ، فمن دخل عليهم ، فصدّقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فليس مني ولست منه ، وليس يرد على الحوض ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، فهو مني وأنا منه ، وهو وارد على الحوض » . ثم أورده من طريق أخرى من رواية الشعبي قال : حدثني العدوي عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ مثله .

وإذا كان الأمر كذلك : فالواجب أن يبادر المسلم إلى عمل ما رغب به الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام « واجتناب ما نهى عنه ، وحذر من الوقوع في حماته ، كيما يبرهن على محبته له عليه الصلاة والسلام ، ويرد عليه الحوض ، وتلكم هي السعادة الحقيقية ؛ أما طاعة الشيطان والهوى ، وممالة الظالمين وتصديقهم بكذبهم : فتلكم قاصمة الظهر ، وبريد الخسران يوم العرض على الله ، وعدم ورود الحوض على الرحمة المهداة صلوات الله وسلامه عليه .

ألا إنه البلاغ المبين من سيد الخلق ﷺ ، والعاقل من استمع القول فاتبع أحسنه ، ولم يدع أن يسلك في عاجلته الطريق المأمونة التي تنتهي به - بفضل الله - أن يكون في الآجلة من أولئك الذين يعرفهم رسول الله ﷺ بسيماهم ، ويردون عليه الحوض . والله عاقبة الأمور .

إخوانه ﷺ وأصحابه.. الورود والحافز العظيم

السمة التي أوضح النبي ﷺ ، أنه يغرف أبناء الأمة بها، وهم يردون عليه الحوض، ألا وهي أنهم يردون غرّاً محجلين من آثار الوضوء ، وهي لهم وليست لأحد غيرهم.. هذه السمة المباركة التي كشف عنها الهدي النبوي، يحمل ذكرها ما يحمل من الترغيب في سلوك السبيل التي تجعل المسلم - كما سلف من قبل - من أهل الورود على الحوض ، والخطوة بالشرب منه ، ولا تسلك عن السعادة الغامرة في ذلك ، حيث يحصل هذا والرسول ﷺ هناك ، لما أنه فرط الأمة على الحوض .

وليس من مكرور القول ، التذكير بحقيقة أن المصطفى عليه الصلاة والسلام، لم يدع - وهو إمام الهداة وسيد الرحماء - أن يرغب أبداً في كل ما هو خير في الدنيا والآخرة ، وأن يحذر من كل ما هو شر كذلك . وكان من مظاهر تلكم الهداية النبوية « أنه فتح للأمة طريق الرغبة بالدلالة على ما يضمن - بتوفيق الله - الورود على الحوض والشرب منه ، كما آذن بشتى أساليب التذكير ، بالوعيد على ما يكون سبباً في الحيلولة دون المسلم ، ودون أن يسعد بالورود والشرب ، وهذا من الأسلوب العملي الموفق غايه التوفيق، في تربية النبي ﷺ وهديه « فهو يدل على الغاية العظيمة، ويرسم طريقها ، مرغباً مبشراً ، ويحذر من الداهية المنكرة، ويشير إلى ما هو سبيلها ، متوعداً منذراً.

من أجل هذا، كان لابد من متابعة الرحلة مع تلكم النصوص، التي تجلّت فيها عظمة الهدي النبوي ، والحكمة الرائعة في توجيهه عليه الصلاة والسلام ، وكريم يده الصّناع ، التي اتخذت من التذكير بالآخرة « والترغيب فيما يكون من تكرمة الله لعباده المؤمنين هناك - ومن ذلك ورود حوضه صلوات الله وسلامه عليه الذي أكرمه الله به وأعطاه الكوثر يُمُدُّه من الجنة - اتخذت من ذلك وسيلة، هي من أنجع الوسائل في إعطاء العمل الأخروي حقه، في هذه الحياة، بعيداً عن

الغفلة والنسيان ، أخرج الإمام مسلم بسنده عن سعد بن طارق عن ربيع بن حراش عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن حوضي لأبعد من أيلة من عدن والذي نفسي بيده إني لأذود عنه الرجال كما يذود الرجل الإبل الغريبة عن حوضه . قالوا : يا رسول الله وتعرفنا ؟ قال : نعم ، تردون عليَّ غراً محجلين من آثار الوضوء ليست لأحد غيركم » .

والملاحظ هنا : أن الوضوء الذي هو مفتاح الصلاة - وهي أعظم ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين - تكون آثاره نوراً على مواضعه في جبهة المؤمن وغيرها يوم القيامة ؛ وبهذا النور ، يعرف محمد ﷺ أمته .

قال أهل اللغة : الغرة بياض في جبهة الفرس ، والتحجيل بياض في يديها ورجليها ، ومن هنا قال العلماء : سمي النور الذي يكون على مواضع الوضوء يوم القيامة : غرة وتحجيلاً ، تشبيهاً بغرة الفرس والله أعلم . فالمسلمون الذين عُتُوا بتلكم الفريضة العظيمة المباركة وإسباغ الوضوء لها - كما ينبغي - يردون على النبي ﷺ وهو على الحوض ، غراً محجلين ، يسطع النور من وجوههم ومن بقية المواضع من آثار الوضوء . أجل يردون على النبي ﷺ - وهو فرط الأمة عليه - يتقدمهم ليرتاد خم ويهيء لهم ، ما يحتاجون إليه مما يضمن سلامة الورود والشرب . وفي هذا الحديث وأمثاله - كما يقول الإمام النووي - بشارة لهذه الأمة زادها الله تعالى شرفاً ، فهنيئاً لمن كان رسول الله ﷺ فرطه .

وأنت واجد عند الصحابة رضي الله عنهم - دائماً - ما يدل على حسن الامتثال لما وجه إليه ، ونبه عليه رحمة العالمين عليه الصلاة والسلام ؛ وذلك ما نجده عند أبي هريرة رضي الله عنه هنا في هذه المسألة ، حيث يحرص الحرص كله على ما فيه الأجر ، وأن يكون من وراد الحوض يوم الدين . وهذا وأمثاله في جيل الصحابة - الذين هم القدوة بعد رسول الله - كثير كثير . روى الإمام النسائي في السنن الصغرى « المجتبى » بسنده عن أبي حازم قال : كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ

للصلاة ، وكان يغسل يديه حتى يبلغ إبطيه ، فقلت : يا أبا هريرة ما هذا الوضوء ؟ فقال لي : يا بني قُروخ أنتم ههنا ! لو علمت أنكم ههنا ما توضأت هذا الوضوء - أي خاف من ظنهم به تغيير أمر مشروع - سمعت خليلي يقول : « تبلغ حلية المؤمن حيث يبلغ الوضوء » ثم قال النسائي : أخبرنا قتبية عن مالك عن العلاء ابن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة « أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أني قد رأيت إخواننا ، قالوا : يا رسول الله ألسنا إخوانك قال : بل أنتم أصحابي ، وإخواني الذين لم يأتوا بَعْدُ وأنا فرطهم على الحوض ، قالوا : يا رسول الله كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك ؟ قال : أرايت لو كان لرجل خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ في خيل بُهْمٍ دُهم ألا يعرف خيله ؟ قالوا : بلى ، قال : فإِنَّهم يأتون يوم القيامة غُرّاً محجلين من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض » .

قال علماؤنا في معنى « وددت أني قد رأيت إخواننا » أو « أنا قد رأينا إخواننا » كما في رواية مسلم : أي رأيناهم في الحياة الدنيا . قال القاضي عياض : وقيل : المراد تمنى لقائهم بعد الموت . وقال الإمام الباجي : قوله ﷺ : « بل أنتم أصحابي » ليس نفياً لأخوتهم ، ولكن ذكرَ مرتبتهم الزائدة بالصحبة ، فهؤلاء إخوة صحابة ، والذين لم يأتوا ، إخوة ليسوا بصحابة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ .

وتظل لهؤلاء الذين جاءوا من بعده - ويلقاهم عليه الصلاة والسلام ، غُرّاً محجلين ، مستنيرة مواضع الوضوء فيهم ، وهو على الحوض يرتاد للأمة - تظل لهم هذه المكانة ، وفي ذلك ما فيه من الترغيب بالأعمال التي توصل - بإذن الله - إلى تلك الثمرة المباركة الطيبة .

أما منزلة الصحبة : فرزق ميمون لا يجارى ولا يبارى ، فمن لقي النبي ﷺ مؤمناً ، ورآه ، ولو مرة في عمره ، وحصلت له منزلة الصحبة : أفضل من كل من

يأتي بعد؛ فإن فضيلة الصحبة - من حيث هي - لا يعدلها عمل . قال العلماء :
وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . قال القاضي عياض : واحتجوا بقوله ﷺ : « لو
أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّاً أحدهم ولا نصيفه » ، وهذا لا يمنع
مضاعفة الأجر للأحقين حين يبلغون من الإحسان أن يضاعف لهم الأجر ؛ لأن
الصحابة كانوا يجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون .

هذا : والدُّهْم في قوله ﷺ : « في خيل دُهم بهم ، أو بُهم دُهم » - كما في بعض
الروايات - جمع أدهم وهو الأسود ، والدُّهْمَة : السواد ، والبُّهم : جمع بهيم وهو في
الأصل : الذي لا يخالط لونه لون سواه .

أما بعد : فكم يحسن المؤمن إلى نفسه في الدنيا ويوم الحساب ، إذا هو استقام
على أمر الله هنا ، لأن في ذلك ضمان حسن العاقبة - بإذن الله - من نيل الشفاعة ،
وورود الحوض ، ناهيك عن الرضى والطمأنينة النفسية في هذه الدار ، وما
أحوجنا في هذا العصر الذي اضطربت فيه المعايير ، واشتد القلق ، وكثرت
الأمراض النفسية ... ما أحوجنا إلى تلك الطمأنينة التي تدفع هذه المساوئ في
الأجسام والنفوس : فهل نحن فاعلون ؟

السيماء.. والبشارة والنذارة

هذه متابعة لرحلة، اقتضاها الكلام على الحوض وأهمية وروده يوم القيامة ، حيث الظمأ الذي يكاد يقتل الناس؛ وهي رحلة مع نصوص من الهدى المحمدي، تكشف عما خصت به الأمة المسلمة من السيماء، التي يعرفها النبي ﷺ بها وهو يتقدمها على الحوض - يبيء لها أمر الورود والشرب - تلك أنهم يردون في تلك الحقة الفاصلة من الزمن، غراً محجلين من آثار الوضوء .. أجل غراً محجلين تشرق وجوههم وجباههم وأطرافهم، بنور الوضوء، في ذلك اليوم الذي يلاقي الناس فيه من الأهوال ما يلاقون ، ويتميز المؤمنون عن غيرهم بأنهم - وقد رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً ، واتخذوا من منهج الله نبراساً - يتميزون بما كانوا عليه في الدنيا من الإيمان بالغيب، وبما قدّموا من الأعمال الصالحة التي يقتضيها الدين الخالص ، وبما صدقوا مع الله في طاعته وطاعة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فتراهم ينالون كرامة الله وفضله، بأن يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، ويردون الحوض على النبي صلوات الله وسلامه عليه ، حيث يكون هو فرط الأمة هناك، كما ثبت في الصحيح من الأحاديث .

وفي ظل هذه المتابعة: نذكر ما روى ابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تردون عليّ الحوض غراً محجلين من الوضوء سيماء أمتي ليس لأحد غيرها » هذه السيماء - العلامة - التي خصت بها الأمة المحمدية، هي - بجانب كونها جديرة بإثارة الهمم والعزائم ، من أجل العمل لذلك اليوم الذي تظهر فيه أحقية من يستأهل الورود على حوض النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام - تبدو حافزاً عظيماً يحفز على تمام العناية بإقامة الصلاة، وفي مقدمة ذلك : استكمال الطهارة على الوجه الذي ينبغي، وفي ذلك إيدان بوجوب طهارة القلب والخشوع، الخشوع الذي جعله الله في مقدمة الخصال ، التي بها يفوز

المؤمنون بالفلاح ، وذلك في قوله جل شأنه : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ الآيات وهي من سورة المؤمنون . وقد أحسن ابن ماجة حين أخرج الحديث المذكور في كتاب الزهد من سنته ، تحت باب عنوانه - كما أسلفنا - «بابُ صفة أمة محمد ﷺ» وفي «باب ذكر الحوض» من كتاب الزهد أيضاً أخرج بسنده - عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن حوضي لأبعد من أيلة إلى عدن . والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد النجوم ، وهو أشدُّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، والذي نفسي بيده إني لأذود عنه الرجال كما يذود الرجل الإبل الغريبة عن حوضه ، قيل : يارسول الله أتعرفنا ؟ قال : نعم ، تردون عليَّ غُرّاً محجلين من أثر الوضوء ، ليست لأحد غيركم » .

ونجد في الموطأ رواية للإمام مالك تحمل - بجانب الكشف عن الخصوصية المذكورة للأمة المحمدية - بأن الرسول ﷺ يعرف من يأتي من أمته - وقد سبقهم إلى الحوض يرتاد لهم ويهيء - بأثر الوضوء لكونهم يأتون غُرّاً محجلين من الطهارة المباركة .. تحمل بجانب ذلك نبياً شديداً من المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، عن فعل أي شيء يتسبب في أن يطرد صاحبه عن حوضه عليه الصلاة والسلام « فلا يُذادَنَّ أحدٌ عن حوضي كما يذاد - أي كما يطرد - البعير الضال ؛ فقد أخرج إمام المدينة عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه « أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا أن شاء الله بكم لاحقون . وددت أني قد رأيت إخواننا ، فقالوا : يارسول الله : ألسنا إخوانك ؟ قال : بل أنتم أصحابي . وإخواننا الذين لم يأتوا بعدُ ، وأنا فرطهم على الحوض . فقالوا : يارسول الله كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك ؟ قال : أرايتم لو كان لرجل خيلٌ غُرٌّ محجلةٌ في خيل دُهمٍ بهم ألا يعرف خيله ؟ قالوا : بلى يارسول الله قال : فإنيهم يأتون يوم القيامة غُرّاً محجلين من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض ؛ فلا يُذادَنَّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال ... » الحديث . ورواه ابن ماجة وغيره .

فكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: وإذا كان الأمر كذلك - حيث العناية بالصلاة التي هي أعظم ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين تورث بفضل الله ، هذه الخصوصية - فلا يفعلنَّ أحدٌ فعلاً يخالف فيه عن هذا الخير العظيم ، لكيلا يبوء بالحرمان من ورد الحوض ، لأن أولئك المحرومين ، الذين اجتروا ما لا يستحقون معه ذلك الورود المبارك ، والشرب الذي لا يُظمأ بعده أبداً - يطردون عن الحوض كما يطرد البعير الضال ، لأن البعير الضال لا صاحب له فيسقيه ويعنى به - أعاذنا الله جميعاً من ذلك ، ومنَّ علينا بفضلهِ وإحسانهِ ، كيما نسعد بشفاعته ﷺ ، وورود حوضه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ومما ينبغي أن لا يغفل عنه مسلم ، أن المعرفة المشار إليها ، تشعر بالمزيد من الترقب ، وخشية أن لا يكون المرء في عداد أولئك الذين تدرّكهم العناية ، فيردون الحوض ؛ إذ الناس عطاش ، فيشربون منه ، فلا يعرف الظمأ بعدها إليهم سبيلاً . ذلك بأن هذه النصوص ، التي كشفت عن أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، يعرف أمته بآثار الوضوء ، ينبغي أن تجعل المؤمن في غاية الحذر من التهاون والغفلة ؛ لأن المسلم إذا كان من أهل الورود فيا للكرامة والنعمة الفائقة ، وإذا كان لا سمح الله ممن أثقلتهم أوزارهم ، وعندها يزداد - يطرد - كما يزداد البعير الضال ؟ فيالللخيبة القاتلة ، والخسارة التي لا تعوّض .

وهذا الذي نؤمىء إليه من معرفة النبي ﷺ أمته - وهو فرطها على الحوض يوم القيامة - يرى الناظر في نصوص السنة العديد من النصوص التي تقرره وتؤكدّه ، وقد أوردت بعضها فيما سبق . على أن في بعض الروايات ما يوحى بعلاقات آخر ، غير التي ذكرت فيما أوردته . فقد أخرج الإمام أحمد في المسند بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من أمّتي أحد إلا وأنا أعرفه يوم القيامة ، قالوا : يارسول الله ، من رأيت ومن لم تر ؟ قال : من رأيت ومن لم أر ، غراً محجلين من أثر الطُّهور » وله في رواية أخرى عن أبي الدرداء

رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة ، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه ، فأنظر إلي بين يديّ ، فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك ، وعن يميني مثل ذلك ، وعن شمالي مثل ذلك . فقال له رجل : يا رسول الله، كيف تعرف أمتك بين الأمم، فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال : هم غُرٌّ محجَّلون من أثر الوضوء ، ليس أحد كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يوتَّونَ كتبهم بأيماهم » وأعرفهم يسعى بين أيديهم ذريَّتُهم » وفي رواية أخرى له « فأعرفهم أن نورهم يسعى بين أيديهم وبأيماهم ».

اللهم اهدنا بهداك ، ووفقنا لصالح القول والعمل ، حتى نلقاك راضياً عنا يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار .

إحدهما لأبي عامر، والأخرى لأبي موسى

الإفاضة في الحديث عن يوم التناد في الكتاب والسنة، توحى بما ينبغي للمؤمن أن يكون عليه . من يقظة بالغة - وهو يمضي ما كتب له من العمر في هذه الدار -.. ولذا فالحديث عن هذا اليوم الذي لا ريب فيه ، يوم الفصل الذي يجمع الله فيه الخلائق للمساءلة والحساب ؛ فمنهم شقي وسعيد ... الحديث عن ذلك اليوم ، وما يخر به من مشاهد البشارة والندارة: ذكرى متجددة يهش لها قلب المؤمن وَيَبْسُ ، ويستبشر ويخاف .. يستبشر ويفرح بما أعد الله لعباده الصالحين ، مما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين في استدامة وخلود . ويجل قلبه ويخاف من سوء العاقبة ، وما أعد الله لأهل الضلالة الغافلين ، من نار تلظى وبئس القرار .

وفي كلا الحالين: ترى من رُزق العقل الأخروي ، يضاعف من العمل الصالح، ويحاسب نفسه ، ويجد السير إلى الجنة سلعة الله الغالية ... يجد السير إليها على طريق أهل الخشية والفلاح ، المنيين إلى ربهم ، الراجين ثوابه ، والخائفين عقابه يوم الدين .

ثم إن تلك الذكرى - والذكرى تنفع المؤمنين - ترتفع بالمؤمن، إلى حيث النظرة الإيمانية المتبصرة إلى حقيقة هذه الدار الفانية ، وما يجب فيها من الصدق مع الله . والغرس الطيب الذي يصلح زاداً للدار الباقية ؛ لما أن العاجلة دار ممر ، لا دار مقر، دار عمل يقدم المرء بين يديه، والحصاد هناك ، حيث يوفيه الله حسابه والله سريع الحساب .

وإنها لقضية، تبلغ من الأهمية وتوجيه السلوك، أن تقف المرء على اليابسة من أمره، فلا يكون من أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ كلاب تحبون العاجلة .

وتذرون الآخرة ﴿ تفقه كذلك ، وهو لا يفتأ يذكر أن الله سُنَّةٌ في المثوبة والعقوبة ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً . فالعاملون للدنيا - على غير بصيرة وحسبان للآخرة - سُنَّتْ لهم عاقبة يغشاهم ظلامها في جهنم وبئس المهاد . والعاملون للآخرة - على نفاذ في البصيرة وإخلاص في الوجهة - سنت لهم عاقبة نعماً هي ؛ مرضاة الله تعالى ، وعطاء إلهي لا يُحَدُّ ، من ورود على الخوض ، ونعيم مقيم في دار المقامة والخلود . وشتان بين الطريقتين والغايتين ، وهل يستوي السالكون طريق الهداية والنور ، والسالكون طريق العماية والضلال؟! لا يستون عند الله ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ .

وما من ريب، في أن كلاً من الوعد بحسن العاقبة وكريم العطاء ، ومن الوعيد بالمهانة وسوء المصير ، يقع موقعه الفاعل المؤثر من عقل المؤمن وقلبه ، حين يكون على تزكية لنفسه ، وعدم الانقياد لهواه ، فيحمله الوعد الصادق - كما لا يخفى - على أن يأخذ أمر النجاة في الآخرة ، على أنه جدُّ لا هزل فيه ، وأن لا يقصر في محاسبة نفسه ، ودينها في تحكيم لشريعة الله ، ومراقبة له عز وجل ، وعمل لما بعد الموت ؛ أما الوعيد الذي تنخلع له القلوب ، ويقض مضاجع الصالحين : فينأى به عن طريق أهل الغفلة الذين نسوا الله واليوم الآخر ، وغرّتهم الحياة الدنيا ، وغرّهم بالله الغرور . وتراه يمشي على الأرض ، كأن نار السعير بلهيبها ومن يصلها ، من الضالين والظالمين ، أمام ناظريه ، وكأن العقاب المتوعد به ، أقرب إليه من أمور دنياه ، وما يلهمه عن ذكر الله ، وترقب يوم الحساب . وصدق ربنا إذ يقول : ﴿فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى ﴾ .

كان لزاماً ، أن أبدأ بهذه الكلمات ، مجتازاً بها إلى ما أريد ، من متابعة الحديث عن واحد من مشاهد القيامة ، لما أن في الجعبة بعضاً مما تفيض به المصادر

الأصلية من أحاديث نبوية كريمة تُبين عن وعد الله ورسوله ، لأولئك الذين يستضيئون بنور التقوى ، ويستقيمون على طاعة الله ، قولاً وعملاً في العقيدة والعبادة والسلوك؛ في تعاملهم مع الله ، وفي تعاملهم مع عباده ، ويصبرون على ذلك ، منضبطين بميزان الحق الذي لا يعول ، مهما كانت التكاليف والواجبات .

وهذا الوعد الذي ندندن حوله : مثوبةُ الكريم المنان سبحانه في الآخرة ، ومن هذه المثوبة ، الورودُ على حوض المصطفى عليه الصلاة والسلام والشربُ منه ، ناهيك عن الفوز بشفاعته صلوات الله وسلامه عليه ، والدخول في زمرة من يكرمهم الله بالجنة التي لا يزول نعيمها ، ولا تنقضي مظاهر الإكرام فيها ، فهي مستقرُّ الأبرار ، ودار المتقين .

كما أن في تلك النصوص ، ما يحمل الوعيد الشديد ، لأولئك الذين يُحدثون ما يُحدثون بعد رسول الله ﷺ ، تغييراً وتبديلاً ، ومخالفةً عن الصراط السوي . حتى إذا عُرضوا على ربهم ، كان من عاقبتهم بما أحدثوا من السوء أى : أنهم يطردون عن الحوض الذي تهفو إلى وروده نفوس المؤمنين ، وتتطلع إليه هم عبادة الله الصالحين . وعندما يأسى رسول الله ﷺ على هذا الفريق من الناس ، الذين دلّته أمارات معينة على أنهم من أمتة - في الأصل - عندما يأسى عليهم ، وقد عرفهم بسيماهم . وهم يذادون عن الحوض ، يقال له : « إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » .

هذه واقعة ، لا يدع رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أن يدعو في أعقابها - وقد طلب منه ذلك - لواحد من الصحابة عليهم الرضوان أن يغفر الله له ويرفع منزلته يوم القيامة . كما لا يدع أن يدعو لأخيه - الذي طلب الدعاء - بمغفرة ذنبه والدخول يوم القيامة مُدخلًا كريماً . وفي ذلك ما فيه من الوعد بتلك المثوبة الفائقة ، على ما فعلا رضي الله عنهما ، والرضى عن صنيعهما والترغيب فيه . أخرج الإمام البخاري في كتاب المغازي من الجامع الصحيح عن أبي موسى الأشعري

رضي الله عنه قال : « لما فرغ النبي ﷺ من حُنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقي دريد بن الصُّمة ، فقتل دريد وهزم الله أصحابه . قال أبو موسى : وبعثني مع أبي عامر ، فرُمي أبو عامر في ركبته رماه جُشَمِيٌّ بسهم فأثبته في ركبته، فأنتهيت إليه فقلت : يا عمُّ من رماك ؟ فأشار إلى أبي موسى فقال : ذاك قاتلي الذي رماني ، فقصدتُ له فلحقته فلما رأيَ ولى ، فاتبعته وجعلت أقول له : ألا تستحيي ، ألا تثبُّ ! فكفَّ ، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته ، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك قال : فانزع هذا السهم ، فترعته فترا منه الماء . قال : يا ابن أخي، أقرئ النبي ﷺ السلام وقل له : استغفر لي . واستخلفني أبو عامر على الناس ، فمكث يسيراً ثم مات . فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مُرَمَّل ، وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبه ، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقوله : قل له استغفر لي ، فدعا بماء فتوضأ ، ثم رفع يديه فقال : اغفر لعبيد أبي عامر - ورأيت بياض إبطيه - ثم قال : اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس . فقلت : ولي استغفر » فقال : اللهم اغفر لعبيد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مُدخلاً كريماً . قال أبو بردة : إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى .»

أوطاس : من النواذر التي جاءت بلفظ الجمع للواحد ، وهو وادٍ في ديار هوازن جنوبي مكة بنحو ثلاث مراحل . وكانت غزاة أوطاس في شوال بعد فتح مكة بنحو شهر ، ذلك أنه لما هزم الله المشركين يوم حنين بعث رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعري وأبا موسى في آثار من التجأ إلى أوطاس من المشركين . ولما قتل أبو عامر ، أخذ اللواء أبو موسى ثم كان ما دل عليه الحديث ، وحظي كلُّ من أبي عامر - وهو عم أبي موسى - وأبي موسى رضي الله عنهما - وقد أبليا البلاء الحسن - حظياً بكريم العطاء لهما يوم القيامة ، بفضل دعاء رسول الله عليه الصلاة والسلام ، كفاء الجهاد في سبيل الله والإخلاص فيه .

الدعاء بالرفعة يوم القيامة.. والدرس العظيم

في حديث عما ينبغي أن يكون عليه المؤمن، من تفاعل مع الذي دعت إليه نصوص الكتاب والسنة، من عدم الركون إلى الدنيا - وهي دار الفناء الآيلة إلى الزوال - والتطلع أبداً إلى ما يثقل الموازين في دار البقاء « يوم يضع الله الموازين بالقيسط ، وتوفي كل نفس ما كسبت ، ولا يظلم أحد شيئاً ، وأن يكون قلب المؤمن وعقله من الوعد والوعيد بحسبان .. في حديث عن هذه القضية الكبرى ، في حياة من ينشدون مرضاة الله ورسوله والسعادة في الدنيا ويوم يقوم الحساب ، أوردت ما أخرج الإمام البخاري في باب غزاة أوطاس من كتاب المغازي في الجامع الصحيح من حديث أبي عامر وأبي موسى الأشعريين ، وكيف أن أبا عامر رضي الله عنه لم ينس وقد أصيب بسهم أثبتته في ركبته جشمي من المشركين، وكان ذلك سبب استشهاده : لم ينس - وهو على هذه الحال، من استقبال ما أعد الله للشهداء من الكرامة في دار البقاء - : أن يوصي أبا موسى بعد أن استخلفه على الناس - وهم يطاردون فلول الأعداء في أوطاس - أن يرجو رسول الله ﷺ أن يستغفر له .

كل ذلك حرصاً منه رضي الله عنه أن يكون في عداد من تسلم لهم أمور الآخرة، ويحفظون بما يكون من تكرمة يوم القيامة لمن أخلصوا دينهم لله ، وعبدوه حق عبادته ، وجاهدوا في سبيله ؛ ومن ذلك ورودهم على الخوض، في وقت يشتد فيه الكرب على الناس ، ويبلغ بهم العطش مبلغه ؛ ويردونه على المصطفى صلوات الله وسلامه عليه راضية نفوسهم ، شاكراً ألسنتهم وقلوبهم ، فرحين بفضل الله عليهم، أنهم لا يُبعدون عنه ولا يذادون .

ويُنْفِذُ أبو موسى رضي الله عنه ما أوصاه به أبو عامر ، وهو يجود بنفسه، ويدعو النبي ﷺ بعد أن رفع يديه إلى السماء ورؤي بياض إبطيه، قائلاً: « اللهم اغفر لعبيد أبي عامر » ولا يكتفي بهذا ، بل يقول بعدها : « اللهم اجعله يوم القيامة

فوق كثير من خلقك من الناس » وهنيئاً لأبي عامر رضي الله عنه ، ما دعا له به سيد العالمين عليه الصلاة والسلام .

وتتحرك خطرات الإيمان في نفس أبي موسى ، ويرغب صادقاً - وهو على هذه الحال من اللجأ إلى الله من أجل أبي عامر - في أن يكون له حظ من دعاء المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . قال رضي الله عنه فقلت : ولي استغفر . وكان لأبي موسى ما يريد ؛ إذ قال رسول الله وهو الرحمة المهداة صلوات الله وسلامه عليه : « اللهم اغفر لعبيد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مُدْخِلاً كريماً » . قال أبو بردة - عمر أو الحارث بن أبي موسى - إحداهما لأبي عامر ، والأخرى لأبي موسى .

وليس بخافٍ ما يدركه المؤمن ببصيرته ، أن كلاً من الصحابين الجليلين ، كان حريصاً على أن يدعو له رسول الله بالمغفرة ، وهما في حال الوفاء ببيعهما الذي بايعا به الله سبحانه ، من بذل الأموال والأنفس في سبيل الله عز وجل ، كيما يسلم لهما - بفضل الله - جهادهما ، ونصرتهم لدين الله ، والفوز بمنازل المجاهدين يوم الدين .

وعلم رسول الله أمته ، حين دعا للأول ثم للثاني ، أن من خير الدعاء للمؤمن ، دعاء يرفع درجاته يوم القيامة « ويجعله بفضل الكريم المنان ، ممن يدخلهم جل شأنه في دار القرار ، مُدْخِلاً كريماً ، يصل بهم إلى مستقر رحمته ، الجنة التي وعد عباده الصالحين .

ولعل مما يزيد في النفع إن شاء الله ، إيراد رواية الإمام مسلم للحديث الذي نسعد بإشراق هديه من صنيع المصطفى ﷺ وصاحبيه ، ففيها مزيد من الإيضاح ، يعين على استجلاء أبعاده ومراميه ، في توجيه المؤمنين إلى الحرص العملي الصادق على التزود في هذه الدار الدنيا ، بما يثقل الموازين في الدار الآخرة ، وينجي من شدائد يوم الحشر ، ومصاعبه العظام . ويا نعم ما يكون ما وراء ذلك من عيشة

راضية، في جنة عالية قطوفها دانية، يقال لأهلها وقد غمرهم الرضوان فيها : ﴿كُلُوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ . وما هي ذي روايته رحمه الله ؛ فقد أخرج بسنده عن أبي بردة عن أبيه قال : لما فرغ النبي ﷺ من حنين ، بعث أباعامر على جيش إلى أوطاس ، فلقي دريد بن الصَّمّة ، فقتل دريد وهزم الله أصحابه ، فقال أبو موسى : وبعثني مع أبي عامر ، قال : فرمى أبوعامر في ركبته ، رماه رجل من بني جُشم بسهم ، فأثبته في ركبته « فانتبهت إليه فقلت : يا عم من رماك ؟ فأشار أبوعامر إلى أبي موسى فقال : إن ذلك قاتلي ، تراه ذلك الذي رماني . قال أبو موسى : فقصدت له - أي لمن رمى أباعامر - فاعتمدته فلحقته . فلما رأيته ولي عني ذاهباً ، فاتبعته وجعلت أقول له : ألا تستحيي ؟ ألسنت عريباً ؟ ألا تثبت ؟ فكفّ ، فالتقيت أنا وهو ، فاختلفنا أنا وهو ضربتين ، فضربته بالسيف فقتلته ، ثم رجعت إلى أبي عامر فقلت : إن الله قد قتل صاحبك ، قال : فانزع هذا السهم ، فزعتة فتزا منه الماء - أي انصب من موضع السهم - فقال : يا ابن أخي انطلق إلى رسول الله ﷺ ، فأقرئه مني السلام وقل له : يقول لك أبوعامر : استغفر لي . قال - أي أبو موسى - واستعملني أبوعامر على الناس ، ومكث يسيراً ، ثم إنه مات . فلما رجعت إلى النبي ﷺ دخلت عليه - وهو في بيت على سرير مُرمل وعليه فراش وقد أثر رمال السرير بظهر رسول الله ﷺ وجنبه - فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر ، وقلت له : قال : قل له : يستغفر لي . فدعا رسول الله ﷺ بهاء فتوضأ منه ، ثم رفع يديه ثم قال : « اللهم اغفر لعبيد أبي عامر » حتى رأيت بياض إبطيه ، ثم قال : « اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك أو من الناس » فقلت : ولي يارسول الله فاستغفر ، فقال النبي ﷺ : « اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً » قال أبو بردة : إحداهما لأبي عامر ، والأخرى لأبي موسى .

السرير المرمل: هو المعمول بالرمال وهي جبال الحُصر التي تضفر بها الأسرة.

اللهم ارض عن أبي عامر وأبي موسى وعن أصحاب نبيك أجمعين ، بما

جاهدوا وصبروا ، وبما صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فكان لهم من الخير في الدنيا والآخرة ما كان .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا ، وأدخلنا يوم القيامة مُدخلًا كريماً ، واجعلنا ممن يتتبعون بسير أولئك المجاهدين الصادقين ، وأوردنا يوم المعاد حوض نبيك المصطفى نشرب منه ، فلا نظماً بعد ذلك أبداً إنك ولي ذلك والقادر عليه .

المهاجرون والإنصار.. البشريات والحوض

أن يصبر المؤمن نفسه على طاعة الله ، ويحرص أشد الحرص - وهو يمضي ما كتب له من العمر في الدنيا - على أن يكون من أهل الإنابة والخشية ، وأن يكون هجيراء تقوى الله في السر والعلن ، كيما يحشر - بفضل الله - في زمرة المرحومين الذين لا يخطئهم ، أن يلقوا رسول الله ﷺ في عرصات القيامة ، حيث الهلع الذي يغشى الناس ، والشدة التي لا ينفع معها ، إلا ما قدم المرء من صالح العمل ، ويسعدون بما يكرم الله به عباده المتقين ، من ورود حوض المصطفى عليه الصلاة والسلام .. أن يصبر المؤمن نفسه على هذا المسلك المبارك الميمون ، وأن يكون النظر إلى الغاية في الآجلة دأبه وهجيراء ، أمر مبشر مطمئن ، ولا يختلف على أهميته في حياة المسلم عاجلاً وآجلاً ، اثنان من أهل البصيرة ، الذين ذاقوا حلاوة الإيمان بالغيب ، وعقلوا عن الله وسوله ، ما جاء من الأخبار في ذلك - ومن هذه الأخبار ما ورد في شأن الحوض - حتى كأن ذلك كله مرئي رؤية عين ، لا يخطئه الناظر .

ومن أبجديات المعتقد على هذه الساحة ، أن طاعة رسول الله في التصديق بذلك ، والرغبة فيما رغب به والحذر مما رغب عنه : من طاعة الله تعالى ، والمؤمن بحسبه النامي ، ينبغي أن يحسن التعامل مع نصوص كلي من الوعد والوعيد .

وهذا الذي ندير حوله الحديث ، يدعو إلى التذكير ، بما ثبت من حرص النبي ﷺ على أن لا تخطيء شفاعته أيأ من أفراد أمته ، وأن لا يحرم واحد منهم الورد على الحوض ، ولكن الناس يظلمون أنفسهم ، بمجانبة الصراط السوي ، طاعةً للهوى والشيطان . فقد مر بنا من قريب تحديده صلى الله عليه وسلم لبعض المواطنين التي هي مظنة وجوده عليه الصلاة والسلام يوم القيامة ، فإذا أراد مؤمن أن يلقاه ، فليلقه عند واحد منها ، ذلكم ما أخبر به أنس بن مالك رضي الله عنه

أنه سأل رسول الله ﷺ أن يشفع له يوم القيامة ، فقال : أنا فاعل إن شاء الله . يقول أنس : قلت : فأين أطلبك ؟ قال : أول ما تطلبني على الصراط . قلت فإن لم ألقك على الصراط ؟ قال : فاطلبني عند الميزان ، قلت : فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال : فاطلبني عند الحوض ، فإني لا أخطيء هذه الثلاثة مواطن . وهو حديث أخرجه الترمذي بإسناد حسن ، وليس بعيداً عهدنا بما ينبئ عن أساءه عليه الصلاة والسلام ، على أولئك الذين كانوا يذادون عن الحوض ، وكان من رحمته بأمته وشفقته عليها ، أن سأل عن سبب ما يحصل ، فأجيب بأن هؤلاء ، قد غيروا وبدلوا .

وحديث المواطن الثلاثة ، ينقلنا إلى ما أوردنا فيما سبق . من أن الناس يبلغ بهم الهلع والخوف . من سوء القرار ، أن لا يذكروا أهليهم في مواطن ثلاثة - منها الصراط والميزان - حتى يعلم كل ما يفعل الله به بعدها ، ذلكم ما أخرج أبوداود في « السنن » كتاب السنة عن عائشة رضي الله عنها قالت : « ذكرت النار فبكيت ، فقال رسول الله ﷺ : ما يبكيك ؟ قلت : ذكرت النار فبكيت ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال : أما في ثلاثة مواطن : فلا يذكر أحد أحداً ؛ عند الميزان حتى يعلم أنخف ميزانه أم ينقل ؟ وعند تطاير الصحف ، حتى يعلم أين يقع كتابه ، في يمينه أم في شماله . أم من وراء ظهره ؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم ، حتى يجوز » وهو حديث حسن . قال ابن الأثير في « جامع الأصول » : وفي رواية ذكرها رزين : « قالت : قلت أوقيل : يا رسول الله هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قالت : أوقيل : فأين نجدك ؟ قال : لا أخطيء ثلاثة مواطن : عند الميزان ، وعند الصراط ، وعند الحوض . »

ومما ينبغي التنبيه عليه ، أن هذا التحديد المشار إليه ، قد صحبه نوع من تخصيص الحوض بالذكر . من بعض الوجوه ؛ من ذلك ما أخرج الترمذي من تقرير ، أن فقراء المهاجرين أول الناس وروداً عليه . وفي كتاب « التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة » للإمام القرطبي المتوفى سنة إحدى وسبعين وستمائة ، وقال

أنس بن مالك رضي الله عنه : « أول من يرد الحوض على رسول ﷺ الذابلون الناحلون السائحون الذين إذا جنتهم الليل استقبلوه بالحزن » . وحين كان الرسول ﷺ يتحدث إلى الأنصار في أعقاب قَسَم ما أفاء الله على المسلمين في « حُنين » أخبرهم - وهو ينظر بنور الله - أنهم سيلقون أثره ، وأمرهم بالصبر حتى يلقوه على الحوض ؛ وكان ذلك إيذاناً منه صلوات الله وسلامه عليه ، بما سيكون لهم من الأجر ، وما سينالون من ورود حوضه عليه الصلاة والسلام ، فخصَّ الحوض بالذكر ، دليل الأهمية وعظيم كرامة الله بوروده . وأجدر بمن آمنوا بنبئهم عليه الصلاة والسلام وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أن يكونوا في مقدمة الوراد الذين يشربون من مائه المتدفق من الكوثر ، فلا يعرف النظماء إليهم ، بعد أن شربوا سبيلاً .

ولا يخفى أن هذه قضية تتخطى حدود الزمن ، لتغزو العقول والقلوب « فتشحذَ الهمم ، وتوقظ من الركون إلى المعوقات الملهيات عن الطريق الصاعدة ، في ملء ساعات العمر وأيامه ، بالمجدي من العمل في ضوء ضوابط الإسلام ، لا في ضوء الضوابط الغازية ، التي لا تغني يوم الدين عن صاحبها فتيلاً ، بل ربما كانت عائقاً دونه » ودون أن يبلغ ما يبلغه حداة ركب الإيمان ، ومحبة النبي عليه الصلاة والسلام ، العاملون بسنته ، ونصرتها في كل ميدان .

وهذه عودة إلى النص : أخرج البخاري في كتاب المغازي من « الجامع الصحيح » بسنده عن عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه قال : « لما أفاء الله على رسوله يوم حنين ، قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ، ولم يعط الأنصار شيئاً ، فكأنهم وجدوا ، إذ لم يصبهم ما أصاب الناس ؛ فخطبهم - عليه الصلاة والسلام - فقال : يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وعالةً فأغناكم الله بي ؟ كلما قال شيئاً ، قالوا : الله ورسوله أمّن . قال : ما يمنعكم أن تحيوا رسول الله ﷺ ؟ قال : كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمّن .

قال : لو شتمت قلتم : جئنا كذا وكذا !! ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس وادياً وشعباً ، لسلكت وادي الأنصار وشعبها ، الأنصار شعار ، والناس دثار . إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » .

وأخرج الخطبة وقصتها الإمام مسلم في صحيحه وغيره ، وختمت الرواية بقوله عليه الصلاة والسلام : « فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » . وهذه الكلمات النبوية المشرقة تجمع إلى ما بينت من مكانة الأنصار ، وأمرهم بالصبر على ما سيلقون من أثرة « ما يكون من إكرام الله لهم ، جزاء صبرهم ورضاهم أن يردوا على الحوض ، ويلقوا رسول الله ﷺ عند الورود . ودلالة ذلك على عظيم الإنعام والإكرام بالحوض ، لا تحفى .

وهكذا يسلي رسول الله ﷺ الأنصار الذين أحبوه الحب العظيم ، ولم يألوا جهداً في نصرته ، ولم ييخلوا بأية معاونة لإخوانهم المهاجرين ؛ يسليهم رسول الله ﷺ - ومن ورائهم الأمة - عما يفوتهم من الدنيا ، بما يحصل لهم - بفضل الله - من ثواب الآخرة . وعنوان ذلك ، لقياهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على الحوض .. يلقونه وقد سبقهم إخوانهم فقراء المهاجرين بالورود .

وما من ريب في أن المؤمن عندما يقدم جانب الآخرة على الدنيا ، يكون في غاية التعقل ، بله الذوق الإيماني ، لأنه بذلك يقدم الباقي على الفاني ، والآخرة خير وأبقى . فليصبر المؤمنون الذين يفوتهم شيء من الدنيا على طريق جهادهم ، ونصرتهم للحق وأهله ، حتى يلقوا رسول الله ﷺ على الحوض . وأنعم بها من كرامة ، وأجزل بها من عطاء ، لقياً صاحب الشفاعة عليه الصلاة والسلام ، وورود حوضه والشرب منه ، يوم المساءلة والحساب .

فاصبروا حتى تلقوني على الحوض

كان فيما أوردت من خطبة النبي ﷺ في الأنصار ، بعد قسم غنائم حُنين التي رواها البخاري ومسلم وغيرهما ، تسليته صلوات الله وسلامه عليه من فاته شيء من الدنيا ، بما يحصل له من ثواب الآخرة ؛ فقد أخبر الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم - وهذا من دلائل النبوة - أنهم سيلقون في قادمات الأيام أثره - أو أثره - فَيُسْتَأْثَرُ عليهم بما لهم فيه اشتراك في الاستحقاق ، ودعاهم إلى الصبر على ذلك ، لأن ما عند الله خير وأبقى . وحظهم في الآخرة أعلى وأغلى . وقد خصّ الحوض بالذكر عند البيان لهذه الغاية التي ينتهي إليها المؤمن المصدق ، لما في ورود الحوض على النبي ﷺ من التكرمة لأهل الإيمان الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فلم يغيروا ولم يبدلوا . ذلكم قوله صلى الله عليه وسلم : « فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » .

وتحسن الإشارة هنا ، إلى أن بعض روايات الحديث الآخر ، تحمل شيئاً من التفصيل يكشف عن أن الذين صدر منهم العتب بعد العطاء الكبير للمؤلفة قلوبهم « وعدم إعطاء الأنصار ، هم ناس حديثة أسنانهم وليس غيرهم ، كما يكشف عن العلة التي من أجلها ، خصّ رسول الله ﷺ أناساً غيرهم بالعطاء ، وأن ما عومل به الأنصار ، كان متسقاً مع ما رزقوا من سمات الخير ، وهو في الوقت نفسه تكرمة لهم ، تكشف عما لرسول الله ﷺ من حسن الظن في تقدير الأمور ؛ فالناس يذهبون بالشاء والبعير ، وهم يذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالهم ، كما أن بعض الروايات - كما سيأتي - تنص على أن القوم بكؤا حتى أخضلوا لحاهم ، بعد أن سمعوا ما سمعوا من كلام الرسول عليه الصلاة والسلام ، البالغ السمو والإشراق في تكرمتهم ، وهدايته لهم . أخرج البخاري بسنده في كتاب المغازي من الجامع الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال ناس من الأنصار -

حين أفاء الله على رسوله ﷺ ما أفاء من أموال هوازن ، فطفق النبي ﷺ يعطي رجالاً المائة من الإبل - فقالوا : يغفر الله لرسوله ﷺ ، يعطي قريشاً ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم !! قال أنس : فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم « فأرسل إلى الأنصار ، فجمعهم في قبة من آدم ، ولم يدع معهم غيرهم ، فلما اجتمعوا قام النبي ﷺ فقال : ما حديث بلغني عنكم ؟ فقال فقهاء الأنصار : أما رؤساؤنا يارسول الله : فلم يقولوا شيئاً ، وأما ناس منا حديثه أسنائهم : فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ ، يعطي قريشاً ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم ، فقال النبي ﷺ : فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم ، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال ، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رجالكم ؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، قالوا : يارسول الله قد رضينا ، فقال لهم النبي ﷺ : ستجدون أثره - أو أثره - شديدة حتى تلقوا الله ورسوله ﷺ ، فإني على الحوض « هكذا يدخر الله للأنصار في الآخرة ، خير عوض لما صبروا عن فواته في الدنيا ، وما أجمل هذه الكلمات التي تفيض بالبشارة الكريمة والهدي الصالح ، وتترقق كأنها حبات اللؤلؤ وأين منها ذلك !! « فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » أو « فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ﷺ ؛ فإني على الحوض » .

يقررها النبي ﷺ للذين صدقوا العهد ، ووفوا بالبيعة ، فأووا ونصروا وآثروا إخوانهم المهاجرين ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، ولم يتخلفوا عن ساحة من ساحات البذل ندبهم رسول الله ﷺ إليها ، وصدق فيهم وفي أمثالهم ، قول الحكيم الخبير : ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ .

وماذا أنت راء وراء هذه الجوامع من الكلم ، التي ارتفعت بسموها إلى حيث يصف ﷺ علاقته بالأنصار بقوله : « لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار » وقوله : « الأنصار شعار والناس دثار » فلولا المكانة الدينية العظيمة للهجرة ، وأنه عليه الصلاة والسلام حريص على أن لا تتبدل بغيرها - وذلك لعظيم شرفها -

لكان امرءاً من الأنصار . والأنصار شعار - وهو الثوب الذي يلي الجسد من الجسد ، والناس دثار - والدثار الثوب الذي فوق الشعار - .

أرأيت إلى هذا الفارق ؟ الأنصار شعار ، والناس دثار . إنها استعارة يدركها العربي ، وكل من تذوق شيئاً من أساليب العربية ، ويفقه معناها العميق المعبر عن مدى قرب الأنصار منه عليه الصلاة والسلام ، وقربه منهم ، وكونهم بطانته وخاصته . وكان ذلك بتلكم الكلمات القليلة عدداً ، الجامعة الغزيرة معنىً .

ولا بدع : فقد أوتي صلوات الله وسلامه عليه - وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه - جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصاراً . وما أجل التماسق بين الشكل في سمو بلاغته ، وبين المضمون في صدقه وإصابته كبد الحقيقة . قال الحافظ ابن حجر في صدد الشرح لهذه القطعة من الحديث : (وهي استعارة لطيفة لفرط قربهم - يعني الأنصار - منه وأراد أيضاً أنهم بطانته وخاصته ، وأنهم ألصق به ، وأقرب إليه من غيرهم . زاد في حديث أبي سعيد : « اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار . قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ قسماً وبالله حظاً » .

لقد عمل صدقهم في حب الرسول الكريم عمله ، فنالوا هذا التوجه - المؤذن بالرفعة - منه عليه الصلاة والسلام في الدنيا ، كما سيقت إليهم بشرى أنهم ملاقوه على الحوض . « فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » أي اصبروا واحتسبوا ما تلقون من الأثرة في أمور الدنيا ، حتى تموتوا ؛ فإنكم ستجدونني على الحوض ، فيحصل لكم الانتصاف ممن ظلمكم ، والثواب الجزيل على الصبر ، فأكرم بالبشرى ، وأكرم بالموعد على الحوض ، في لقاء النبي عليه الصلاة والسلام هناك ، وأعظم بهذا الجزاء على الصبر ﴿ إِنَّمَا يُؤَفِّقُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

هذا : ونجد عند الإمام أحمد في المسند رواية ، يبرز فيها شديد تأثر الأنصار

بكلام النبي ﷺ والحقائق التي طرحها حين خاطب فيهم القلوب والعقول ؛ فقد جاء في تلك الرواية - وهي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه - قول النبي ﷺ: «يامعشر الأنصار ما قاله بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا: بل الله وسوله آمنٌ وأفضل ، قال : ألا تحبسونني يامعشر الأنصار ، قالوا : وبماذا نجيبك يا رسول الله ، والله لرسوله المنُّ والفضل ؟ قال : أما والله لو شتتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومغذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأغنيناك ، أوجدتم في أنفسكم يامعشر الأنصار، في لعاعة من الدنيا ، تألفتُ بها قوماً يُسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ أفلا ترضون يامعشر الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولوسلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار ، قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقنا .»

وواضح هنا كل الوضوح ، ما يدل عليه بكاء القوم الشديد ، حتى أخضلوا لحاهم من فرط التأثر والانفعال ، بها وجه إليه المصطفى عليه الصلاة والسلام .

وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم - كما يقول الحافظ في شرحه لرواية البخاري - (إقامة الحجة على الخصم ، وإفحامه بالحق عند الحاجة إليه ، وحسن أدب الأنصار في تركهم المماراة ، والمبالغة في الحياء ، وبيان أن الذي نقل عنهم كان عن شبانهم الأحداث لا عن شيوخهم و كهولهم ؛ وفيه مناقب عظيمة لهم لما اشتمل من ثناء الرسول البالغ عليهم - كما أسلفنا - وأن الكبير ينبه الصغير على ما يغفل عنه ، ويوضح له وجه الشبهة ليرجع إلى الحق ؛ وفيه المعاتبة واستعطاف المعائب وإعتابه عن عتبه ، بإقامة حجة من عتب عليه ، والاعتذار والاعتراف).

اللهم اجعلنا هداة مهدين وبلغنا منازل الأبرار يوم القيامة وأحلل كريم رضوانك على الأنصار وعلى المهاجرين ، وأصحاب رسول الله أجمعين .

إني فرط لكم وأنا شهيد عليكم

في قراءة مبصرة لما يفيض به الهدي النبوي الكريم، من دعوة المسلم إلى أن يكون - على حالاته كلها - مذكراً ما يكون من المساءلة - بعد أن يوضع في كل عنق كتاب منشور - أمام قيوم السماوات والأرض في يوم لاريب فيه .

وفي قراءة أخرى مثلها ، على صعيد ما يدل على رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته، والتنبيه على اجتناب كل ما من شأنه حرمان المرء من نفحات الرحمن في ذلك اليوم العصيب - ومنها الورود على حوضه صلوات الله وسلامه عليه - والانتظام في عداد من يطردون عن ذلك الحوض، بما كسبت أيديهم من المخالفة عن سواء الصراط - كما تقدم من قبل - نفع في الأحاديث التي تبرز مشاهد القيامة، على العديد من النصوص التي تحمل شديد النذارة والوعيد المفزع، لأولئك الذين ظلموا أنفسهم ، وتنكبوا الجادة ، موغلين في مهاوي الضلال، فباؤوا بالخزي والحرمان ، من ورود ذلك الحوض المبارك يومذاك . وهذا يعني أنهم من المبعدين الذين خسروا أنفسهم، وضلّ عنهم ما كانوا يكسبون . ولو رأيتهم وهم يذادون عنه ويطردون ، لرأيت العدل الإلهي في أسمى صوره وأبهاها - ولله المثل الأعلى - والعدل من العليم الحكيم جلّ شأنه ، عين الحكمة ومفصل الحق . ذلك بأنهم اتبعوا غير سبيل المؤمنين، فولاهم الله ما تولّوا ، ولم ينالوا ما ناله أولئك الذين ظلوا على العهد ، حتى وافتهم آجالهم ، وهم على الصراط السوي .

فالذين ينقلبون على أعقابهم، ويتخذون هدي المبلغ عن الله ما أراد، ظهرياً ، أتى لهم ورود حوضه عليه الصلاة والسلام .

من أجل هذا : كان من دلائل نبوته صلى الله وسلم وبارك عليه أنه - كما أكد بما لا يقبل الشك - وجود الحوض في الآخرة وهو ما تشهد به صحاح الأحاديث -

نبه على ما سيكون يومئذ من حال أولئك الهلكى ؛ إذ القلوب لدى الحناجر ،
والأفئدة التي كانت تتخذ جُنة في الدنيا ، غير نافعة أصحابها ، وكلُّ صائرٍ إلى
عاقبة ما كسب في دار الفناء .

من أجل هذا : لا تعجب إذا رأيت النبي ﷺ ، يحذر من التنافس في الدنيا ،
والوقوع في أحابيل الضلال التي يزينها شياطين الإنس والجن ، ومن طاعة الهوى
المردى ، والنفس الأمارة بالسوء ، والاستسلام للشهوات ، لأن ذلك موجب للغفلة
والبعد عن الله ، مما يؤدي بصاحبه - إن لم يراجع نفسه - إلى أن يكون في زمرة الذين
تدركهم الشقوة ، فيطردون عن الحوض والعياذ بالله . أخرج الإمام البخاري في
كتاب الرقاق «باب الحوض وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾» من الجامع
الصحيح بسنده عن عقبة رضي الله عنه « أن النبي ﷺ خرج يوماً فصلّى على أهل
أحد صلاته على الميت ، ثم انصرف على المنبر فقال : إني قرط لكم ، وأنا شهيد
عليكم ، وإني والله أنظر إلى حوضي الآن ، وإني أعطيتُ مفاتيح خزائن الأرض -
أو مفاتيح الأرض - وإني والله ما أخاف عليكم أن تُشركوا بعدي ، ولكن أخاف
عليكم أن تنافسوا فيها » . وقد أورد الإمام البخاري هذا الحديث في « باب الصلاة
على الشهيد » من كتاب الجنائز ، وفي « باب علامات النبوة » من كتاب الفضائل .
كما أورده في « باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها » . وفي هذه الروايات
كلها جاء قول الراوي : « ثم انصرف إلى المنبر » أما هذه الرواية التي أثبتتها هنا
من : « باب الحوض وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ » فقد جاءت
العبارة فيها بلفظ « ثم انصرف على المنبر » وجاء في بعض الروايات « إني قد
أعطيت » بدل « وإني أعطيت » كما هي العبارة هنا .

وفي هذا الحديث معجزة للنبي ﷺ وأعلام من أعلام نبوته ؛ منها - كما سبق -
تأكيد وجود الحوض وأنه فرط الأمة إليه ، وإخباره عن المحرومين من الورود ،
وتخوفه على الأمة ، من الوقوع فيما يقتضي الإبعاد عنه ، في تلكم الساعات
العصيات ، وبخاصة ما يتعلق بأمر التنافس في الدنيا ، الذي لا تخفى الآثار

السيئة للوقوع فيه، لأن التنافس المقصود هنا، هو ذلك الذي يؤدي إلى التنافر المردي، والسرف، والتعدي لحدود الله. ولذلك أخرج البخاري الحديث المذكور - وهذا من فقهه رحمه الله - في علامات النبوة من كتاب الفضائل في الجامع الصحيح.

وقد أشار الحافظ ابن حجر يرحمه الله، إلى أن في الحديث إنذاراً بما سيقع، فوقع كما قال ﷺ، وقد فتحت عليهم الفتوح، وآل الأمر في بعض الأحيان إلى الاختلاف المشاهد المحسّ، مما يشهد بمصداق خبره ﷺ. ووقع من ذلك في هذا الحديث إخبار ﷺ بأنه فرطهم أي سابقهم وهو كذلك، وأن أصحابه لا يشركون بعده، فكان كذلك، ووقع ما أنذر به من التنافس في زهرة الدنيا، وما خاف على المسلمين حصوله. وتقدم في معنى ذلك - كما يقول الحافظ - حديث عمرو بن عوف مرفوعاً « ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم، كما بسطت على الذين من قبلكم ».

ومما يجب التنبيه عليه « ما يرى من أن النبي ﷺ ذكر الحوض في قوله: « والله إني لأنظر إلى حوضي الآن » وقرن ذلك بأنه شهيد على الأمة يوم القيامة، وبالتحذير من التنافس في الدنيا. وفي ذلك ما فيه من توجيه الأمة إلى ضرورة القيام بكل ما من شأنه درء المفاسد التي تقود إلى السوإى، والمصير المخزي يوم الحساب.

وأية ذلك: أن من يحرصون على تجنب تلك المفاسد، ويسلكون طريق الصلاح، والإصلاح في القول والعمل، يكرمهم الله تعالى، بأن يلقوه على الحوض، فيردون ورود الفرح بفضل الله، المطمئن إلى مصير السعداء في جنة تجري من تحتها الأنهار، ولا يُبعدون كما يُبعد الذين ضيَّعوا أمانة الطاعة، والعمل بشريعة الله.

ثم إن في الاقتران المومى إليه « إيداناً بما يجب من الابتعاد الصارم ، عن كل ما يكون سبباً في ذلك الإبعاد عن الاستمتاع بتلك النعمة العظيمة ، التي هي عنوان التوفيق والقبول، في ذلك اليوم الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، والسعيد من أدركته الرحمة فكان من الناجين . قال ابن التين رحمه الله : (النكتة في ذكره - يعني الحوض - عقب التحذير الذي قبله . أنه يشير إلى تحذيرهم من فعل ما يقتضي إبعادهم عن الحوض) .

وأنت واجد أنه ﷺ ، بدأ الكلام بعد انصرافه إلى المنبر بقوله : « إني فرط لكم وإني شهيد عليكم » ثم أكد وجود الحوض يوم الفصل تأكيداً لا مزيد عليه ، وذلك بقوله صلوات الله وسلامه عليه - وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى :- « وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن » الأمر الذي يدل على أن الله كشف له عنه لما خطب - والله أعلم - .

ولما كانت المنافسة في زهرة الدنيا، بزخرفها وشعبها الوفيرة المتنوعة ، تأتي في مقدمة ما يوقع المرء فيها لا تحمد عقباه في الدنيا ويوم الدين - ومن ذلك عدم ورود الحوض ، أعادنا الله من ذلك - أوسع العلماء القول فيها تيسيراً لحصول الانتفاع بهديه عليه الصلاة والسلام . من ذلك ما نرى عند صاحب « فتح الباري » رحمه الله ؛ فعند الكلام على الحديث ، وشرح تلك المنافسة - التي تخوف الرسول ﷺ على الأمة، بدءاً بأصحابه رضي الله عنهم منها - أشار إلى حديث أبي سعيد الذي أورده البخاري في أوائل كتاب الرقاق من الجامع الصحيح «باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها» . وقد جاء في هذا الحديث قول الرسول ﷺ : « إن أكثر ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من بركات الأرض . قيل : وما بركات الأرض ؟ قال : زهرة الدنيا . فقال له رجل : وهل يأتي الخير بالشر ؟ فصمت النبي ﷺ حتى ظننت أنه يُنزل عليه ، ثم جعل يمسح عن جبينه فقال : أين السائل ؟ قال : أنا . قال أبو سعيد : لقد حمدناه حين طلع لذلك . قال : لا يأتي الخير إلا بالخير . إن هذا المال خضرة حلوة ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حَبَطاً أو يُلِم ،

إلا آكلة الخَضِرَة ، أكلت حتى إذا امتدت خاصرَتها استقبلت الشمس ، فاجترَّت
وثلُطت وبالت ، ثم عادت فأكلت ، وإن هذا المال حُلوة ؛ من أخذه بحقه
ووضعه بحقه ، فنعم المعونة هو ، وإن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل لا
يشبع».

صلى الله وسلم وبارك على هذا النبي الكريم معلم الناس الخير ، على ما بلغ
فأحسن التبليغ ، وعلى ما بين مبشراً ومنذراً ، فأحسن البيان .

وكم يصادف المسلم كلَّ يوم من الوقائع التي تدلُّ أبلغ الدلالة وأوضحها،
على أحقية ما نبه عليه وحذّر منه الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام !! .
وليحذر الذين يعرضون عن الهدى المحمدي، ويستبدلون الذي هو أدنى - من
الأفكار الدخيلة والشهوات القاتلة - بالذي هو خير ، أن تصيبهم يوم العرض
الأكبر قارعة الحرمان من أن يكونوا في زمرة وُرَّاد الحوض ...

وللحديث صلة تتاح من خلالها - إن شاء الله - نظرات في بعض الروايات
الأخر ، ونسأله تعالى أن يحشرنا في زمرة الناجين الفائزين بما وعد الرحمن عباده
بالغيب، إنَّ وعده كان مأتياً .

سُحْقاً سُحْقاً لِمَن غَيَّرَ بَعْدِي!!

ما كنا بسبيله من الكلام على تحذير النبي ﷺ أصحابه الكرام ، والأمة من ورائهم ، من الوقوع فيما يكون سبباً في الخيلولة دون الواحد منهم ، ودون ورود الحوض يوم الدين .. يقتضينا تجديد الصلة بما حمل الهدى النبوي المبارك ، من بيان لقضية كبرى ، قضية فناء من الناس يعرفهم يوم القيامة بسبب تميزهم ، ويراهم يبعدون عن حوضه وهم مقبلون عليه ، وعندما يتساءل عن سبب هذا الأمر الخطير ، أمر إبعاد هؤلاء عن الحوض ، يجاب بما يدل على أن السبب في ذلك ، جنوحهم عن سبيل الهدى إلى مزالق الضلال ، فيقول النبي عليه الصلاة والسلام: « سُحْقاً سُحْقاً » .

جاء في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح تحت قول البخاري : « باب في الحوض وقول الله تعالى : « إنا أعطيناك الكوثر » قوله رحمه الله : حدثنا سعيد بن أبي مريم قال : حدثنا محمد بن مطرف قال : حدثني أبو حازم عن سهل بن سعد قال النبي ﷺ : « إني فرطكم على الحوض ، من مرَّ عليَّ شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، ليردَّنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ، ثم يحال بيني وبينهم » .

لقد عرفهم النبي ﷺ - والمعرفة حاصلة بسببها دلت عليها أحاديث - مرَّ من قبل بعض منها - ولكنهم غَيَّرُوا وبدَّلُوا ، فلم تغن عنهم تلك السيئات شيئاً ، لما جاء الأمر الإلهي ، بأن يحال بينهم وبين الرسول الكريم ، لكيلا يردوا الحوض .

وهذا العلم من أعلام النبوة في هذا الذي سوف يكون لا محالة ، يزيد المؤمن حرصاً على أخذ نفسه ، ومن ولاه الله أمرهم بطاعة الله تعالى ، والوفاء بعهده جلَّ شأنه ، وعهد رسوله عليه الصلاة والسلام ، كيما يوفق في تجنب طريق الغفلة والغافلين ، وتكون الآخرة - أبداً - منه بحسبان . قال علي بن أبي طالب رضي الله

عنه : « ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل » .

ومن الواضح ، أن هؤلاء الذين يعرفهم النبي ﷺ - وهو على الحوض ، ويعرفونه ، ثم يحال بينه وبينهم ، فيصرفون عنه - جاءت النصوص التي تدل - كما سبقت الإشارة - على أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، فرجعوا القهقري ، وأحدثوا ما لم يأذن به الله ورسوله . من تلك النصوص : ما جاء عند الإمام البخاري بعد الحديث السابق الذي جاء فيه : - كما سبق - « ليردنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم » حيث قال رحمه الله : قال أبو حازم : فسمعت النعمان بن أبي عيَّاش فقال : هكذا سمعت من سهل ؟ فقلت : نعم ، فقال : أشهد على أبي سعيد الخدري ، لسمعتة وهو يزيد فيها : فأقول - القائل النبي ﷺ - : « إنهم مني ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول : سُخِّقاً سُخِّقاً لمن غيَّر بعدي » . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : سُخِّقاً : بُعِداً . يقال : سحيق : بعيد ، سحقه وأسحقه : أبعده .

ولا يخفى أن الرسول ﷺ ما كان ليدعو بقوله : « سُخِّقاً سُخِّقاً » لمن بدّل بعده ، إلا لأن المخالفة عن أمر الله ورسوله بالتبديل ، أمر كبير ممقوت ، وبخاصة إذا كان من يقع في ذلك الجنوح المهلك ، ذا كلمة مسموعة وأثر في المجتمع ؛ إذ هنالك يحمل آثار وزره ، ووزر الذين كان له الأثر في وقوعهم أيضاً في التغير والتبديل .

ومهما يكن من أمر : فإن في كلامه ﷺ التحذير البالغ للمسلمين من الوقوع في هذه المهلكة ، مهلكة التغير والتبديل ، وإحداث ما لم يأذن به الله في منهج حياتهم ، لما أن ذلك يعود على فاعله والمتسبب به ، والراضي مع القدرة على الإنكار والتغير « بعاقبة السوء في الآخرة ، ومن ذلك : الحرمان من ورود الحوض

الذي هو من كرامة الله لخاتم النبيين ثم لأمته .

هذا : والأحاديث التي تحمل هذا الوعيد ، وتكشف عما يعاقب به أولئك الذين أحدثوا ما أحدثوا ، من الجنوح عن الصراط السوي ، بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، تشعر بأن مواقف الهداية في شأن هذه القضية ، قد تعددت ، لما يبدو من ألوان الكلام في توجيه النبي ﷺ وعداً ووعداً . أخرج الإمام مسلم بسنده عن عمرو بن الحارث أن بُكِّراً حدثه عن القاسم بن عباس الهاشمي عن عبدالله بن رافع مولى أم سلمة عن أم سلمة زوج النبي عليه الصلاة والسلام «أنها قالت: كنت أسمع الناس يذكرون الحوض ، ولم أسمع ذلك من رسول الله ﷺ ، فلما كان يوماً من ذلك والجارية تمسطني ، فسمعت رسول الله ﷺ يقول : أيها الناس ، فقلت للجارية : استأخري عني ، قالت : إنما دعا الرجال ، ولم يدع النساء ، فقلت : إني من الناس ، فقال رسول الله ﷺ : إني فرطكم على الحوض فإياي لا يأتين أحدكم ، فَيُذَبِّ عني كما يُذَبُّ البعير الضال ، فأقول : فيم هذا ؟ فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول : سُخْفاً » ثم روى مسلم من طريق أخرى عن عبدالله بن رافع قال : كانت أم سلمة تحدث «أنها سمعت النبي ﷺ يقول على المنبر وهي تمتشط : أيها الناس فقلت لما شطتها: كفي رأسي » بنحو حديث بكير بن القاسم بن عباس .

ومن الملاحظ أن بعض العلماء حمل هؤلاء الذين يطرودون عن الحوض ، كما يطرود البعير الضال ، على المنافقين ؛ قالوا : ولذا قال ﷺ : سُخْفاً ؛ إذ لا يقول ذلك في مذنب أمته ، بل يهمله أمره ، ويشفع له . وقيل : هؤلاء صنفان : عصاة مرتدون عن الاستقامة ، لا عن الإسلام ؛ فهؤلاء بدلوا الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة . والصنف الثاني : مرتدون إلى الكفر والعياذ بالله ، واسم التبديل والإحداث ، يشمل الصنفين .

على أن هنالك بعض الروايات ، التي تحمل مزيداً من التفصيل في شأنهم ؛

فرواية تنص على أنهم ارتدوا على أديارهم القهقري ، وأخرى تنطق بأنهم نكصوا على أعقابهم - أو رجعوا على أعقابهم - إلى آخر ما هنالك . من ذلك ما أخرج البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح بسنده عن ابن أبي مليكة عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : قال النبي ﷺ : « إني على الحوض حتى أنظر من يرد عليّ منكم ، وسيؤخذ ناس دوني ، فأقول : يارب مني ومن أمتي ، فيقال : هل شعرت ما عملوا بعدك ؟ والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم » فكان ابن أبي مليكة يقول : اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا ، أو نفتن عن ديننا .

وإني لأدعو - وقد تجارت بنا الأهواء وتداعت علينا الأمم وغزتنا الأفكار المضلّة - بدعاء ابن أبي مليكة : اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن في ديننا . والله عاقبة الأمور .

المشهد المروع..

يذوقهم الرسول عن الحوض!!

أبناء الآخرة: هم الجديرون بأن يغبطوا على سلوكهم، الذي لا يجيد عما يقتضيه العمل للنجاة، يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة . ولقد أثنى الله تبارك وتعالى على أولئك الذين يجمعون إلى تسبيح الله في بيوته التي أذن أن ترفع ، وأداء ما افترض الله عليهم من صلاة وزكاة وغيرهما ، وأن الدنيا لا تلهيهم عن ذكر الله وعبادته .. يجمعون إلى ذلك كله ، أنهم ﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ وهو يوم القيامة ؛ ذلكم قوله جل ثناؤه في سورة النور : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ وكان من كرمه وفضله سبحانه ، أنه يجزيهم الجزاء الأوفى ، في ذلك اليوم الذي يخافونه ، ويعملون مخلصين ، ليكونوا فيه من الناجين ، فقال تعالى : ﴿ ليجزئهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

ويوم تقع الواقعة ، وتجيء بثقلها الصاخة ، وتمدُّ الطامة الكبرى بإذن الله مدّها ، ويبرز العباد لله الواحد القهار .. هنالك تبدو الحاجة ملحة ، إلى قبس من رجاء ، يفرّج — بعون الله — الكربة ، ويكشف الغمّة ، ويعين على تبيين المصير، ويكرم الله العباد ، بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، فتكون الشفاعة العظمى للفصل في القضاء ، وإراحة الناس من كربات الموقف المثقل بالحسرات ؛ ولا تسل عن إكرام الله للأمة المحمدية !! ومن هذا الإكرام : ورود الحوض — بصفاته التي بينها هو صلوات الله وسلامه عليه — وهنالك يعلن الاختبار الدقيق العميق

إعلانه ، فبجانب أهل الرضى الذين يكرمهم الله بمرور ذلك الحوض على النبي ﷺ ، وينعم عليهم بالشرب منه ، فلا يظمأون بعد ذلك أبداً ... بجانب هؤلاء ، تبرز حال أولئك الذين تحول إساءتهم ، دونهم ودون أن يردوه ويشربوا منه - كما سلفت النصوص في هذا - ذلك بأنهم نُبِّهوا فلم يتنبهوا ، ودُكِّروا فلم يتذكروا ، وأحدثوا بعد رسول الله في الدين ، ما لا يتفق مع كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام : ولقد يغشى قلوبهم الخزي ، فتأكلها الندامة ، ولات ساعة مندم .

والذي تجدر الإشارة إليه ، أن في بعض الروايات الأخر ، التي جاءت في شأن هذه القضية البالغة الأهمية ، ما يزيد الأمر وضوحاً على وضوح ، وبينه على أخذ الحذر الشديد في هذه الدار ، وعدم الوقوع في تلك الطامات التي وقع فيها أولئك الفئام من الناس ، فكان جزاؤهم أن يذاودا عن الحوض على رؤوس الأشهاد ، مصحوباً ذلك بإبلاغ النبي ﷺ وبارك عليه ، أنهم مازالوا يرجعون القهقري في دينهم ، الأمر الذي قعد بهم عن أهلية الورد .

أخرج الإمام مالك في الموطأ من حديث طويل يرويه أبوهريرة رضي الله عنه قول النبي ﷺ : « وأنا فرطهم على الحوض ، فلا يذاذن رجال عن حوضي كما يذاذ البعير الضال ، أناديهم ألا هلم ، ألا هلم ! فيقال : إنهم قد بدّلوا بعدك ، فأقول : فسُحْقاً ، فسُحْقاً . وجاءت هذه القطعة من الحديث عند ابن ماجه من رواية أبي هريرة أيضاً بلفظ «... أنا فرطكم على الحوض ، ليُذاذن رجال عن حوضي كما يذاذ البعير الضال ، فأناديهم : ألا هلموا ، فيقال : إنهم قد بدّلوا بعدك ، ولم يزلوا يرجعون على أعقابهم ، فأقول : ألا سحْقاً سحْقاً » وأخرجه الإمام أحمد .

ولئن كان في الروايات التي سلفت ، ما يخبر عن أن هؤلاء نفر من الناس ، سوف يطردون ويبعدون عن الورد ، وكان فيها وعيد الرسول ﷺ على المخالفة ، وتحذيره من الرجوع القهقري في الدين ، الأمر الذي يعقب المصاب الأخروي

الأليم، في الطرد عن الحوض ... إن هنالك روايات تكشف عن أن الرسول ﷺ، سوف يتولى بنفسه ذود بعض الناس عن ذلك الورود الكريم، لما أنهم خالفوا عن سبيل الله، وأذعنوا للدواعي النفس والهوى والشيطان. جاء في مسند أحمد قول عبدالله ابنه: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شعبة عن محمد بن زياد أنه قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده لأذودنَّ رجالاً منكم عن حوضي كما تذاذ الغريبة من الإبل عن الحوض» وفي رواية له أيضاً عن محمد بن زياد قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده لأذودنَّ عن حوضي رجالاً كما تُذاذ الغريبة من الإبل».

ويلاحظ هنا قسَم النبي ﷺ على هذا الأمر المخيف المرعب، الذي يفترض أنه يزيد المؤمن خشيةً من الغفلة التي تسوء معها العاقبة يوم الحسرة، وتكون طريقاً للخزي المبين، والخسارة التي لا تعدلها خسارة، إلا أن تكون مثلها أو من نوعها، نسأل الله العافية.

على أن هنالك من الأحاديث، ما يدل أيضاً على أن رسول الله عليه الصلاة والسلام، يذود الناس من أجل أناس بأعيانهم، ذلكم ما أخرج الإمام أحمد في المسند قال: حدثنا عفان قال: حدثنا همام قال: حدثنا قتادة عن سالم عن معدان عن ثوبان أن النبي ﷺ قال: «أنا بعقر حوضي يوم القيامة أذود عنه الناس لأهل اليمن، وأضر بهم بعضاي حتي يرفض عليهم، قال: قيل للنبي ﷺ: ما سعتة؟ قال: من مقامي إلى عمان، يَغْتُ فيه ميزابان يَمُدَّانه» وبهذا اللفظ رواه ابن حبان وقد سبقت الإشارة إليه.

الصحابي الجليل ثوبان: هو مولى رسول الله ﷺ. عُقر الحوض: بضم العين: موضع الشاربة منه - كما يقول ابن الأثير في النهاية - أي أطردهم لأجل أن يرد أهل اليمن. حتى يرفض عليهم: حتى يسيل عليهم. ومعنى يَغْتُ فيه

ميزابان : أي يدفقان فيه الماء دفقاً متتابعاً - كما سبق - .

ولأحمد من رواية أخرى عن ثوبان أيضاً ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا عند عُقر حوضي أذود الناس عنه لأهل اليمن ، إني لأضربهم بعصاي حتى يرفضّ عليهم ، وإنه ليغتُّ فيه ميزابان ؛ أحدهما من ورق والآخر من ذهب ، ما بين بصرى وصنعاء ، أو ما بين أيلة ، أو قال : من مقامي هذا إلى عمان . » وفي رواية له أيضاً « ... فسئل رسول الله ﷺ عن عرضه فقال : من مقامي هذا إلى عمان . وسئل عن شرابه فقال : أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، يصب فيه ميزابان يمدانه من الجنة ، أحدهما ذهب والآخر ورق . » .

جزى الله عنا نبينا محمداً ﷺ خير ما جزى نبياً عن أمته وجنبتنا الوقوع فيما يكون سبباً للذود عن حوضه ، وبلغنا - بمنه وكرمه - منازل الأبرار المتقين مع الصديقين والشهداء والصالحين . وحسن أولئك رفيقاً .

العملَ العملَ... ومن ورد أفلق

من الحقائق التي تجدر مراعاتها عند النظر في هدي النبي ﷺ ، ما يدل عليه هذا الهدي الميمون من أنه صلوات الله وسلامه عليه ، لم يلتحق بالرفيق الأعلى حتى أدى أمانة البيان لكل ما يلزم بيانه خير الأداء ، سواء فيما يتعلق بعالم الشهادة ، أو بعالم الغيب ؛ وما يتعلق بعالم الغيب إخباره ﷺ وبارك عليه وعلى آله عن الحوض ومن أين يستمد ماءه ، وما هي صفاته ، ثم عن حال أولئك الذين يراهم فيعرفهم بسيماهم يوم القيامة وإذا بهم يذاذون عنه كما تذاذ الإبل الضالة ، ويعلم عليه الصلاة والسلام حينذاك أن طردهم عن الحوض ، إنما كان بسبب أنهم أحدثوا بعده في الدين ما لا يتفق مع الكتاب والسنة ، وما زالوا يرجعون القهقري ، في التزامهم بالطاعة والإنابة إلى الله . وقد سلف من النصوص ، ما يفصح عن هذا الأمر الجلل « ويحمل تحذير الأمة من الإقدام على ما أقدم عليه أولئك الذين غيروا وبدّلوا ، فعوقبوا بهذا الحرمان من ورود الحوض الذي من الله به على نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلى أمته من بعده . مع أن من أعظم البشائر ، أن من ورده وشرب منه شربة ، لم يظمأ بعدها أبداً . وهذه حقيقة يتجاهلها أولئك الجانحون المفرطون .

ومن الجدير بالملاحظة حقاً ، أن الناظر في مجموع الروايات الواردة في هذا ، يغلب على ظنه أنه - صلوات الله وسلامه عليه - قد عرض هذا الموضوع في العديد من المناسبات - والله أعلم - مؤكداً ما يجب فعله ، وما يجب تركه من أجل الخطوة بتلك المنة الكبرى ، منة الورد على الحوض والشرب منه .

من أجل هذا : كان حسناً - إن شاء الله - إيراد زمرة أخرى من الروايات تنم عن تنوع أساليب الهدي النبوي في هذا ، واخدي النبوي - كما نعلم - قاطع العذر ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام ، أمضى حياته كلها بعد الرسالة ، في

التبليغ عن الله ، والبيان الذي أوّمن عليه بشتى الأساليب النافعة التي دلت على صدق نبوته ، وأحقية أمانته فيها ، وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . وقد حافظ أئمة الهدى من جهابذة العلماء على حديثه صلى الله عليه وسلم من بعده ، بما حفظوا ودوّنوا ، وقعدوا قواعد الجرح والتعديل ، والقبول والرد ، وكان أن أفنوا أعمارهم في خدمة السنة المطهرة ، بمنهجية بالغة الدقة ، وأمانة منقطعة النظير . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما بال رجال يقولون : إن رحم رسول الله ﷺ لا ينفع قومه ، بلى والله إن رحمى موصولة في الدنيا والآخرة ، وإني أيها الناس فرطكم على الحوض ، فإذا جئتم ؛ قال رجل : يا رسول الله أنا فلان بن فلان وقال آخر : أنا فلان بن فلان ، فأقول : فأما النسب : فقد عرفته ، ولكنكم أحدثتم بعدي وارتددتم القهقري » رواه أبو يعلى ورجاله - كما يقول الهيثمي - رجال الصحيح غير عبد الله بن محمد بن عقيل ، وقد وثق .

هكذا لا ينفع من أحدث في دين الله ، بعد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وارتد القهقري ، نسب ولا أرومة ؛ فهو يذاد عن الحوض بما قدّمت يده في الدنيا ، ولا يظلم ربك أحداً . وأخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنا فرطكم على الحوض ، فمن ورد أفلح ، ويحيا بأقوام فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : أي رب ! فيقال : مازالوا بعدك مرتدين على أعقابهم » وأخرجه الطبراني في الكبير والأوسط بنحوه .

ولا ريب في أن من نعم بالورود فقد أفلح . لأن ذلك عنوان النجاة والفوز العظيم ، في ذلك اليوم العصيب الذي تغمر الناس فيه - مع الأهوال العظام - رهبة المصير . أما من لم يرد : فأين منه الفلاح !! ولو سلك سبيل الفالخين ؛ صدق إيمان « صلاح عمل ، مستعيناً بالله ، صادق التوكل عليه ، لحظي بهذا الفضل الكبير ، ولكنه لم يفعل ولا حول ولا قوة إلا بالله . وأخرج ابن حبان في صحيحه بالسند عن ابن جريج قال : حدثني أبو الزبير قال : سمعت جابر بن عبد الله

يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا فرطكم بين أيديكم، فأنا على الحوض ما بين أيلة ومكة، وسيأتي رجال بآنية وقرب ثم لا يذوقون منه شيئاً». وتدل بعض الروايات على أن بعض الناس يرفعون إليه رؤوسهم وهو على الحوض، فيجتذبون ويُقطعون عن أن يكونوا من وراد الحوض. والروايات السابقة التي تحمل شيئاً من التفصيل، وقفنا على سبب اجتذاب هؤلاء وقطعهم، وهو أنهم أحدثوا بعد رسول الله ﷺ ما أحدثوا، وما يزالون يرجعون الفهري؛ فبدلاً من التوبة النصوح، والعودة إلى حظيرة الإيثار الذي لا تشوبه شائبة، والسلوك الذي يكون انعكاس الإيمان، كان منهم الإصرار على ما فعلوا، والتراجع المخزي الذي يجزُّ على صاحبه أوخم العواقب. أخرج أبو بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك الشيباني المتوفى سنة سبع وثمانين ومائتين للهجرة في كتاب «السنة» بسنده عن علي بن زيد عن الحسن عن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال: «ليردنَّ علي الحوض رجال حتى إذا رفعوا إلي رؤوسهم اختلجوا دوني» اختلجوا: اجتذبوا واقتطعوا. وله في رواية أخرى بلفظ «ليردنَّ أقوام علي الحوض حتى إذا رفعوا رؤوسهم اختلجوا دوني»

ونحن واجدون في بعض الروايات، ما يدل أكثر وأكثر «على مزيد اهتمام النبي ﷺ بمرور الواردين من أمته، وأنه ينتظر من يرد عليه من المسلمين، وتكون المفاجأة التي يلزم المؤمن أن يثبت على طريق الإسلام، لكيلا يكون من ضناع تلك المفاجأة.

قال أبو بكر عمرو بن أبي عاصم الشيباني في كتاب «السنة»: حدثنا أبو المغلس عبدربه بن خالد، قال: حدثنا الفضيل بن سليمان عن عبد الله بن عثمان ابن خثيم أنه سمع ابن أبي مليكة يحدث عن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه وأنا أسمع: إني فرطكم على الحوض، أنتظر من يرد علي منكم، والله ليقطعنَّ رجال دوني» وله من رواية أخرى بسنده عن موسى بن عقبة عن أبي الزبير قال: حدثني جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول:

«أنا بين أيديكم فإن لم تجدوني ، فأنا على الحوض والحوض ما بين أيلة إلى مكة .
وسياأتي رجال ونساء يطردون فلا يطعمون منه شيئاً» .

وتطالعنا رواية أخرى له رحمه الله من طريق عبد الملك بن سعيد بن جبير عن
أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا فرطكم على
الحوض ؛ فمن ورد عليّ أفلح . ويؤتى بقوم فيؤخذ بهم ذات الشمال » .

ألا ما أجل وأدعى للتفاؤل بالنجاة يوم القيامة والفوز بإكرام الله للمؤمنين ،
أن يستقبل المؤمن ما ثبت من هدي النبي ﷺ وبيانه في هذه المغيبات - ومنها
كرامة الحوض لنبينا ﷺ والأمة من بعده - بقلب تزيينه حلاوة الإيمان ، فتش
نفسه لذلك وتبش ، ويحزم أمره على طريق العمل الصالح ، والتزود ب زاد عباد
الرحمن المتقين ، كيما يفوز بما يفوزون به من الفضل الإلهي ، ومنه ورود ذلك الحوض
والشرب منه ، يوم يحشر الناس لرب العالمين .

وعلى صعيد التربية والتذكير بأمور الآخرة وما فيها : تبدو الحاجة ملحة ، إلى
إعطاء الإيمان بالغيب ، والتصديق بحقيقة المغيبات التي جاءت الأخبار الصادقة
فيها ، مزيداً من العناية التي تعتمد على جلاء القلوب وشفاء النفوس ، وتنويع
الأساليب النافعة في الإقلال من أثر الضوابط المادية الغازية ، وعوامل الجفوة ،
وقسوة القلب . والله المستعان .

أخبار الخيب.. والبشارة والندارة

كلما صفا القلب ولان لذكر الله ، كان أكثر تفاعلاً مع الكلمة الخيرة ، من هدي النبي الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ؛ وهذا ما ينبغي أن يحرص عليه المؤمن ، لكيلا تذهب به قسوة القلب ، إلى حيث يقف موقف الجفوة ، لما حملت إلينا أحاديث رسول الله ﷺ من أخبار اليوم الموعود ، وما اكتنف ذلك من الترهيب والترهيب والبشارة والندارة ؛ فتراه يرجو رحمة الله ، ويخاف عذابه ، ﴿والله لا يضيع أجر المحسنين﴾ .

وفي السنة المطهرة: معالم على طريق المؤمنين ، كم تسعف - إذا أخذت مأخذ الجد وعزائم الرجال - في تحديد المسار الصالح الذي يضمن بإذن الله ، حسن الانتفاع بما تدل عليه الأخبار المومى إليها ، وتأخذ بيد المؤمن - أن لو ثبت على هذا المسار المضيء بطاعة الله والإخلاص في الدين - إلى خير عاقبة يوم القيامة ، وأسلم مصير .

من هذه المعالم : ما أخرج الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . وقد سلفت الإشارة إلى هذا الحديث في بعض المناسبات من قبل .

أدلج - بإسكان الدال - سار من أول الليل . قال الحافظ أبو محمد شرف الدين الدمياطي المتوفى سنة خمس وسبعمائة في كتابه « المتجر الرابع في ثواب العمل الصالح » : (والمعنى أن من خاف الله تعالى شمر في طاعته ، وسار إليه عجلًا مع السابقين من السالكين ؛ فإذا مضى ليل المجاهدة وانفجر فجر الآخرة » ورأى ما قطعه في سرى سيره من المفاوز والمخاطر ، وشاهد قرب منزلته من الحبيب

عليه الصلاة والسلام ، وانقطاع من أقعده الكسل ، وغره الأمل ، أنشد لسان حاله : « عند الصباح يحمد القوم السرى » .

قادني إلى هذه الكلمات ، ما توحى به أحاديث الحوض التي أسعدنا اصطحابها ، مما ينبغي استذكاره والانتفاع به علماً وعملاً في الطريق المسلوكة - بعون الله - إلى القرب من رسول الله ﷺ يوم الدين « وورود حوضه ، والاطمئنان إلى الفوز بما يسهر في طلبه المشتمرون في الطاعة ، السالكون طريق المجاهدة والجهاد ، من نعيم لا يزول ، ورضوان من الله القدوس السلام المؤمن المهيمن ، سبحانه وتعالى .

فالرحلة الطيبة التي نعمنا معها بصحبة عدد من تلك الأحاديث - بمختلف الروايات - في شأن تلك المكرمة الربانية ، التي هي من مظاهر الإنعام الإلهي على نبينا محمد عليه الصلاة والسلام يوم القيامة ، وحافز مبارك من حوافز الخير ، التي تبعث على شحذ الهمم ، وتقوية العزائم في المسارعة إلى الرضوان .. هذه الرحلة - كما وقفنا على أن وجود الحوض على الشكل الذي وصفه به النبي ﷺ حقيقة لا يماري فيها إلا من سفه نفسه ، أو قل حظه من الهدى - أخذت بأيدينا إلى ما يجب أن يكون عليه المؤمن ، من تصديق لا يقبل الشك بوجود ذلك الحوض « وأخذ ما كان في تلك النصوص ، من الوعد بوروده والشرب منه ، والوعيد بالطرده عنه والإبعاد ، مأخذاً الجذ وصدق العزيمة « كيما يستقيم السير » وتحسن العاقبة .

وقد كان آخر ما أوردته على هذه الساحة الميمونة ، طائفة من الأحاديث التي رواها أبوبكر عمرو بن أبي عاصم في « كتاب السنة » . وحملت إلينا تلك النصوص - فيما حملت من الخير والهداية - ترغيباً واضحاً في السلوك الذي تزينه استقامة المتقين ، وخضوع المخبتين ، وعزائم أولى الألباب ، والذي يجعل المؤمن - بفضل الله ورحمته - من وُراد ذلك الحوض ، المزدان بإكرام الله لنبه المصطفى

ولأمتهم « والمكرمين بالشرب منه في ذلك اليوم الزاخر بالأهوال » والعطش الشديد يوم القيامة .

ولم يقتصر الأمر في تلكم الأحاديث على هذا « فقد حملت نصوصها النيرات - مع ذلك الترغيب - ترهيباً شديداً من الوقوع فيما نبه عليه النبي ﷺ ، وحذر منه بالغ التحذير ، من تمترغ في وهدة الانحراف عن الجادة ، والرجوع القهقري عن منهج الله ، الأمر الذي يعقب صاحبه الطرد المهين عن الحوض ، والحرمان من وروده والشرب منه .

ويزيد الأمر شدة « ويجعل لون العقوبة فاقعاً شديداً التأثير ، أن الرحمة المهداة ﷺ يكون هناك ؛ لأنه - كما أخبر وهو الصادق المصدوق - فرط الأمة على الحوض إذ يقدمها ، ويهيئ للوراد ما به ينعمون بتلك الفضيلة العظيمة والكرامة البالغة .

هذا : وفي صورة من صورة الترابط والتواءم ، بين المعرفة وبين المسؤولية التي تقتضيها تلك المعرفة في الإسلام - لأن المعرفة بالدين ليست ترفاً ثقافياً ، ولكنها بريد المسؤولية والطريق إليها - . في صورة من صور هذا الترابط : أحسن الإمام أبوبكر عمرو بن عاصم الشيباني حين أتبع أحاديث الحوض التي أخرجها رحمه الله ، بما يشعر - على وجه اليقين - الرغبة الإيمانية الصادقة والتطلع النقي الخالص ، إلى أن يكتبه الله في عداد أولئك الذين تدركهم العناية ، فيطوِّقون كرامته ورود الحوض والشرب منه ؛ فهو مؤمن بما جاء عن الرسول ﷺ ، لا يعتوره شك ولا يخالجه إعراض ، وإنه ليرجو الله تبارك وتعالى أن يجعله ممن يحظون بتلك الكرامة ، لما أن ذلك عنوان رضاه سبحانه ، وسمة من سمات الصدق ، في محبة الرسول عليه الصلاة والسلام .

قال أبوبكر - أجزل الله مثوبته - : (والأخبار التي ذكرناها في حوض النبي ﷺ توجب العلم ، أن يعلم كنه حقيقته ، وأنها كذلك ، وعلى ما وصف به نبينا عليه الصلاة والسلام حوضه ، فنحن به مصدقون غير مرتابين ولا جاحدين ،

ونرغب إلى الذي وفقنا للتصديق به ۝ وخذل المنكرين له والمكذبين به عن الإقرار به والتصديق به ، ليحرمهم لذة شربه ، أن يوردنا فيسقىنا شربةً نعدم لها ظمأً الأبد بطوله ، ونسأله ذلك بتفضله) ذلكم ما دعا به هذا الإمام الكبير جزاء الله عن الأمة كل خير . وأراي أقول مثنيأعلى هذه الكلمات المشرقة بصادق التضرع والخشية : اللهم تقبل هذا الدعاء ۝ وأشركنا جميعاً بكريم العطاء ، أنت ولينا في الدنيا والآخرة ، توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين .

وهكذا ندرك ، من خلال موقف هذا الإمام من أهل الحديث عمرو بن أبي عاصم وأمثاله أن المؤمن - كما يرى في أحاديث الحوض عنواناً على رحمة المصطفى ﷺ بأمته ، وإعلاناً عن واحدة من خصائصه العظيمة التي خصّه بها رب العالمين — يرى فيها عنوان الوعد الكريم المبشر ، والوعيد المنذر . أما الوعد الكريم : فهو للمؤمنين المصدقين، العاملين، الذين يعقلون عن الله ورسوله ، فيجمعون إلى الإيمان ، ما يجب من العمل ، وتراهم، وديدنهم أن يعملوا الصالحات مخلصين ، لا تشغلهم الفانية عن الباقية ، ولا يفتؤون يذكرون الله واليوم الآخر ۝ وحائهم على المدى في القول والعمل والسلوك : حال من يخشون ربهم بالغيب ، ويخافون يوم الحساب .. أجل يخافون يوم الحساب ؛ إذ القلوب واجفة ، والأبصار خاشعة ، ولكل من الخلاق يومئذ شأن يغنيه .

أما الوعيد الذي تنخلع له القلوب : فهو لأولئك الجانحين الذين لا يراعون عن شك، ولا يتقاصرون عن انحراف ، ولا يتورعون عن أن يحدثوا من الانحراف ما يوجب الغضب والعقاب ، فإذا ذكروا بآيات الله ، وما جاء عن رسول الله ﷺ في شأن البعث النشور ، وما تحمل مشاهد القيامة ، من الأهوال الجسام التي تحيط بالناس ، وما جاء عن صفات ورّاد الحوض الشاريين منه ، والخلال التي تكون سبباً في طرد من يطرد عنه يومئذ ، ويؤء بالحرمان من تلك المزية التي ينالها الصادقون ... أقول إذا ذكّر أولئك الغافلون المعرضون عن هدي الله ورسوله ، بتلكم الآيات والأحاديث، خروا عليها صماً وعمياناً ، ولذلك تراهم - وقد خربت

قلوبهم — معرضين عن العمل المجدي ، منقلبين على أعقابهم خاسرين ، همُّهم
الاشتغال بمتاع الدنيا وهوها عن الآخرة ، وما أعد الله فيها لأهل التقوى ، من
النعيم المقيم .

والحق أن الأمة مدعوة إلى التعرف على رجال السلف الصالح الذين
أخلصوا الوجه لله ، وحرصوا على العمل بسنة رسول الله ، ليكون ذلك عوناً لها -
والحضارة المادية تضرب على القلوب بالأسداد — على استئناف الطريق الراشدة
المرضية لله ورسوله ، والتي تقدّر العمل للآخرة حق قدره ، وتسلك بالمؤمن إلى
حيث يرد الخوض على النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام . بعد أن قدّم في هذه
الدار ما قدّم ، من الجهاد في سبيل الله وعمل الصالحات .

الجنة والنار في وصاياهم

هذا حديث يراد له أن يتصل اتصال العظة والذكرى ، بصنيع الإمام أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الشيباني الذي جاء في أعقاب مروياته عن الحوض - كما رأينا من قريب - وفيه الدعاء الخاشع المتضرع أن يكتبه الله في زمرة من يكرمهم المولى جلت قدرته ، بالورود على ذلك الحوض ، حيث ينعمون بالشرب منه بين يدي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فرط الأمة عليه ؛ فهو - رحمه الله - مؤمن مصدق بهذه الكرامة الربانية لرسوله الكريم ، غير مرتاب بوجودها ، ولا جاحد لها ، وكل ما يخشاه أن يحشر - لا قدر الله - فيمن يقدمون ، وقد اتبتهم الشكوك والريب ، أو كانوا ممن أحدثوا ما ليس من الدين في شيء ، فعوقبوا بالإبعاد عن الحوض ، أعاذنا الله من ذلك .

وهذا الذي رأينا عند هذا الإمام من أهل الحديث ، من الفهم العميق لدلالة الإيمان والتصديق ، وما ينبغي أن يتميز به المؤمن من تزكية النفس ، وتذليلها لكل ما هو من مقتضيات الإيمان بالغيب ، وما جاء به الخبر الصادق من المغيبات ، هو الذي جعل من أولئك العلماء العاملين وعباد الله الصالحين - وبخاصة أهل القرون المفصلة - خير سلف لهذه الأمة ، إقبالاً على الله ، وحرصاً على العمل بالكتاب والسنة ، ودأباً على المسارعة في الخير ، والاستزادة من الطاعات والقربات ؛ كل أولئك في مراقبة لله عز وجل في السر والعلن ، وجهاد في سبيله ، وتطلع دائم ، إلى أن يكون حبهم موصولاً بحبل النجاة من غضب الله وعقابه ، والفوز بمرضاته سبحانه وتعالى . وأن يكونوا من ورّاد حوض نبيهم المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام ، الناجين عند المرور على الصراط ، وبذلك يستبشرون بما ينشر الله عليهم من رحمته « فينتظمهم عقد أهل الجنة ، الذين يتفضل عليهم المولى عز وجل بالنعيم المقيم ، الذي يتقاصر عنه وصفنا ، والكرامة

التي عنوانها رؤية وجهه الكريم جل شأنه . وفي الوقت نفسه ، قلوبهم وجيله أن لا يتقبل منهم ما يعملون . ولقد كان هذا ديدنهم وهجيراهم في أقوالهم وأفعالهم وسلوكهم ، وفي تبليغهم عن رسول الله ما أراد . هذا أبو سليمان داود الطائي الثقة الفقيه الزاهد - كما يقول الحافظ ابن حجر - المتوفى سنة ١٦٠هـ أو سنة ١٦٥هـ ، يقول له أحد أقربائه يوماً : يا أبا سليمان قد عرفت الرحم بيننا فأوصني . فدمعت عيناه ثم قال له : « يا أخي إنما الليل والنهار مراحل ، تنزل بالناس مرحلة مرحلة ، حتى تنتهي بهم إلى آخر سفرهم ، فإن استطعت أن تقدم في كل يوم مرحلة زاداً لما بين يديه فافعل ، فإن الانقطاع عن قريب ما هو ، والأمر أعجل من ذلك ، فتزود لسفرك واقض ما أنت قاض من أمرك ، فكأنك بالأمر قد بغتكَ . وبعد هذه الوصية الجامعة التي كان محورها وجوب التزود للآخرة ، والحفاظ على الوقت واغتنام ما يجب أن يغتنم ، لأن أحداً لا يدري متى يحين أجله ، ويأتيه داعي ربه ، وفي كثير من التواضع الجمل وصدق مع الله ومع نفسه : قال داود رحمه الله لذلك القريب : « إني لأقول هذا وما أعلم أحداً أشدّ تضييعاً مني لذلك » أجل : لأن من عرف الله ، ودأب على خشيته سبحانه بالغيب وخاف - صادقاً - يوم الحساب - وما يكون فيه ، حتى كأنه رؤية عين ، كان أحرص على ملء ساعات العمر بما ينفع ، وكان أشدّ تبصراً بما لنفسه وما عليها ، وأكثر تخوفاً على ما يصير إليه الأمر يوم الحساب .

والحق أن الأمر الذي يبدو على غاية الأهمية في هذا الموضوع : هو أن السلف الصالح ، جزاهم الله خير الجزاء ، كانوا حريصين - مع التوحيد الخالص - على تأصيل المعرفة ، بورود منهلها الصافي الزلال من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وفي الوقت نفسه تراهم مدركين الإدراك كله ، أن هذا العلم ، يجب أن يقود إلى العمل والإنابة إلى الله ، والخشية الصادقة التي تجعل أمر الآخرة وما يكون فيها ، بحسبان ، حتى باتوا - وقد تركت نفوسهم - وهم أقوى بعون الله من صوارف الدنيا وزخرفها ، ولا عجب في ذلك ، وقد لزموا غرز النبي عليه

الصلاة والسلام « وكان اتباع هديه على علم وبصيرة ، أحلى لهم من كل شيء .

وفي كلام لإبراهيم بن أدهم العالم الزاهد المشهور والمتوفى سنة ١٦٢ مما يرويه أبو نعيم في الحلية قوله رحمه الله : « أصبحت بالله مؤمناً ، وبلقاء الله مصداً ، وبحجته معترفاً ، ومن ذنبي مستغفراً » ولربوبية الله خاضعاً ، ولسوى الله جاحداً ، وإلى الله تعالى فقيراً ، وعلى الله متوكلاً ، وإلى الله منياً ، أشهد الله وأشهد ملائكته وأنبياءه ورسله وحمله عرشه ، ومن خلق وما هو خالق ، بأن الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، والحوض حق ، والشفاعة حق ، ومنكراً ونكيراً حق ، ولقاءك حق ، ووعدك حق ، والساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور . على ذلك أحيا وعليه أموت ، وعليه أبعث إن شاء الله .»

وبعد هذه الكلمات المشرقة بسنا التوحيد ، والإيمان بما يكون بعد الموت ، ويوم يقوم الناس لرب العالمين - التي حرص على أن لا يدعها مجملة ، بل يفصلها بعض التفصيل - نجده يدعو الله تعالى بدعوات مباركات كان منها :

« اللهم أنت ربي لا رب لي إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك اللهم من شر كل ذي شر ، اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك والخير كله بيدك وأنا لك ، أستغفرك وأتوب إليك .

آمنت اللهم بما أرسلت من رسول ، وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب صلّ اللهم وسلم على محمد وعلى آله وسلم كثيراً ، وعلى أنبيائه ورسله أجمعين آمين يارب العالمين .

اللهم أوردنا حوضه واسقنا بكأسه مشرباً مريئاً سائغاً هنيئاً لا نظماً بعده أبداً ، واحشرنا في زمرة ، غير خزايا ، ولا ناكسين ، ولا مرتابين ، ولا مقبوحين ، ولا

مغضوباً علينا ولا ضالّين .

اللهم اعصمني من فتن الدنيا ووفقني لما تحب من العمل وترضى « وأصلح لي شأني كله ، وثبتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » .

رحم الله إبراهيم بن أدهم وأعلى مقامه في الآخرين ، ورزق الله أمتنا الانتفاع بهذا السلوك المضيء بسنا التوحيد الخالص ، المضمخ بعير العبودية ، وصدق الضراعة ، المزدان بحضور القلب ، والرغبة الصادقة في النجاة يوم الدين ، ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾

الجنة حق والنار حق

ما كان لي - والحديث يدار عن القيامة ومشاهدها من خلال نصوص السنة المطهرة التي هي بيان الكتاب العزيز - أن أتجاوز إلى اصطحاب بعض ، مما حملت إلينا دواوين الهدي النبوي ، من أحاديث تتعلق بالجنة التي أعدّها الله لعباده الصالحين ، والتي فيها ما لا قبل للحواس بالإحاطة به ، ولا خطر على قلب بشر ، وتكشف عن صفاتها وخصائصها ، وما تزدان به من الخير العميم ، والفضل العظيم... ما كان لي أن أتجاوز إلى ذلك ، دون أن أذكر بما جاء عن النبي ﷺ في شأن الجنة والإيمان بها ، والطرائق التي رسمها بتوجيهاته عليه الصلاة والسلام ، والمناهج التي دلّ عليها في إطار التصديق ، والقول ، والعمل والسلوك ، وبيّن - وهو المؤتمن على البيان الكريم - أن من سلكها مخلصاً ، فاز بالرضا ، وكان من أهل النعيم المقيم ، الذي لا ينقص ولا يحول ، بمنّة وعظيم فضله سبحانه وتعالى .

ها نحن أولاء أمام الذي صح عنه عليه الصلاة والسلام ، من الإعراب عن إيمانه الذي لا يجارى ، بحقيقة أن الجنة حق وأن النار حق ، وذلك ضمن دعاء زاخر بالحب وحرارة الشوق إلى الله ، مضمّن بندي العبودية الصادقة ، التي يسمو بها ويسمو إلى أعلى عليين ، مشرقٍ بجزيّل الحمد والثناء على الله ، والاعتراف بأحقية وعده جل شأنه ولقائه ، والاستسلام المطلق لما يريد ، والرضا بما يقضي به سبحانه ويحكم .

ففي كتاب التهجد من الجامع الصحيح : عقد الإمام البخاري باباً عنوانه « (التهجد بالليل وقوله عز وجل ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ » ثم قال رحمه الله : حدثنا علي بن عبد الله قال : حدثنا سفيان قال : حدثنا سليمان بن أبي مسلم عن طاوس أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما ، قال « كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم لك الحمد أنت قيّم السماوات والأرض ومن فيهن ،

ولك الحمد لك مُلك السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت مَلِك السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق والجنة حق والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق ، والساعة حق . اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت ولا إله غيرك » قال سفيان : وزاد عبدالكريم أبو أمية « ولا حول ولا قوة إلا بالله » قال سفيان : قال سليمان بن أبي مسلم : سمعه من طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ .

سفيان هنا هو سفيان الثوري . وأنت ترى أنه ﷺ ذكر أن الجنة حق وأن النار حق ، ضمن زمرة مباركة مما يجب الإيمان به ، إيماناً لا يعتريه ارتياب ، وذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أنت الحق ووعد الحق ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ومحمد ﷺ حق ، والساعة حق » قال الحافظ ابن حجر (وإطلاق اسم الحق على ما ذكر من الأمور : معناه أنه لا بد من كونها ، وأنها مما يجب أن يصدق بها ، وتكرار لفظ « حق » للمبالغة والتأكيد).

ويرى رحمه الله أن في قوله : « والجنة حق والنار حق » إشارة إلى أنها موجودتان ، والاعتقاد بهذا الحق بالنسبة إلى الجنة والنار ، عنوان الفوز في الآخرة؛ فالإيمان به ، مع الإيمان بأن عيسى عبدالله ، وابن أمته ، بعد الشهادتين ، طريق صاحب ذلك الإيمان إلى الجنة ، يدخل من أي أبوابها الثمانية شاء . قال الإمام مسلم : حدثنا داود بن رُشيد قال : حدثنا الوليد - يعني ابن مسلم - عن ابن جابر قال : حدثني عمير بن هانئ قال : حدثني جنادة بن أبي أمية قال : حدثنا عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبدالله وابن أمته ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق وأن النار حق ، أدخله الله من أي أبواب الجنة

ألا ما أجمل أن يُقبل المرء على الله بقلب صادق، وعقل متطلع إلى مغالطة الحقيقة، دون رواسب وانصباع للهوى ، فيوقنَ بما جاء عن الله ورسوله، من عالم الغيب ، حتى كأن ما آمن بوجوده معايينٌ مشهور !! وعندها يكون في عداد أولئك الذين استقاموا على المحجة البيضاء ، فرضي الله عنهم ورضوا عنه ، ويحظى يوم القيامة ، بما يحظى به طلاب الآخرة الصادقون المنيبون .

ولقد أحسن الإمام النووي - أجزل الله ثوبته - في قوله عند شرح الحديث المذكور : (هذا الحديث عظيم الموقع، وهو أجمع ، أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد ؛ فإنه ﷺ جمع فيه ما يُخرج عن جميع ملل الكفر ، على اختلاف عقائدهم وتباعدها ، فاختصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم ، وسمى عيسى عليه السلام كلمة ، لأنه كان عن الكلمة، فسمي بها ، كما يقال للمطر رحمة) .

وبعد: فما أحوج المسلمين والمسلمات، إلى قراءة جديدة - على نور من الإيمان بالغيب - للنصوص التي تحمل تلك الحقائق وأمثالها، ومراجعة ما نحن عليه من الإيمان بأن الجنة حق، وأن النار حق ، سيما وقد طغت المادة على الكثيرين منا ، واضطربت المعايير هنا وهناك ، وأصبحت أمور العاجلة هي المعيار الذي يحتكم إليه ، حتى كأن البعض من المسلمين ، ليس من الإيمان بهذه الحقيقة ، حقيقة المساءلة يوم الحشر ، والجنة والنار ، في شيء .

نعم ما أحوج كل مسلمة ومسلمة ، إلى هذه المراجعة ، كيما يعمل الكل جاهدين ، على أن ينعكس هذا الإيمان على السلوك ، وتقدير الأمور والتصرفات ، على الوجه الذي يقتضيه الإيمان بالغيب ، والخسر الصادق ، بأنه ليس بعد هذه الدنيا دار إلا الجنة أو النار ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

الجنة.. وبشرى الموحدين

وقفنا الحديث الذي رواه الإمام البخاري رحمه الله ، في شأن الدعاء الذي كان يدعو به النبي ﷺ إذا قام يتهجد من الليل ، والذي تضمن - فيما تضمن - الكشف عن يقين النبي ﷺ بأن الجنة حق وبأن النار حق ... وقفنا هذا الحديث على عظم المكانة التي يحتلها التصديق بوجود الجنة والنار ، وكيف أن هذا التصديق ، عنوان خيرية لصاحبه ، يجد عاقبتها يوم القيامة ، كما وجد حلاوة الإيمان في هذه الدار .

ولعل من الخير التذكير ، بأن من فقه الإمام البخاري أنه - كما أورد هذا الحديث في كتاب التهجد من الجامع الصحيح - أوردته في كتاب الدعوات منه بنحو الرواية التي رأينا . وأوردته كذلك في كتاب التوحيد من الجامع أيضاً باختلاف يسير ، فقد عقد تحت الكتاب المذكور من الجامع باباً ترجم له بقوله : «باب قول الله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ﴾» وأخرج هناك بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « كان النبي ﷺ يدعو من الليل : اللهم لك الحمد أنت رب السماوات والأرض ، لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن . لك الحمد أنت نور السماوات والأرض » قولك الحق « ووعدك الحق ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت » وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وأسررت وأعلنت ، أنت إلهي لا إله لي غيرك » حدثنا ثابت بن محمد قال : حدثنا سفيان بهذا وقال : « أنت الحق وقولك الحق » . وهنالك بابان آخران تحت كتاب التوحيد المسمى إليه ، أوردته تحت كل منهما : أحدهما « باب قول الله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ » والثاني « باب قول الله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ » إنه لقول فصل :

حق ﴿ وما هو بالهزل ﴾ باللعب .

وقد أولى النبي ﷺ الإيمان بوجود الجنة والنار ، أهمية بالغة ، نلمحها في ذلك الترغيب العظيم الذي رأيناه فيما روى مسلم بسنده عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله وابن أمته ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق وأن النار حق ، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء » . وفي رواية أخرى له « أدخله الله الجنة على ما كان من عمل » وهذا ما نجده بشيء من التفاوت عند الإمام البخاري ؛ فقد جاء في كتاب الأنبياء من الجامع الصحيح قوله « باب قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغفلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ قال أبو عبيد : « كلمته » كن فكان . وقال غيره : ﴿ وروح منه ﴾ أحياء فجعله روحاً ﴿ ولا تقولوا ثلاثة ﴾ . حدثنا صدقة ابن الفضل قال : حدثنا الوليد عن الأوزاعي قال : حدثني عمير بن هانيء قال : حدثني جُنادة بن أبي أمية عن عبادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من عمل » .

وقد اتجه الحافظ ابن حجر رحمه الله إلى أن معنى قوله ﷺ : « على ما كان من العمل » أي من صلاح أو فساد ، لكن أهل التوحيد ، لا بد لهم من دخول الجنة قال : (ويحتمل أن يكون معنى قوله : « على ما كان من العمل » أي يدخل أهل الجنة الجنة ، على حسب أعمال كل منهم في الدرجات . وقد دلت أحاديث الشفاعة ، على أن بعض العصاة ، يعذب ثم يخرج ، وهو ما يُخصُّ به هذا العموم) .

فجميع الموحدين في خاتمة المطاف، إلى الجنة بفضل الله تعالى ورحمته بهذه الأمة .

وفي حديث موصول بالرواية التي تنص على أن وجود كل من الجنة والنار حق لا مرية فيه ، نقرأ ما أخرج أبوداود في كتاب الصلاة من السنن بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما : « أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل يقول : اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت قيّام - أوقيم - السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما أقدمت وأخرت ، وأسررت وأعلنت أنت إلهي لا إله إلا أنت » وأخرجه ابن ماجه والدارمي .

ومن الواضح أن في بعض الروايات تكراراً لكلمة « لك الحمد » ، واختتام الدعاء بقوله ﷺ : « ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

اللهم اجعلنا من أهل تقواك الذين يؤمنون بالغيب؛ فالجنة حق والنار حق ووعدك حق والساعة حق، وباعد بيننا وبين الغفلة وأهلها ، كيما نذوق حلاوة الإيمان، فنعمل الصالحات على الوجه الذي يرضيك ، ونفوز بالجنة ، وننجو من النار إنك أهل التقوى وأهل المغفرة .

أحقية الجنة والنار... الإيمان والأثر

نعمة الإيمان بأن الجنة حق وأن النار حق : نعمة عظيمة تستحق الشكر المتجدد لله عز وجل ، بالقول والعمل . وفي متابعة ، لما للإيمان بهذه الحقيقة الناصعة، من بالغ الأهمية ، على صعيد التصور ، ومزاولة عمارة الأرض وفق المنهج الرباني ، ومن عظيم الأثر في السلوك ، والإسهام في بناء الوجود الإسلامي، وتسيير حركة الحياة التي هي معبر الإنسان إلى الآخرة دار البقاء .. في متابعة لذلك : تجدر الإشارة إلى أن إشراق القلب والعقل بهذا الإيمان ، كان مفتاح الوثوق بما يقال ، والطمأنينة إلى سلامة ما يراد في علاقة المسلم بأخيه المسلم؛ ذلكم ما نفع عليه في صحيح مسلم من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه الذي يبين فيه عن توفيق الله إياه في ملاحقة المشركين والظفر بهم في إحدى المواجهات - وهو خير رجاله رسول الله ﷺ في ذلك اليوم - عندما أغار عبدالرحمن الفزاري على ظهر رسول الله ﷺ فقتله أجمع، واستاق راعيه بلا رحمة ؛ فقد كان من كلامه عن وقائعه مع المعتدين ، وما أبل فيهم من البلاء الحسن - حتى كأنه وحده كوكبة كبيرة من المقاتلين - قوله رضي الله عنه : «... قال الفزاري : ما هذا الذي أرى ؟ قالوا : لقينا من هذا - يعنى سلمة - البرح - أي الشدة - والله ما فارقنا منذ غَلَس ، يرمينا حتى انتزع كل شيء في أيدينا . قال : فليقم إليه نفر منكم أربعة . قال : فصعد إليّ منهم أربعة في الجبل . قال : فلما أمكنوني من الكلام قلت : هل تعرفونني ؟ قالوا ؛ لا ، ومن أنت ؟ قال : قلت : أنا سلمة بن الأكوع ، والذي كرّم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته ، ولا يطلبنني رجل منكم فيدركني . قال أحدهم : أنا أظن . قال : فرجعوا ، فما برحت مكاني ، حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخلّلون الشجر ، قال : فاذا أوّهم الأخرم الأسديّ ، على إثره أبوقتادة الأنصاريّ ، وعلى إثره المقداد بن الأسود الكنديّ . قال : فأخذت

بعنان الأخرم . قال : فولّوا مدبرين قلت : يا أخرم احذرهم لا يقتطعوك حتى يلحقَ رسول الله ﷺ وأصحابه ، قال : ياسلمة : إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حقٌ والنار حقٌ ، فلا تحلّ بيني وبين الشهادة ، قال : فخلّيته ، فالتقى هو وعبدالرحمن . قال : فعقر بعبدالرحمن فرسه ، وطعنه عبدالرحمن فقتله ، وتحول على فرسه . ولحق أبوقتادة بعبدالرحمن ، فطعنه فقتله .

هكذا كانت رغبة الأخرم الأسديّ الصادقة في الشهادة ، مدعاة لأن يناشد سلمة بن الأكوع رضي الله عنه — وهو لا يكاد يبقي من العدو أحداً — تلك المناشدة العظيمة ، من أجل أن يتيح له المناجزة مع القوم ، لعله يفوز بتلك الكرامة العظيمة ، كرامة الشهادة في سبيل الله ، وكانت تلك المناشدة — كما جاء النص عليها — « ياسلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتعلم أن الجنة حق والنار حق ، فلا تحلّ بيني وبين الشهادة » .

والملاحظ أن سلمة رضي الله عنه « كان قد خاف على أخيه أخرم ، من أن يقتله أولئك المتمرسون بالغزو والسطو ، حتى استاقوا ظهر رسول الله أجمع ، وقتلوا راعيه ، يقودهم في ذلك عبدالرحمن الفزاري .

غير أن أخرم رضي الله عنه ، كان أكثر شوقاً إلى الجنة ، وكانت الشهادة في سبيل الله ، أسمى من أن يعدل عنها ، طلباً للعافية من مناجزة الفزاري .

من أجل ذلك ، أملى على التاريخ قوله لسلمة : « إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق وأن النار حق ، فلا تحلّ بيني وبين الشهادة » . إنه — رضي الله عنه — يطمح إلى الشهادة ، كيما يفوز بما يؤتي الله الشهداء من الفضل ، وما يكون لهم من النعيم في الفردوس الأعلى ، ناهيك عن أنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

وهكذا بدا أثر الإيمان بوجود الجنة والنار ، وأن ذلك حق لا ريب فيه .. بدا بضياته المعبر في تلك الواقعة المثقلة بالدروس — وما أكثر الوقائع ذات الدلالة

على ذلك الأثر - الأمر الذي يدعو إلى مراجعة النفس، في أمر الانصياع إلى ما يقتضيه اليقين، بأن الجنة حق، والنار حق .

على أن كلمات الصحابي الجليل، الذي رزق الشهادة، بعد أن ناشد أخاه أن لا يحول دونه ودونها « بقدر ما تتسامى في دلالتها على ما تنطوي عليه نفوس الصحابة رضوان الله عليهم، من إعطاء الإيمان بأحقية الجنة والنار « تلك الأهمية البالغة؛ فإنها تتسامى كذلك، بمزيد من الإشراف، لتكون واحداً من المعالم الهادية في حياة الأمة، التي ما تفتأ تبحث عن المخرج مما هي فيه، من فتنة حب الدنيا وكرهية الموت، ومن الوقفة المجافية للاستقامة، في عدد من أمور الغيب التي دلت عليها آي الكتاب الكريم، ونصوص السنة النبوية الصحيحة؛ ذلك بأنها وقفة تناقض، ولا تعني الكثير في دنيا الواقع، والسلوك، والعمل لما بعد الموت؛ وأوضح الأمثلة على هذا الذي نقول - والله أعلم - الإيمان بالحقيقة التي حولها ندندن، والمفترض أن يتجاوز الأمر ذلك الإيمان النظري، إلى الشوق الدائم إلى الجنة، وسلوك السبيل الأمثل مسارعةً إليها، والخوف الشديد من النار، والانصراف الحازم عن كل ما يمت إلى طريقها بصلة .

وغير خافٍ ما تحمل نصوص الكتاب والسنة، من دعوة حارة إلى الالتزام بهذا المنهج القويم، وجيلُ الصحابة الفريد في بني الإنسان، نموذج واضح مشرق على هذا الالتزام، وليس أدلّ على ذلك - وما أكثر هذه المواقف - ما جرى بين سلمة وبين الأخرم، الذي رزق الشهادة بعد ذِيَّكَ الحوار .

وهل ينسى أهل الحجى، موقف عُمر بن الحمام رضي الله عنه يوم بدر، عندما حمله الشوق إلى الجنة، على المسارعة إلى نقد الثمن، وهو الاستشهاد في ساحة اللقاء مع المشركين، أعداء الله والحق والإنسان . لقد استطال رضي الله عنه الزمن الذي يتقاضى بأكله بضع تمرات، كانت في يده حينذاك، فألقى بها، وقاتل القوم حتى قتل؛ فكان أول قتيل من الأنصار في الإسلام - كما يقول ابن الأثير -

وكان من أوائل البُناة لمجد الإسلام وحضارة الإسلام ؛ لقد استقبل الموت راضياً مطمئناً كأنه ينظر إلى مقامه في الجنة التي عرضها السماوات والأرض ، والتي اشتاق إليها بعد إخبار الرسول عليه الصلاة والسلام ، بأنها الجزء الأوفى لمن يحسن العطاء ؛ فالله قد أوجب الجنة ، لمن استشهد في سبيله . أخرج أحمد ومسلم والحاكم وغيرهم من حديث أنس رضي الله عنه « أن الرسول ﷺ قال لما التقى الجمعان يوم بدر : « قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض » قال : يقول عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول الله ، جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال : نعم ، فقال : بخ بخ ، فقال رسول الله ﷺ : ما يملكك على قولك : بخ بخ ؟ قال : لا والله يا رسول الله ، إلا رجاء أن أكون من أهلها . قال ﷺ : « فإنك من أهلها » . قال : فأخرج تمرات من قرنه ، فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة » قال : ثم رمى بها كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قتل » .

بخ بخ بسكون الخاء « أو كسرهما منوناً : اسم فعل بمعنى : أستحسن ، تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير . وقوله : فأخرج تمرات من قرنه أي من جعبة النشاب . وروى ابن إسحاق أنه قال : « بخ بخ ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء » وألقى التمرات من يده ، وأخذ السيف وقاتل القوم وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زاد	إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد	إن التقى من أعظم السداد
وخير ما قاد إلى الرشاد	وكل حي فإلى النفاذ

وصلى الله على نبينا محمد وآله ورضي الله عن صحابته الذين آمنوا به صادقين ، وجاهدوا في سبيل الله مخلصين .

الكلمة الطيبة.. والفوز بالجنة

عندما يكون المؤمن - فيما يذوق من حلاوة الإيمان - شديد التطلع إلى فضل الله تبارك وتعالى ، والطمع في إحسانه ؛ ومن ذلك أن يكتبه في عداد من يدخلهم - برحمته - جنات النعيم ، ويكون الإيمان بأحقية الجنة والنار ، بريد الشوق إلى الجنة ، وما وعد الله عباده المنيبين الصادقين في الآخرة : فالأمر لا يتوقف عند علمه ، بأن الجنة حق والنار حق ، ولكن يتجاوز إلى ما يقتضيه ذلك ، من المسارعة إلى كل ما فيه مرضاة الله تعالى ، والفوز بالجنة والنجاة من النار . ولا تسل عما تولده عزيمة السالكين ، من هذا الشوق إلى دار الخلد والرضوان ، فترى الواحد منهم ، وهو على هذا الشوق ، يسعى السعي الحثيث في هذه الدار ، كيما يكون أهلاً للدخول في زمرة الذين يحظون بما يحظى المحبون ، فيحلُّهم رب العالمين دار المقامة من فضله ، حيث تفتح لهم أبواب الجنة ، ويقول لهم خزنتها : ﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ .

وهذا الشوق المقلق إلى الجنة ، الذي يصبح صنو الإيمان بها ، تجده ديدن رجالنا من السلف الصالح عليهم الرحمة ، وكان يدفعهم أبداً ، إلى صالح العمل ، وذكر الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، وأخذ الإسلام بقوة ، والتعالي على سفساف الأمور وحطام الدنيا ، لما أنهم يعتقدون أن ما عند الله خير وأبقى ، ولا يظلمون فتيلاً .

قال أبو نعيم في « الحلية » : حدثنا أحمد بن جعفر قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : حدثني أبي قال : حدثنا يحيى بن إسحاق قال : حدثنا مهدي ابن ميمون قال : أخبرنا الجريري قال : كنا عند محمد بن سيرين ، فلما أردنا القيام قلنا . دعوة يا أبا بكر ، قال : (اللهم تقبل منا أحسن ما نعمل ، وتجاوز عنا في

أصحاب الجنة وعدَ الصدق الذي كانوا يوعدون). وفي ترغيب لجلسائه رحمه الله في تحقيق شُعب الإيمان على صعيد الواقع والعمل، ومنها إمطة الأذى عن الطريق، وهو أدناها، كما جاء في الحديث الصحيح، وبيان أن ذلك طريق المغفرة والجنة؛ حدث يوماً - كما جاء في الحلية - فقال: (رأيت جليساً لي في المنام، فإذا ساقاه من ذهب؛ فقلت له: ما صنع الله بك؟ فقال: غفر لي وأدخلني الجنة) وأبدلني بدل ساقبي ساقين من ذهب، أسرح بهما في الجنة حيث شئت. قلت: بماذا؟ قال: بعزل الأذى عن الطريق) وأورد ذلك الذهبي في السير وابن الجوزي في صفة الصفوة، وغيرهما.

والمؤمن في حين أن الشوق إلى الجنة يدفعه إلى العمل، واغتنام الفرص في طاعة الله، لا ينسى ما يكون في عرصات القيامة من مشاهد، تذهل الخليل عن خليله، وتجعل الولدان شيباً، لما أن ذلك مدعاة للكثير من اليقظة، وصدق العزيمة، في عدم الركون إلى الدنيا وزخرفها، والقدرة بعون الله، على مغالبة النفس والهوى، من أجل الانصراف الكامل عن طريق الغافلين، وقطع كل وشيجة تمت إلى الغفلة والإعراض عن ذكر الله واليوم الآخر، بصلة.

ولقد كان من إكرام الله لهذه الأمة، أن هداها برسول الله ﷺ إلى التوحيد، الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وجعل منها، حين ينطق بها المرء خالصةً من قلبه ونفسه، ويعمل بمقتضاها مؤدياً حقها، طريقاً إلى دار الخلد التي وعد الله عباده الأبرار. وأنت واجد أن الأحاديث الصحيحة تفيض بهذه الحقيقة «وتفتح لأهل الإيمان باباً عريضاً من أبواب الخير.... والذين يُجرمون من مخالطة تلك الكلمة النورانية، المثقلة بندي الهداية والعطاء - بألستهم وقلوبهم وعقولهم - هم المحرومون والعياذ بالله. قال الإمام مسلم رحمه الله: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب كلاهما عن إسماعيل بن إبراهيم قال أبو بكر: حدثنا ابن عُليّة عن خالد قال: حدثني الوليد بن مسلم عن ثمران عن عثمان رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ، «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة» وله من

طريق أخرى عن الوليد أبي بشر أنه قال : سمعت مُهران يقول : سمعت عثمان يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول مثله سواء . وروى بسنده أيضاً عن أبي هريرة قال : «كنا مع النبي ﷺ في مسير . قال : فنفتد أزواد القوم ، قال : حتى همّ بنحر بعض حائلهم ، قال : فقال عمر : يا رسول الله ، لو جمعت ما بقي من أزواد القوم ، فدعوت الله عليها ، قال : ففعل ، قال : فجاء ذو البرِّ بِرَّة وذو التمر بتمره قال : وقال مجاهد : وذو النواة بنواة ، قلت : وما كانوا يصنعون بالنوى ؟ قال : كانوا يَمْصُونه ويشربون عليه الماء ، قال : فدعا عليها ، قال : حتى ملأ القوم أزودتهم قال : فقال عند ذلك : أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة » .

هكذا امثل الجميع لأمر النبي ﷺ ، وقدموا صورة عملية للتعاون المثمر على صعيد الواقع ، في ظل أخوة الإسلام ، الأخوة التي قامت على تلکم الدعامَةِ المباركة معينِ الخير الذي لا ينفد « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وكان أن وجد النبي ﷺ ، من خلال هذه الصورة المشرقة المعبرة ، طريقاً للتذكير بفضل الشهادتين ، وأنه لا يلقى الله عبداً غير شاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة .

ومما لا شك فيه ، أنه لابد من أداء حق الكلمة الطيبة والعمل بمقتضاها ، كما تدل على ذلك النصوص بمجموعها ، إذ لا يصح الاكتفاء بنص وإهمال بقية النصوص .

ويحس التنبيه على أن كلمة «حائل» التي جاءت في هذا الحديث، وردت في بعض الروايات بالجيم أيضاً «جائل» وذهب أبو عمرو بن الصلاح إلى أن كلا الروایتين صحيح قال رحمه الله : فهي بالحاء جمع حَمَلة بفتح الحاء، وهي الإبل التي تحمل ، وبالجيم جمع جَمالة بكسر الجيم جمع جمل ، ونظيره حجر وحجارة ، والجمل هو الذكر دون الناقة .

وفي هذا الذي همّ به النبي ﷺ ، من نحر بعض الحمايل ، بعد أن نفتد

أزواد القوم ، وأحاط بهم خطر الجوع الشديد : بيان لمراعاة المصالح - كما قال ابن الصلاح - وتقديم الأهم فالأهم ، وارتكاب أخف الضررين لدفع أضرهما . وحين أشار عمر بما أشار ، أخذ النبي ﷺ برأيه رضي الله عنه ، وأعطى أمته - وولاة أمرها بخاصة ، وهو الأسوة الحسنة - درساً عظيماً في قبول الرأي النافع ، والعمل به . وقول أبي هريرة رضي الله عنه « حتى ملأ القوم أزودتهم » المراد به - كما يقول العلماء - حتى ملأ القوم أوعية أزودتهم ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، قال القاضي : ويحتمل أنه سمي الأوعية أزواداً ، باسم ما فيها ، كما في نظائره والله أعلم .

هذا : ويبدو أن هذه الواقعة كانت في غزوة تبوك - كما في الرواية التي سوف نوردتها إن شاء الله - فقد أصاب الناس مجاعة ، واستأذنوا رسول الله ﷺ في نحر نواضحهم - وهي الإبل التي يسقى عليها - ليأكلوا ويذهبوا .

وفي خاتمة المطاف : ليس بدعاً أن يذكرنا هذا الحديث ، وما ختم به من البشارة العظيمة ، بدخول الجنة لمن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، غير شاك فيهما ، بما مر بنا من قريب ، من قوله ﷺ - كما جاء في صحيح مسلم - « من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبدالله وابن أمته » وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء » .

ألا ما أعظم تلك المشاهد المضيئة يوم الدين ، مشاهد من كانوا على التوحيد الخالص في الدنيا ، فكان عاقبة الواحد منهم أن يدخل من أي أبواب الجنة الثمانية شاء !!

حول الكلمة الطيبة في العمل والسلوك

ما يزال الحديث موصولاً ، بما جاءت به الأحاديث النبوية من بيان لعظمة الكلمة الطيبة كلمة التوحيد ، وأن من قالها خالصاً من قلبه دونها شك أو ارتياب ، كانت عاقبته الجنة . وهي بشارة عظيمة لهذه الأمة المحمدية ؛ ولكن لا بد من ضمنية تدل عليها النصوص بمجموعها ؛ وهي أن كلمة التوحيد ، يفترض أن يقرن بها في سلوك المؤمن ، أداءُ حقها ، والقيامُ بما تقتضيه من العمل .

وهنا ما بدأ من النظر في روايات أخرى ، لمعرفة الزمان الذي حصلت فيه الواقعة التي أعقبت سرور النبي ﷺ من جنده ، وبيانه ما لكلمة التوحيد ، من أثر في صنيعهم وما تعقب من الفوز بالجنة . فالرواية التي حملت إلينا هم النبي ﷺ بذبح الحمائل وهي الإبل التي تحمل ، إنقاذاً لجنده من مجاعة ألمّت بهم ، ثم أخذه برأي عمر رضي الله عنه ، بجمع ما بقي من أزواد القوم ، ودعاء الله تعالى أن يبارك فيها ، وأن رسول الله ﷺ قال بعد أن ملأ القوم أزودتهم : « أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقي الله بهما عبد غير شاكٍ فيها إلا دخل الجنة »... هذه الرواية تشدنا إلى رواية صحيحة أخرى - كما أشرت من قبل - تدل على أن هذه الواقعة قد حصلت في غزوة تبوك ؛ والرواية التي أعنيها تقع عليها عند الإمام مسلم . قال رحمه الله : حدثنا سهل بن عثمان بن وأبو كريب محمد بن العلاء جميعاً عن أبي معاوية ، قال أبو كريب : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد - شك الأعمش - قال : لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة ، قالوا : يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا ، فأكلنا وادّهنّا ، فقال رسول الله ﷺ : افعلوا ، قال : فجاء عمر ، فقال : يا رسول الله ، إن فعلت قلّ الظهر ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة ، لعل الله أن يجعل في ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : نعم . قال : فدعا بنطع فبسطه ، ثم دعا بفضل

أزوادهم، قال : فجعل الرجل يجيء بكف ذرة ، ويجيء الآخر بكف تمر ، قال :
ويجيء الآخر بكسرة ، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير ، قال : فدعا
رسول الله ﷺ عليه بالبركة ، ثم قال : خذوا أو عيتكم ، قال : فأخذوا في أو عيتهم ،
حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوه . قال : فأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت
فضلة ، فقال رسول الله ﷺ : « أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله
بهما عبد غير شاكٍ فيُحجب عن الجنة » .

وواضح هنا - كما أشرت غير مرة - أن الذي أدخل الغبطة إلى نفس رسول
الله ﷺ - ما رأى في صحابته - وهم في الشدة الشادة - من أثرٍ لكلمة التوحيد في
عقولهم وقلوبهم وسلوكهم ، فهم يطيعون أمره ، ويمثلون لما يوجههم إليه ، وهم
يتصرفون في ظل أخوة الإسلام ، القائمة على وشيجة تلك العقيدة ، التي ألف الله
بها بين قلوبهم ، تصرفاً يحمل كل المعاني الخيرة لتلك الأخوة ، حتى كأنهم الجسد
الواحد ، كما جاء في الحديث الصحيح « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه
بعضاً وشبك ﷺ بين أصابعه » فلما رأى ما رأى من جمع أزوادهم - على قلتها - ،
وما بارك الله فيها بدعائه ، عاد يذكر بالأصل الذي قام عليه هذا كله ، وهو
الشهادتان ، وأداء حقهما والعمل بمقتضاهما ؛ لأن ما حصل كان أثراً من آثار
التفاعل الإيماني بين النطق بالشهادتين ، وبين إشرقة السلوك فيما فعل الصحابة
رضي الله عنهم ؛ ومن هنا تأول علماءنا بعض الأحاديث التي يوحى ظاهرها ، بعدم
التقيد بما هو حق كلمة التوحيد في العمل والسلوك . قال الإمام النووي عند شرحه
للأحاديث التي أخرجها مسلم في هذا الموضوع الذي له ماله من الأثر في حياة
الفرد والجماعة والأمة : (واعلم أن مذهب أهل السنة وما عليه أهل الحق من
السلف والخلف ، أن من مات موحداً دخل الجنة قطعاً على كل حال ؛ فإن كان
سالمًا من المعاصي ، كالصغير والمجنون الذي اتصل جنونه بالبلوغ ، والتائب توبة
صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصي ، إذا لم يحدث معصية بعد توبته ،
والموفق الذي لم يُبتَلْ بمعصية أصلاً ؛ فكل هذا الصنف يدخلون الجنة ، ولا

يدخلون النار أصلاً ، لكنهم يردونها على الخلاف المعروف في الورد ؛ والصحيح أن المراد به المرور على الصراط - وهو منصوب على جهنم - أعادنا الله منها ومن سائر المكروه .

وأما من كانت له معصية كبيرة ، ومات من غير توبة : فهو في مشيئة الله تعالى ؛ فإن شاء ، عفا عنه ، وأدخله الجنة أولاً ، وجعله كالقسم الأول ، وإن شاء ، عذبه القدر الذي يريده سبحانه وتعالى ، ثم يدخله الجنة .

فلا يخلد في النار أحد مات على التوحيد ، ولو عمل من المعاصي ما عمل كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر ، ولو عمل من أعمال البر ما عمل .

ثم قال يرحمه الله : (هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة ، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع من يُعتدُّ به من الأمة ، على هذه القاعدة ، وتواترت بذلك نصوص تحصيل العلم القطعي .

فإذا تقرر هذه القاعدة ، حُلَّ عليها ما ورد من أحاديث الباب وغيره ؛ فإذا ورد حديث في ظاهره مخالفة ، وجب تأويله عليها ، ليجمع بين نصوص الشرع وسنذكر من تأويل بعضها ما يعرف به تأويل الباقي إن شاء الله تعالى والله أعلم .

هذا : وقد أورد القاضي عياض - فيما أورد من الآراء عند شرح الأحاديث - ما نقل عن الحسن البصري من أن المعنى : من قال الكلمة وأدى حقها وفريضتها ، وقول البخاري : بأن ذلك لمن قالها عند الندم والتوبة ومات على ذلك ، ثم قال : (وهذه التأويلات إنما هي إذا حملت الأحاديث على ظاهرها ، وأما إذا نُزِلَتْ منازلها فلا يشكل تأويلها على ما بينه المحققون ؛ فنقرر أن مذهب أهل السنة بأجمعهم من السلف الصالح ، وأهل الحديث ، والفقهاء ، والمتكلمين على مذهبهم من المحققين : أن أهل الذنوب في مشيئة الله تعالى ، وأن كل من مات على الإيمان وتشهد مخلصاً من قلبه بالشهادتين ، فإنه يدخل الجنة ، فإن كان تائباً أو سليماً من المعاصي دخل الجنة برحمة ربه ، وحرّم على النار بالجملة ؛ فإن حملنا اللفظين

الواردين على هذا « فيمن هذه صفته، كان بيتاً . وهذا معنى تأويلي الحسن والبخاري ؛ وإن كان هذا من المخلطين بتضييع ما أوجب الله تعالى عليه ، أو بفعل ما حرم عليه ، فهو في المشيئة ، لا يقطع في أمره بتحريمه على النار ، ولا باستحقاقه الجنة ، لأول وهلة ، بل يقطع ، بأنه لا بد من دخوله الجنة آخراً ، وحالُه قبل ذلك في خطر المشيئة ؛ إن شاء الله تعالى عذبه بذنبه » وإن شاء عفا عنه بفضله .

ويمكن أن تستقل الأحاديث بنفسها ويجمع بينها ، فيكون المراد باستحقاق الجنة ، ما قدمناه من إجماع أهل السنة أنه لا بد من دخولها لكل موحد ؛ إما معجلاً معافى ، وإما مؤخراً بعد عقابه .

والمراد بتحريم النار : تحريم الخلود ، خلافاً للخوارج والمعتزلة في المسألتين . ويجوز في حديث « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » أن يكون خصوصاً لمن كان هذا آخر نطقه وخاتمة لفظه . وإن كان قبلُ مغلطاً : فيكون سبباً لرحمة الله تعالى إياه ونجاته رأساً من النار وتحريمه عليها « بخلاف من لم يكن ذلك آخر كلامه من الموحدين المخلطين . وكذلك ما ورد في حديث عبادة من مثل هذا ، ودخوله من أي أبواب الجنة شاء ، يكون خصوصاً لمن قال ما ذكره النبي ﷺ ، وقرن بالشهادتين حقيقة الايمان والتوحيد الذي ورد في حديثه ؛ فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته ، ويوجب له المغفرة والرحمة ، ودخول الجنة لأول وهلة إن شاء الله تعالى والله أعلم .

قال الإمام النووي : هذا آخر كلام القاضي عياض رحمه الله وهو في نهاية الحسن .

إنها العظة البالغة ، والتوجيه إلى مسلك أولي النهى الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يوم الحساب .

يقزب من الجنة... ويباعده من النار

يوم الوعيد وما أدراك ما يوم الوعيد : نُذِرُ الشدة العاتية تتوالى وتتفاقم، والأهوال الجسام مطبقة من هنا وهناك . ومشاهد الترقب المضني، آخذ بعضها برقاب بعض !!

وإذا كان الأمر كذلك : فما أعظم أن يخوض المرء غمار ذلك اليوم ، وقد حمل بين جنبيه مخالطةً بشاشة الإيمان قلبه ، وازدانت أيام عمره - في الدنيا - بأداء ما افترض الله عليه . والتقرب إليه سبحانه ، بالإكثار من الطاعات، وفعل القربات، في إخلاص للدين ، وسعي دائب إلى ما يحقق له النجاة - بفضل الله ورحمته - من أن يكون في عداد من تسعر بهم النار يوم القيامة، ويلقون غياً . وذلكم هو العمل بما تقتضيه كلمة التوحيد « لا إله إلا الله محمد رسول الله » من الإتيان ، بما هو من حقها على ساحة العمل ، برهاناً على صدق قائلها .

أجل : ما أعظم أن يأتي المرء يوم الفزع الأكبر ، والترقب المضني ، وهو على هذه الحال ، لما أن ذلك عنوان أهليته لما بشر به النبي ﷺ من كانوا كذلك ، بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للبررة الصالحين . ولكم تحفز تلك البشارة العظيمة من الصادق المصدوق المبلغ عن الله ما أراد ، أولئك الذين صاحبهم التوفيق وكانوا من أهل الآخرة ، على مضاعفة العمل الصالح ، والمسارة إلى كل ما فيه مغفرة الذنوب، وإضاءة الطريق إلى دار النعيم ، والفوز بما يكرم الله به أهل الصدق في عرصات القيامة ، وما يفيض عليهم من رحمته الغامرة ، وفضله العظيم .

ولقد حملت إلينا دواوين السنة أنباء نفر من الناس ، كانوا يسعدون بسؤال المصطفى عليه الصلاة والسلام « أن يخبرهم بما يقربهم من الجنة، وما يباعدهم عن

النار ؛ يحمنهم على ذلك شوق إلى الفوز بدار الخلود ، التي هي عنوان مرضاة الله تعالى ، وصدق في طلب النجاة من الجحيم ، لما أنها عنوان غضبه - جل شأنه - وعقابه . ناهيك عن الرغبة المخلصة في أخذ العلم بالطريق الهادية ، من معينها المبارك ، في هدي الرسول الكريم الذي لا ينطق عن الهوى ، والمبلّغ عن الله ما أراد . أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن خالد بن زيد أبي أيوب الأنصاري « أن أعرابياً عرض لرسول الله ﷺ وهو في سفر ، فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ، ثم قال : يا رسول الله - أو يا محمد - أخبرني بما يقربني من الجنة وما يباعدني من النار ، قال : فكفّ النبي ﷺ ، ثم نظر في أصحابه ثم قال : لقد وُقِّق ، أو لقد هُدي . قال : كيف قلت ؟ قال : فأعاد : فقال النبي ﷺ : تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم ، دع الناقة » .

والملاحظ أن شدة حرص هذا الأعرابي على سؤال رسول الله ﷺ ، وعلى تلقي إعلامه بما يقرب من الجنة ويباعد من النار ، بلا مشقة : جعله يمسك بخطام الناقة أو زمامها . فلما حصل جوابه ، قال له رسول الله ﷺ : دعها .

وهكذا دلت الواقعة ، على أن رسول الله ﷺ قد شهد للسائل بالهداية - أو التوفيق - لما أنه طلب هذا المطلب منه عليه الصلاة والسلام ، وأنه أوضح له معالم الطريق ، التي إن سلكها مخلصاً لله تبارك وتعالى ، قرَّبته من الجنة وباعدته من النار « تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم » وأخرج مسلم بسنده عن أبي أيوب أيضاً أنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : دُلني على عمل أعمله ، يدينني من الجنة ويباعدني من النار . قال : « تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصل ذارحمك » فلما أدبر : قال رسول الله ﷺ : « إن تمسك بها أمر به دخل الجنة » وفي رواية ابن أبي شبة « إن تمسك به » .

إنها مقدمات توصل - بفضل الله - إلى ما يُبتغى من النتيجة المرضية . أما

الإعراض عن كل ما هو حقُّ « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، والمجافاة لما تقتضيه : فذاك مما يذكر بقول الشاعر :

والدعاوى إن لم يُقيموا عليها بينات أصحابها أدياء

وهذه رواية أخرى ، تذكر فريضة الصوم ، ولا تأتي على صلة الرحم ، فتعطي بُعداً جديداً لبشارة النبي ﷺ بدخول الجنة ، لمن تمسك بما أمر به - كما جاء في الحديث - فعن أبي هريرة رضي الله عنه « أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله دُلّني على عمل ، إذا عملته دخلت الجنة ! قال : تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان . قال : والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئاً أبداً ولا أنقص منه ، فلما ولى قال النبي ﷺ : من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة ، فلينظر إلى هذا » رواه البخاري ومسلم . صلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة سيدنا محمد رسول الله ، وهنيئاً لهذا الرجل ما بشره به صلوات الله وسلامه عليه ، من أنه من أهل الجنة .

قال علماءنا : والظاهر من قوله ﷺ : « من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » أن النبي ﷺ علم أنه يوفي بما التزم ، وأنه يدوم على ذلك ، ويدخل الجنة .

وأنت ترى أن الرسول الكريم ، قد ذكر صلة الرحم مرة ، وذكر الصوم مرة ، وفي حديث وفد عبد القيس عند البخاري ومسلم « أنهاكم عما يُنبذ في الدباء والنقير والحتم والملزقة » وتعليل ذلك : حكمته ﷺ في مراعاة حال السائل وما يعنيه ، فهو يضع الأمور مواضعها ، ويعطي كلاً بحسبه ، قال الإمام النووي رحمه الله : (وأما ذكره ﷺ صلة الرحم في هذا الحديث ، وذكر الأوعية في حديث وفد عبد القيس وغير ذلك في غيرهما : فقال القاضي عياض وغيره رحمهم الله : ذلك بحسب ما يخص السائل ويعنيه والله أعلم) وأخرج مسلم بسنده عن أبي سفيان عن جابر قال : « أتى النبي ﷺ النعمان بن قوقل فقال : يا رسول الله ! أ رأيت إذا

صليت المكتوبة وحرمت الحرام ، وأحللت الحلال ، أدخل الجنة ؟ فقال النبي ﷺ : نعم » وفي رواية أخرى له عن جابر أيضاً « أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال : أرأيت إذا صليت الصلوات المكتوبات ، وصمت رمضان ، وأحللت الحلال وحرمت الحرام ، ولم أزد على ذلك شيئاً . أدخل الجنة ؟ قال : نعم : قال : والله لا أزيد على ذلك شيئاً » .

الدُّبَاءُ بالمد : هو القرع اليابس أي الوعاء منه . والنقير بالنون المفتوحة والقاف : جذع ينقر وسطه . وأصح الأقوال في « الخنتم » وهو جمع حنمة : أنها جرار خضر . وأما المزفت : فهو المقير ، أي المطيُّ بالقار وهو الزفت .

قال العلماء : وأما النهي عن هذه الأربع : فهو أنه نهى عن الانتباز فيها ، وهو أن يُجْعَلَ في الماء حَبَاتٌ من تمر ، أو زبيب ، أو نحوها ، ليخلُو ، ويُشْرَبَ ، وإنما خَصَّتْ هذه بالنهي - وكان ذلك من عادتهم كما يبدو - لأنه يسرع الإسكار فيها ، فيصير حراماً نجساً ، وتبطل ما لَيْتَهُ ، فنهى عنه ، لما فيه من إتلاف المال ، ولأنه ربما شربه بعد إسكاره من لم يطلع عليه .

وللحديث صلة نتعرف من خلافا على ما قال العلماء في دلالة قول الرجل : « والله لا أزيد على ذلك شيئاً » ففي معرفة أقوالهم في ذلك خير كثير . رزقنا الله العلم والعمل ، وأخذ بأيدينا إلى ما فيه الفوز بالجنة والنجاة من النار ، إنه - سبحانه - جواد كريم .

رجل من أهل الجنة

ليس عجباً من العجب، أن تنقل إلينا دواوين السنة المطهرة، أخبار أناس كانوا يحرصون على أن يدهم رسول الله ﷺ على عمل يدينهم من الجنة، ويباعدهم من النار، مع وفرة النصوص التي أوضحت المعالم فيها هو طريق الجنة، وما هو طريق النار..

أجل ليس هذا الحرص عجباً من العجب؛ فالعاقل كل العاقل، من جعل همّه حُسنَ العاقبة بين يدي الله عز وجل، بحيث يزحزح عن النار، ويفوز - بفضل الله ورحمته - بدار المقامة التي يكرم الله بها عباده الذين رضي عنهم ورضوا عنه ﴿ذلك لمن خشي ربه﴾.

ثم إن الرسول عليه الصلاة والسلام - وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو سيد ولد آدم بإطلاق - كان لا يفتأ يسأل الله عز وجل، بضراعة العبد الخاشع الخاضع، أن يدخله الجنة ويعيذه من النار. وسار على هذا الهدي أصحابه رضي الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان. جاء في الحديث الصحيح «أن الرسول ﷺ قال لرجل: كيف تقول في الصلاة؟ قال: أتشهد وأقول: اللهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال النبي ﷺ: «حوها ندندن» أي حول الجنة ودخوها، والنار والنجاة منها، ندور في أدعيتنا. وإنا لنسأله تعالى الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل، ونعوذ به جل شأنه من النار، وما قرّب إليها من قول أو عمل.

ولقد أوردت - فيما أوردت من قبل - بعض ما ورد في صحيح البخاري ومسلم من حديث ذلك الأعرابي، الذي حرص على أن يده النبي ﷺ على عمل يدينه من الجنة، ويباعده من النار، وجاء في بعض تلك الروايات - أن الأعرابي

بعد أن رسم له النبي ﷺ الطريق إلى الجنة، وأوضح معالمها، عقيدةً وعبادةً؛ كان منه أن قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئاً أبداً ولا أنقص منه. تلا ذلك إخبار النبي ﷺ أنه من أهل الجنة. ذلكم ما روى أبوهريرة رضي الله عنه « أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ذلني على عمل إذا عملته، دخلت الجنة قال: تعبد الله - لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان قال: والذي نفسي بيده، لا أزيد على هذا شيئاً أبداً ولا أنقص منه، فلما ولى قال النبي ﷺ: « من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » وقد ذكرت ما قال العلماء في تأويل هذه العبارة الأخيرة من الحديث.

هذا: ونجد في رواية أخرى، أن النبي ﷺ أسند الفلاح إلى السائل إن صدق، ولا ريب أن دخول الجنة فلاح أيّ فلاح. ذلكم ما أخرج البخاري عن أبي سهل ابن مالك عن أبيه أنه سمع طلحة بن عبيد الله يقول: « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس، يسمع دويّ صوته ولا يفقه ما يقول، حتى إذا دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال: هل عليّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطّوع. قال رسول الله ﷺ: وصيام رمضان. قال: هل عليّ غيره؟ قال: لا، إلا أن تطّوع، قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل عليّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطّوع. قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص. قال رسول الله ﷺ: أفلح إن صدق » وفي رواية لمسلم « أفلح وأبيه إن صدق » أو « دخل الجنة وأبيه إن صدق ».

وقال الإمام مسلم: حدثني عمرو بن محمد بن بُكير الناقد قال: حدثنا هاشم بن القاسم أبو النضر قال: حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس ابن مالك قال: « ثُبِينَا أن نَسْأَلَ رسولَ الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية

فقال: يا محمد أتانا رسولك ، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال : صدق قال : فمن خلق السماء ؟ قال : الله ، قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : الله ، قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : الله قال : فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال ، الله أرسلك ؟ قال : نعم ، قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا ، قال ﷺ : صدق ، قال : فبالذي أرسلك ، الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا ، قال : صدق قال : فبالذي أرسلك ، الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قال : وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا ، قال : صدق ، قال : فبالذي أرسلك ، الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، قال : صدق . قال : ثم ولّى ، قال : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها ولا أنقص منهن ، فقال النبي ﷺ : لئن صدق ليدخلن الجنة » فهذا إخبار مؤكد من النبي ﷺ بدخول الجنة لهذا الأعرابي — وهو ضمام بن ثعلبة كما ثبت في رواية البخاري وغيره — إن صدق ، والزعم هنا : مراد به — كما يقول الإمام النووي — القول المحقق والصدق الذي لا شك فيه ، لأن الزعم ، ليس مخصوصاً بالقول المشكوك فيه أو الكذب . وقد ورد استعماله بمعنى الصدق في كثير من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما جرى على لسان أئمة العربية ، كسيبويه ، وغيره من علماء اللغة الكوفيين والبصريين .

وقد مر في رواية سابقة قول الرسول ﷺ : « أفلح إن صدق » بعد قول الأعرابي : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . وقد أزال علماؤنا ما قد يبدو من إشكال في هذه النقطة ؛ فقد قرر الإمام النووي : أن الفلاح راجع إلى المجموع ، بمعنى أنه إذا لم يزد ولم ينقص ، كان مفلحاً ، لأنه أتى بما عليه ومن أتى بما عليه ، فهو مفلح ، وليس في هذا ، أنه إذا أتى بزائد ، لا يكون مفلحاً ، لأن هذا مما يعرف بالضرورة ؛ فإنه إذا أفلح بالواجب ، فلأن يفلح بالواجب والمندوب ، أولى . وقال رحمه الله : وقد يشكل قول الأعرابي : لا أزيد على هذا ، وليس في الحديث جميع

الواجبات ، ولا المنهيات الشرعية ، ولا السنن ، ولا المندوبات ! والجواب : أنه جاء في رواية البخاري زيادة توضح المقصود « قال : « فأخبره رسول الله بسرائع الإسلام . فأدبر الرجل وهو يقول : لا أزيد ولا أنقص مما فرض الله عليّ شيئاً » .

اللهم إنا نسألك عزيمة الرشد والثبات في الأمر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

لهذا رجل من أهل الجنة

كلما أحسن المؤمن صلته بالله عز وجل ، وصدق في حرصه على أن يبلغ يوم الفصل مبلغ الناجين ، كان أكثر انتفاعاً بها تطفح به كلمات الهدي النبوي ، من بشریات ، سوف تتحقق في ذلك اليوم ، لعله يكون من أصحابها « مؤمناً أن الفضل أولاً وآخرًا للرحيم الرحمن سبحانه وتعالى .

وعنوان ذلك: أن يكون هذا المؤمن أبداً مع الذي تقتضيه عقيدة التوحيد، لا يحيد عما هو من حقها وفرضها ، ممسكاً بعاتق الميزان فيما هو من حقوق الله ، وفيما هو من حقوق العباد ؛ فيما هو من زخرف الدنيا متاع الغرور ، وفيما هو من عمل الآخرة ، والنور الذي ينفع صاحبه يوم المعاد ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً ﴾ .

فمن وفق لسلوك هذا النهج - وهو يحرص الحرص كله على أن يحشر في عداد من تبيض وجوههم يوم الدين - يستبشر في عرصات القيامة ، بنعمة الله وفضله ، حيث أعلام العدل والإحسان منصوبة ، ﴿ والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ ويلمس الأثر الطيب ، لاستقامته على ذلك النهج السوي المائل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وهو ما تمليه الكلمة الطيبة ، بكوكبها الدرّي « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فيأمن ، حيث الناس في فزع وخوف ، ويحظى بجنة الخلد التي هي من جزيل العطاء الإلهي . وسبحان من لا تنفذ خزائنه ، ولا ينقص من ملكه عطاء .

وفي خطوة أخرى على هذا السنن ، ما أجل أن نكون على ذكر مما تشرق به نصوص السنة المطهرة من حديث أولئك الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة، بصفاتهم العامة ، أو بأسمائهم . وقد رأينا بعضاً من تلك النصوص من قبل .

قال الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في كتابه « المستدرک » : حدثني محمد بن هانيء قال : حدثني يحيى بن محمد بن يحيى قال : حدثنا أبو عمر الخوصي قال : حدثنا همام عن قتادة قال : حدثني العلاء بن زياد وحدثني يزيد أخو مطرف وحدثني رجلان آخران نسي همام أسميهما أن مطرفاً حدثهم أن عياض بن حماد حدثه أنه سمع النبي ﷺ يقول في خطبته : « أصحاب الجنة ثلاثة : ذو سلطان مصدق ومقسط موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربي ، ورجل فقير عفيف » ثم قال أبو عبد الله : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه - يعني البخاري ومسلماً - وقال الذهبي في كتابه « التلخيص » : رواه مسلم .

والهدي النبوي في هذا النص وأمثاله - وهي كثيرة وفيرة - واضح في ترغيب الأمة في هذه الأخلاق الكريمة ؛ كل حسب موقعه ، حاكماً كان أو محكوماً ، وحسبك أن ذلك طريق المؤمن إلى الجنة ، لأن هذا الصنيع ، دليل الصدق في العقيدة ، وتذوق حلاوة الإيمان .

وفيما وراء العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم : تأخذ بعض نصوص السنة بأيدينا ، إلى أسماء أخرى ، ذكر أصحابها بأعيانهم ، في معرض البشارة بأنهم من أهل الجنة ؛ فتحت « باب مناقب عبد الله بن سلام رضي الله عنه » من كتاب مناقب الأنصار في الجامع الصحيح . قال الإمام البخاري : حدثنا عبد الله بن يوسف قال : سمعت مالكا يحدث عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال : « ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض : « إنه من أهل الجنة » إلا لعبد الله بن سلام . وفيه نزلت هذه الآية : ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ الآية قال : لا أدري قال مالك الآية أوفي الحديث . وقد أخرج ابن ماجة أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، كان اسمه في الجاهلية الحصين ، فسمّاه النبي ﷺ عبد الله ، وكان من حلفاء الخزرج من الأنصار ، أسلم أول ما دخل النبي ﷺ المدينة ، ومات سنة ثلاث وأربعين للهجرة .

ثم روى البخاري بسنده عن محمد بن قيس بن عباد قال : « كنت جالساً في مسجد المدينة ، فدخل رجل على وجهه أثر الخشوع ، فقالوا : هذا رجل من أهل الجنة ، فصلّى ركعتين تجوّز فيهما ، ثم خرج ، وتبعته ، فقلت : إنك حين دخلت المسجد قالوا : هذا رجل من أهل الجنة ، قال : والله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم . وسأحدثك لم ذاك ؟ رأيت رؤيا على عهد النبي ﷺ ، فقصصتها عليه ، ورأيت كأني في روضة - ذكر من سعتها وخضرتها - وشطها عمود من حديد ، أسفله في الأرض وأعلاه في السماء ، في أعلاه عروة ، فقبل لي : ارقه ، فقلت : لا أستطيع ، فأتاني مُنْصَفٌ - وهو الخادم - فرفع ثيابي من خلفي ، فرقيت حتى كنت في أعلاها ، فأخذت في العروة « فقبل : استمسك ، فاستيقظت وإنها لفي يدي ، فقصصتها على النبي ﷺ فقال : تلك الروضة الإسلام ، وذلك العمود عمود الإسلام ، وتلك العروة العروة الوثقى ، فأنت على الإسلام حتى تموت » وذلك الرجل عبدالله بن سلام ، قال البخاري : وقال لي خليفة : حدثنا معاذ قال . حدثنا ابن عون عن محمد قال : حدثنا قيس بن عباد عن ابن سلام قال : « وصيف بدل مُنْصَفٌ » .

وتجدر الإشارة إلى أن قول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في الحديث الأول . « ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض : إنه من أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام » قد استشكل بأنه ﷺ قد قال لجماعة : إنهم من أهل الجنة غير عبدالله بن سلام . ويبعد أن لا يطلع سعد على ذلك . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : وأجيب بأنه - يعني سعداً - كره تزكية نفسه ، لأنه أحد العشرة المبشرة بذلك . وتُعَقَّبُ بأنه لا يستلزم ذلك ، أن ينفي مثل ذلك في حق غيره .

واستظهر الحافظ في الجواب : أن سعداً رضي الله عنه قال ذلك بعد موت المبشرين ، لأن عبدالله بن سلام عاش بعدهم ، ولم يتأخر معه من العشرة ، غير سعيد ؛ وسعيد هو : سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي . ويؤخذ هذا من قوله : « يمشي على الأرض » ووقع في رواية مسلم عن سعد أيضاً : « ما سمعت

رسول الله ﷺ يقول في حي : إنه في الجنة إلا لعبد الله بن سلام . كما وقع في رواية
إسحاق بن الطباع عن مالك عند الدارقطني « ما سمعت النبي ﷺ يقول لحي
يمشي : إنه من أهل الجنة ... » الحديث ..

وقد أخرج ابن حبان من طريق مصعب بن سعد عن أبيه ، سبب هذا
الحديث بلفظ : سمعت النبي ﷺ يقول : « يدخل عليكم رجل من أهل الجنة ،
فدخل عبد الله بن سلام » وهذا يؤيد صحة رواية الجماعة ، ويضعف رواية سعيد
ابن داود عند الدارقطني التي جاء فيها ذكر سلمان الفارسي رضي الله عنه .

وهنيئاً للكرام أصحاب البشريات الكريمة ، ورضي الله عن عبد الله بن
سلام ، الذي دخل التاريخ ، مثلاً لمن عرف الحق فاتبعه ، ولم يحل دون إيمانه
حائل من تلك الرواسب التي حالت دون الآخرين ، ودون أن يؤمنوا بمحمد ﷺ
مع أنهم يعرفونه - مما جاء في التوراة والإنجيل - كما يعرفون أبناءهم ، وكان على
الوفاء بما عاهد الله عليه ، والصدق في طاعة النبي ﷺ ، وعلاقته بالإسلام وإخوانه
المسلمين .

والله المسؤول أن يرزقنا العبرة ، وينفعنا بتلك البشريات العظيمة بالجنة ، تلك
البشريات التي كانت لها أسبابها من الإنابة إلى الله ، ومحبة رسول الله عليه الصلاة
والسلام .

عبد الله بن سلام.. والرؤيا المبشرة

ما نزال - ونحن نذكر مشاهد القيامة وأهوالها وفضل الله على عباده المؤمنين الصادقين الذين لا يخزيهم الفزع الأكبر - ما نزال مع الرحلة المباركة ، التي تطوف بنا في رحاب طائفة من نصوص السنة المطهرة ، التي تحمل بشرى النبي ﷺ بالجنة لأناس بأعيانهم ، حيث صرح صلوات الله وسلامه عليه بأسمائهم .

ولعل من المفيد حقاً ، أن أعيد إلى الأذهان ، ما جاء في حديث البخاري الذي تقدم من قريب ، من أن عبدالله بن سلام رضي الله عنه الذي شهد رسول الله ﷺ بأنه من أهل الجنة قال - أعلى الله مقامه - حين نقل إليه قيس بن عباد كلام من قالوا : هذا رجل من أهل الجنة - « والله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم » ؛ فقد فُسر هذا الكلام بأنه إنكار من عبدالله بن سلام « على من قطع له بالجنة ، فكأنه - رضي الله عنه - ما سمع حديث سعد بن أبي وقاص ، الذي نصّ على البشارة ، وكأنهم ما سمعوه ، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : ويحتمل أن يكون هو أيضاً سمعه ، لكنه كره الثناء عليه تواضعاً .

ويحتمل أن يكون إنكاراً منه على من سأله ذلك ، لكونه فهم منه التعجب من خبرهم ، فأخبره بأن ذلك لا عجب فيه ، بما ذكر له من قصة المنام ، وأشار بذلك القول إلى أنه لا ينبغي إنكار ما لا علم له به ، إذا كان الذي أخبره به من أهل الصدق .

وفي شأن العروة التي استمسك بها عبدالله ، وقال بعد أن قصّ الرؤيا: « فاستيقظت وإنها لفي يدي » قال العلماء : أي أن الاستيقاظ كان حال الأخذ من غير فاصلة ، ولم يُرد أنها بقيت في يده في حال يقظته ، ولو حمل على ظاهره ، لم يمتنع في قدرة الله ، لكن الذي يظهر خلاف ذلك ، قال الحافظ : ويحتمل أن يريد

أن أثرها بقي في يده بعد الاستيقاظ ، كأن يصبح فيرى يده مقبوضة .

وما من ريب في أن استمساكه بالعروة الوثقى بعد إكرامه بروضة الإسلام ، وعمود الإسلام ، وقول النبي ﷺ : « فأنت على الإسلام حتى تموت » ... ما من ريب في أن ذلك عنوان خيرية كانت بريده إلى دار الخلد ، التي حمل إليه الصادق المصدوق ﷺ البشارة بها ، وسبحان المتفضل بعطائه على من شاء بما شاء ، ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ .

وحري بنا - في تساوق مع أهمية هذه القضية - إيراد ما جاء عند مسلم من البشرى المباركة والمبشّر بها رضي الله عنه ، ففي ذلك ما يزيد الأمر وضوحاً ، ويعين على تجلية ما يكون قد أجمل في رواية البخاري . قال الإمام مسلم : حدثنا محمد بن المثنى العنزي قال : حدثنا معاذ بن معاذ قال : حدثنا عبد الله بن عون عن محمد ابن سيرين عن قيس بن عباد قال : « كنت في المدينة - في ناس فيهم بعض أصحاب النبي ﷺ - فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع ، فقال القوم : هذا رجل من أهل الجنة ، هذا رجل من أهل الجنة ، فصلى ركعتين يتجوّز فيهما ، ثم خرج فاتبعته ، فدخل منزله » ودخلت ، فتحدثنا ، فلما استأنس قلت له : إنك لما دخلت قبل قال رجل كذا كذا ، قال سبحان الله ! ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم ، وسأحدثك لم ذاك ؟ رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ فقصصتها عليه ، رأيتني في روضة - ذكر سعتها وعُشْبُها وخُضْرَتُها - وَوَسَطَ الروضة عمود من حديد ، أسفله في الأرض وأعلاه في السماء ، في أعلاه عروة ، فقيل لي : ارقه ، فقلت له : لا أستطيع . فجاءني مَنْصَفٌ (قال ابن عون : والمنصف الخادم) فقال بشيبي من خلفي - وصف أنه رفعه من خلفه بيده - فرقيت حتى كنت في أعلى العمود ، فأخذت بالعروة ، فقيل لي : استمسك .

فلقد استيقظت وإنها لفي يدي ، فقصصتها على النبي ﷺ : فقال : تلك الروضة الإسلام ، وذلك العمود عمود الإسلام ، وتلك العروة عروة الوثقى ، وأنت

على الإسلام حتى تموت » قال : والرجل عبدالله بن سلام .

وقد رأينا من قبل تفصيل القول عند الحافظ ابن حجر ، في كلمة عبدالله « ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم » والذي اتجه إليه الإمام النووي رحمه الله : أن قوله هذا : إنكار منه رضي الله عنه ، حيث قطعوا له بالجنة ، فيحمل على أن هؤلاء بلغهم خبر سعد بن أبي وقاص ، بأن ابن سلام من أهل الجنة ، ولم يسمع هو ، ويحتمل أنه كره الثناء عليه بذلك ؛ تواضعاً وكراهة للشهرة .

وفي رواية أخرى لمسلم عن خُرْشَةَ بْنِ الْحُرِّ قَالَ : كنت جالساً في حلقة في مسجد المدينة ، قال : وفيها شيخ حسن الهيئة - وهو عبدالله بن سلام - قال فجعل يحدثهم حديثاً حسناً ، قال : فلما قام قال القوم : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا ، قال : فقلت : والله لأتبعنَّه فلا أعلمنَّ مكان بيته ، قال : فتبعته ، فانطلق حتى كاد أن يخرج من المدينة ، ثم دخل منزله ، قال : فاستأذنت عليه فأذن لي ، قال : ما حاجتك يا ابن أخي ؟ قال : فقلت له : سمعت القوم يقولون لك لما قمت : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا ، فأعجبني أن أكون معك ، قال : الله أعلم بأهل الجنة ، وسأحدثك ممَّ قالوا ذاك . إني بينما أنا نائم إذ أتاني رجل فقال لي : قم ، فأخذ بيدي فانطلقت معه . قال : فإذا أنا بجوادٍّ عن شمالي ، قال : فأخذت لأخذَ فيها ، فقال لي : لا تأخذ فيها فإنها طُرق أصحاب الشمال ، قال : فإذا جوادٌ منهجٌّ على يميني ، فقال لي : خذ ههنا فأتى بي جبلاً فقال لي : اصعد قال : فجعلت إذا أردت أن أصعد ، خررت على أستي قال : حتى فعلت ذلك مراراً . قال : ثم انطلق بي حتى أتى بي عموداً رأسه في السماء وأسفله في الأرض ، في أعلاه حلقة ، فقال لي : اصعد فوق هذا ، قال : قلت : كيف أصعد هذا ورأسه في السماء ؟ قال : فأخذ بيدي فزجل بي - أي رمى بي - قال : فإذا أنا متعلق بالحلقة ، قال : ثم ضرب العمود فخرّ ، قال : وبقيت معلقاً بالحلقة حتى أصبحت .

قال : فأتيت النبي ﷺ فقصصتها عليه فقال : « أما الطرق التي رأيت عن يسارك: فهي طرق أصحاب الشمال ، قال : وأما الطرق التي رأيت عن يمينك: فهي طرق أصحاب اليمين ، وأما الجبل : فهو منزل الشهداء ، ولن تناله . وأما العمود فهو عمود الإسلام ، وأما العروة : فهي عروة الإسلام ، ولن تزال متمسكاً بها حتى تموت » .

جوادٌ منهج على يميني : طرق واضحة بينة مستقيمة ، والنهج الطريق المستقيم وطريق منهج ومنهاج ونهج أي بين واضح . فزجل بي : رمى بي .

اللهم ألحقنا بعبادك الصالحين ، وارزقنا الانتفاع بهذه الأخبار الصادقة وأمثالها ، وحسن النظر فيما كان عليه من أكرموا بالبشريات ، من وقوف عند حدود ما شرع ، ومسارة إلى ما فيه مرضاة الله تعالى ، والتخلق بأخلاق النبيين المحسنين . لك الحمد ياربنا في الأولى والآخرة . أنت وليُّنا فنعم المولى ونعم النصير .

من أدب المبشرين بالجنة

﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ هذه حقيقة قرآنية لا ريب فيها ، تحمل إلى أهل الإيمان المختبين إلى ربهم « بشرى عظيمة أكرم بها من بشرى ، وقد أشرقت بها كلمات مباركات قطعية في ثبوتها ، قطعية في دلالتها . ولكم تحفز البشرى إلى العمل ، وتجعل عباد الرحمن في شوق إلى جنة الخلد دار النعيم المقيم ؛ فهي مثواهم الكريم في دار القرار ، وهي فضل من فضله ، وعطاء من عطائه سبحانه .

ومنذا الذي يشرح الله صدره للإسلام ، ويتعرض للنفحات الربانية ، فيذوق حلوة الإيمان ، ثم لا يشتاق إلى دار المقامة ، حيث النعيم المقيم ، والفضل الذي لا يُحَدُّ والعطاء الذي لا ينفد ؟. أقول هذا : والحديث موصول إن شاء الله - بالرحلة المباركة التي وقفنا على نصوص تفيض بها بشر به النبي ﷺ من بشر من المسلمين ، بأنه من أهل الجنة .

وها نحن أولاء مع البشرى الكريمة لخديجة أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها . وخديجة هي أول من تزوجها ﷺ وكان عليه الصلاة والسلام قبل أن يتزوج بها ، قد سافر في مالها مقارضاً إلى الشام ، فرأى منه ميسرة غلامها ما رغبها في الاقتران به صلوات الله وسلامه عليه . وكانت رضي الله عنها وأجزل مشوبتها تدعى في الجاهلية - كما يقول الزبير بن بكار - « الطاهرة » وماتت - على الصحيح - بعد المبعث بعشر سنين ، أي قبل الهجرة بثلاث سنين ، وقد أورد الحافظ ابن حجر في فتح الباري ما روى الفاكهي في « كتاب مكة » عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان عند أبي طالب ، فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة فأذن له ، وبعث بعده جارية يقال لها : نبعة ، فقال لها : انظري ما تقول له خديجة ؟ قالت نبعة :

فرايت عجباً» ما هو إلا أن سمعت به خديجة ، فخرجت إلى الباب - وذكرت ما كان من شديد اهتمامها - وأنها قالت بعد ذلك : بأبي وأمي والله ما أفعل هذا الشيء ولكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي ستبعث ، فإن تك هو : فاعرف حقي ومنزلتي وادع الإله الذي يبعثك لي . قالت : فقال لها : «والله لئن كنت أنا هو ، قد اصطنعت عندي ما لا أضيعه أبداً ، وإن يكن غيري ، فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً» .

وتأتي الإشارة - فيما بعد - إلى شيء من فضائلها ، فهي أفضل نسائه ﷺ على الراجح عند المحققين . وليس عجباً من العجب ، أن يكرمها الله بالجنة التي هي خير مستقراً وأحسن مقيلاً ، وقد بشرها زوجها سيد العالمين بذلك ، بأمر الله سبحانه وتعالى ، قال الإمام البخاري في كتاب الفضائل من الجامع الصحيح «باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها» قال رحمه الله: حدثنا سعيد بن عفير قال : حدثنا الليث قال : كتب إلي هشام بن عروة قال عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة - هلكت قبل أن يتزوجني - لما كنت أسمعه يذكرها ، وأمره الله أن يبشرها بيت من قصب . وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها من ما يسعهن» والبيت المبشر به هنا هو بيت في الجنة كما أوضحت ذلك الروايات الأخرى . ففي رواية أخرى للبخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة من كثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها . قالت: وتزوجني بعدها بثلاث سنين ، وأمره ربه عز وجل - أو جبريل عليه السلام - أن يبشرها بيت في الجنة من قصب» .

وتحسن الإشارة إلى أن عبارة : «وأمره ربه أو جبريل عليه السلام» شك من الراوي . وقد جاء في حديث أبي هريرة عند البخاري في هذا الباب «باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها» ما يدل على أن البشارة بذلك من الله كانت على لسان جبريل عليه السلام ، قال رضي الله عنه : «أتى جبريل النبي

ﷺ فقال : يارسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام ، أو طعام ، أو شراب ؛ فإذا هي أتتك ، فاقرأ عليها السلام من ربها ومني ، وبشرها بييت في الجنة ، من قصب لا صخب فيه ولا نصب .»

والملاحظ هنا ، أنه مع تقرير أن البشارة من الله ، وأن الذي حملها جبريل عليه السلام ، قد جاء وصف جديد للبيت ، وهو أنه لا صخب فيه ولا نصب ، وهو ما تضع أيدينا عليه رواية أخرى عند البخاري أيضاً ؛ ذلكم قوله رحمه الله : حدثنا مسدد قال : حدثنا يحيى عن إسماعيل قال : قلت لعبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنهما : «بشر النبي ﷺ خديجة ؟ قال نعم ، بييت من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب» . وقوله : « بشر النبي ﷺ خديجة ؟ » هو استفهام محذوف الأداة فكأنه قال هل بشر النبي ﷺ ؟؟ وقد جاء الاستفهام مصرحاً به عند مسلم رحمه الله ؛ فقد أخرج بسنده عن عبدالله بن نمير ومحمد بن بشر العبدي عن إسماعيل قال : «قلت لعبدالله بن أبي أوفى أكان رسول الله ﷺ بشر خديجة بييت في الجنة ؟ قال : نعم ، بشرها بييت في الجنة لا صخب فيه ولا نصب » وهو كذلك عند أحمد .

وقد جاءت الرواية عند الترمذي بلفظ «ما حسدت أحداً ما حسدت خديجة» بدلاً من «ما غرت على أحد من أزواج النبي ﷺ ما غرت على خديجة» .

ولا بد من التنبيه على أن المقصود من الحسد في كلام عائشة رضي الله عنها : حسد الغبطة ، لا الحسد الذي ينبيء عن سوء طوية صاحبه والعياذ بالله ؛ ففي باب فضل خديجة رضي الله عنها من كتاب المناقب في السنن - الجامع الصحيح - روى الترمذي بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : « ما حسدت أحداً ما حسدت خديجة . وما تزوجني رسول الله ﷺ إلا بعد ما ماتت ، وذلك أن رسول الله ﷺ بشرها بييت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » قال الترمذي : هذا حديث حسن .

من قصب . قال : إنما يعني به قصب اللؤلؤ . والحديث عن أمر الله تعالى

نبيه ﷺ أن يبشر خديجة رضي الله عنها تلك البشرى العظيمة المباركة جاء في رواية ابن ماجة أيضا ، فقد جاء في تلك الرواية عن عائشة رضي الله عنها . «ولقد أمره ربه أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب - يعني من ذهب - قاله ابن ماجة . وجاء في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات .

رضي الله عن خديجة ، وعن جميع أمهات المؤمنين ، وهنيئاً لها ما بشرت به من هذا القصر العظيم في جنة الخلد التي قال الله بشأنها : ﴿ إِنِ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صَدَقٍ عِنْدَ مُلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ .

وما أعظمه مشهداً يوم الدين .. مشهد ما أكرمها به رب العالمين .

بيت خديجة في الجنة

حين يذكر المؤمن الدار الآخرة ، وما يزخر به يوم القيامة من الأهوال والشدائد ، يوم يعرض الظالم على يديه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً ... يذكر كذلك ما يؤول إليه أمر المؤمنين الذين استقاموا على الطريقة ، وكانوا على المحجة البيضاء ، من دخول الجنة التي أعدها الله لعباده الصادقين .

وما حصل من البشائر بهذا الفضل الكبير « على لسان المصطفى عليه السلام لأناس بأعيانهم - وهو من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام - مع إيضاح السبيل الموصلة إلى تلك النعمة العظمى ، هو نور على نور ، وخير على خير .

ومما يفرح القلب ، ويدل على عظيم حكمة الله تعالى ، وفضله الذي لا يحد ، ما آذن به الهادي المحمدي على لسان الرسول الكريم ، أن خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها التي أشهدا ﷺ - وهي المرأة الحصيصة العاقلة الصادقة - نبأ الحدث العظيم في تاريخ الإنسانية ، يوم فجأه الوحي ، كانت في مقدمة من أكرمهم الله بهذه البشرى « بل جاء التصريح في بعض الأحاديث ، أن الله تبارك وتعالى أمر نبيه ﷺ أن يبشرها بذلك . وقد أوردت بعضاً من تلك الروايات مما جاء عند البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه . وقد جاء النص على أن البشارة كانت بيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب ، كالذي رأينا عن إسماعيل بن أبي خالد قال : « قلت لعبدالله بن أبي أوفى : أكان رسول الله ﷺ بشر خديجة بيت في الجنة ؟ قال : « نعم بشرها بيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » متفق عليه واللفظ لمسلم . وفي رواية « وأمره ربه عز وجل أن بشرها بيت في الجنة من قصب » وروى الإمام أحمد في المسند عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عروة عن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت

أن أبشر خديجة ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب » . وفي هذا إعلان من النبي ﷺ أنه أمر بأن يزف إليها هذه المكرمة من رب العالمين .

والقصب بفتح القاف والصاد : اتجه العلماء إلى تفسيره باللؤلؤ . وقد طلعت علينا بعض الروايات بما يؤيد هذا التفسير ؛ فقد جاء عند الترمذي قوله بعد رواية الحديث : من قصب : قال : يعني قصب اللؤلؤ . ونقل الحافظ ابن حجر عن ابن التين قوله : المراد به لؤلؤة مجوفة كالقصر المنيف . قال الحافظ : قلت : عند الطبراني في « الأوسط » من طريق أخرى عن ابن أبي أوفى « يعني قصب اللؤلؤ » وعنده في « الكبير » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه « بيت من لؤلؤة مجوفة » وأصله في مسلم . وعنده في « الأوسط » من حديث فاطمة رضي الله عنها قالت : « قلت : يا رسول الله أين أمي خديجة ؟ قال : في بيت من قصب . قلت : أمن هذا القصب ؟ قال : لا ، من القصب المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت » .

ولم يدع بعض العلماء أن يكشف عن الحكمة في اختيار كلمة القصب ، وأن ذلك مرتبط بما فازت به خديجة — بين النساء — من السبق بالمبادرة إلى الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام — ونُذِرُ الفتنة والأذى تحيط به وبمن يمكن أن يؤمن به من كل جانب — قال السهيلي رحمه الله : النكتة في قوله : « من قصب » ولم يقل « من لؤلؤ » أن في لفظ القصب ، مناسبة لكونها أحرزت قصب السبق بمبادرتها إلى الإيمان دون غيرها ، ولذا وقعت هذه المناسبة في جميع ألفاظ هذا الحديث .

ويضيف صاحب الفتح إلى ذلك : أن في القصب مناسبة أخرى ، من جهة استواء أكثر أنبيائه ، وكذا كان لخديجة من الاستواء ، مالميس لغيرها ، إذ كانت رضي الله عنها ، حريصة على رضاه صلوات الله وسلامه عليه بكل ممكن ، ولم يصدر منها ما يغضبه قط كما وقع لغيرها .

وجميل ما ذهب إليه أبو بكر الإسكافي في كتابه « موائد الأخبار » من أن المراد بالبيت الذي نصت عليه الروايات بلفظ « بيت في الجنة » بيت زائد على ما أعدّ

الله لها من ثواب عملها ، ولهذا قال : « ولا نصب » أي لم تتعب بسببه . قال السهيلي : لذكر البيت معنى لطيف ، لأنها كانت ربة بيت قبل المبعث ، ثم صارت ربة بيت في الإسلام منفردةً به ، فلم يكن على وجه الأرض في أول بعث النبي ﷺ بيت إسلام إلا بيتها ، وهي فضيلة ما شاركها فيها أيضاً غيرها ، قال : وجزاء الفعل يذكر غالباً بلفظه ، وإن كان أشرف منه ، فلهذا جاء في الحديث بلفظ « البيت » دون لفظ « القصر » .

ويرى الحافظ رحمه الله ، أن لذكر البيت معنى آخر ، لأن مرجع أهل بيت النبي ﷺ إليها ، لما ثبت في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ قالت أم سلمة رضي الله عنها : لما نزلت دعا النبي ﷺ فاطمة وعلياً والحسن والحسين فجعلهم بكساء فقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي .. » الحديث ، أخرجه الترمذي وغيره . ومرجع أهل البيت هؤلاء إلى خديجة ؛ لأن الحسنين من فاطمة ، وفاطمة بنتها ، وعلي نشأ في بيت خديجة ، وهو صغير ، ثم تزوج بنتها بعدها ، فظهر رجوع أهل البيت النبوي إلى خديجة رضي الله عنها دون غيرها .

هذا وقد دلت الروايات ، على أن البيت المبشّر به لا صخب فيه ولا نصب ، والصخب : الصياح والمنازعة برفع الصوت . أما النصب : فهو التعب ، والسهيلي رحمه الله - على طريقته في تلمس الحكم والمناسبات - ذهب إلى أن مناسبة نفي هاتين الصفتين - أعني المنازعة والتعب - عن ذلك البيت العظيم الذي بشرت به أم المؤمنين السيدة خديجة ؛ أنه ﷺ لما دعا إلى الإسلام ، أجابت خديجة طوعاً ، فلم تحوجه إلى رفع صوت ولا تعب في ذلك ، بل أزالته عنه كل نصب ، وآنتسته من كل وحشة ، وهوّت عليه كل عسير ، فناسب أن يكون منزلها الذي بشرها به ربها ، بالصفة المقابلة لفعلها . وقد جاء في المسند عند أحمد على لسان بعض الرواة قوله : وقال مرة - يعني ابن أبي أوفى - : « لا صخب أو لا لغو فيه ولا نصب » .

ولقد يكون من الخير ، أن نشير إلى ما جاء في بعض روايات الحديث التي سبقت، من اقتران البشارة الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها ، بطلب جبريل عليه السلام من النبي ﷺ أن يقرأ على خديجة السلام من ربها عز وجل ومنه هو ؛ كالذي جاء عند البخاري ومسلم « ... فاقراً عليها السلام من ربها ومني وبشرها ... » الحديث. وهو ما نجده في المسند عند الإمام أحمد إذ روى بسنده عن أبي زرعة قال : سمعت أبا هريرة يقول : « أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتتك بإناء معها فيه إدام ، أو طعام، أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » . زاد الطبراني في الرواية المذكورة « فقالت : هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام » .

وللنسائي من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال جبريل للنبي ﷺ : إن الله يقرئ خديجة السلام - يعني فأخبرها - فقالت : إن الله هو السلام وعلى جبريل السلام وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته » .

وموعدنا إن شاء الله صفحات قادمات تزيدنا - من خلال كلام المحققين - إدراكاً لدلالة الحديث ومراميهِ . وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحابه ورضي الله عن خديجة وعن أمهات المؤمنين أجمعين .

عائشة وفخائل خديجة

هذه كلمات يتصل نسبها بشيء مما جاء في بعض نصوص الحديث النبوي من أمر الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام ، أن يبشر زوجته النابهة الصادقة ذات السبق في الإسلام ، ببيت في الجنة لا صخب فيه ولا نصب ، ومن إبلاغ جبريل عليه السلام إياه ، أن يقرئها السلام من ربها عز وجل ومنه .

وهذه النصوص الفوّاحة بالشذى ، المشرقة بضياء الإحسان : ليس بدعاً أن تأخذ بالمؤمن - وقد خالطت معانيها عقله وقلبه - إلى حيث الإحساس العميق بمزيد فضل الله تعالى على عباده المؤمنين ، الذين رزقوا الوقفة الصادقة مع الحق ؛ وإذا ذكر الصدق وأهله في المؤمنين والمؤمنات ، فحيّهنّ بالسيدة خديجة رضي الله عنها ، التي بلغ من فضلها - أعلى الله مقامها في عليين - أن أمر البشير النذير صلوات الله وسلامه عليه ، بأن يبشرها بما يكون لها في دار الكرامة من العطاء ، وبأن يقرئها السلام من الله عز وجل ، ومن الروح الأمين جبريل عليه السلام .

وما من ريب ، في أن مظاهر الفضل على هذه الساحة في دار الجزاء ، وتوفية العباد دينهم الحق ، تأتي بمشابة الظل الظليل في صحراء الهول الهائل الذي يضرب بكلّ كلة على العباد ، عند الحشر في عرصات القيامة ، يوم لا ملجأ ولا منجى من الله ذي السلطان والجبروت ، إلا إليه سبحانه .

والحق أن الأمر بإقراء السلام من الله عز وجل ومن جبريل عليه السلام ، محطة عظيمة البركة والإشراق ، تستوقف المؤمن على طريق المناقب التي رزقتها خديجة أم المؤمنين عليها الرحمة والرضوان . ولقد كان فيما سلف من الأحاديث المتعلقة بالسلام عليها ، ما روى النسائي من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال جبريل للنبي ﷺ : « إن الله يقرئ خديجة السلام » - يعني فأخبرها -

فقلت: « إن الله هو السلام ، وعلى جبريل السلام ، وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته زاد ابن السني من وجه آخر : « وعلى من سمع السلام إلا الشيطان » .

وقد أورد الحافظ ابن حجر - أجزل الله مثوبته - ما قرر العلماء من أن في القصة دليلاً على وفور فقهها ؛ لأنها لم تقل : « وعليه السلام » كما وقع لبعض الصحابة حيث كانوا يقولون في التشهد : السلام على الله ؛ فنهاهم النبي ﷺ وقال : « إن الله هو السلام فقولوا : التحيات لله » فعرفت خديجة لصحة فهمها أن الله لا يردُّ عليه السلام كما يرد على المخلوقين ؛ لأن السلام اسم من أسماء الله . وهو أيضاً دعاء بالسلامة ، وكلاهما لا يصلح أن يردَّ به على الله ، فكأنها قالت : كيف أقول : عليه السلام والسلام اسمه ، ومنه يطلب ، ومنه يحصل . فيستفاد منه أنه لا يليق بالله إلا الثناء عليه ، فجعلت مكان السلام ، رد الثناء عليه ، ثم غايرت بين ما يليق بالله ، وما يليق بغيره ، فقلت : وعلى جبريل السلام ، ثم قالت : وعليك السلام . قالوا : ويستفاد منه رد السلام على من أرسل السلام وعلى من بلغه .

والذي يظهر أن جبريل عليه السلام ، كان حاضراً عند جوابها ، فردت عليه وعلى النبي ﷺ ، مرة بالتخصيص ومرة بالتعميم ، ثم أخرجت الشيطان عن سمع ، لأنه لا يستحق الدعاء بذلك .

ولكن ما الحكمة في تبليغها السلام على هذه الصورة ؟ قيل : إنها بلغها جبريل عليه السلام السلام من ربه بواسطة النبي ﷺ احتراماً للنبي ﷺ ، وكذلك وقع لما سلم على عائشة ؛ لم يواجهها بالسلام بل أرسله مع النبي ﷺ ، ذلكم ما روى البخاري ومسلم - واللفظ للبخاري - أن أباسلمة قال : إن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ يوماً : « يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام » قالت : فقلت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته « ترى ما لا أرى ، تريد رسول الله ﷺ . وعند مسلم من حديث أبي سلمة أيضاً أن عائشة حدثته « أن النبي ﷺ قال لها : إن

جبريل يقرأ عليك السلام . قالت : فقلت : وعليه السلام ورحمة الله .

هذا : واستنباط الحكمة المشار إليها ، حدا بالعلماء إلى تعليل مواجهة مريم بالخطاب في قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً . وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ .. الآيات .
ف قيل : لأنها نبيه وقيل : لأنها لم يكن معها زوج يحرم معه مخاطبتها .

ثم إن أهمية الموضوع على ساحة التكريم لخديجة رضي الله عنها، مع النصوص الواردة في شأن فاطمة وعائشة رضي الله عنهما ، جعلت بعض العلماء أيضاً يميلون النظر ملياً بما ورد . هذا الإمام أبو القاسم السهيلي ينقل في «الروض الأنف» عند شرحه الحديث إقراء السلام خديجة الذي أورده ابن إسحاق في السيرة : عن أبي بكر بن داود أنه سئل أعائشة أفضل أم خديجة ؟ فقال: عائشة أقرأها رسول الله ﷺ السلام من جبريل ، وخديجة أقرأها جبريل السلام من ربها على لسان محمد ﷺ.

ومن صريح ما جاء في تفضيل خديجة رضي الله عنها ، ما أخرجه أبو داود والنسائي وصححه الحاكم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما « أن رسول الله ﷺ قال : أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد » ونقل الحافظ عن السبكي الكبير قوله : (لعائشة رضي الله عنها من الفضائل ما لا يحصى ، ولكن الذي نختاره وندين الله به أن فاطمة أفضل ثم خديجة ثم عائشة) وغني عن البيان : أنه ليس في الأفضلية المقررة للإنسان من عباد الله ، غص من قدر من فضّلهم . ورضي الله عن فاطمة وخديجة وعائشة ، وسائر أمهات المؤمنين ، وجزى الله الجميع عن الإسلام والمسلمين كل خير .

ولا شك في أن مما أكرم الله به خديجة رضي الله عنها ، وكان باباً مباركاً من أبواب فضائلها ومناقبها ، ذلك السبق إلى الإسلام ، ومؤازرة رسول الله ﷺ في وقت الشدة والاختبار العظيم ، حيث الخطوة الأولى في الدعوة إلى كلمة التوحيد

في ظل جاهلية جهلاء ، اضطربت فيها الموازين والقياس ، والدنيا كلها ترزح تحت سلطان الشرك والوثنية الظاهرة أو المبطنة ، والتفاخرُ بالآباء والأجداد مرفوعُ الراية على سنن التقليد الأعمى وإهمال العقل ، وكل ما يمت إلى ذلك من سلوك تولده تلك الظلمات .

وقبل أن أعيد إلى الأذهان حديث بدء الوحي ، الذي أذن بصدق خديجة وعميق حصافتها وحسن تدبيرها ، والذي يكشف عن مواقفها التي كان لها جميل الأثر في سير الدعوة ، أود التذكير بحقيقة بالغة الأهمية في أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ إذ كان - كما سلف من قبل - غايةً في الوفاء لزوجته خديجة رضي الله عنها ، حتى بعد موتها ، وقد بلغ من صدق عائشة مع نفسها ومع دينها ، أن تصرح بأنها كانت تغار عليها بعد موتها ، ولا تدع أن تذكر ما تعلم من فضائلها التي عرفتها منه عليه الصلاة والسلام . ونعمت هذه الغيرة التي تحكمها تقوى الله وأخلاق الإسلام .

وغير خاف أنه صلى الله وسلم وبارك عليه ، قد كان يثني عليها بعد وفاتها ما لم يثن على غيرها ؛ يطالعنا في ذلك حديث عائشة رضي الله عنها الذي أورده الحافظ ابن عبد البر في كتابه « الاستيعاب » قالت أم المؤمنين : « كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة » فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام ، فأخذتني الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها؟ فغضب ثم قال : والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بها إذ حرمني الناس ، ورزقني منها الولد دون غيرها من النساء . قالت عائشة : فقلت في نفسي : لا أذكرها بسيئة أبداً .

وجاءت الرواية عند أحمد بلفظ « ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء » . وروى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : « ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة ، وما رأيتها ، ولكن كان النبي ﷺ

يكثّر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ، ثم يقطعها ، ثم يبعثها في صدائق خديجة . فربما قلت له : كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة !! فيقول : كانت ، وكانت ، وكان لي منها ولد « أي كانت فاضلة ، وكانت عاقلة ، وكانت حسنة التبصر في الأمور ، ونحو ذلك . وأخرجه الترمذي بنحوه . فكثرة ذكره ﷺ إياها - وهو الصادق المصدوق - عنوان ثناء وتعداد فضائل ، جاءت في المرحلة الشاقة ، مرحلة البدء على طريق مواجهة الجاهلية والجاهليين بالدعوة .

رضي الله عن خديجة وعن أمهات المؤمنين جميعاً . وأكرم بيت ، القوام فيه وولي أمره إمام الأنبياء . وربّته المؤتمنة عليه خديجة بنت خويلد أم المؤمنين ، التي كانت رمزاً عظيماً من رموز الإيمان والإخلاص وحسن التبصر ، وعنواناً بالغ الإشراف ، على أن المرأة التي تجمع إلى الإيمان بُعْدَ النظر ، والارتفاع إلى مستوى المسؤولية ، تستطيع - بعون الله - أن تفعل الكثير الكثير ، على طريق الدعوة إلى الله ، وبناء حضارة الإسلام . والحمد لله الذي زين مواقف خديجة في تاريخ الإسلام ، ورفع قدرها في الدنيا ويوم الدين ، يوم يشهد الخلائق مشهد إكرامها منه سبحانه وتعالى ، وهو الرحيم الرحمن رب العالمين .

الفهرست

٥	بين يدي الكتاب
٩	الإيمان باليوم الآخر
١٣	لقاء الله حق اليقين
١٦	وأن الله يبعث من في القبور
٢١	أول منازل الآخرة
٢٥	الميت .. وعرض مقعده بالغداة والعشي
٢٩	استعيذوا بالله من عذاب القبر
٣٣	سؤال الملكين
٣٧	تعوذوا من فتنة القبر
٤١	.. وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات
٤٥	التعوذ من عذاب القبر .. في الهدى النبوي
٥٣	الرسول الكريم .. والنفخ في الصور
٥٧	قالوا .. وهم في سياق الموت
٦٣	التربية الإيمانية .. وسياقة الموت
٦٧	يسألون الجنة .. ويتعوذون من النار
٧١	نزول عيسى بين يدي الساعة وحكمه بشريعة الإسلام
٧٧	الارتباط الوثيق بين الدارين .. العمل والجزاء
٨١	مكتوب بين عينيه كافر
٨٥	من أدرك الدجال .. فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف

- ٨٩ يقف للدجال .. أعظم شهادة عند رب العالمين
- ٩٣ غير الدجال .. أخوف لي عليكم
- ٩٧ بادروا بالأعمال الصالحة فتناً ..
- ١٠١ لتتقين الله أو ليعذبتك
- ١٠٥ يوم يجعل الولدان شيباً .. النفخ في الصور
- ١٠٩ النفخ في الصور .. والهدي النبوي
- ١١٣ المصير يوم المعاد في التوجيه النبوي
- ١١٧ الظلم ظلمات يوم القيامة .. وعاقبة السوء للمفلس
- ١٢١ ﴿وخشعت الأصوات للرحمن .. وقد خاب من حمل ظلماً﴾
- ١٢٥ ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾
- ١٢٩ ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ (١)
- ١٣٣ ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ (٢)
- ١٣٩ يحشرون على وجوههم إلى جهنم
- ١٤٣ لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً !!
- ١٤٧ كيف يستوي المؤمن والكافر في الحشر ؟
- ١٥١ شرُّ الندامة .. يوم القيامة
- ١٥٥ يوم لا ظلَّ إلا ظله
- ١٥٩ من سبل النجاة .. في الهدى النبوي
- ١٦٣ العقبي بين المكارة والشهوات
- ١٦٧ بين المكارة والشهوات .. الامتحان العسير
- ١٧١ الإِظلال يوم القيامة .. وطرائق البرِّ إليه
- ١٧٥ ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾

- ١٧٩ من نوقش الحساب هلك
- ١٨٣ تحللوا من مظالمكم قبل يوم الحساب
- ١٨٧ .. ثم طُرح في النار
- ١٩١ ماذا .. عن أول ما يحاسب به العبد
- ١٩٥ أكثروا ذكر هادم اللذات
- ١٩٩ الصحة والفراغ .. والمبادرة بالأعمال
- ٢٠٣ أثر العناية بالفرائض يوم الجزاء
- ٢٠٧ أهلية التكليف .. والمسؤولية يوم الحساب
- ٢١١ .. فالיום أنساك كما نسيتني
- ٢١٥ كفى بنفسك اليوم شهيداً عليكم
- ٢١٩ اتقوا النار ولو بشق تمرة
- ٢٢٣ على جسر جهنم .. اللهم سلّم سلّم
- ٢٢٧ الصراط جسر جهنم
- ٢٣١ ذكرت النار فبكيت
- ٢٣٥ فضل الله .. وآخر أهل الجنة دخولاً
- ٢٣٩ الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم
- ٢٤٣ ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾
- ٢٤٧ هؤلاء عتقاء الله
- ٢٥١ من نوقش الحساب هلك
- ٢٥٥ البطاقة المنجية
- ٢٥٩ فيمضى به إلى النار !!
- ٢٦٣ المسؤولية الفردية يوم الدين

- ٢٦٧ الظلم في الدنيا ظلمات في الآخرة
- ٢٧٣ الشفاعة العظمى
- ٢٧٧ ... واشفع تُشفَّع
- ٢٨١ القضاء المحمود .. وفصل القضاء
- ٢٨٥ المقام المحمود .. وثمرة الدعاء بالوسيلة
- ٢٨٩ الشفاعة .. والدعاء عند النداء
- ٢٩٣ الشفاعة .. ومسؤولية المسلم
- ٢٩٧ ما تقتضيه أخبار الشفاعة
- ٣٠١ اللهم أمتي أمتي !!
- ٣٠٥ شفاعته ﷺ وفضله
- ٣٠٩ الشفاعة .. والتوحيد الخالص
- ٣١٣ المبشرات .. وشحذ الهمم للطاعة
- ٣١٧ عموم الشفاعة .. وأسعد الناس بها
- ٣٢١ الحوض .. والكوثر
- ٣٢٥ فرط الأمة على الحوض ﷺ
- ٣٢٩ الورود على الحوض متى يكون ؟
- ٣٣٣ عمر بن عبدالعزيز .. وورود الحوض
- ٣٣٧ من كذب به .. لا سقاه الله منه
- ٣٤٢ المكذبون الظلم وأعاونهم .. لا ورود
- ٣٤٧ إخوانه ﷺ وأصحابه .. الورود والحافز العظيم
- ٣٥١ السيماء .. والبشارة والندارة
- ٣٥٥ إحداهما لأبي عامر .. والأخرى لأبي موسى

- ٣٥٩ الدعاء بالرفعة يوم القيامة .. والدرس العظيم
- ٣٦٣ المهاجرون والأنصار .. والبشريات والخوض
- ٣٦٧ فاصبروا حتى تلقوني على الخوض
- ٣٧١ إني فرط لكم وأنا شهيد عليكم
- ٣٧٧ سُحْقاً لِمَن غَيَّرَ بَعْدِي !!
- ٣٨١ المشهد المروّع يذودهم الرسول عن الخوض !!
- ٣٨٥ العمل العمل .. ومن ورد أفلح
- ٣٨٩ أخبار الغيب والبشارة والندارة
- ٣٩٥ الجنة والنار في وصاياهم
- ٣٩٩ الجنة حق والنار حق
- ٤٠٣ الجنة .. وبشرى الموحدين
- ٤٠٧ أحقية الجنة والنار .. الإيمان والأثر
- ٤١١ الكلمة الطيبة .. والفوز بالجنة
- ٤١٥ حول الكلمة الطيبة في العمل والسلوك
- ٤١٩ يقرب من الجنة .. ويباعد من النار
- ٤٢٣ رجل من أهل الجنة
- ٤٢٧ هذا رجل من أهل الجنة
- ٤٣١ عبدالله بن سلام .. والرؤيا المبشرة
- ٤٣٥ من أدب المبشرين بالجنة
- ٤٣٩ بيت خديجة في الجنة
- ٤٤٣ عائشة وفضائل خديجة
